

يوسف زيدان

عزازيل

رواية

دار الشروق

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٤٩٧٤

ISBN 978-977-2282-0

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

يوسف زيدان

عزازيل

رواية

دار الشروق

إهداء خاص جداً :

إلى آية ..

تلك يا ابنتى ، آيتى ، التى لم تُجعل للعالمين!

لِكُلِّ امرئٍ شَيطَانُهُ ، حَتَّى أَنَا ، غَيْرَ أَنَّ الله أَعَانَنى عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ ..

(حديثٌ شريف ، رواه الإمام البخارى بلفظٍ قريب)

مُقدمة المترجم

يضمُّ هذا الكتابُ الذى أَوْصيتُ أن يُنشر بعد وفاتى، ترجمةً أمينةً قَدْرَ المستطاع لمجموعة اللفائف (الرقوق) التى اكتُشفتْ قبل عشر سنوات بالخرائب الأثرية الحافلة، الواقعة إلى جهة الشمال الغربى من مدينة حلب السورية، وهى الخرائب الممتدة لثلاثة كيلومترات، على مقربةٍ من حوافِّ الطريق القديم الواصل بين مدينتىْ حلب وأنطاكية العتيقتين اللتين بدأتا تاريخهما قبل التاريخ المعروف. وهو الطريق المرصوف، الذى يُعتقد أنه المرحلة الأخيرة من طريق الحرير الشهير، الذى كان فى الأزمنة السحيقة يبدأ من أقاصى آسيا، وينتهى مُنهَكًا عند ساحل البحر المتوسط. وقد وصلتنا هذه الرقوق بما عليها من كتابات سُريانية قديمة (آرامية) فى حالةٍ جيدةٍ، نادرًا ما نجد مثيلاً لها، مع أنها كُتبت فى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى، وتحديدًا: قبل خمسٍ وخمسين وخمسمائة وألف، من سنين هذا الزمان.

وكان المأسوفُ عليه، الأبُ الجليلُ وليم كازارى الذى أشرف بنفسه على التنقيبات الأثرية هناك، وهناك لقى مصيره المفجع المفاجئ (منتصف شهر مايو سنة ١٩٩٧ الميلادية) يرجِّح أن السِّرَّ فى سلامة هذه اللفائف، هو جودة الجلود (الرقوق) التى كُتبت عليها الكلماتُ، بحبرٍ فاحم من أجود الأحبار التى استُعملت فى ذاك الزمان البعيد. علاوةً على حِفْظها

في ذلك الصندوق الخشبى، محكم الإغلاق، الذى أودع فيه الراهبُ المصريُّ الأصل هيبا مادوَّنه من سيرةٍ عجيبة وتأريخٍ غير مقصود لوقائع حياته القَلِقة، وتقلُّبات زمانه المضطرب.

وكان الأبُ كازارى يظن أن الصندوق الخشبى المحلَّى بالزخارف النحاسية الدقيقة، لم يُفتح قطُّ طيلة القرون الماضية. وهو ما يدلُّ على أنه، عفا الله عنه، لم يتفحَّص محتويات الصندوق بشكل جيد. أو لعله خشى أن يفرد اللفائف قبل معالجتها كيميائيًا، فتتقصَّف بين يديه. ومن ثَمَّ، فهو لم يلحظ الحواشى والتعليقات المكتوبة على أطراف الرقوق، باللغة العربية بقلمٍ نسخىٍّ دقيق، فى حدود القرن الخامس الهجرى تقديرًا. كتبها فيما يبدو لى، راهبٌ عربى من أتباع الكنيسة الرُّهـــا التى اتخذت النسطورية مذهبًا لها، ولا يزال أتباعها يُعرفون إلى اليوم بالنساطرة! ولم يشأ هذا الراهب المجهول أن يصرِّح باسمه. وقد أوردتُ فى هوامش ترجمتى، بعضًا من حواشيه وتعليقاته الخطيرة، ولم أورد بعضها الآخر لخطورته البالغة.. وكان آخر ما كتبه هذا الراهب المجهول، على ظهر الرَّقِّ الأخير: *سوف أُعيد دفن هذا الكنز، فإن أوان ظهوره لم يأت بَعْدُ!*

وقد أمضيتُ سبع سنين فى نقل هذا النصِّ من اللغة السريانية إلى العربية. غير أننى ندمتُ على قيامى بترجمة رواية الراهب هيبا هذه، وأشفقتُ من نشرها فى حياتى. خاصةً وقد حَطَّ بى عمرى فى أرض الوهن، وآل زمانى إلى خَطِّ الزوال.. والرواية فى جملتها تقع فى ثلاثين رَقًّا، مكتوبة على الوجهين بقلم سريانىٍّ سميك، بحسب التقليد القديم للكتابة السريانية الذى يسميه المتخصصون الخط الأسطرنجيلى؛ لأن الأناجيل القديمة كانت تُكتب به. وقد اجتهدتُ فى التعرُّف إلى أية معلومات عن المؤلِّف الأصلى، الراهب هيبا المصرى، إضافةً لما رواه هو عن نفسه فى روايته، فلم أجد له أىَّ خبرٍ فى المصادر التاريخية القديمة.

ومن ثم، فقد خَلَت المراجع الحديثة من أىِّ ذكرٍ له. فكأنه لم يوجد أصلاً، أو هو موجودٌ فقط فى هذه (السيرة) التى بين أيدينا. مع أننى تأكَّدتُ بعد بحوثٍ مطوَّلة من صحةِ كُلِّ الشخصيات الكنسية، ودِقَّة كل الوقائع التاريخية التى أوردها فى مخطوطته البديعة هذه، التى كتبها بخطِّه الأنيق المنمَّق من دون إسرافٍ فى زخرفة الكلمات، وهو ما تُغرى به الكتابة السريانية القديمة (الأسطرنجيلية) الزخرفية بطبعها.

وقد مكَّننى وضوحُ الخطِّ فى معظم المواضع من قراءة النص بيسر، وبالتالى ترجمته إلى العربية دون قلقٍ من قلق الأصل واضطرابه، مثلما هو الحال فى معظم الكتابات التى وصلتنا من هذه الفترة المبكرة.. ولا يفوتنى هنا أن أشكرَ العلاَّمة الجليل، كبير الرهبان بدير السريان بقبرص، لما أبداه من ملاحظاتٍ مهمة على ترجمتى، وتصويبات لبعض التعبيرات الكنسية القديمة التى لم تكن لى أُلفة بها.

ولستُ واثقًا من أن ترجمتى هذه إلى العربية، قد نجحتْ فى مماثلة لغة النص السريانى بهاءً ورونقًا. فبالإضافة إلى أن السريانية كانت تمتاز منذ هذا الوقت المبكر بوفرة آدابها وتطور أساليب الكتابة بها، فإن لغة الراهب هيبا وتعبيراته، تعدُّ آيةً من آياتِ البيان والبلاغة. ولطالما أمضيتُ الليالى الطوال فى تأمُّلِ تعبيراته الرهيفة، البليغة، والصور الإبداعية التى تتوالى فى عباراته، مـؤكِّدةً شاعريته وحساسيته اللغوية، وإحاطته بأسرار اللغة السريانية التى كتب بها.

وقد جعلتُ فصول هذه (الرواية) على عدد الرقوق التى هى متفاوتةُ الحجم؛ بطبيعة الحال. وقد أعطيتُ للرقوق عناوين من عندى، تسهيلاً لقارئ هذه الترجمة التى يُنشر فيها هذا النص النادر لأول مرة. وتسهيلاً للقارئ أيضًا، استعملتُ فى ترجمتى الأسماء المعاصرة للمدن التى ذكرها الراهب هيبا فى روايته. فإذا ذكر مدينة بانوبوليس الواقعة بقلب صعيد

مصر، ترجمتها عن اسمها اليونانى هذا، إلى الاسم المعروفة به اليوم: أخميم. وبلدة جرمانيقى الشامية، جعلتها باسمها المعاصر: مرعش! وصحراء الأسقيط جعلتها باسمها المشهور اليوم: وادى النطرون.. وهكذا فى بقية المدن والمواضع التى وردت فى النص الأصلى، اللهم إلا تلك المواضع التى صار لاسمها القديم دلالةٌ قد يضيِّعها اسمها المعاصر، مثل نيقية الواقعة اليوم فى حدود تركيا؛ فمع أنها صارت تعرف باسم أزنيق، إلا أننى فضَّلت أن أذكرها باسمها القديم، لما له من أهمية خاصة فى تاريخ المجامع الكنسية؛ إذ انعقد فى هذه المدينة سنة ٣٢٥ ميلادية، المجمع العالمى (المسكونى) لرؤساء الكنائس، الذى تمَّ فيه الحكم على القَسّ المصرى آريوس بالحرم والطرد والنفى، باعتباره مُهَرْطِقًا وكافرًا بالأُرثوذكسية (الإيمان القويم).. أما ما لم يشتهر من المواضع الواردة فى الرواية، فقد أوردت اسميه القديم والجديد معًا، منعًا للالتباس.

وقد وضعتُ بعد الشهور والسنوات القبطية التى ذكرها المؤلِّف؛ ما يقابلها من الشهور والسنوات الميلادية المعروفة اليوم. وأوردتُ، فى مراتٍ قليلة، بعض الملاحظات والإشارات الضرورية الموجزة، وبعض التعليقات (العربية) التى وجدتها فى الحواشى. ثم ألحقتُ بالرواية بعض الصور المرتبطة بأحداثها.

المترجم

الإسكندرية فى ٤ إبريل ٢٠٠٤

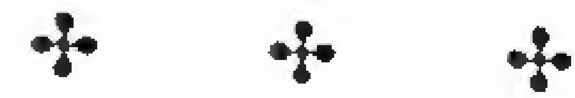
الرَّقُّ الأَوَّلُ

بَدْءُ التَّدْوِينِ

الرحمة يا إلهى. الرحمة والعفو يا أبانا الذى فى السماوات. ارحمنى واعفُ عنى، فإنى كما تعلم ضعيفٌ. يا إلهى الرحيم، إن يدىَّ ترتعشان رهبةً وخيفةً، وقلبى وروحى يرتجفان من تصاريف وعصف هذا الزمان. وأنت وحدك يا إلهى الرحيم، لك المجد، تعلم أننى اقتنيتُ هذه الرقوق قبل سنين، من نواحى البحر الميت، كى أكتب فيها أشعارى ومناجاتى لك فى خلواتى، ليتمجَّد اسمك بين الناس فى الأرض مثلما هو مجيدٌ فى السماوات. وكنت أنوى أن أدوِّن فيها ابتهالاتى التى تقرِّبنى إليك، وقد تكون من بعدى صلوات يتلوها الرهبانُ وأهلُ الصوامع الأتقياء فى كل زمانٍ ومكان. وها أنا لـمَّا حان وقت التدوين، أوشك أن أكتبَ فيها ما لم يخطر لى من قبلُ على بال، وقد يجرُّنى إلى طُرق الويل والوبال. يا إلهى، أتسمعنى! أنا عبدك المخلص، الحيران: هيبا الراهب وهيبا الطبيب وهيبا الغريب.. على ما يدعوننى به الناس فى بلاد غربتى! وأنت وحدك يا إلهى تعرف اسمى الحقيقى، أنت والناس فى بلادى الأولى التى شهدت مولدى. ياليتنى لم أولد أصلاً، أو ليتنى متُّ فى طفولتى من دون آثام، حتى أضمن عفوك ورحمتك.

ارحمنى يا رحيم، فإننى مشفقٌ مما أنا مقبلٌ عليه، ولكننى مضطرٌ. فأنت تعلم، فى سماواتك البعيدة، كيف يحوطنى إلحاحُ عدوِّى وعدوِّك اللعين عزازيل الذى لا يكفُّ عن مطالبتى بتدوين كل ما رأيته فى حياتى.. وما قيمة حياتى أصلاً، حتى أُدوِّن ما رأيته فيها؟ فأنقذنى ياإلهى الرحيم من وسوسته لى، ومن طغيان نفسى. إننى يا إلهى، لا زلتُ أنتظر منك إشـاراتٍ لم تأتِ. وقد استبطأتُ عفوك، ولكننى إلى الآن ما شككتُ. فإن شئتَ يا صاحب العزة السماوية والمجد الذى فى الأعالى، أن تدركنى بإشارةٍ منك، فإننى مستقبلٌ أمرك ومطيعٌ. ولو تركتنى لنفسى، أضيع.. فقد صارت نفسى معلَّقة من أطرافها، تتنازعها غواياتُ عزازيل اللعين، ونكاياتُ أشواقى بعد ابتعاد مرتا التى انقلبت معها دولة باطنى.

سأبتهلُ إليك ياربِّ الليلة، وأُصلِّى، وأنام. وقد خلقتنى لحكمةٍ خفيةٍ، كثيرَ الأحلام. فأرسلْ لى فى منامى من فيض كرمك إشارةً تُنير لى الطريق، مادامت بشاراتك قد عَزَّتْ فى صحوى وامتنعتْ. فإن صرفتنى بإشارتك يا إلهى عن الكتابة انصرفتُ، وإن تركتنى لنفسى كتبتُ.. وما أنا يا إلهى إلا ريشةٌ فى مهب ريح، يمسكها إصبعٌ ضعيف ينوى أن يغمسها فى الدواة، ليخطَّ كُلَّ ما وقع معى، وكُلَّ ما جرى ويجرى مع أعتى العصاة عزازيل وعبدك الضعيف، ومرتا.. الرحمة، الرحمة، الرحمة.



بسم الإله المتعالى (١) أبدأُ فى كتابةِ ما كان وما هو كائنٌ من سيرتى، واصفًا ما يجرى من حولى وما يضطرم بداخلى من أهوال. وأول تدوينى هذا، الذى لا أعرف كيف ومتى سيكون منتهاه، هو ليلة السابع والعشرين من شهر توت (أيلول، سبتمبر) سنة ١٤٧ للشهداء، الموافقة لسنة ٤٣١

(١) فى هذا الموضع من المخطوطة، اضطرابٌ ملحوظٌ فى رسم الكلمات. (المترجم).

لميلاد يسوع المسيح. وهى السنة المشؤومة التى حُرم فيها وعُزل، الأسقفُ المبجَّل نسطور، واهتزت أركان الديانة. وقد أحكى ما جرى بينى وبين مرتا الجميلة من غوايات وعذابات، وما كان من أمر عزازيل المراوغ اللعين، وأقصُّ بعضًا مما وقع مع رئيس هذا الدير الذى أسكن فيه ولا أجد السكينة. وسوف أروى بين الثنايا، حَكَايا عايشتها منذ خروجى من بلادى الأولى الواقعة بأطراف بلدة أسوان جنوب مصر، حيث يجرى نهر النيل الذى كان أهل قريتى يعتقدون أنه ينبع من بين أصابع الآلهة، ويهبط ماؤه من السماء. وكنتُ فى صغرى أعتقدُ ذلك الوهم مثلهم، حتى تعلَّمتُ ما تعلمته فى نجع حمادى وأخميم، ثم فى الإسكندرية.. فأدركتُ أنه نهرٌ كبقية الأنهار، وأن بقية الأشياء مثل بقية الأشياء، لايمتاز منها إلا ما نميِّزه نحنُ بما نكسوه به من وَهْمٍ وظنٍّ واعتقاد.

من أين أبدأ تدوينى؟.. البدايات متداخلةٌ ومحتشدةٌ برأسى. ولعل البدايات كما كان أستاذى القديم سوريانوس يقول، ما هى إلا محضُ أوهام نعتقدها. فالبداية والنهاية، إنما تكونان فقط فى الخط المستقيم. ولا خُطوط مستقيمة إلا فى أوهامنا، أو فى الوريقات التى نسطر فيها ما نتوهَّمه. أما فى الحياة وفى الكون كله، فكُل شئٍ دائرىٌّ يعود إلى ما منه بدأ، ويتداخلُ مع ما به اتصل. فليس ثمة بدايةٌ ولا نهايةٌ على الحقيقة، وما ثمَّ إلا التوالى الذى لاينقطع، فلا ينقطع فى الكون الاتصالُ، ولا ينفصم التداخلُ، ولا يكفُّ التفريغُ، ولا الملء ولا التفريغ.. الأمرُ الواحد يتوالى اتصاله، فتتسع دائرته لتتداخل مع الأمر الآخر، وتتفرَّع عنهما دائرةٌ جديدةٌ تتداخل بدورها مع بقية الدوائر. فتمتلئ الحياةُ، بأن تكتمل دائرتها، فتفرغ عند انتهائنا بالموت، لنعود إلى ما منه ابتدأنا.. آهٍ لحيرتى، ما هذا الذى أكتبه؟ إن الدوائر كلها تدور برأسى، فلا توقفها إلا لحظات النوم، حيث تدور أحلامى. وفى الأحلام، مثلما هو الحال فى صحوى، تحتشد بقلبى

الذكرياتُ وتعتصرنى.. الذكرياتُ دوَّاماتٌ متتاليةُ الدوائر، ومتداخلة. فإن أستسلم لها وأحكيها بقلمى، فمن أين أبدأ؟

سأبدأ من الحاضر، من اللحظة الحالية، من جلستى هذه فى صومعتى التى لايزيد طولها ولاعرضها عن مترين. من القبور المصرية ماهو أوسع منها. جدرانُها من الحجر الذى يبنى به الناسُ فى هذه النواحى، يأتون به من محاجر قريبة. كان لون الحجر أبيض، ثم صار اليوم بلا لون.

لصومعتى بابٌ خشبىٌّ ضعيفٌ غيرُ محكَم الإغلاق، يفتح إلى خارجها حيث الممرُّ الطويل المارُّ على بقية صوامع (قلايات) الرهبان. لاشئ هنا، حولى، غير لوحٍ خشبىٍّ أنامُ عليه، عليه ثلاث طبقات من صوفٍ وكِتَّان، هى الفرش الوثِّير والدِّثار. على أننى اعتدتُ النوم جالسًا، مثلما يفعل الرهبانُ المصريون.

فى الزاوية اليسرى المواجهة للباب، طاولةٌ صغيرةٌ قصيرةُ القوائم. عليها المحبرةُ والسراجُ القديم ذو الفتيلة البائسة واللهب المتراقصة شعلته. وتحت الطاولة الرقوقُ البيضاءُ النقيةُ من أى كتابة، والرقوقُ الحائلةُ اللونِ التى غُسلت كتاباتها.. بجوار الطاولة كيسٌ فيه كِسَرٌ من الخبز الجاف، وإناءُ ماءٍ وقنينةُ زيتٍ للسراج وكتبٌ مطوية. وفوقها، علَّقت على الحائط، صورة للعذراء مريم محفورةً على الخشب.. فإننى يُريحنى النظر إلى وجه العذراء، الأم.

فى زاوية الغرفة الملاصقة للباب صندوقٌ خشبىٌّ محلًّى بنقوشٍ نحاسية، كان قد أهداه لى، مملوءًا تمرًا، رجلٌ موسرٌ من مدينة صور، عالجته من إسهالٍ مزمن ولم آخذ منه أجرًا، إحياءً لسُنَّةِ الحكيم الفاضل أبقراط الذى عَلَّم الإنسانية الطب بأن جرؤ على تدوينه فى الكتب.. تُرى، هل كان عزازيل، هو الذى دعاه للتدوين؟

إذا أتممتُ ما أبدؤه الليلة، فسوف أضع ما أكتبه فى هذا الصندوق مع الأناجيل المحرَّمة والكتبِ الممنوعة، وأدفنه تحت البلاطة الرخامية المتخلخلة عند بوابة الدير، وأَسُدُّ عليه، وأطمرُ البلاطة بالتراب. فأكونُ قد تركتُ منى شيئًا هنا، قبل رحيلى النهائى بعد انتهاء خلوة الأربعين يومًا التى تبتدئ بها اليوم عُزلتى، ويبدأ تدوينى هذا الذى لم أُخبر به أحدًا.

تقع صومعتى بالدور الأعلى من المبنى، وهى واحدةٌ من أربع وعشرين غُرفةً مماثلة، يسكنها رهبانُ هذا الدير. بين الغرفِ غرفٌ مغلقة، ومخازنُ حبوب، ومكانٌ للصلاة. الدور الأول من هذا المبنى، فيه مطبخُ الدير وقاعةُ الطعام وغرفةُ الضيافة الواسعة. يسكن الدير اثنان وعشرون راهبًا. وفيه عشرون من طالبى الرهبنة، يخدمون المكان إلى حين رسامتهم رهبانًا. لكنيسة الدير الكبيرة كاهنٌ مؤقَّت، قَسّ ليس براهبٍ، هو فى الأصل كاهنُ الكنيسةِ الصغيرة الواقعة بين البيوت المتناثرة عند سفح تلة الدير. وهو يخدم كنيسة الدير منذ تنيَّح (توفى) كاهنها الراهب قبل أعوام، انتظارًا لرسامة كاهنٍ آخر من الرهبان. الرسامة تكون فى كنيسة أنطاكية التى يتبعها هذا الدير. للقسوس الكهنة زوجات ينامون فى أحضانهن، أما نحن الرهبان فننام منفردين، وفى معظم الليالى ننام جالسين، أو لاننام أصلاً لاستغراقنا فى الصلوات والتَّسبحات الطويلة.

رئيسُ الدير يسكن غرفة قائمة بذاتها، واسعة. زواياها أربعةُ أعمدةٍ رومانية قديمة، كانت قائمة فى الساحة الفسيحة الممتدة أمام كنيسة الدير الكبيرة، فلما وصلوا بينها بجدران رقيقة، صارت الأعمدةُ هى زوايا الغرفة الواسعة. بجوار غرفته، الكنيسةُ الصغيرةُ التى نصلِّى فيها عادةً. الكنيسة الكبيرة لها بابان، واحدٌ من جهة الدير، والآخر مطل على التلة من خارج السور، فكأنهـا كنيستان، واحدة للرهبان فى معظم الأيام، والأخرى للمؤمنين والموعوظين الذين يأتون أيام الآحاد والأعياد لحضور القُدَّاس.

مَنْ يحضر منهم متأخرًا، لايجد مكانًا ويتحشَّر خارج السور المتهدم، حول الباب الخارجى.

صومعتى هى الدائرة الصغرى من عالمى المحسوس، تحيط بها دائرةٌ أكبر، هى هذا الدير الذى هويته يوم دخلته أول مرة، قبل سنين، ولزمته من يومها، ونعمتُ فيه بالسكينة التى طالما تمنيتها قبل مجيئى إلى هنا، حتى كان ما كان مما سوف أذكره.

جئتُ إلى الدير من القدس.. ساليم، هيروسليم، أُورشليم، أوروشاليم، إيلياء، بيت الرب! أسماءٌ كثيرة حملتها تلك المدينة المقدسة، المحاطة بالجدب من كل النواحى. أقمتُ فيها بضع سنين، قبل المجيئ إلى هنا تنفيذًا لمشيئة الرب، وتلبيةً لإشارة نسطور ونصيحته، وتوصيته. مع أنه، كان الربُّ اليوم فى عونه، قد دعانى أولاً للذهاب معه إلى أنطاكية، والإقامة فيها إلى آخر عمرى. ثم بدا له أمرٌ، فعاد ونصحنى بالمجيئ إلى هنا. كتب لى بخطِّه رسالة توصية إلى رئيس الدير، وكتب علىَّ الزمانُ أحداثًا عاينتها، وعانيتُ منها، وما كانت تخطر لى على بال. الخطاب الذى أرسله نسطور معى إلى رئيس الدير، لازلتُ أحتفظ به تحت مخدتى الخشنة. ردَّه إلىَّ رئيسُ الدير حين طلبتُ ذلك منه، بعد عام من مجيئى إلى هنا من أورشليم.. أورشليم.. كم تبدو لى الآن بعيدةً، وكم تبدو أيامى هناك كحلمٍ لمع فى سماء حياتى الباهتة، ثم انطفأ لمعانه.

لماذا انطفأ كُلُّ شئ؟ نورُ الإيمان الذى كان يضيئ باطنى، شموعُ السكينة التى طالما آنستْ وحدتى، الاطمئنانُ إلى جدران هذه الصومعة الحانية.. حتى شمس النهار، صرتُ أراها اليوم مُطفأةً، وموحشةً.

هل سينـزاحُ هذا الهم عن روحى، وتأتينى أخبارٌ مبهجاتٌ بعد تلك التى وردتنا من بلدة إفِسوس، حيث حاصر القسوس والأساقفةُ، الأسقفَ

المبارك نسطور، واجتهدوا حتى نالوا منه. لقد نال الزمانُ منى، وغلبنى الهمُّ والقلقُ.. إلى أين سينتهى الحال بالأسقف نسطور المعزول، الذى عرفته أيام كان قسًّا. كان لقاؤنا فى أورشليم يوم أتاها للحج مع الوفد الأنطاكى، قبل أربع سنوات من رسامته أسقفًا للقسطنطينية. كان لقاؤنا منذ زمنٍ، يبدو لى اليوم بعيدًا بعدما مضت سنون طوالٌ، صارت معها المواضعُ والمدنُ نائيةً عنى، موغلة فى النأى.

.. هل كُنا، حقًا، فى أورشليم!

الرَّقُّ الثانى

بَيْتُ الـرَّبّ

أتذكَّر جيدًا، ظهيرة اليوم الذى دخلتُ فيه أورشليم عبر الجزء المنهار من أسوارها العالية، الجزء الذى كان فيما سبق يُمسك البوابة الكبيرة المسماة بوابة صهيون.. ألقيتُ عصا ترحالى هناك، بعد سياحات طويلة بين قُرى اليهودية (فلسطين) والسامرة.

دخلتُ أورشليم فى حدود الثلاثين من عمرى الذى كان قد أنهكه سفرُ الجسم والروح فى الأرض والسماوات، وحيَّره ارتحالُ العين بين صفحات الكتب. دخلتها مترنِّحَ الخطوِ مستندًا إلى الهواء، فى قيظ شهر أبيب (تموز، يوليه) وعلى باب كنيستها الكبرى أخذتنى إغماءةٌ، فحملنى بعض الحجَّاج إلى الداخل ليعالجنى كاهنُ كنيسة القيامة المجيدة، ويضحك حين يعرف منى أننى طبيبٌ، وراهب. بعدما أفقتُ من إغماءتى، مازحنى قائلاً: *عرفتُ برهبانيتك من غطاء رأسك، لكنى لم أعرف من إغماءتك أنك طبيب!* ثم سألنى عن اسمى، فقلتُ هيبا.

هل أتيتَ للحجِّ أم تنوى الإقامة بيننا، أيها الراهب المبارك؟

ـ *الحجُّ أولاً*، ثم تكون *مشيئةُ الرب*.

قضيتُ أيامًا فى أورشليم حاجًّا، بعد ثلاث سنين طوَّفتُ خلالها بالمواضع المباركة، تنفيذًا لنصيحة الراهب القديس خريطون المنقطع للعبادة فى المغارة الموحشة، قرب البحر الميت. كان قد قال لى وهو يودِّعنى: *ياولدى، لاتدخل أورشليم فور وصولك أرض فلسطين، لا تدخل إليها إلا إذا استعد قلبك للحجِّ، وتهيَّأت روحك. فما الحجُّ إلا رحلةُ تهيئةٍ، وما السَّفَرُ إلا إسفارٌ عن الأمر المقدَّس المكنون بجوهر الروح.*

كنتُ قد مررتُ فى تطوافى، بالمواضع التى عاش فيها تلامذةُ يسوع المسيح وانطلق منها الرسلُ. وقضيتُ شهورًا أتتبع خُطى يسوع، الموصوفة فى الكتبِ والأناجيل، مبتدئًا ببلدة قانا القريبة من الناصرة، حيث قام فيها المسيح بأُولى معجزاته، بأن صيَّر الماءَ خمرًا لينهل ضيوف العُرس، كما هو مكتوبٌ فى الأناجيل. فى الناصرة لم أجد أىَّ أثرٍ يدل عليه، ولا أىَّ مبنى باقٍ ليحدِّث عن زمانه! فاحترتُ، ثم خرجتُ عن مسارى إلى بقية القرى التى ذكرتها التوراةُ والأناجيلُ والكتبُ المقدسة القانونية، والأسفار غيرُ القانونية التى صرنا مؤخرًا نسميها الأبوكريفا. انتابتنى فى جولاتى شكوكٌ كثيرةٌ، وعاينتُ أهوالاً فى مناماتى حتى مَرَّت علىَّ سنواتُ التيه الثلاث، وجاءت تلك الليلة الرائقة التى رأيتُ فيها يسوع المسيح فى حلمٍ ناصع وهو يملأ بأنواره السماء، قائلاً لى بالآرامية ما معناه: *إن كنت تبحثُ عنى أيها الحائر الضال، فاترك نفسك وراءك، ودَعْ الموتى وتعال لرؤيتى فى أوروشاليم، كى تحيا*.. كان يسوع يخاطبنى فى رؤياى، من فوق صليبه، ولا أحد حولنا فى البرية.

فجر اليوم التالى للبشارة، توجَّهتُ رأسًا إلى أورشليم.. كان قلبى يبتهل طيلة الطريق، راجيًا الربَّ أن يطهِّرنى من آثار الغرق فى بحار الحيرة، وأن يفيض على روحى بالسكينة، ويُنعم على قلبى بالإيمان القويم ونور

اليقين. لم أتوقف فى طريقى من نواحى صيدا حيث جاءتنى البشارة، إلى أورشليم التى كنتُ أنوى الاستقرار فيها بقية العمر، إلا ساعتين فى جوف الليل، حاولتُ فيهما النوم تحت شجرة، فمنعتنى رؤاى المتوالية: المخلِّصُ يتألم فوق صليب الفداء، نحيبُ الأمِّ العذراء المقدَّسة، صرخاتُ يوحنا المعمدان فى البرية، ما وقع معى أيام كنتُ بالإسكندرية.. لم أستطع ليلتها النوم.

دخلتُ أورشليم من طريق السامرة وقت الظهيرة، فتملكتنى مشاعرُ الغربة التى تعصف بى فى المدن الكبيرة. كان الحرُّ شديدًا، وصخبُ البشر. مررتُ فى طريقى إلى كنيسة القيامة بأسواقٍ وبيوتٍ كثيرة، ورهبانٍ وتُجَّار وناسٍ من كل الأجناس: عربٍ وسُريان ويونان وفُرس، وأممٍ أخرى لم أفهم بأى لسانٍ كانوا فيما بينهم يتكلمون. كنتُ قد نسيتُ صخَب المدن الكبيرة خلال تَجوالى الطويل بقُرى فلسطين، فهربتُ من الزحام إلى أسوار الكنيسة وبابها الكبير المفتوح. بالكاد وصلتُ، ثم غلبنى جوعى وإنهاكى وانهماكى فى التسبيح، وثقلت علىَّ مخلاتى المليئة بالكتب ولفائف البردى، فأخذتنى الإغماءةُ التى عالجنى منها كاهنُ الكنيسة.

قضيتُ أيامًا بين الرهبان حاجًّا. كانوا يتلطَّفون معى، غير أنهم أكثروا من سؤالى عن البلاد التى مررتُ بها والصعاب، وعمَّن التقيتُ بهم من القديسين، أو زرتُ مقابرهم من الشهداء. وكانوا يلحِّون فى السؤال عن الإسكندرية، فكنتُ أُجيبُ بحسب ما يقضى به الحال والمقام، وبقدر ما يهدِّئ من شغف الرهبان والكهنة السائلين.

فى أيامى الأولى بأورشليم، كنتُ أفكِّر فى سِرِّ الحج! وأُسائل نفسى عمَّا أخرجنى من بلادى الأولى، وأتى بى إلى تلك البقعة المقدسة. أما كان من الممكن لى، أن أَمَسَّ جوهر القداسة فى نفسى، وأنا معتكفٌ فى صحراء قريبة من موطنى الأول؟.. وإن كان المكانُ يُجلى ما بداخلنا، ويبديه من أعماقنا السفرُ، ألا يمكن للخشوع والتطهر ومداومة الصلاة وتسبيح الرب وحياة الرهبنة؛ أن يُجلوا ما فينا من النعمة الإلهية والقداسة الكامنة؟.. فأين إذن بركةُ الأماكن؟.. هل البركةُ سِرٌّ فينا يفيض على الأماكن، إذا وصلنا إليها بعد رحلة توقٍ وشوق؟ هل المهابة التى شعرتُ بها لحظة رأيتُ أسوار كنيسة القيامة، كان مَرَدُّها إلى شعورى بالمبنى الهائل، أم أن مَرَدَّ الأمر إلى المعنى الكامن فى واقعة القيامة ذاتها؟.. هل قام يسوع حقًّا من بين الأموات! وكيف له وهو الإله، أن يموت بأيدى البشر.. هل الإنسان قادرٌ على قتل الإله وتعذيبه، وتعليقه بالمسامير فوق الصليب!

- *هل تريد الإقامة معنا فى الكنيسة، أم تقيم فى المدينة لتعالج المرضى من أبناء الرَّبِّ، والقادمين إلى هنا للحج؟*

سألنى الكاهنُ الطيبُ بعد عدة أيام من وصولى، فتركتُ له الاختيار.. لا أحد يختار، وإنما هى مشيئة السمَّاء تتخلل الأشياء والكلمات حتى تصلنا على نحوٍ خفىٍّ. قلتُ له ذلك، فابتسم راضيًا. ثم كان ما أراده الله، وأنطق به كاهن كنيسة القيامة: *يمكنك أن تسكن فى الصومعة التى بناها الراهب الرهاوى، بالقرب من ساحة الكنيسة. أعنى تلك الغرفة التى على يمين الخارج من بوابة المدخل الكبير. تُقيم فيها، فتكون معنا، ومع الناس فى الآن ذاته. الصومعة مغلقةٌ منذ تنيَّح[1] ساكنها قبل عامين، رحمه الله، كان قديسًا. سأطلب من خادم الساحة أن ينظِّفها لك، ويمكنك الإقامة هناك من يوم غَدٍ.*

أدركتُ وقتها أنهم كانوا قلقين منى، وما اطمأنوا بَعْدُ لهذا الراهب

(١) تنيَّح: كلمة سريانية مازالت مستعملة فى الكنائس، بمعنى مات أو توفى؛ وهى فى أصلها السريانى تعنى: استراح. (المترجم).

المصرى الذى هبط عليهم من دون رسالة توصية، ومن دون إبانةٍ عن سبب مجيئه. لو كنتُ قد أقمتُ داخل الكنيسة، فما كانوا سيقبلوننى بين الرهبان، إلا بعد أعوام من الملاحظة. ولو أقمتُ فى المدينة، كان سيقتلنى صخبُ الناس! الموضعُ المقترح كان مناسبًا، فهو متوسطٌ بين المدينة والكنيسة. لاهو هنا ولا هناك، هو مثلى: بينَ بين.

بتُّ ليلتى الأولى فى صومعة الرهاوى كما كانوا يسمونها، سعيدًا بأن أقيم فى موضع عُبد فيه الربُّ عشرين عامًا متوالية بإخلاص. رأيتُ فى ذلك بشارةَ خير وملاذًا لروحى الحيرى.. وها هى كنيسة القيامة التى دُعيت إليها قريبةٌ منى لصيقةٌ بى. ومن شباكى الوحيد يمكننى أن أرى، وفودَ الأتقياء والمؤمنين والموعوظين القادمين إليها للحج والزيارة طيلة العام.

الرهبان والكهنة الذين يخدمون كنيسة القيامة، طيبون وبسطاء. معظمهم تقرَّب منى، لما عرفوا بمزاولتى الطب وفن المعالجة.. لم يهتموا بكونى شاعرًا. اعتاد خُدَّام الكنيسة والشمامسة والقسوس الصغار، التودُّد إلىَّ والتردُّد علىَّ لطلب المداواة. أما قدامى القسوس وكبار الرهبان، فكنتُ أذهب إليهم داخل الكنيسة إذا استدعونى.

كانت أغلبُ أمراض الناس فى أورشليم ناشئة من الجفاف، وعدم تنويع الطعام. أَكْلُهم واحدٌ معظم الأوقات زيتُ الزيتون، خبزُ الخشكار المصنوع من الدقيق الأسمر غير المنخول، جبنُ الماعز، الفواكهُ الفقيرة.. عيشةُ الناس فى أورشليم خشنة، وجَوُّ المدينة لطيفٌ صيفًا فى معظم الأيام، لكنه قارسُ البرد فى الليل، وفى الشتاء.

لما هدأتْ نفسى قليلاً بعد شهور من إقامتى، وسكنتْ شكوكى مع كثرة المحيطين بى من المؤمنين. بدأتُ فى نظم التراتيل الكنسية، بالسُّريانية، مستلهمًا الروح السماوىَّ الذى يجلِّل المكان ويملؤه رهبةً.. من أشعار هذا الزمان، قولى فى ترنيمة طويلة:

من هنا بدا نورُ السماء،

فأزاح عتمة الأرض، وأراح من الويل الأرواح.

من هنا أشرقتْ شمسُ القلوب،

مع أَلَقِ المخلِّص، المتوهِّج بالرحمة فوق صليب الفداء.

وما الصليبُ؟

هو قائمُ القدوسيةِ الرأسىُّ يقاطعه قائمُ الرحمة.

فلنفتح لأفق الرحمة، ذراعينا، وننتصب بإزاء القدوسية.

فنكون صليبًا يحمل صليبه،

ويَتْبعُ يسوع.

مضتْ بى الأيامُ فى أورشليم هادئةً، حانيةً، رتيبة، حتى مَرَّ شتاءُ العام الأربعين ومائة للشهداء، الموافق للسنة الرابعة وعشرين وأربعمائة للميلاد، وراحت المدينةُ تستعد لأعياد القيامة المجيدة وأسبوع الآلام. صرتُ أرى مزيدًا من قوافل التُّجَّار العرب، تحطُّ فى الساحة الممتدة أمام الكنيسة. وكثرت ألوانُ البضائع على رفوف دكاكين المدينة، التى كانت من قبل خاوية. كان الناسُ فى ابتهاج، وكان قلبى يضطرب كلما اقترب أسبوعُ الآلام. ظلَّت أحلامى تتوالى قبل الفجر مخبرةً عن قرب وقوع أمرٍ عظيم، فكنتُ أطردُ عنى تلك الخواطر. قبيل العيد، تزايد زُوَّارى من المرضى الوافدين.. كثيرٌ منهم كانوا يعانون أمراض السفر، خاصةً كبار السن منهم. كنت أعالجهم بمرطبات البدن، وبالأدوية التى يسميها الأطباءُ مفرِّحات القلب، من دون أن أخرج بالمريض عن مألوفه من الطعام والشراب، إلا بقدر ما يعينه على استنهاض قوته.

من بين المواكب الكثيرة التى كانت تمرُّ بى فى طريقها لزيارة الكنيسة، كان لموكب مدينتىْ أنطاكية والمصِّيصة مهابةٌ خاصة. عشراتٌ من القسوس والرهبان والشمامسة يمشون فى زيِّهم الكنسىِّ المهيب على بساطٍ من وقارٍ، يتقدَّمهم حاملُ الصليبِ الأنيقِ المزخرفةِ حوافه بماء الذهب. ومن ورائه بسبع خطواتٍ، يسير على بساط الهيبة العلَّامةُ المفسِّرُ تيودور أسقفُ المصيصة [1]. ومن ورائهم جمعٌ غفيرٌ من المؤمنين والموعوظين، يردِّدون بلسانٍ واحدٍ: *أُوصَنَّا لابن داود أُوصَنَّا فى الأعالى.. مباركٌ الآتى باسم الرب.*

كنتُ أتطلع إليهم من شباك صومعتى مبهورًا، فأرى الموكب الداخل إلى الباب الكبير للكنيسة، كأنه جمعٌ من الملائكة نزل إلى الأرض من السماء. عددُ القسوس كان يزيد عن عشرين، والشمامسة قرابة المائة، والتابعون السائرون وراءهم يخرجون من كثرتهم عن الحصر. بدا الأسقف تيودور متعبًا ومبتهجًا، تمنيتُ لو اخترقتُ الموكب، فوصلتُ إليه رأسًا، وقبَّلْتُ يده فقبَّل رأسى، مثلما جرى مع الرجل ذى الملامح الكردية والزىِّ الدمشقى. لى تلك الصبوة، وليس لى ذاك الإقدام. كانت السماء تعلم ما فى نفسى، وبطرائقه السماوية الخفية يَسَّرَ لى الربُّ بعد يومين لقاءً مع الأسقف من حيث لم أتوقَّع.. ففى اليوم التالى، جاءنى أوان العصر قَسّ أنطاكى واثنان من الشمامسة، وسألونى أن أصحبهم لمقر إقامة الأسقف بشرقىِّ

(١) عند هـذا الموضع، كُتب بقلم دقيق فى هامـش الرَّقِّ، باللغة العربيـة: *من العجائب التى جرت معى، أننى قبل يومين رأيتُ فى منامى قداسـة الأسـقف تيودور المفسِّر، يبارك رحلتى هذه إلى أورشـليم، ويدعونى للإقامة فيها بقية عمرى!.. والأسـقفُ واحـدٌ مـن أجلاء آباء كنيسـتنا، وما نزال نقـرأ فى أديرتنا، شروحاتـه على الأناجيل المقدسـة وأعمال الرسل. وهى مكتوبة بلغتها اليونانية الأصلية، ولم تُترجم فيما نعلم إلى لغة العرب (..) الذين صرنا اليوم نعيش بينهـم، ونتكلـم لغتهـم (..)*

المدينة، للاطمئنان على صحته. هكذا قالوا. سألتهم بلطفٍ مستغربًا من أن وفدهم ليس فيه طبيب! فقال القَسّ إن طبيب كنيستهم معهم، ثم أضاف بلطفٍ ونبرةٍ هادئة:

- *ولكن القَسّ نسطور، يريد أن يطمئن أكثر على صحة الأسقف المبجَّل تيودور.*

كانت تلك هى المرة الأولى التى أسمع فيها اسم نسطور، وسيكون ذلك هو اليوم الأول الذى أراه فيه.. قمتُ معهم بعدما ملأت جرابى بأعشابٍ مفرِّحة وأدويةٍ مقوِّية للقلب وبزورٍ مصلحة للمعدة. أغلقتُ باب صومعتى بإحكام، وسرنا معًا يتقدَّمنا القَسّ الأنطاكى. مشينا قرابة نصف ساعة، كانت كفيلَة بأن تُسقط من وجوهنا تحت شمس الظهيرة، حَبَّاتِ العَرَق. كنتُ فى زِىِّ رهبان أورشليم، الذى كان الكاهن الطيب قد أهداه لى قبلها بشهر واحدٍ، كعلامةٍ على قبولى بينهم. عند الباب استقبلنا قَسّ من المصيصة، وسقانا ماءً باردًا شكرتُ عليه الرب. أحسستُ فجأة أننى مقبلٌ على أمرٍ عظيم لما دخلتُ مقر إقامة الأسقف حيث يمتدُّ ممرٌّ طويل، فى أقصى يمينه بابٌ أتانى منه صوتٌ وقورٌ هادئ:

- *أيها الطبيب المبارك والأب الجليل، إن قداسة الأسقفِ تيودور يتحدث للضيوف. فهل تريد الدخول الآن، أم تنتظر هنا حتى يخرجوا؟*

سألنى القَسّ المصيصى بلطفٍ، فاستأذنتُ منه أن أدخل لأسمع، إن كان ذلك ممكنًا. هَزَّ رأسه موافقًا، بوقار، وبرفق فتح لى الباب. كانت الغرفةُ فسيحةً ظليلةً، مسقوفةً بالجريد وهواؤها طيبٌ. فى وسطها حصيرٌ مرشوشٌ بالماء المطيَّب بروح الريحان، وعلى جوانبها الأربعة أرائك مصفوفة يجلس عليها، كلها، رجالٌ طيبون. رهبان وكهنةٌ وشمامسة، قرابة

الأربعين رجلاً، تدل ملامحهم على أن أغلبهم من أهل الشمال. بشرتهم بيضاء من غير سوء، ولحاهم مشرَقة بالبياض والصُّفرة. حتى أننى خجلتُ من سمرتى وشحوبى، ولحيتى الشعثة التى لاتدل على طبيبٍ ماهر.

لم أكن أحرصُ أيامها على تهذيب لحيتى، مثلما فعلتُ مؤخرًا. جلستُ عند أقرب موضع من الباب، وفى منتصف الجهة المقابلة كان الأسقف تيودور جالسًا علَى كرسىٍّ خشبىٍّ عتيق ذى مسندين. لم ينتبه لدخولى الهادئ وجلوسى على الأريكة المواجهة لكرسيِّه من بعيد. جذبتنى كلماته، وانتبهتُ بكُلِّى لمعانيه الدقيقة التى طالما استشعرتها فى نفسى. عباراته الرائقة نفذت بيسرٍ إلى قلبى وعقلى. حفظتُ يومها كثيرًا من كلامه، وبعد عودتى لصومعتى فى المساء دوَّنته.. كان يقول باليونانية، ما ترجمته:

فمن هذه الأرض المقدسة التى نشرف بالحج إليها، أيها الأحبة، بدأ زمانُ الإنسان الجديد. إن يسوع المسيح فاصلٌ بين زمانين، وهو مفتتحُ العهد الثانى للإنسانية. الزمانُ الأول ابتدأ مع آدم، والثانى بدأه المسيحُ يسوعُ. ولكل زمانٍ منهما طبيعةٌ وأحكامٌ كانت معلومة لإلهنا الرحيم منذ الأزل. الآب السماويُّ خلق آدم على صورته، ليكون خالدًا. غير أن آدم انخدع بوسوسة إبليس، فعصى الربَّ القُدُّوسَ، وأكل من الشجرة المنهىِّ عنها، على أمل أن يصير إلهًا. خدعه عزازيلُ اللعين بوسوسته، فأخطأ آدمُ، وعُوقب بالطرد من الجنة، بحُكم قُدُّوسية الرَّبِّ الإله.

ولكن، لأن الربَّ برحمته يحبُّ الإنسان، وقد خلقه فى الأصل بريئًا. لم يشأ أن يتركه موصومًا بالخطية الأولى إلى أبد الآبدين. وغلبتْ الرحمةُ على الربِّ، فأرسل ابنه الوحيد، يسوع المسيح، فى صورةٍ بشريةٍ كاملة، ليفدى الإنسان، ويخلِّص العالم من خطية آدم، ويفتتح بتضحيته الزمن الجديد للإنسانية، ويرسل من بعده التلاميذ الهادين لنا، المهدين إلينا الأناجيل.. وما معنى كلمة: الإنجيل؟ إنه كما قال يوحنا ذهبيُّ الفم، القديس: الأخبارُ المفرحة. لأن الإنجيل بُشرى بالعفو عن العقوبة، وغفران للخطايا، هو تبرئةٌ وتقديسٌ، وميراثٌ سماوى، صار معه عزازيل فى خِزيٍ، وصرنا مُطَوَّبين بفيض الرجاء.

كان صوتُ الأسقف تيودور يرنُّ فى جنبات الغرفة الفسيحة، وقد خَيَّم الخشوعُ على كل الجالسين، وتعلَّقت عيونهم بالأسقف مثلما تعلَّقت به عيناى. وَدِدْتُ ساعتها لو كنتُ قد بدأتُ دراستى اللاهوتية على يديه، واغترفتُ من ينبوع تعبيراته الرائقة التى تنفذ إلى القلب والعقل، فتنقذ الروح من قلق الشكوك. ذهبتُ لحظةً مع أفكارى، ثم عدتُ للانتباه لـمَّا أضاف أسقفُ المصيصة، تلك البلدة الطيبة التى بقلب الأناضول، وقد صار صوته أكثر عذوبةً ورنينًا فى جنبات المجلس المبارك:

انظروا أيها الأحباب إلى عِظات يسوع المسيح، وأبشروا بكلماتها المفرحة التى حفظها لنا القديس مَتَّى الرسولُ فى إنجيله. يقول لنا فى كل زمان ومكان: طوبى للودعاء؛ فإنهم يرثون الأرض، طوبى للحَزَانى؛ فإنهم يُعَزَّون.. فهل جاءت قبل المسيح بشارةٌ كهذه؟ وإشارةٌ بالغبطة مثل تلك؟ واعلموا أن المسيح أتى من أجلنا، فعلينا أن نعيش من أجله. إن تجسُّده وآلامه وموته وقيامته، انتصارٌ على الشيطان، وتكفيرٌ عن ذنوب الإنسان الأولِ، المخدوعِ، الخاطئ. وإيماننا بالمسيح، هو خروجٌ من زمن الخطية إلى أفق الخلاَص الذى منحتنا إياه مشيئةُ الربِّ. فكونوا أيها الأحبة مسيحيين، وادعوا شعبكم إلى الإيمان ليكونوا، وتكونوا معهم، أبناء الله حقًا فى الزمان الإنسانى الجديد. اعبروا الجسر الممتد فوق آلام يسوع، لتكونوا كاملين مثل أبيكم السماوى الكامل. وعلامة عبوركم، هو العماد. العمادُ ميلادٌ. هو قيامةٌ للروح من موات الجسد، دخولٌ فى النعمة وتوحُّدٌ مع المسيح. العمادُ خلاصٌ وخلقٌ جديد، فاعرفوا بقلوبكم سِرَّ المعمودية.

حين لفــظ الأسقــف كلمة المعمودية، أخذتنى رجفةٌ خفيفة لم يلحظها أحدٌ، إلا قَسّ صبوحُ الوجه فى حدود الأربعين من عمره، جالسٌ يمين الأسقف. عرفتُ بعدها أنه كان سبب استدعائى. هو قَسّ أنطاكىٌّ شهير، أصله من بلدة جرمانيقى (مرعش) اسمه الكنسىُّ نسطور، وهو من أخلص تلاميذ الأسقف تيودور، ومن أشدِّ المعجبين بتفسيراته للأناجيل.

مع مغيب الشمس، بدا الإعياءُ على أسقف المصيصة، فهدأتْ نبرته وخفتَ صوتُه وهو يختتم كلامه لسامعيه الذين غلبتْ على هيئتهم الغبطةُ الروحية، فكأن حديثه رفعهم إلى السماوات العُلا.. كان آخرُ ماقاله لهم: *ما كُنا إلا موتى، كتب علينا آدمُ الفناءَ حين ارتكب الخطية بعصيانه لخالقه، وبقى إبليس خالدًا. ولما ظهر لنا الرَّبُّ فى المسيح، صارتْ لنا بالنعمة الإلهية، فرصةٌ للنجاة من الفناء والموت، بالتوبة.. وبالدخول إلى أفق الخلاص، من باب المعمودية.*

تململ قَسّ عربىُّ الملامح، طاعنٌ فى السن، فكأنما أراد أن يقول شيئًا. ولما نظر إليه الأسقف تيودور مشجِّعًا، سأله القَسّ عن أمرٍ دقيق، قال: كيف ورثنا عن آدم خطيئة العصيان لأمر الله، وما هو ذنبنا نحنُ أبناءه الذين لم نفعل هذه الخطية؟ رَدَّ عليه الأسقف، مبتسمًا: *نحن نفعل خطايا أخرى كثيرة، لا تقلُّ خطرًا عن عصيان الأكل من الشجرة المحرَّمة. نفعل ذلك، ونحن أبناء يسوع، ليس لأننا ورثنا عن آدم خطيته، بل لأننا ورثنا عنه النـزوع للخطية والاستعداد لها. وهذا حديثٌ طويل أيها الأبُ المبارك، وقد نفيض فيه فى جلسةٍ مقبلة..*

نهض نسطور مُؤذنًا بانتهاء الدرس، فتهيَّأ الجميع للانصراف. حجبوا عنى رؤية الأسقف تيودور حين أقبلوا عليه للتبرُّك بتقبيل يده. وقفتُ، فرأيتُ نسطور ينحنى ليأخذ بيد الأسقف، ويفوت به من وسط الجمع إلى غرفته.. حين مَرَّ من أمامى، نظر نحوى بمودةٍ صافيةٍ، كأنه يعرفنى من زمن طويل. نظرته أربكتنى.

استدعونى بعد ساعةٍ طويلة أمضيتها فى الغرفة الفسيحة مع بعض الرهبان والقسوس، قدَّموا لى خلالها طبقًا مغطى بمنديل دمشقىٍّ مزركشِ الحواف، فيه خيراتٌ من الفواكه الطيبة التى تُثمرُ فوق أشجار الشمال.. لم يكن الأسقف تيودور يعانى من مرضٍ محدَّد، وإنما كانت سنواته الأربع والسبعون، مع مشقة رحلة الحج، قد أجهدتاه. أدركتُ ذلك قبلها بيومين، حين مَرَّ أمامى فى إهابه المهيب وهو يتقدَّم الموكب. غير أنى لم أشأ التعجُّل بإبلاغه بما عرفته من حاله، بل اقتربت منه مُظهرًا ما يليق به من اهتمام وتبجيل، وتناولت يده برفق فقبلتها، ثم رُحْتُ أجسُّ نبضه. كان ضعيفًا بعض الشئ. أخرجتُ من زوَّادتى بعض الأعشاب المقوية للنبض، المنشطة لجريان الدم من القلب. طلبتُ أن تُغلى على نارٍ هادئة ثم تُترك لتبرد، فيشربها فاترةً. أشار نسطور إلى أحد الشمامسة الواقفين عند الباب، فأسرع فى تنفيذ ما طلبتُ. وبقينا صامتين لحظةً، كان الأسقف تيودور ينظر خلالها نحوى، وكنتُ أنظر نحو أقدامى.. عندما دخل الخادمُ حاملاً القدح، تناول منه نسطور شربة قبل أن يقدِّمه إلى الأسقف.

- كيف وجدت طعمه يا نسطور الحبيب؟

- طيبٌ يا نيافة الأسقف، وفيه حلاوةٌ وعطرية، وسيكون فيه الشفاء، بمشيئة الرب.

استبشر الأسقفُ، وبدت على وجهه علامات الارتياح. اعتدلَ فى جلسته، وهَمَّ بارتشاف القدح وهو يقول:

- بوركتَ يا نسطور، وبوركتُ أيها الأب الطبيب. ما اسمك؟

- هيبا، يا نيافة الأسقف.

- عجيبٌ. متى اتخذت يا مصرىُّ، هذا الاسم غير المصرىِّ.

ـ بعد خروجى من الإسكندرية يا أبتِ.

ـ ومن أين دخلت إليها؟

بلطفٍ بالغ، تدخل نسطور فى الحوار، راجيًا الأسقف أن يرقد قليلاً ليرتاح. ردَّه الأسقف تيودور بابتسامةٍ عذبة، وداعبه بمودةٍ قائلاً:

ـ دَعْ عنك مشاعر الأبوة يا نسطور، فإن أبى مات منذ زمن طويل، وأنا فى طريقى إليه.. فدعنى أُحادثُ الطبيب الراهب، فأنا مرتاحٌ للنظر إليه. فالاندهاشُ البرئ الساكن فى عينيه، يذكِّرنى بالدهشة التى كنتُ أراها فى عينىْ شقيق روحى، يوحنا فم الذهب، حين كنا صغارًا.

هَزَّ نسطور رأسه مستسلمًا، وتهيَّأ للترحُّل عن المجلس وهو يقول بصوتٍ خفيضٍ رقيقٍ:

ـ كما تحبُّ يا صاحب النيافة.. سأراك ياهيبا بالغرفة الكبيرة، بعد أن تفرغا من حديثكما.

ـ لا يا نسطور، اجلسْ معنا. وأنت يا هيبا، قل لى أين وُلدت، ومتى دخلت الإسكندرية؟

أشار نسطور إلى الشمامسة الثلاثة والخادمين الَّذين كانوا عند الباب، فانصرفوا جميعًا. لم ينقطع حديثنا، إلا حين دخل خادم النُـزُل حاملاً طعام العشاء على طاولةٍ خشبيةٍ قديمة، وضعها إلى جهة اليمين من سرير الأسقف. اعتدل تيودور عن اتكائه، ودعانا للتحلُّق حول الطعام مداعبًا نسطور بقوله، بالسريانية: قد تكون هذه اللقيمات، هى العشاءُ الأخير بالنسبة لى.

ـ فليُمدَّ لنا الرَّبُّ الرحيمُ فى عمرك يا أبتِ، فنحن أبدًا فى حاجة إليك.

أكلتُ معهما على استحياء.. كان الأكل طيبًا شهيًا، ولما امتدحتُ مذاقه، قال لى القَسّ نسطور ممازحًا: هو *طعامٌ مباركٌ، مطهوٌ بالمزامير، على نار التَّسْبحة الهادئة!* ابتسمنا لدعابته، وعاد الأسقفُ للالتفات ناحيتى مشجِّعًا على إكمال ما كنتُ أحكيه. كنتُ قبلها قد أخبرته بمولدى فى القرية التى بجنوب أسوان، وبدراستى فى نجع حمادى وأخميم. وبالطبع، لم أقصّ عليه ماوقع معى من فواجع عند طرف جزيرة إلفنتين، وما جرى أمامى من أهوال فى الإسكندرية، ثم هجاجى منها يومَ الفزع العظيم. كان الأسقفُ مهتمًا وهو يسمع لى بإصغاءٍ مهذَّبٍ، وكان مبتسمًا، فلم أشأ أن أبدِّد ابتسامته بحكاية الفواجع وذِكْرِ صوادمِ الأيام.. سألنى وهو يمضغ لقيمةً قدَّمها له نسطور مغموسةً فى زيت الزيتون والسعتر الجبلىِّ:

ـ هل درست المنطق يا ولدى؟

ـ نعم يا نيافة الأسقف، درسته فى أخميم على يد رجلٍ غير مسيحى، أصله من ناحية أسيوط. كان ماهرًا فى الفلسفيات القديمة، ومتبحِّرًا..

ـ هذا منطقىٌّ يا ولدى. فمن هذه الناحية جاء أهمُّ فيلسوف. أتعرف يا هيبا، مَنْ أقصد؟

تردَّدتُ قليلاً ثم قلت مُتصنِّعًا الأدب، حسبما يليق بمقام الأسقف:

ـ لا ، يا نيافة الأسقف، لا أعرف!

ـ قُل له يانسطور.

ـ نيافة الأسقف يقصد أفلوطين.

ـ نعم يا أبتِ نسطور، نعم.

ابتسم نسطور وهو ينظر إلىَّ بطرف عينه، بما معناه أنه أدرك أننى أحجمتُ

عن الإجابة تأدُّبًا مع الأسقف، فنظرتُ إلى أصابع قدمى خجلاً. لم يلحظ الأسقف تيودور شيئًا من ذلك، فقد كان يحلِّق بنظره فى سماء الغرفة.. بدا لى كأنه يحدِّث نفسه، أو يناجى رفيقه القديم يوحنا فم الذهب، قائلاً:

ـ *إننى أفكِّر كثيرًا فى أفلوطين، وفى مصر. فأرى أن كثيرًا من أصول الديانة أتتْ من هناك، لا من هنا! الرهبنةُ، حُبُّ الاستشهاد، علامةُ الصليب، كلمة الإنجيل.. حتى الثالوثُ المقدَّسُ، هو فكرةٌ ظهرت أولاً بنصوعٍ عند أفلوطين، وقد قال فى كتابه التاسوعات..*

لا أعرف كيف اندفعتُ فجأةً، فقلتُ بلا روية مقاطعًا تأملات الأسقف: *لا يا أبتِ، ثالوث أفلوطين فلسفىٌّ؛ هو عنده: الواحد والعقل الأول والنفس الكلية، والثالوثُ فى ديانتنا سماوىٌّ ربانىٌّ: الآب والابن وروح القدس، وشتَّان بين الاثنين.*

ـ مهلاً أيها الراهب، لايجوز لك أن تقاطع نيافة الأسقف هكذا.

أوقفتنى عبارةُ نسطور الحاسمة، عن اندفاعتى المباغتة التى ما كان لها معنى. لحظتها اعترانى خجلٌ لم يخفِّف منه عطفُ الأسقف تيودور، الذى نظر نحوى بحنوٍ بالغ، وعلى وجهه الابتسامة ذاتها. غير أنها صارت باهتةً بعض الشئ، ومُتعبة.

وضع الأسقفُ يده اليمنى على كتفى اليسرى، ودعا لى بالبركة وهو يرسم الصليب فوق جبهتى بإصبعه، ثم تزحَّف نحو مخدَّته.. وهكذا لم يبق أمامى إلا الانصراف، بعدما اعتذرتُ للأسقف متلعثمًا. وقد وددتُ لو تبتلعنى الأرض، لأخلص من خجلى.

ـ لاعليك يا هيبا. الشبابُ شعلةٌ متأجِّجة، وقد كُنَّا فى مثل عمرك متأجِّجين مثلك. يا نسطور الحبيب، اصحبْ الراهب الطيب إلى الخارج. وترفَّق معه، فإننى أحببته.

ـ لاتقلق عليه يا أبتِ. سأمشى معه إلى حَدِّ صومعته، عند بوابة كنيسة القيامة؛ فأنا ذاهبٌ إلى هناك لأداء صلوات الليل، وحضور القُدَّاس.

ـ باركك الرَّبُّ يا نسطور.

لما خرجنا من النُّـزُل، سار من خلفنا اثنان من الشمامسة، ورجلٌ نحيلٌ فى حدود الأربعين من عمره، أظنه كان من خُدَّام أسقفية أنطاكية. مشوا خلفنا على مقربة، ومشينا صامتين. نسطور يسبِّح فى خفوت، وأنا خجلان فى صمت.. فى منتصف الطريق، فاتَحنى بالسؤال: *هل قرأت يا هيبا كتاب أفلوطين المسمَّى التاسوعات*؟ فأجبته بحذر:

ـ نعم يا أبتِ، ودرسته عدة شهور فى نجع حمادى.. ومعى نسخةٌ منه، يزيد عمرها عن مائة عام.

ـ جيدٌ، أحبُّ أن أراها.

طمأنتنى إجابته، فطرحتُ عنى بعض حذرى. وقد وددتُ أن يستمرَّ بيننا الكلام، فقلتُ إن الكتاب فى صومعتى، ثم أضفتُ متردِّدًا:

ـ وعندى أيضًا كتابٌ آخر قد تحب أن تراه! قد تحب.. هو كتاب آريوس، الذى عنوانه: ثاليا.

ـ ثاليا! هذه القصيدة قرأناها منذ زمنٍ فى أنطاكية، وكنتُ أظنُّ أن نسختنا هى الوحيدة التى نجت من الحرق. دعنى على كل حال أرى نسختك، هل هى كاملة؟

ـ نعم يا أبتِ، ومكتوبة بالقبطية على ورق البردى.

ـ بالقبطية! عجيبٌ.. بكم لغةٍ تقرأ يا هيبا؟

ـ أربع يا أبتِ: اليونانية والعبرية والقبطية والآرامية. وأحبُّها إلى قلبى الآرامية، لأنها اللغة التى تكلَّم بها يسوع المسيح.

ـ لم نعد نسميها الآرامية، بل نقول السُّريانية، ليتميز زمانها المسيحى المبارك عن زمانها الأول، الوثنى واليهودى.

ـ أوافقك الرأى يا أبتِ، أوافقك تمامًا. فاللغة لا تنطق بذاتها، وإنما ينطق بها أهلُها، فإن تغيَّروا تغيَّرت. وكلام يسوع المسيِّح غيَّر اللغة مثلما غيَّر أهلها، لقد صيَّرها لغةً مقدَّسة.

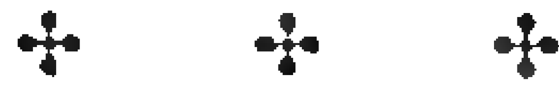
ـ صحيحٌ يا هيبا، صحيح يا ولدى..

كان كلامه معى مؤنسًا، فطرحتُ عنى المزيد من حذرى، وأحببتُ أن يمتدَّ حديثنا إلى آخر الليل. كانت خطانا الهادئة قد قادتنا من الشوارع الضيقة، إلى الطرق الرحبة.. لما اتسعت أمامنا الساحةُ الفسيحة، بدت الكنيسةُ الكبيرة بقبابها العالية، كأنها حلمٌ يلتف بالسواد المزخرف بنجوم الليلة الربيعية الرائقة. كانت صومعتى قد ظهرت لنا من بعيد، حين قال نسطور بعد هنيهةٍ من صمت:

ـ حفظك الربُّ يا هيبا.. بمناسبة كلام السيد المسيح، هل لديك نسخةٌ من إنجيل توما؟

ـ نعم يا أبتِ، وعندى أيضًا نسخةٌ قديمة من إنجيل المصريين، وإنجيل يهوذا، وسِفْر الأسرار.. فأنا أحبُّ اقتناء الكتب.

ابتسم المبجل نسطور وهو يقول إننى أحتفظ بكل الكتب الممنوعة! فقلتُ إن الكتب المسموح بها، موجودةٌ فى الكنيسة، وفى كل مكان! فاتَّسعت ابتسامته. اغتنمتُ الفرصة السانحة، فدعوته إلى صومعتى، من بعد أن نؤدى صلاة الليل فى كنيسة القيامة. أعجبته الفكرة فوافق، وسعدتُ بموافقته. لم أكن أعلم أن هذه الجلسة التى طالت بنا إلى حدود الفجر، سوف تتحوَّل معها حياتى، وأتحوَّل بعدها من أورشليم إلى الشمال، حيث يستقر بى المقام اليوم فى هذا الدير المنفرد بذاته، النائى عن بلادى الأولى.. الموغل فى النّأى.



عدنا من الكنيسة الكبيرة إلى صومعتى، مستبشرين بلقاءٍ مفعم بالمحبة. شعرتُ ليلتها باطمئنانٍ غامرٍ فى رفقة نسطور. فتحتُ باب الصومعة، وأضأتُ السراج النحيل الذى كان معلَّقًا بالركن الأيمن، وأبديتُ لضيفى الكبير الترحاب. لما فتحتُ شباكى الوحيد، سَرَتْ فى الصومعة نسمةٌ باردةٌ أتت من السماء الصافية، فامتلأت الأجواء بنسمات المحبة. نظر نسطور طويلاً فى صورة العذراء المعلَّقة فوق سريرى، ولم يقل شيئًا.. بعد حينٍ، أجال عينيه فى أرجاء الغرفة، وقال:

ـ صومعتك نظيفة ومرتَّبة يا هيبا، تدلُّ على شخصيتك. أين الكتب التى حدثتنى عنها؟

ـ تحت السرير الذى تجلس عليه يا أبتِ.

ـ نادِنى باسمى يا هيبا، فكلنا أخوةٌ.. كلنا خرافٌ ضعافٌ فى حظيرة الرب.

ـ بل أنت يا أبتِ، أقرب إلى الراعى. حفظك الرب بعنايته الأزلية الأبدية.

ضحك نسطور بعذوبةٍ نورانيةٍ، وهو يقوم ليُسنح لى الفرصة لطىّ الكليم الدمشقى المنسوج من وبر الجمال، الكليم المزركش الذى ما يزال إلى الآن مفروشًا تحتى، بل هو فرشتى الوحيدة منذ ذاك الزمان. رفعتُ ألواح السرير، فبدت الكتبُ ولفائفُ البردى. لما رفعتُ اللوحة

الأخرى وانكشف كنـزى المخبوء كله، أطل نسطور من شباكى، ونادى على التابعين الثلاثة، ولما اقتربوا منه أمرهم بالعودة إلى النُّـزُل.

ـ يبدو أنى سأبيتُ الليلة عندك، يا هيبا.

ـ يسعدنى ذلك يا أبت المبجَّل. سأنام أنا على هذه الأريكة.

ـ لا أظنُّ أن أحدًا منا سوف ينام الليلة!

طيلة الوقت الذى كان نسطور خلاله يقلِّب كنوزى بعناية، كنتُ ألتفتُ دومًا إلى ملامحه البهية المشرقة، بينما أعدُّ لكلينا مشروبَ النعنع الجبلى الفوَّاح الدافئ، وطبقًا من البلح والتين المجفَّف.. فى هيئته وقارٌ وطيبةٌ أصيلة، عيناه الواسعتان لونهما مشوبٌ بخضرةٍ وعسلية، وفيهما شغفٌ وذكاء. فى وجهه الأبيض حمرةٌ خفيفة، وفى لحيته الأنيقة اصفرارٌ لطيفٌ، وقليلٌ من الشعر الأبيض الذى يزيده بهاءً. فى سمته صفاءٌ ربانىٌّ يفتقر إليه كثيرٌ من الرهبان، الكبار منهم والصغار.

بعدما قرَّبت منه كوب النعنع، وزدْتُ من ضوء السراج. جلستُ على الأريكة المقابلة للسرير المخبأ، أتأمَّل ابتسامته البهية. رأيته أنموذجًا سماويًا لما يجب أن يكون عليه رجل الدين. انتبهتُ إليه حين قال وهو يهزُّ رأسه اندهاشًا:

ـ خُطب شيشرون! يالك من ماكرٍ أيها الراهب المصرى، أنت تحبُّ الفصاحة مثلنا.. وما هذا المجلَّد الكبير؟ مدينةُ الله.

ـ نعم يا أبتِ الجليل، هو كتاب الأسقف أوغسطين. هذان الجزءان هما الأول والثانى منه، فهو لم يتمُّ الكتاب بعد.

ـ أعرفُ يا هيبا، أعرفُ. لكننى أستغرب وصوله إليك هنا.

ـ يا أبتِ الجليل، الحجَّاجُ يأتون معهم بكل جديدٍ وقديم، فيهدوننى الكتب أحيانًا، وأحيانًا أشتريها منهم. على أن هذا الكتاب ليس جديدًا تمامًا، فالجزءُ الأول منه مؤرَّخ بالسنة الثالثة عشرة بعد الأربعمائة لميلاد مخلِّصنا المسيح.. مضى عليه أكثر من عشر سنوات.

سألنى إن كنت أعرف دلالة تاريخ تأليف الكتاب، فنفيتُ تأدُّبًا، وطلبتُ منه التفضُّل علىَّ بإخبارى؛ فاستدار نحوى وقد ازدادت ابتسامته إشراقًا وزينةً ربانية. أخبرنى بوقائع كنتُ أعرفها، ولا أربط بينها؛ قائلاً ما ملخَّصه: *أوغسطين رجلٌ مبارك، ولم يسبقه فى أسقفية أفريقية مَنْ هو مثله، وربما لم يسكن مدينة هيبو، مَنْ هو مثله فى الفضل والهمة العالية. لكنه التحق بخدمة الرب متأخرًا، بعدما قضى معظم حياته جنديًا، وخاض حروبًا كثيرةً. وفى العام العاشر بعد الأربعمائة للميلاد المجيد، جرت الحربُ التى سقطت فيها روما سقوطها المدوِّى، بأيدى القوط، وإن كانوا لم يخرِّبوها، كما كان متوقعًا منهم. وروما كما تعلم، هى عاصمةُ العالم ومدينةُ الدنيا. وإذا سقطت الدنيا، تعالت السماء! وفى مقابل سقوط مدينة الإنسان، يكون المجد لمدينة الله.. لقد أراد الأسقفُ أوغسطين بعدما أمعن فكره لسنواتٍ ثلاث تلت سقوط روما المؤقَّت؛ أن يعلنه سقوطًا أبديًا. ويعلن بعنوان كتابه، أن مدينة الله لن تسقط أبـدًا، مثلما سقطت مدينة الإنسان التى هى فانيةٌ بالضرورة. وأراد أيضًا، أن يُبرئ المسيحية من اتهام الجهَّال لها بأنها سببُ السقوط المروِّع لروما..*

ثم سألنى عن بقية كنـزى المخبوء، فأخرجتُ له الكيس الذى أحفظ فيه النصوص المصرية. راح يسألنى عن عناوين الكتب ولفائف البردى

القبطية، فأجيبه، أو أجيبه من قبل أن يسألنى.. بعدما نظر طويلاً فى الترجمة القبطية لميمر الرحلة المقدسة، الذى كتبه الأسقفُ ثيوفيلوس السكندريُّ، اكتست ملامح نسطور بالأسى، وأخذه شرودٌ مفاجئ لم أدرِ له سببًا. قلتُ، كى أُخرجه من شروده:

ـ *ميمر الرحلة المقدسة، كتابٌ مشهور فى مصر. ألم تر أصله اليونانى يا أبتِ؟*

ـ *رأيته، لكننى يا هيبا أفكِّر فى جرأة هذا الأسقف. كيف له أن يحكى عن السيدة العذراء، مريم المبجَّلة، ويورد عنها الأوصاف والأقوال، غير مستندٍ إلا لدعواه بأنه رآها فى منامه.. هه، ما علينا من ذلك. ما هذه اللفافة القبطية القديمة، وما هذه الصور الدقيقة المرسومة فيها؟*

شكرتُ الربَّ فى نفسى، لأنه أدار دَفَّة الحوار بعيدًا عن سيرة الأسقف ثيوفيلوس وكتابه. فقد كنتُ، ومازلتُ، أضطرب قلقًا كلما طَرَقَ سمعى، ذكرُ أساقفة الإسكندرية. أجبتُ بسرعة على سؤال نسطور الأخير:

ـ لا شئ يا أبتِ، إنه كتاب الخروج إلى النهار، الذى يحكى عن يوم البعث، وعما يجب أن يشهد به الموتى على أنفسهم فى حضرة الآلهة، بحسب المعتقد المصرى القديم.. وتلك صورُ الآلهة القديمة، القديمة جدًا.

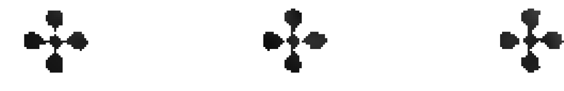
ـ صورٌ بديعة. ومَنْ هذا الرجل الممسك بعجلة الفَخَّار؟

ـ يسمونه خنوم، يا أبتِ.. الإله خنوم، الذى كان القدماء يعتقدون أنه يصنع البشر من طين الصَّلصال، ثم ينفخ فيهم آمون، ليهبهم الحياة. عقيدةٌ قديمةٌ يا أبتِ.. عقيدةٌ قديمة.

خنوم، اسمٌ عجيب. هل يذكِّرك بشئ يا هيبا؟

نعم، يذكرنى بأشياء.. ولكن كيف عرفت يا أبتِ المبجَّل؟

ـ من اضطراب قلبك، بل أرى عينيك تكادان تَدمعان.



لم يكن البوحُ يومًا من صفاتى، ولا الاطمئنانُ لأحد. غير أنى رحتُ ليلتها، أحكى لنسطور عن معبد الإله خنوم الذى يستقبل جريان النيل، عند الطرف الجنوبى من جزيرة إلفنتين الواقعة جنوب مصر، بالقرب من أسوان. حكيتُ له عن المهابة المعتَّقة والقدسية المبثوثة فى أرجاء المعبد وأسواره منذ قرون، وحكيتُ عن أبى الذى كان يحمل السمك كل يومين، للكهنة الحزانى المتحصِّنين فى المعبد منذ سنين. الكهنةِ المحصورين، المتحسِّرين على اندثار ديانتهم، مع انتشار عقيدة المسيح. كان أبى يصحبنى فى قاربه، كلما زار المعبد ليقدِّم للكهنة نصف ما علق فى شباكه من سمك، خلال اليومين. كنا نذهب للمعبد خفيةً، وقت الفجر.

لم أستطع منع ما انفلت من دموعى، حين وصفتُ له فزعى المهول فى ذاك الفجر المروِّع، يومَ كنتُ فى التاسعة من عمرى؛ فقد تربَّص بنا عوامُ المسيحيين عند المرسى الجنوبى، القريب من بوابة المعبد. كانوا يختبئون خلف الصخور من قبل رسوِّ القارب، ثم هرولوا نحونا كأشباحٍ فَرَّتْ من قعر الجحيم. قبل أن نفيق من هول منظرهم، كانوا قد وصلوا إلينا من مكمنهم القريب.. سحبوا أبى من قاربه، وجرُّوه على الصخور ليقتلوه طعنًا بالسكاكين الصدئة التى كانوا يخبئونها تحت ملابسهم الرثة. كنت أزومُ متحصِّنًا بانكماشى فى زاوية القارب، وكان أبى غير متحصِّنٍ بشئ، يصرخ تحت طعناتهم مستغيثًا بالإله الذى كان يؤمن به. كهنة خنوم أفزعتهم الأصوات التى شَقَّت السكون، فاصطفوا بأعلى سور المعبد ينظرون إلى ما يجرى تحتهم بوجلٍ واضطراب.. كانوا يرفعون أيديهم

مبتهلين لآلهتهم ومستصرخين! ما كانوا يدركون أن الآلهة التى يعبدون، ماتت منذ زمن بعيد. وأن دعاءهم الفَزِعَ، لن يسمعه أحدٌ.. ولن يجير أبى من أولئك السفاحين أحدٌ.. ولن يدرك عمق عذاباتى من بعد ذاك الفجر أحدٌ.

ـ يا مسكين. وهل اقترب الجهَّال يومها منك؟

ـ ليتهم قتلونى لأستريح للأبد.. لا يا أبتِ، لم يقتربوا كثيرًا. نظروا نحوى بعيون ذئابٍ قد ارتوت، وجاءوا للقارب، فخطفوا مِشَنَّةَ السَّمَكِ، وقذفوا بها فى وجه بوابة المعبد المغلقة بإحكام، ثم حملوا جثة أبى المهترئة، فألقوا بها فوقها. اختلط دمُه ولحمُه وأسماكُه بترابِ الأرض التى ما عادت مقدَّسة، ثم تملَّكتَهم نشوةُ الظفر والارتواء، فتصايحوا وقد رفعوا أذرعتهم الملطَّخة بدم أبى، وراحوا وبأيديهم السكاكين الصدئة المضرَّجة بالدم، يلوِّحون فى وجه الكهنة المذعورين فوق السور.. مضوا من بعد ذلك متهلِّلين، مهلِّلين بالترنيمة الشهيرة: المجدُ ليسوع المسيح، والموتُ لأعداء الرَّبِّ.. المجدُ ليسوع المسيح، والموتُ لأعداء الرَّبِّ.. المجدُ ليسوع..

أخذنى النشيجُ، فقام نسطور ليأخذنى فى عباءته، وقد انكمشتُ مثلما فعلتُ أول مرة. جلس جوارى وهو يربت على رأسى، ويرسم علامة الصليب مرارًا على جبهتى، وراح يردِّد: *اهدأ يا ولدى*.. ثم قال: *يا ولدى، حياتُنا مليئةٌ بالآلام والآثام، أولئك الجهَّال أرادوا الخلاص من موروث القهر بالقهر، ومن ميراث الاضطهاد بالاضطهاد، وكنتَ أنت الضحية. أعرفُ أن ألمك عظيمٌ، أنا أشعرُ به؛ فليشملنا الرَّبُّ الرحيم بعطفه.. قُمْ يا ولدى لنصلِّى معًا صلاة الرحمة.*

ـ بأىِّ شئٍ ستنفع الصلاة يا أبتِ.. مَنْ ماتَ مات، ولن يعود؟

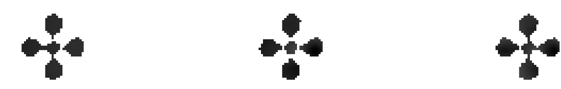
ـ ستنفع الصلاة يا ولدى.. ستنفع.

أتانى صوتُ نسطور وقد تهدَّجت نبرته. ولما رفعتُ رأسى عن صدره الحانى، رأيتُ دموعًا تبلِّل لحيته، ورأيتُ عينيه تحتقنان بالاحمرار والأسى. كان الألم مبثوثًا فى قسمات وجهه، ومنعكسًا على جبهته التى اكتستْ بأسفٍ عميق.

ـ لقد آلمتك يا أبتِ.

ـ لا ياولدى، لا عليك.. قم لنصلِّ.

بخشوع العذراء صلَّينا، وأطلنا فى الصلاة حتى جاء النورُ، فصبغ سواد السماء زُرقةً عميقة. فى جلستنا الصامتة عقيب الصلاة، كانت تأتينا من بعيدٍ أصداءُ صياح الديكة، وزقزقَة العصافير التى كانت نائمة على أغصان الأشجار العتيقة فى ساحة الكنيسة.. أخرجنا نسطور من صمتنا، بدعوته للخروج معه كى نمشى حول سور الكنيسة، فنستقبلُ كما قال: *بعضًا من رحماتِ الرَّبِّ، فى هذا الفجر المبارك!*



فى الوقت الممتد من بزوغ الضياء، إلى ارتماء نور الصبح على الأرض من حولنا. دُرنا مرتين فى الفراغ الفسيح المحيط بأسوار الكنيسة، ثم سرنا إلى الجهة المقابلة حيث تتراصُّ البيوت وتتلاحم لتطمئن. فى نور الصبح إنهاكٌ لمن أرقوا ليلتهم، إنهاكٌ عاينته وعانيتُ منه طويلاً، ومازلتُ أعانيه فى معظم الأيام.. على وقع خطواتنا الهادئة، حكى لى نسطور بعضًا من ذكريات طفولته فى بلدة مرعش، وشيئًا من وقائع شبابه فى أنطاكية، وحكايات كانت بينه وبين أستاذه تيودور المصيصى، وغير ذلك مما جرى

معه خلال سنى حياته. كان نسطور فى ذاك اليوم الأورشليمى الذى جمعنا من دون تدبير، يبلغ من العمر واحدًا وأربعين عامًا. وبالطبع، لن أحكى الآن ما حكاه لى يومها عن نفسه، فهذا مما لا يصحّ تدوينه ولا يجوز. فأنا أعرفُ أنه ما حكى لى ما حكاه يومها، إلا ليسرِّى عنى، مؤتمنًا إياى على أسرارٍ لاتخصنى، ومن المحال أن أبوح بها هنا.

بعد نهاية دورتنا الثانية حول الأسوار، وعندما اتخذنا طريقنا نحو البيوت. رأينا الناس من بعيدٍ يبدأون حركة أيامهم المعتادة، ولمحنا ثلاثةً من الشمامسة الأنطاكيين ينتظروننا أمام باب صومعتى المغلقة، كانوا يتلفَّتون حولهم بقلق. لما وصلنا إليهم، ودَّعنى نسطور، وذهب معهم فى اتجاه مقر إقامتهم بعدما قال لى وقد عاودته ابتسامته، مثقلةً بأحمال ليلتنا الطويلة: *يمكنك أن تنضم إلينا اليوم ساعة الغداء، فإن لم تقدر، فسوف ألقاك فى ساحة الكنيسة بعد صلاة الساعة التاسعة*. يقصد أوان العصر، حيث نقيم الصلاة الأخيرة من صلوات النهار.

عدتُ إلى صومعتى وقد بلغ بى الإنهاك غايته، حتى أن الوسن أخذنى عند الباب.. وحين دخلتُ ارتميتُ على سريرى، ونمتُ نومًا رحيمًا خلا من أىِّ أحلام. أيقظنى ساعة الظهيرة صَخَبُ الزوار عند باب الكنيسة، فقمتُ ببدنٍ مُثقل ورُوحٍ مجهدة. وبخطوات مترنِّحة، سرتُ نحو جرة الماء. شربتُ سهوًا، ثم غَسلتُ وجهى بقطرات صببتها على باطن كَفِّى.. لما فتحتُ جزءًا من شباكى، انهمر النورُ، فملأ جنبات روحى بإشراقٍ مفاجئ. كنتُ أعيد ترتيب الكنوز المخبوءة تحت سريرى، حين أخرجنى من السكون طَرْقٌ خفيفٌ على الباب، ومناداةٌ اعتدتُ عليها أيامها: *يا أبتِ الطبيب الراهب*.

كان الطارق رجلاً عربيًا يلبس زِىَّ التجار، جاءنى يشكو ماءً نزل بعينه اليسرى قبل سنين، وصار يغشى عينه اليمنى. ولأن الماء الذى بعينيه، لم يكن متجمِّعًا فى موضع واحد بحيث يمكن سحبه بالأنبوب الدقيق، أعطيته مسحوقًا يتضمَّد به، وطَلبتُ منه أن يعود بعد شهرين.. بعد شهرين! تُرى، هل عاد الرجلُ بعد الشهرين، فلم يجدنى هناك؟

سألنى العربىُّ يومها عن الأجر، فقلت عبارتى المعتادة: *أجرى عند الرب. ويمكنكَ إنْ شئتَ أَنْ تهبَ شيئًا على سبيل التبرُّع للكنيسة*. تركنى الرجلُ بعدما أن شَكرنى محاولاً تقبيل يدى، ولما أغلقتُ بابى وراءه عدتُ إلى عالمى الداخلى الملئ بشجون المسجون، وبالإشراق المفاجئ الذى تملَّكنى من غير تمهيد. أكملتُ ترتيب كتبى ولفائفى، وأعدتها تحت سريرى مثلما كانت، وبعدما رتَّبتُ ما فى الصومعة من متاعٍ فقير، خرجتُ قبيل العصر إلى ساحة الكنيسة.

لم يكن الجو حارًّا، غير أننى آويتُ إلى الركن الظليل. وعند موضعى المعتاد، بالجانب الأيمن من الساحة، بعد البوابة الكبيرة، أسندتُ مؤخرة رأسى إلى شجرتى الوارفة التى كانت أحبَّ الشجرات هناك إلى قلبى.. غمرنى إجهادُ العائدِ من سفرٍ طويل، ورحتُ أتوهَّم بعدما أغمضت عينى، أننى صرتُ والشجرة كيانًا واحدًا. أحسستُ بروحى تنسحبُ من ضلوعى، فتتخلَّل جذعَ الشجرة، ثم تغوص فى جذورها العميقة، وتتوغَّل فى قلب فروعها العالية. كان كيانى يتمايل مع أوراقها، ويتساقط بعضى مع سقوط الأوراق من أغصانها. تذكَّرت وقتها، ما قرأته فى أخميم من شذرات فيثاغورث حيث يقول إنه تذكَّر فى لحظة إشراقٍ كثيرًا من حيواته السابقة. منها حياةٌ كانت روحه فيها شجرة! تمنيتُ ساعتها لو أصير شجرةً مثل هذه، للأبد، شجرةً وارفةَ الظلال وغيرَ مثمرة، فلا تُرمى بالحجارة، وإنما تهواها القلوبُ لظِلَّها. هذه البلاد قاحلة وجفافها شديد، فلو صرتُ هذه الشجرة سأحنو على الذين يستظلُّون بى، وسيكون ظِلِّى رحمةً لهم أمنحها بلا مقابل. سأكون مأوىً للمنهكين، لا مطمعًا لطالبى الثمار.. ابتهلتُ يومها

بحرقة الغريب عن دياره وعن ذاته، وناديتُ ربى فى سِرِّى: *يا إلهى الرحيم خذنى الآن إليك، خلِّصنى من جسدى الفانى.. هلاَّ ودعت روحى وديعةً فى هذه الشجرة الحبيبة، فأزداد تطهُّرا؛ إذ أحنو كل ظهيرةٍ على زوار هذه البقعة المقدسة من الحجيج المتطهِّرين بنورك من آثامهم. سأنتظرُ فى الشتاء سقوطَ مطرِ محبتك للكون، وأستنشق كل صباح قطرات الندى التى يهبنى إياها برد الليل، ولن يشغلنى أمرٌ عن تسبيح مَجْدِكِ السماوى.. الشجرُ أنقى من البشر، وأكثر حُبًا للإله. لو صرتُ هذه الشجرة، سأنشر ظِلِّى على المساكين..*

ـ هل أنت نائم، يا هيبا؟

انتبهتُ وابتهجتُ، لما فوجئتُ بالقسِّ نسطور جالسًا بجوارى. اعتدلتُ فى جلستى وهززتُ رأسى، بما يفيد أننى لم أكن نائمًا. سألنى برفقٍ باللغة السريانية، لا باليونانية التى هى لغته المعتادة، قاصدًا مفاكهتى: فى أى بحرٍ من الأفكار كنت غارقًا، أيها المصرىُّ الطيبُ؟

ـ يا أبتِ، تتقاذفنى أحيانًا أفكارٌ عجيبةٌ. كنتُ الآن أتمنى لو كنت هذه الشجرة التى نستظل بها!

ـ من أين ياولدى تأتيك هذه الأفكار؟

ـ من باطنى العميق، ومن الماضى البعيد. كان فيثاغورس يقول..

ـ فيثاغورس! هذا يا هيبا تراثٌ وثنىٌّ قديم.

أربكنى اندفاعى الدائم فى حضرته، وخفَّف هو من ارتباكى بلمسةٍ حانية من يده. مَسَّ غطاء رأسى بأطراف أصابعه المباركة، وراح يتلو فى خفوتٍ شيئًا من المزامير، ثم أغمض عينيه وهو يرسم علامة الصليب على رأسى المغطى بالقلنسوة المليئة بالصلبان.. هدأت نفسى حين قال بصوتٍ هامسٍ، وكأنه يناجى ملائكة السماء: *مباركٌ أنت يا هيبا، بنور الرَّبِّ.*

ـ ياأبتِ، هل ترى أن الوثنية كلها شرٌّ؟

ـ الله لا يخلق الشر.. ولا يفعله.. ولايرضى به، الله كله خيرٌ ومحبة. لكن أرواح الناس كانت تخطئ الطريق فى الأزمنة القديمة، حين يظنُّون أن العقل كافٍ لمعرفة الحقيقة، من دون خلاصٍ يأتيهم من السماء.

ـ عفوًا يا أبتِ المبجَّل، ولكن فيثاغورس كان روحًا طيبة، مع أنه عاش زمنًا وثنيًا.

ـ يجوز ذلك. فالزمانُ السابق على مجيئ بشارة المسيح، كان أيضًا زمان الله، وشمسُ الله تُشرقُ على الأبرار والأشرار.. ومَنْ يدرى، فلعل الله أراد بمشيئته النافذة، أن يهيِّئ الإنسانية لمجيئ بشارة الخلاص، ببعض الإشراقات الممهِّدة للمسيح. وكلما اقترب زمانه، كانت علاماتُ مجيئه تتوالى وتكثر، حتى كانت العلامةُ الكبرى، يوحنا المعمدان، الصوت الصارخ فى البرية.

أعجبنى كلامه، ورأيتُ فيه إجابةً مقبولةً لمشكلة طالما شغلتنى. أعنى سِرَّ ارتباط يسوع المسيح بابن خالته يوحنا المعمدان! وكيف تسنَّى ليوحنا المعمدان وهو الإنسان، أن يعمِّد المسيح الذى هو الإله، أو ابن الإله، أو صورة الإله، أو مبعوث الإله، على اختلاف الأقوال فيه. سألتُ نسطور:

ـ ياسيدى، هل تعتقد أن يسوع هو اللهُ، أم أنه رسولُ الإله؟

ـ المسيحُ ياهيبا مولودٌ من بشرٍ، والبشرُ لايلد الآلهة.. كيف نقول إن السيدة العذراء ولدت ربًا، ونسجد لطفل عمره شهور، لأن المجوس سجدوا له!.. المسيحُ معجزةٌ ربانية، إنسانٌ ظهر لنا الله من خلاله، وحَلَّ فيه، ليجعله بشارة الخلاص وعلامة العهد الجديد للإنسانية. مثلما أوضح لنا الأسقف تيودور أمس، فى مجلسه الذى

رأيتك فيه أول مرة.. بالمناسبة، لماذا اضطربتْ روحك عندما أشار الأسقفُ إلى سِرِّ المعمودية؟

ـ إنك ثاقبُ النظر يا أبت.

ـ هذه ليست إجابة.

قال نسطور عبارته الأخيرة مازحًا، وكأنه أراد أن يرفع بيننا الكلفة، ويشجِّعنى على الكلام. ومن ثَمَّ، لم أجد حرجًا فى البوح له بواحدٍ من أخطر أسرارى. وقد عجبتُ يومها، من أن سِرِّى لم يدهشه. قلتُ ما معناه أن عندى شكٌّ فى معموديتى، فأمى كانت تؤكِّد أنها عمَّدتنى رضيعًا، وأبى كان ينفى. وأنا لا أذكرُ أننى دخلتُ كنيسةً فى طفولتى المبكرة، ولذلك أجدنى أقرب إلى تصديق أبى.. لم أشأ يومها أن أخبره بأننى عمَّدتُ نفسى، بعد خروجى من الإسكندرية! قلتُ ما معناه: *الظاهر يا أبتِ، أننى لم أُعمَّد فى صغرى!*.. وقد توقعتُ أن تُدهشه عبارتى، لكنه أدهشنى بقوله الهادئ:

ـ لا عليك، لابد أنك فعلت أو سوف تفعل بمشيئة الرَّبِّ. ولكن، كيف صرتَ راهبًا وأنت تشكُّ فى عمادك؟

ـ انتظمتُ سنين فى كنيسة أخميم الكبيرة، ورآنى معلِّمى القَسّ الأخميمى لائقًا بالرهبانية، فرسمنى حين التمستُ منه ذلك. ولم أكن قد أخبرته بشكىٍّ فى العماد؛ لأننى كنتُ قد نسيتُ وقائع طفولتى، أو تناسيتها حتى نسيتها.

ـ لابأس يا هيبا، كثيرون غيرك تأخَّر عمادُهم. ومنهم مَنْ صاروا مع الأيام أساقفة! أمبروزيوس أسقف ميلانو، ونكتاريوس أسقف القسطنطينية، لـم يعمَّدا إلا يوم رُسما أسقفين. قسطنطين نفسه، الإمبراطور، لم يعمَّد إلا على فراش الموت، وهو الملقب بمحبوب الإله وحامى الإيمان ونصير يسوع!

لاحظتُ أنه ذكر الألقاب المسيحية للإمبراطور قسطنطين، بنبرةٍ تمتزج فيها السخريةُ بالأسى. أردتُ أن أعرف منه أكثر مما باح به، فقلتُ متفاخرًا بما أعرفه مستفهمًا عن المزيد، إن هذا الإمبراطور أدَّى للمسيحية خدمات جليلة، نعيش اليوم فى ظِلِّها. فقد كان أهل ديانتنا فى زمانه قِلَّةً ضعيفة، لايزيد عددهم عن عُشر سكان الإمبراطورية، فصاروا اليوم أغلبية السكان فى الإمبراطورية شرقًا وغربًا، بعد مائة عام فقط على المجمع الكنسى العالمى (المسكونى) الذى رأسه هذا الإمبراطور.. أضفتُ: *أقصد يا أبتِ، مجمع نيقيه الذى حُرم فيه آريوس لقوله إن المسيح إنسانٌ لا إله، وإن الله واحدٌ لا شريك له فى ألوهيته.*

ـ إنك حقًا مراوغٌ يا هيبا.. ماذا تريد أن تعرف منى، أيها الطبيب النابه، والراهب الذى يشكُّ فى عِمَاده!

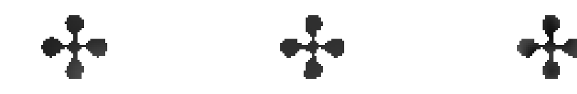
أدركتُ من ممازحته أنه لم ينزعج من كلامى، وأنه يودُّ الإفصاح بسرِّ هذا الأمر، الذى لايحبُّ رجالُ ديانتنا الخوض فيه. كنتُ أتحرَّق شوقًا لمعرفة رأيه فى آريوس الذى اختلف فيه الناس، وكرهته كنيسة الإسكندرية بأكثر مما تكره الشيطان.. حاول نسطور أولاً إلهائى عن مُرادى، بأن سألنى إن كنتُ مرتاحًا للإقامة فى أورشليم. لكننى رجوته الإجابة الشافية عن حقيقة أمر آريوس وأفكاره، قلتُ مستعطفًا: *أخبرنى بالحقيقة يا أبتِ المبجل، كما تراها بثاقب نظرك، وبقلبك الملئ بالورع، وبروحك الطاهرة وعقلك النابه، فإن شغفى لمعرفة هذا الأمر عظيِّم، ومؤرِّق.*

ـ إذن. قم بنا لنمشى نحو مقر إقامتنا، فإننى أود الاطمئنان على الأسقف تيودور. ولسوف أحدِّثك عن آريوس وبدعته، ونحن فى طريقنا.

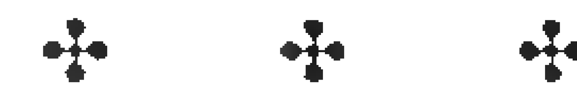
لم نسلك الطريق المباشر إلى النـزل، وإنما خرجنا من بوابة الكنيسة فمشينا يمينًا بحذاء سورها العالى، ثم عبرنا الأرضَ الواسعة الممتدة من

نهاية سور الكنيسة إلى بداية التحام المنازل، عند الناحية الشرقية من سور المدينة. كان هذا المسار أهدأ وألطف، وأبعد عن صخب الناس. كنا نمشى بخطىً رتيبة، ونتوقَّف أحيانًا إذا ما انهمك نسطور فى بيان نقطةٍ دقيقة. وهكذا وصلنا بعد ساعة أو أكثر، قال لى خلالها ما أنا متردِّدٌ الآن فى تدوينه، خاصةً فى هذه الأيام الحوالك المدلهمة.

.. سأقوم لأنام.



النومُ هبةٌ إلهيةٌ، لولاها لاجتاح العالم الجنون. كل ما فى الكون ينام، ويصحو وينام، إلا آثامنا وذكرياتنا التى لم تنم قط، ولن تهدأ أبدًا.. صحوتُ اليوم من نوم مليءٍ بأحلام قويةٍ، كأنها الواقع. أم تُرى واقعى هو الذى تهافت وبهت، حتىَ صار أحلامًا؟.. صرتُ أشعرُ بأنفاس الموت قريبةً منى، تكاد تلفحنى. أترانى سأموت أثناء نومى، أم فى الكنيسة وقت الصلاة؟ أظن أن خوفى من الانتهاء، وليس إلحاح عزازيل، هو دافعى للكتابة. أو لعلِّى أودُّ أن يصل صوتى، لأبعد مما يُنهيه موتى.. الشهر الماضى، مات أكبرُ رهبان هذا الدير سنًا، أثناء زيارته بلدة حلب. مات فى كنيسة أبرشيتها، أثناء القُدَّاس، ودُفن هناك. مات على عتبة الرب، طاهرًا من كل ذنوبه.. كيف سأموت أنا، وأين؟



الكتابةُ تثيرُ فى القلب كوامن العواصف ومكامن الذكريات، وتُهيِّج علينا فظائع الوقائع. فى فتراتٍ بعيدةٍ من حياتى، ومتباعدةٍ، كان إيمانى يؤنسنى، ويملأ وجودى غبطةً. واليوم تحيطُ بى الغيومُ من كل جانب، وتهبُّ فى باطنى الأعاصيرُ حتى تكاد تقتلعنى من الكون كله. كيف سينتهى الحال بنسطور، بعد كل ما جرى معه؟ وإلى أين ترانى سأذهبُ، بعد انتهاء هذا التدوين؟ وهل سأرى ثانيةً مرتا التى راحتْ، فظننتها أراحتْ، ثم عرفتُ بعد رحيلها لوعة القلق وعصف الاشتياق؟ ليتنى منعتها من الذهاب إلى حلب، وأعفيتها من خطر الغناء الليلى وسط سكارى التُّجّار وأراذل العرب، وأعفيتُ نفسى مما أعانيه الآن. عيناها الدامعتان لاتغيبان عنى مُذ رحلت، وقلقى عليها لم يهدأ.

ـ أنت السبب يا هيبا، أنت السبب؛ فهى توسَّلت إليك أن تنقذها من ذلك، وتنقذ نفسك، لكنك خنعت.

ـ عزازيل!

ـ نعم يا هيبا، عزازيل الذى يأتيك منك وفيك.

ها هو ثالوث عذابى قد اكتمل. قلقى على مصير نسطور، وشغفى بمصير مرتا، وطَلاَّت عزازيل المفاجئة.. إلى متى سأتحمل هذا العذاب؟ ومتى سينـزاح عنى هذا الهمُّ المثلَّث؟ يا إلهى، أدركنى.. فإننى..

ـ يا هيبا، دَعْ عنك اللكاعة، وأكملْ ما كنت تكتبه.

ـ وما الذى كنتُ أكتبه؟

ـ ما قاله لك نسطور عند سور أوروشاليم الشرقى. ولا تخش شيئًا، فلن تزيد كتابتُك الأمر سوءًا، ولا أظن أن أحدًا سيقرأ ما تكتبه قبل مرور سنين. فاكتبْ الليلة كى تكون. ومايدريك يا مسكين، فربما تأتيك بعد أيام اعتكافك الأربعين، أخبارُ نصرةِ نسطور من بعد هزيمته! وربما سترى مرتا ثانيةً فى ثوبها الدمشقى الخلاب، وتأخذها معك يوم رحيلك المنتظر، فتهنأ بها بقية عمرك، ويهدأ قلبك الملتاع.

عزازيل حججه قوية، وهو غالبًا ما يغلبنى.. أم ترانى جرَّأته علىَّ لأننى، سبما يزعمُ، أجلبه نحوى بتردُّدى الدائم وقلقى المزمن. على كل حال،

فلا مدعاة للقلق. فقد صار الصبحُ قريبًا، ولا خطر مما سأكتبه الآن. وقد أوشك هذا الرَّقُّ أن يمتلئ، ولم يبق فيه غير هذه المساحة الصغيرة النقية من المداد، ولسوف أكتبُ فيها خلاصة ما سمعته يومها من نسطور. سأكتبه بحروفى أنا، بالسُّريانية، فيكون ملزمًا لى، لا حجةً عليه.. قال لى المبجل نسطور فى أورشليم يومها، بلفظه اليونانى البليغ، ما ترجمته: *الحقيقة يا هيبا، أنَّ الأمرَ كله تلبيسٌ. فإبليسُ هو المحرِّك الرئيس لكل ما جرى قبل مائة عام فى مجمع نيقيه. أعنى بإبليس، شيطانُ السلطة الزمانية التى تغلب سَكْرتُها الناس، فينازعون الرب فى سلطانه، ويتمزَّعون فيما بينهم، فيفشلون وتذهب ريحهم بَدَدا. تغلبهم أهواؤهم، فيتحامقون ويخالفون روح الديانة، سعيًا لامتلاك حطام الدنيا الفانية.. ماجرى يا هيبا فى نيقية باطلٌ من تحته باطل، ومن فوقه باطل. فالإمبراطور قسطنطين كان متعجِّلاً لإعلان ولايته على أهل الصليب، حتى أنه لم يصبر على دعوته المسكونية للمجمع، إلى حين اكتمال مدينته الجديدة القسطنطينية، فعقد المجمع فى القرية المجاورة نيقية التى كانت، لسوء اختيار موضعها تسمى أيامها: مدينة العميان! وقبلها بعام واحدٍ، كان هذا الإمبراطور يقضى حياته مشغولاً بأمرٍ وحيدٍ، هو تثبيت سلطانه بالحرب ضد قدامى رفاقه العسكريين. ولما انتهى من حروبه إلى الظفر بهم، أراد الظفر بالولاية الدينية على رعاياه، فدعا كُلَّ رؤوس الكنائس للمجمع المسكونى، وأدار جلساته وتدخَّل فى الحوار اللاهوتى، ثم أملى على الحاضرين من الأساقفة والقسوس القرارات. مع أنه، فيما أظن، لم يقرأ كتابًا واحدًا فى اللاهوت المسيحى! بل إنه لم يكن يعرف اللغة اليونانية التى كان يحتدمُ بها الحوارُ اللاهوتى بين الأساقفة فى نيقية، ولم يكن يهتم أصلاً بالخلاف اللاهوتى بين القَسّ آريوس وأسقف الإسكندرية فى زمانه، إسكندر. يظهر ذلك من رسالة الإمبراطور إليهما، التى يصف فيها خلافهما حول طبيعة يسوع المسيح، بأنه خلافٌ تافهٌ وسوقىٌ وأحمقُ ووضيع! ويؤكِّد عليهما أن يحتفظا بآرائهما فى باطنهما، ولا يشغلا بها الناس. الرسالة مشهورةٌ، وفى الأسقفيات نسخٌ منها. ثم انتصر الإمبراطور للأسقف إسكندر ليضمن قمح مصر ومحصول العنب السنوىِّ، وحَرَمَ الراهب آريوس، وحَرَّم تعاليمه، وحكم بهرطقته كى يرضى الأغلبية من الرعية، ويصير بذلك نصير المسيحية.. لقد ضيَّع الإمبراطور قسطنطين قديمًا، حكمة آريوس.. مثلما تضيع اليوم على يد الجهلة الذين يزعمون أنهم أتباعه، ويتخذونه مدخلاً للهرطقة ونَقْض الديانة. إن الآريوسيين الذين يملأون اليوم البلاد من حولنا، يجنون على آريوس مثلما جنى عليه الإمبراطور قسطنطين قبل مائة عام، وارتضى باغتياله فى وَضَحِ النهار.*

- كما أمر الإمبراطورُ يا أبتِ، بإحراق كتبه وبإحراق كل الأناجيل التى بأيدى الناس، عدا الأربعة المشهورة.. ولكن ما الذى تقصده يا أبتِ، بحكمة آريوس.

كنا نسير ساعتها تحت ظل شجرة وارفة، عند نهاية سور الكنيسة، فى البقعة الهادئة المطلة على سور المدينة. كان حديثنا قد أزال ما بيننا من أسوار، فوقف نسطور لحظةً متأمِّلاً. ثم التفت نحوى، وكأنه سوف يلقى علىَّ بحجرٍ ثقيل، واستغرب بعدها عدم استغرابى مما قاله. لن أنسى ملامحه وهو يترفَّق فى كلامه، ليقول لى: *إننى أدرك يا هيبا، معنى دراستك اللاهوتَ فى الإسكندرية. وأعرف كُلَّ ما علَّموك إياه هناك، وكُلَّ ما أعلموك به من أمر آريوس وآرائه التى يُعدُّونها هرطقةً. ولكننى أرى الأمر من زاوية أخرى، زاويةٍ أنطاكيةٍ إن شئت وصفها بذلك. فأجدُ أن آريوس كان رجلاً مفعمًا بالمحبة والصدق والبركة. إن وقائع حياته وتبتُّله وزهده، كلها تؤكِّد ذلك. أما أقواله، فلستُ أرى فيها إلا محاولة لتخليص ديانتنا من اعتقادات المصريين القدماء فى آلهتهم، فقد كان*

أجدادك يعتقدون فى ثالوثٍ إلهىٍّ، زواياه إيزيس وابنها حورس وزوجها أوزير الذى أنجبت منه من دون مضاجعة. فهل نُعيد بعث الديانة القديمة؟ لا، ولا يصح أن يقال عن الله إنه ثالثُ ثلاثة. الله يا هيبا، واحدٌ لا شريك له فى ألوهيته. ولقد أراد آريوس أن تكون الديانة لله وحده، لكنه ترنَّم فى زمانه بلحنٍ غير معهودٍ من مثله. معترفًا بسرِّ الظهور الإلهى فى المسيح، وغير معترفٍ بألوهية يسوع. معترفًا بأن يسوع ابن مريم الموهوب للإنسان، وغير معترفٍ بشريكٍ لله الواحد.

- لكنه لم يخرج فى ذلك يا أبتِ، عن العقائد المصرية القديمة التى قالت أخيرًا بوحدانية الله وعلوه فوق كل مقدَّس. ومع ذلك، خرج آريوس عَن إجماع أهل زمانه، فقال ما قال، واكتوى بنيران السماء.

- اكتوى بنيران الإسكندرية ياهيبا.. ولـمَّا دعاه الإمبراطورُ من منفاه الطويل بأرض القوط، ليوفِّق، قَسْرًا، بينه وبين أسقف الإسكندرية، كى يضمن هدوء الحال ويُرضى المدينة العظمى؛ تَمَّ اغتياله بالسُّمِّ.

- مات مسمومًا!

صحتُ بذلك. ثم انتبهتُ، وتلفَّتُّ حولى. لم يكن يمرُّ بالقرب منا، غير امرأتين تلبسان السواد، وتسدلان على رأسيهما سِتْرًا من ذاك الذى تتحجَّب به اليهوديات.. التفتتْ المرأتانُ ناحيتنا حين زعقتُ، إحداهما عقدتْ حاجبيها، والأخرى ابتسمت. لم ينـزعج نسطور من عبارتى العالية المفاجئة، وأجابنى بهدوءٍ ووقار:

- هذا هو الراجح عندى. ففى اليوم السابق على لقائه المرتقب مع الإمبراطور وأسقف الإسكندرية، كان آريوس يسير ساعة الظهر مع جماعة، فدهمه مغصٌ مفاجئ لا مقدمات له، وانتحى عن الطريق ليلبى نداء الطبيعة، فنـزل منه دمٌ كثير وقطعٌ من لحم البطن وأجزاء الأمعاء.. ومات ميتةً مخجلة، إذ سقط فوق ما نزل من بطنه. كان ذلك فى يوم سبتٍ من أيام العام السادس بعد الثلاثين وثلاثمائة للميلاد، قبيل الغروب.

- وما الذى حدث بعدها يا أبتِ؟

- لاشئ. ابتهج الأسقفُ إسكندر واعتكف للصلاة، وارتاح الإمبراطور قسطنطين لموت آريوس الذى تنصَّل منه أتباعه وأصدقاؤه، وأدانه جميعُ الأساقفة، وخرجوا عن آرائه فى بيان رفعوه للإمبراطور.

- ضاع الرجلُ.

- وكادت آراؤه تضيع من بعده. خاصةً بعدما اجتمع الأساقفةُ بعد وفاة آريوس بخمس سنين، فى أنطاكية، أيام مجمع التدشين[1]. وصاغوا بيانًا قالوا فيه بوضوح فاضح، إننا لم نكن يومًا من أتباع آريوس، إذ كيف يعقل ونحن أساقفة أن نسير وراء كلام قَسّ!.. وهكذا انتصرت الإسكندرية. بمناسبة الإسكندرية، هل كنت حاضرًا بها يا هيبا، يوم مقتل الفيلسوفة هيباتيا؟

وقع سؤاله فى جوفى كسائلٍ حارقٍ بَدَّد نسمات الغروب التى كان هبوبها اللطيف قد ابتدأ، وطوَّحنى سؤاله المفاجئ نحو ماضٍ كنتُ أظنه قد انطوى. يومها أخذنى الصمتُ، وأبهتنى تذكُّرى المفاجئ للواقعة الفاجعة التى أخرجتنى من الإسكندرية لأهيم فى أرض الرَّبِّ. تماسكتُ ساعتها،

---

(١) هو المجمع الذى انعقد بأنطاكية سنة ٣٤٢ بمناسبة افتتاح الكنيسة الذهبية المثمنة. (المترجم).

وما أمسكتُ الدمعتين اللتين انحدرتا منى رغمًا عنى، حين طرقت روحى ذكرى هيباتيا وصرخاتها المستغيثة.. شعر بى نسطور وغشيته شفقةٌ ربانية؛ ولما أمالنى برفقٍ نحوه، بهزَّةٍ لطيفةٍ من يده اليمنى المباركة، الممسكة بكتفى اليسرى؛ عاودتنى الرغبةُ فى البكاء، غير أن الخجلَ منعنى.

- هوِّن عليك يا هيبا، إن روحك مجهدة. لقد تحدثنا اليوم كثيرًا، وقد آنستنى صحبتك. وها هو مقرُّ إقامتنا قريبٌ، فعُدْ الآن إلى صومعتك الطيبة المباركة لتستريح الليلة، وغدًا سأنتظرك فى الصباح الباكر عند باب الكنيسة. سوف نصلِّى، ثم نفطر معًا، وتحكى لى، إن شئت، ما حدث بالإسكندرية يومها.. أراك بمشيئة الرَّبِّ غدًا.

أدركتُ يومها أن نسطور قَسّ مُباركٌ حقًا، وراهبٌ يستحق التبجيل.. بل ورأيتُ فيه أبى المخطوف منى، أبى المفتقد؛ مع أنه لا يشبهه فى ملامحه، ولا يقترب منه فى هيئته. كما أن سنوات عمره لم تكن تكفى لأن تجعله أبًا لمثلى، إلا بالمعنى الكنسى للكلمة.. فى ذاك اليوم البعيد نسيتُ فى غمرة ارتباكى، أن أخبره برغبتى فى رؤية الأسقف تيودور والاطمئنان على صحته والتبرُّك بلقائه.. خرجتُ من وقفتنا المربكة، بأن قلت متلعثمًا:

- سأكون هناك صباحًا، ساعة الصلاة الثالثة.. سأنتظرك يا أبتِ، وسأحكى لك كل شئ، لو شرَّفتنى بزيارة أخرى لصومعتى الفقيرة. سأقصُّ عليك ما جرى، فقد كنتُ هناك يومها، وشاهدته من مكانٍ قريب.

عدتُ مسرعًا لأتحصَّن بوحدتى.. فى طريق عودتى رجوتُ الربَّ، ألا أجد ببابى أحدًا من المرضى ينتظرنى، فاستُجيب رجائى. أغلقتُ بابى، ولم أُشعلِ السراج. صلَّيتُ فى خشوعٍ بعدما جثوت على الأرض فى الظلام، آملاً أن تهدأ روحى.. ولكن، عَصف بى الأرقُ تلك الليلة، مثلما يحدث معى كلما تذكرتُ الإسكندرية. امتلأ فراشى شوكًا ملحيًا. ولما توغل الليلُ البهيم، اختلطتْ دموعى الدافقة بدعائى الحارِّ: *يا إلهى، أغثنى بألطافك الخفية الرحيمة، فآلامى التى لا تنتهى ولا تُحتمل. خلِّصنى بفضلك يا أبانا الذى فى السماوات، تقدَّس اسمك، من حُرقة الذكريات العاصفات بقلبى.. هَبْنى يا إلهى، ميلادًا جديدًا أعيشُ به من غير ذاكرة، أو ارحمنى، فاقبضنى إليك، وأبعدنى عن هذا الكون.*

دعوتُ ليلتها كثيرًا لاستنزال الرحمة إلى قلبى من السماء، غير أن الربَّ لم يستجب لدعائى.. واجتاحنى بحرُ الذكرياتُ السكندرية.

الرَّقُّ الثالثُ

عَاصِمَةُ المِلْحِ والقَسْوَةِ

أتذكَّر جيدًا أننى فى شبابى الذى وَلَّى ولن يعود، خرجتُ من أخميم قاصدًا الإسكندرية تحدونى الآمالُ الكبار. كان الأوان ظُهرًا، منتصف النهار تمامًا، فقد كانوا فى الكنيسة يستعدون لصلاة الساعة السادسة، التى تؤدى عند تمام الظهر. اتجهتُ من غير ظِلٍّ إلى ضفة النيل الشرقية، حيث الموضع الذى ترسو فيه القوارب النهرية والمراكب الشراعية. المسافةُ كانت قريبة، غير أن المرسى كان خاليًا والشمس محتدَّة.. ساعة العصر، اشتدت شمسُ شهر أبيب (تموز، يوليه) التى لاتعرف الرحمة. كان القدماء فى أزمنة مجدهم، يعتقدون أن الشمس مجلى لسطوة الإله رع الذى هو كبير آلهتهم.. آلهتهم التى اندثرت، ومات ذِكْرُها وذاكرُوها.

عند المرسى آويتُ إلى ظل شجرة وحيدةٍ، نحيلة مثلى، تتمايل أوراقُ أغصانها على حافة ترعةٍ هزيلةٍ، تأخذ مياهها من النيل حين يعلو بفيضانه أيام الصيف. أخرجتُ من مخلاتى الأيقونة الصغيرة التى لاتفارقنى. هى صورة مريم العذراء، الطاهرة. رُحتُ أُريح عينىَّ على صفحة وجهها الهادئة ملامحه. أما كان للرب أن يهبنى أُمًا نقيةً، كالعذراء؟.. كدتُ أذهب فى سكرةِ نوم، لولا أن انتبهتُ لمجيئ شابٍ فى حدود العشرين، يتبعه قردٌ. كلاهما جاء يتقافز فى مشيته، وكأن روحًا واحدة توزَّعت بينهما. نظر الشابُّ نحوى مبتسمًا قبل أن يبدأ ماجاء من أجله، أعنى ارتقاء النخلة العالية القريبة التى كانت تنوء ببلحٍ جفَّ فى موضعه، ولم يجمعه أحدٌ خلال شهور الشتاء، فتساقط بعضهُ، وبقى البعض فى موضعه.

ـ هذا البلحُ مليءٌ بالسُّكَّرِ والرائحةِ الطيبة.

حدَّثنى الشاب بذلك، وكأنه يعرفنى جيدًا. أو لعله أراد أن يعرِّفنى بما جاء من أجله، كأنه يستأذننى فى الصعود للنخلة التى لا أملكها.. أم تراه كان يطلب البركة منى، لحسن ظنه بى أو برداء الرهبان الذى أرتديه. أشار عاليًا نحو رأس النخلة، بطول ذراعه، فسبقه القردُ. كلاهما صعد النخلة بلا مجهود كبير، وكأنه يمشى على الأرض. القردُ وصل أولاً، وراح يتقافز فرحًا بين السعف والعراجين اليابسة. راقب الفتى قرده لوهلةٍ، بحذر، حتى إذا ما اطمأن إلى خلو رأس النخلة من الأفاعى والعقارب، تابع ارتقاءه إلى قلب النخلة العالى، وراح يهز أذرعتها المتهدِّلة. بعد دقائق من المطر البلحى، نزلا بأسرع مما صعدا. التقط الشابُّ من البلح الذى لم يفسده الدود، حفناتٍ فى حِجر جلبابه حائلِ اللون، وجاء فألقاها فى حجرى من دون أن يقول شيئًا. كانت ابتسامة الفتى غريبة! لم يصبر حتى يسمع منى كلمة شكر، أو دعاءً بالبركة. أعطانى البلح، وأخذ قرده فوق كتفه، وغاب عنى متوغِّلاً بين الزروع.. ظننت يومها أن الله أرسل هذا الشاب، كبشارة؟ أو أنه كان واحدًا من ملائكة السماء الذين يملأون الأرض، ويسعون بين الناس من غير أن يعرفهم أحد.. ولم أسأل نفسى: كيف يصحبُ الملاكُ قردًا!

بعد العصر، رسا قاربٌ كان فى طريقه إلى بلدة كبيرة اسمها ليكوبوليس (أسيوط) تمتد بيوتها على خَدِّ النيل. هى على مسيرة يومين إلى جهة

الشمال من أخميم. كان أهلُ القارب فى عجلةٍ من أمرهم، وقد بادرونى بالسؤال إن كنتُ أودُّ الركوب معهم، فرأيتها إشارةً من الله تدعونى لزيارة الموضع المقدس بأسيوط، أعنى ذلك المزار الذى فى حضن الجبل المسمى قُسقام حيث أقامت السيدةُ العذراء بطفلها يسوع المسيح، أيام جاءت به إلى مصر هاربة من بطش الرومان. أصحاب القارب أبحروا سريعًا، وكان أمرُ الريح مواتيًا، وشراع المركب، فوصلتُ أسيوط ظهيرة اليوم التالى.

المدينة كبيرةٌ جدًا. أهلها مسيحيون فى معظمهم، وبعضهم وثنيون. لكنهم على الجملة ناسٌ طيبون، ومساكنهم رحبةٌ ومتجاورة. يومها ظننتها أكبر مدن الدنيا! لم أكن قد دخلت الإسكندرية، ولا أورشليم، ولا أنطاكية.. من أسيوط اتجهت غربًا، إلى حيث الجبل الموحش الذى احتضن، يومًا ما، العائلة المقدسة. لم أجد هناك الكثير، لكنى لم أندم على زيارة المكان.

ارتقيتُ إلى حضن الجبل، فوجدتُ كنيسة فقيرة، حولها بعض المبانى المتهالكة التى شككتُ فى أنها تعود لزمن السيدة العذراء. بعض الرهبان المتوحِّدين كانوا يعيشون فى ذاك الموضع القفر الذى لم أشعر فيه بروحانيةٍ، حسبما كنتُ قبلها أودُّ وأتوقَّع. شعرتُ هناك بالوحشة. بعدما قضيتُ يومين هناك، عدتُ إلى أسيوط مع جماعة من زوَّار المكان، كانوا فى حدود العشرة. فى منتصف طريق عودتنا، اقترب منى رجلٌ متأنقٌ فى ملبسه، عليه رغم حَرِّ النهار عباءةٌ سوداء من الصوف الرقيق الناعم، حوافُّها محلاةٌ بخيوط من الحرير الأسود اللامع. استغربتُ هيئته ونظرته الماكرة، كان لايعلِّق فى عنقه الطويل صليبًا. لما التقت أعيننا ابتسم، فازدادتْ هيئتُه مكرًا، ولمعتْ عيناه ذكاءً. أخذنى وَجَلٌ منه، فأبطأت خطاى.. أبطأ خطوه حتى اقترب منى، وتهيَّأ للكلام. نظرتُ نحوه رغمًا عنى، كان وجهه مليئًا ببقع البهاق البيضاء، التى زادتها سمرته وضوحًا. باليونانية التى قلما يستعملها الناسُ فى تلك البلاد، قال لى من غير تمهيدٍ، ما معناه: كيف *جاءت العذراءُ إلى هنا هاربةً بوليدها، بعد سنوات من وفاة الحاكم الذى تزعمون أنه كان يقتل أطفال اليهود؟ ولماذا عادت به إلى البلاد القاحلة الصفراء، بعدما جاءت إلى وادى مصر الأخضر؟*.. قال ذلك بهدوءٍ ماكر، ثم انحرف عن طريق الجماعة العائدة إلى أسيوط، فاتخذ سبيلاً إلى جهة الشمال الشرقى، وتوغل بين الحقول وأجمَّة الغاب المتناثرة، حتى غاب عن ناظرىَّ.. لماذا أحكى كل هذه التفاصيل!

بعدما قضيتُ بضعة أسابيع بين أديرتها وكنائسها، حائرًا، خرجتُ من أسيوط إلى الإسكندرية فى مركب نهرى يملكه تجارٌ فقراء أصلهم من عين شمس (هليوبوليس).. كانوا قومًا طيبين، لولا أنهم لايكفُّون عن احتساء الخمر القوى، ولا يهدأون عند سُكرهم عن الغناء الهزلى الصاخب. كنتُ يوم ركبتُ قاربهم، أرتدى زِىِّ الرهبان المصريين، الذى صار اليوم ملزمًا لكل الرهبان. توقيرًا لردائى رَفَضَ أهلُ القارب، بعد أن وافقوا على سفرى معهم، أن يأخذوا منى أجرًا.. قال أحدهم، وكان بالطبع مسيحيًا: *يكفينا يا بانا أن تحلَّ بقاربنا بركاتك!* كانت المرة الأولى التى يدعونى فيها أحدهم بالأب.

خلال أيام الرحلة، كان أغلبُ أكلهم الجبنَ والبصلَ والسمكَ المملَّح الذى لم آكله أبدًا، عملاً بنصيحة عَمِّى الذى ربَّانى بعد مصرع والدى. نذرتُ خلال الرحلة النهرية صومًا، فلم أتناول طيلة أيام الرحلة الثمانية، إلا البلح الجاف والماء ورحيق صلواتى.. يوم وصلنا إلى أقصى نقطة كانوا يقصدونها فى شمال النيل، سألنى صاحب المركب عن وجهتى التالية، فلما أخبرته نصحنى: لا تدخل الإسكندرية فى زِىِّ الرهبان، فأنت لاتعرف فى هذا البلد الهائج، مَنْ سيلقاك أولاً! وأهدانى ثوبًا من أثوابه.

أدركتُ فى لحظة إشراقٍ أنه ينطق بالحقِّ، وأن الآب الذى فى السماء، أراد أن يوصل لى رسالةً على لسان هذا الرجل. بقلبٍ مُفعم بالمحبة والامتنان دعوتُ لهم بالخير والبركة، ثم أخذت سبيلى نحو الشمال الغربى، بين حقول خضراء تمتد إلى نهاية النظر.. هالنى انبساط الأرض، واتساع الرؤية. لاجبال فى دلتا النيل لتوقف نظرة المتلفِتِ، وإنما أرضٌ منبسطة، وزروعٌ كثيرة متصلة، وأناسٌ طيبون تخرج نساؤهم معهم إلى الحقول. بالقرب من بلدةٍ اسمها تيمن حور (دمنهور) وجدت جماعة من الفلاحين يقصدون الإسكندرية على حميرهم، فصحبتهم وقد ارتديت ثوبًا مما نلبسه فى جنوب الوادى، حيث الملابس أكثر اتساعًا عند الأكمام وعند فتحة الصدر. وطويت بعنايةٍ، زِىَّ الرهبان وغطاء الرأس الذى يميزِّنا. ووضعتهما أسفل مخلاتى، تحت الكتب، وبينهما الصليبُ الخشبى العتيق.

الجماعةُ القاصدة إلى الإسكندرية، كانوا عشرة رجال وسبعة بغال وثلاثة خراف وامرأتين، إحداهما عجوزٌ. وكان دليلهم متفاصحًا لا يكفُّ عن الكلام الغامز، وكانت إشاراته لاتخلو من فُحش الوثنيين. سألنى همسًا عن سبب ذهابى للإسكندرية، وضحك لما قلت له ذاهبٌ لطلب العلم:

ـ فى الإسكندرية ماهو أحلى من العلم!

لم أكن قد استفسرتُ منه، لكنه تطوّع بالشرح.. همس وقد اقترب من أذنى، حتى شممتُ من فِيه رائحةَ البصل الكريهة:

ـ الإسكندريةُ مدينةُ العاهرات والذهب! هل تنوى الإقامة هناك أيها الجنوبىُّ؟

ـ حسبما يشاء الرَّبُّ.

ـ أىُّ رَبٍّ فيهم يا ابن العم؟ فى الإسكندرية أربابٌ كثيرة! المهم أن يكون لك قريبٌ هناك، وإلا ستعانى الكثير.

ـ حسبما يشاء الرب الذى مجده فى السماوات.

ـ آه، أنت مسيحىٌّ. أنت إذن تملك نصف المدينة، هنيئًا لكم يا أبناء الإله المعذَّب، المصلوب، هأ هأ ها.. لكن نصف العالم، ولاشئ لى أنا الفلاح الفصيح، بعدما شاخت آلهتى القديمة.. دنيا عجيبة!

اشتدَّتْ حرارةُ الظهيرة. سرنا ساعاتٍ متطاولة، لم يكف خلالها الدليلُ المتفاصح، السمج، عن الكلام.. سألتُ رجلاً فى وجهه طيبةٌ، فقال لى بالقبطية البحيرية ما معناه: لم يبق على وصولنا للإسكندرية إلا مسيرة ساعتين. كلما اقتربنا كان اللونُ الأخضر يتناقص، وتتباعد الحقولُ عن اتصالها مفسحةً ما بينها للحجارة والرمال. كان ازديادُ اللون الأصفر من حولنا، مزعجًا لى.. الأصفر لونُ الموت، ولونُ الجدب، ولون معابد الآلهة المندثرة. لم أكن قبلها قد رأيتُ انبساط هذه الصفرة الكالحة على الأرض، إلى آخر امتداد الأفق. هاج انزعاجى مع زعيق الدليل، الفلاح الفصيح، وهو يصيح فينا مستعجلاً الوصول:

ـ إذا بلغنا الأبواب بعد الغروب، فلا تلوموا إلا أنفسكم!

حاولت تهدئته بلطفٍ من دون جدوى، أفهمته أن العجوز التى معهم مريضةٌ، ويشقُّ عليها شقَّ الطريق بأسرع مما نفعل، فلم يقتنع. كانت الأرضُ المزروعة قد تبدَّدت من حولنا تمامًا، وتسيَّد اللونُ الأصفر.. لونُ الخريف والخطية. لما مالت الشمسُ نحو مغيبها، بدت لنا من بعيد كتلةٌ خضراء، ظننتها أولاً مدينة الإسكندرية، وبُحتُ بظَنِّى. الدليلُ المتفاصح سخر منى، وهو يصيح فىَّ متهكِّمًا: الإسكندرية خضراء.. هه، لايستطيع لونٌ واحد أن يغلب على مدينة الألوان كلها.

عرفتُ بعد ساعةِ سيرٍ، أن الكتلة الخضراء هى مستنقعاتٌ وأحراشٌ تحفُّ المدينة من جهة الجنوب، حيث البحيراتُ الضحلة اللصيقة بها

والترعةُ الآتية إليها من فرع النيل الكانوبى. وعرفتُ أن علينا الدوران لمسافة طويلة، لندخل المدينة من الناحية الغربية، من بوابةٍ لها يسمونها باب القمر! وهكذا عاد اللونُ الأصفر ليطغى على الأرض ثانيةً، بعدما اكتسى مع مغيب الشمس حمرةً خفيفةً.. بعد ساعةِ سيرٍ، بدت لنا الإسكندرية من بعيد كالحلم. قال لنا الفلاح الفصيح باستخفاف، وهو يلكز بطن حماره بكعبيه، وينطلق: سألحق الأبواب قبل الغروب، فإنى أبيتُ داخل المدينة!

كان كاهن الكنيسة الكبيرة فى أخميم قد حكى لى أن الإسكندرية من يوم إنشائها ولزمنٍ طويلٍ تالٍ، لم تكن تسمح بمبيت أمثالنا نحن المصريين داخلها. ثم تغيَّر الأمر مع مرور الأيام، فصارت المدينة بعد انتشار ديانتنا مفتوحةً للجميع. مازلت أذكرُ هيئة الكاهن وهَزَّة رأسه وهو يضيف يومها، بالقبطية الصعيدية، ما معناه: سيأتى اليوم الذى لن نسمح فيه للوثنيين، ولا لليهود، بالمبيت. لا فى الإسكندرية، ولا فى المدن الكبيرة كلها.. غدًا سوف يسكنون جميعًا خارج كل الأسوار، وتكون المدن كلها لشعب الرب!

وكنتُ أعرف أيضًا، أن خارج أسوار الإسكندرية مساكين يسكنون بيوتًا فقيرة منذ عشرات السنين. لكننى لما وصلتُ هناك، أدهشتنى كثرةُ الخيام التى تحتضنُ أحفادَ المطرودين كل ليلة، ووفرةُ البيوت الحقيرة التى بناها الفلاحون المصريون غربيَّ سور المدينة.. لما وصلنا عندهم تفرَّقت الجماعةُ من حولى، من دون أن يقول أحدٌ لأحدٍ شيئًا. ووجدتُ نفسى تائهًا بين مئات المساكين من خراف الرب، المصطخبين حول قُدورٍ تغلى طعام العشاء. بين مَقَارهم الفقيرة، أطفالٌ تتصايح لرؤية الآباء المكدودين العائدين من يوم عملٍ شاق؛ وبين الجموع يجوس حراسٌ متأفِّفون، ورهبانٌ تتدلى لحاهمُ الشعثة على نحوٍ لافت، ولايبتسمون لأحد.

صاحبُ الخيمة الكبيرة القائمة على أعمدة من طوبٍ ردئ، زعق فىَّ طالبًا أجرة المبيت، فأسرعتُ بدفع المطلوب. المبيتُ عند سور الإسكندرية مكلِّفٌ للغرباء! فى بلادنا لا أحدَ يأخذُ أجرًا، إذا استضاف أحدًا. لو أننى بقيتُ فى زىِّ الرهبان، كنتُ سأبيتُ فى الكنيسة النظيفة التى مررتُ بها قبلها بقليل، ووصلنى من داخلها صوتُ خطيبٍ يزعق باليونانية.. ولم أفكِّر بالطبع، ساعتها، فى تبديل ثيابى. كان ذلكَ سوف يثير الريبة، وقد يجلب علىَّ المشكلات. قلتُ فى نفسى: *لا بأس، سأدخل المدينة فى صورتى الأصلية، إنسانٌ تعيسٌ من جنوب الوادى، كان أبوه يصطاد أسماك النيل، ويتجنَّب التماسيح وأفراس النهر. أنا من هؤلاء الذين يملأون المكان من حولى. ولن يحمينى إلا أن أندسَّ بين خراف الرَّبِّ وألوذ بهم.*

انزويتُ بطرف الخيمة الرحيبة، منهكًا. تحسَّست فى جوف مخلاتى، الرسالة التى بعثها معى القَسّ الأخميمى، الذى رسمنى راهبًا، إلى صديقه القَسّ يؤانِّس الليبى المقيم بالكنيسة الكبيرة المسماة كنيسة القمحة، يقال لها أيضًا: المرقسية، تيمنًا بمرقس الرسول صاحب الإنجيل، الذى بشَّر بالمدينة وقتله حُكَّامها.. لما لمستُ رسالة التوصية بأطراف أصابعى، اطمأنتْ نفسى قليلاً.

نويتُ أن أقضى أيامًا متجوِّلاً فى المدينة قبل ذهابى للكنيسة، لأرى أولاً كل ما أودُّ أن أراه. ثم أسلِّمهم نفسى، أرى ما يودُّون هم أن أرى. ظننتُ أننى سوف أتعلَّم الكثير فى الإسكندرية، كما أكَّد لى كثيرون، فطمأننى ظنِّى.. تحسَّستُ قلب مخلاتى، حتى أخرجتُ حفنةً من البلح الجاف، ورحتُ أمضغ برفق مستشعرًا نعمة الرَّبِّ الذى مَنَّ علينا بإحساس الشبع من بعد جوع.

ابتسم لى رجل كان يجاورنى، هيئته رَثَّةٌ وفى عينيه طيبةٌ. مددتُ له

بعض البلحات فأخذها، ثم دسَّ يده فى مخلاته ليخرج لى قطعةً من الجبن. اعتذرتُ له، ولم أخبِره بأننى كنتُ صائمًا. سألنى عن موطنى الأصلى، فقلتُ من دون أن أفكِّر: نجع حمادى، فاستبشر وقال:

ـ أنا أصلاً من أَنْصِنا (سمالوط) ولدتُ هناك، ولكنى أعيشُ هنا منذ سنين طويلة.

تزحَّف الرجل نحوى، وراح يحكى لى عن بلدته الواقعة بقلب الصعيد، شرقىِّ النيل. قال إنه نشأ بقريةٍ قرب جبلٍ هناك يسمونه جبل الطير؛ لأن طيورًا تأتى فى كل عام وتحطُّ عنده فتملأ الأجواء، ثم ترحل فجأة بعدما يضحِّى طيرٌ منها بنفسه! بأن يُدخل رأسه فى كوةٍ بسفح الجبل، فيتلقَّف رأسه من داخلها شئ مجهولٌ، فلا يُفلته حتى يجف جسمه ويسقط ريشُهُ. فتكون تلك إشارةً لبقية الطير، كى يغطسوا فى النيل ويرحلوا فى الليل، ليعودوا العام التالى فى الموعد ذاته، ويعيدوا الكرَّة.

همس لى الرجلُ بأن فى بلدتهم مسوخًا كثيرةً، يقصد التماثيل القديمة، منها تمثالٌ عجيبٌ لرجل يضاجع امرأة! وعلى رأس الجبل كنيسةٌ يسكنها الرهبان، اسمها كنيسة الكف؛ لأن يسوع المسيح حين مَرَّ هناك أثناء رحلة العائلة المقدسة إلى مصر، ترك بها أثر كَفِّه على حجرٍ لان له، لتكون معجزةً وعبرةً للآتين من بعده.. أضاف: كما ترك هناك عصاه التى كان يهشُ بها على غنمه! قلت للرجل الذى ما عدتُ أتذكر اسمه:

ـ لكن يسوع المسيح لم يأت إلى مصر، إلا رضيعًا.

ـ ماهذا الكلام يا ابن العم، يسوع المسيح عاش حياته كلها، ومات، بمصر!

عرفتُ أن الرجل لايعرف شيئًا، أو لعله هو يعرف شيئًا لا أعرفه، أو أن كلينا يتوهَّم ما يعتقد أنه يعرفه. لم تكن لدى رغبةٌ فى مواصلة الكلام معه، فاعتذرتُ إليه برغبتى فى النوم، ثم غطَّيتُ رأسى بقطعة القماش القديمة التى أعطانيها صاحب الخيمة، ونويتُ أن أنام جالسًا مثلما هى عادتى فى الليلات الليلاء.. أغلب ليلاتى ليلاء.

رحتُ قبل أن يدهمنى النومُ، أفكِّر فى جبل الطير، وفى الكنيسة التى بأعلى الجبل. كان يجب علىَّ المرور بهذه البلدة فى طريقى، حتى أرى ما بها من عجائب. تفوتنا فى الطريق أشياء كثيرة. بلادُ مصر مليئةٌ بالعجائب وبالمعجزات، لأنها مليئةٌ بالمؤمنين. منعنى عن النوم، ليلتها، توالى المشاهد التى مررتُ بها فى رحلتى، وفى حياتى كلها: الفتى والقرد اللذان صعدا النخلة أمامى كأنهما يطيران إلى البلح.. الكنيسةُ الصغيرة كالغرفة، حيث أمضيتُ ليلةً على ضفاف النيل بأسيوط، بعدما قادنى إليها شماسٌ أصله من بلدة تسمى قوص.. ركوبى النهر فى قارب التُّجَّار الفقراء، وصخبهم الذى لا يهدأ.. عينُ الشَّمَّاس القوصى الدامعة وهو يودِّعنى، بعد ثلاثة أيام قضيتها فى الغرفة الملحقة بالكنيسة الصغيرة التى يخدمها.. نظرُة أمى الفزعة، حين أخبرتها بعلمى بأنها وشت بأبى لدى أقاربها من جُهَّال أهل الصليب.. جريتُ من أمامها، ولم تستطع اللحاق بى، ولم أرها بعد ذاك اليوم قط.. بكائى الحارُّ، يوم علمت بزواجها من أحد أقاربها الذين قتلوا أبى.. صورةُ بيتنا الذى هربتُ منه، وهجرته أمى بعد هروبى وزواجها.. يومُ ارتميتُ فى حضن عمى الذى جاء يبحث عنى، فرأيته فى إهاب المخلِّص.. التحاقى بالمدرسة الكبيرة فى نجع حمادى حين كنت فى الحادية عشرة من عمرى.. زوجةُ عمى، نوبية الأصل، ورائحةُ طبخها الشهىِّ لنا قبيل الغروب..

كاد النوم يأخذنى، لولا أننى انتبهتُ لمَّا دخل الخيمة قَسٌ ضخمٌ، أجشُّ الصوت. لم يتمهَّل حتى يصل لمنتصف الخيمة الواسعة، بدأ خطبته الزاعقة فور دخوله علينا: *أباركُكم يا أبناء الله، باسم يسوع المسيح الإله*

الرب المخلِّص، أمنحكم البركة السماوية. يا خراف الرَّبّ، كونوا قريبين من يسوع المسيح، مثلما هو قريبٌ منكم. الرَّبُّ يحبُّكم، فأحبُّوه. صَلُّوا إليه قبل نومكم وبعد صحوكم، فتناموا بين يدى رحمته. المحبة روحُ الله، فأحبُّوا إخوانكم وأقاربكم وأولادكم، وأحبُّوا أعداءكم..

بالقرب منى، همس فلاحٌ خبيثُ النظرات لمن حوله، بسخريةِ الخراف الضالة: وهل يحب سيدُه *كيرُلُّس، إخوانه اليهود*؟ ضحك المحيطون به بتكتُّم، وأضاف أحدهم: *طبعًا، كيرُلُّس يحبهم إلى درجة موتهم وطَرْدهم خارجَ الأسوار*.. لم يلتفت القَسّ أجشُّ الصوت ناحيتهم، لعله لم يسمعهم، أو هو لا يسمع إلا ما يحفظه ويتلوه على الناس كل ليلة. أكملَ خطبته الزاعقة التى انتزعتنى من دفين ذكرياتى، بأن قال ما معناه: *يا أبناء الله، بيت الرب مفتوحٌ لكم. فتعالوا للكنيسة صبيحة الأحد، واحصلوا على البركة. أقبلوا حتى يُقبل عليكم ربكم، وتكونوا مع الرُّسُل والقدِّيسين والشهداء.*

بعدما أفرغ فينا كل ما كان فى فمه من كلام، خرج القَسّ مزهوًا وكأنه ألقى علينا عظة الجبل. تبعه الجنديُّ السمينُ، الصامت، الذى دخل وراءه.. سَرَتْ فى أهل الخيمة همهماتٌ وضحكاتٌ مكتومة، انهمكوا بعدها فى أحاديثَ تافهةٍ، يمررون بها لقيمات الخبز الخشن والجبن المالح والسمك المملح. امتلأتْ سماءُ الخيمة برائحة البصل. تمددتُ فى موضعى بقرب باب الخيمة، حيث رائحة الزهومة أخف، وأسلمتُ روحى لفيضان الأحلام.

رأيتُ فى تلك الليلة رؤى كثيرة، لم أطمئن إلى واحدةٍ منها. وتقلقلت فى نومى حتى أيقظنى عند الفجر صخبُ النائمين حولى، أقصد شخيرهم العالى. وصخبُ المحيطين بالخيمة.. وبكاءُ طفلٍ رضيع، ونداءُ بائع اللبن الرايب، وصوتُ عصافير. وددتُ لو غفوتُ ثانيةً، فأمامى يوم طويل مجهول البدء والمنتهى. أمامى عالمٌ هائلٌ، يحتجبُ عنى خلف بوابة المدينة العظمى.. غير أننى لم أستطع العودة للمنام؛ فاكتفيتُ بإغماض عينى إلى أن تمتلئ الأرض بالنور، وتشرق شمس الله على الأبرار والأشرار، كما هو مكتوب.

خرجتُ من الخيمة باحثًا عن بعض الماء لأمسح وجهى، فلم أجد. كان الناس مشغولين ببداية يوم آخر، شاق، من أيامهم.. فى ساعةٍ مبكرةٍ من الصباح، يعرفونها، اتجهواً إلى بوابة المدينة. أدهشنى أن البوابة لم تكن خلال الليل مغلقة! بل هى لا تغلق أبدًا، ومصراعاها المفتوحان مطمورٌ أسفلهما برمالٍ متحجِّرةٍ وصدأ ملحيٍّ، بما يدل على أنها لم تغلق منذ سنوات بعيدة.. فلماذا يبيت هؤلاء الناسُ خارج الأسوار؟

أخذنى نهرُ الفقراء الدافق نحو البوابة. كانوا يسيرون بخطى مثقلة، لم يتدافعوا. مشيتُ معهم تاركًا نفسى لتيار النهر البائس المستسلم لمشيئة الرب. وجوه الداخلين شاحبة، ملابسهم قديمةٌ ونظيفة، تتخللهم غبطةٌ خفيةٌ لاتشى هيئتهم بها.. تحقَّقت لوهلة خاطفة، بأن هؤلاء جميعًا، مسيحيين ووثنيين، هم أبناءُ الرب.

كان الحراسُ عند البوابة، يحدِّقون فى الداخلين بإمعان. لم يمنعوا أحدًا، مع أن وقفتهم المتحفزِّة كانت توحى بأنهم على وشك المنع. سورُ لمدينة عالٍ، لم أر قبله سورًا بمثل ذاك العلو. كان فوقه حراسٌ آخرون، ينظرون إلى ناحيتنا بكسلٍ. بوابةُ السور تكفى لدخول كثيرين دفعةً. فى الباب المفتوح بابٌ أصغر، يكفى لدخول شخص واحد. يدلُّ صدأُ حوافه على أنه أيضًا، لم يفتح منذ سنوات بعيدة.. لا أتذكر أننى رأيتُ ابتسامةً واحدة، يوم دخولى من بوابة القمر.

الإسكندرية هائلةٌ. عظيمةُ الاتساع. امتصَّت شوارعها نهر الداخلين

بيسرٍ، فكأنهم نملٌ يدلف في شَقِّ صخرةٍ عظيمة. الطرقُ مبلَّطة بأحجارٍ صغيرة، رمادية، وعلى حوافِّ معظم الشوارعِ أرصفةٌ. عرفت يومها معنى كلمة رصيف التى كان القَسّ الدمياطى، معلِّمى فى نجع حمادى، يذكرها خلال كلامه. الشوارع نظيفةٌ، كأنها عروس تغتسل كل ليلة، فتصبحُ مستبشرةً. الكادحون، يغسلونها كل ليلة، ويبيتون خارج أسوارها. لم أر فى ذاك الصباح الباكر، كثيرًا من سكان المدينة. فى بلادى الأولى، كانوا يقولون لنا إن الإسكندرانيين ليسوا مثلنا، فهم يحبون السَّهَر بالليل، ولا يقومون من نومهم مبكرين.

لم تدهشنى ضخامة بيوت الإسكندرية وكنائسها، فقد رأيتُ فى مصر من المعابد القديمة ماهو أضخم كثيرًا من تلك البنايات. لكن الذى أدهشنى فى أنحاء المدينة، كان الدقةَ والتأنُّق: الطرقات، الجدران، واجهات المنازل، النوافذ، المداخل المزروعة، الشرفات المحفوفة بالورود ونباتات الزينة.. المدينةُ كلها دقيقةُ الصنع، ومتأنقةٌ. غير أن هذا الجمال المنبث فى كل مكان، لم يكن يشعرنى بأن الإسكندرية هى مدينة الله العظمى كما يسمونها.. رأيتها أقرب إلى: مدينة الإنسان!

ـ أيها الجنوبى، هذا طريقُ الإِستاد. فهل أنت قاصدٌ إليه، أم إلى حَىِّ المصريين؟

ـ لا يا خال، أنا ذاهبٌ إلى البحر.

ـ البحر فى كل مكان! عُدْ من حيث أتيت، ثم اتجه يسارًا واعبرْ الشارع الكانوبى، وواصل السير شمالاً، واجعل كنيسة بوكاليا على يسارك، وسِرْ حتى تجد البحر.. البحرُ هو الذى سيجدك.

شكرتُ المرشد المتطوع، حارس المنـزل، واتجهتُ كما وصف. لماذا لم يتركنى أهيمُ كما أشاء وكما شاء لى الربُّ، فأرى ما لستُ أتوقَّع؟ كنيسة بوكاليا التى ذكرها رأيتها بعد ذلك بشهور، يُقال إن رفات مرقس الرسول محفوظةٌ بها. أما يومها، فقد عبرتُ فى طريقى جسرًا حجريًا صغيرًا، يعلو ترعةً عذبة تجرى من جنوبىِّ المدينة إلى الشمال، حتى تصبَّ فى البحر. لم أتجه مع مسار الترعة، فضَّلتُ المضىَّ شرقًا فى الشارع الكانوبى.. هو شارعهم الكبير الذى يشق المدينة لنصفين، النصف الشمالى يسكنه الأغنياء، والفقراء يسكنون جنوبًا. فقراءُ الإسكندرية أغنى من أغنياء الناس فى بلادى الأولى.

لما علت شمسُ النهار إلى كبد السماء، دبَّت الحياةُ فى الشوارع الفرعية. عدد الناس كان أكثر مما ظننتُ. مررتُ بجماعةٍ من رجال الكنيسة يتجهون شمالاً، وحولهم عمالٌ يحملون معاول. كان العمال يردِّدون خلفهم: *باسم يسوع الإله الحق، سنهدم بيوت الأوثان، ونبنى بيتًا جديدًا للرب*. العبارات الثلاث منظومة الإيقاع فى لفظها اليونانى، ووقعها مختلف عن نصِّها السريانىِّ هذا.. الإسكندرية لاتتكلم السريانية.

أسرعتُ خطاى مبتعدًا عنهم، حتى بدت لى الكنيسة الكبيرة جهة اليسار. لم أمض فى طريقهم، وإنما سرتُ شرقًا مع الشارع الكانوبى الكبير، الأنيق، الممتد بطول المدينة من بوابة القمر التى دخلتُ منها، إلى بوابة الشمس الواقعة شرقىِّ المدينة، ومن خلفها تمتد بيوت اليهود التى مررت عليها يوم خروجى من الإسكندرية، بعد سنواتٍ ثلاث من دخولى إليها وانزوائى بها.

الشارعُ الكانوبى دنيا كاملة. مرصوفٌ كُلُّه، والبيوت على جانبيه أنيقةٌ، كلها، وفيه تصبُّ شوارع أخرى أصغر منه تنسرب منه جنوبًا وشمالاً. كل ما حولى يومها كان بديعًا، إلا ذلك التمثال البائس الذى يتوسَّط الطريق. عرفتُ بعدها بأسابيع، أنه تمثال لإله كانوا يسمونه سيرابيس، وقد استبقاه أسقف الإسكندرية السابق ثيوفيلوس من معبد السرابيون الكبير، بعدما

هدمه على رؤوس الوثنيين المعتصمين فيه. وقد أقام الأسقفُ التمثال البائس فى وسط الطريق، ليفجع الوثنيين بمصير معبودهم، ويخلِّد انتصاره عليهم بإهانة آلهتهم إلى الأبد. جرى هدم المعبد الكبير فى العام الذى وُلدت فيه، أعنى سنة سبع عشرة ومائة للشهداء، الموافقة لسنة إحدى وتسعين وثلاثمائة للميلاد المجيد.. ولثلاثةٍ وعشرين عامًا، ظل التمثالُ خيرَ شاهدٍ على بؤس الوثنية الغابرة! تأثَّرتُ ساعتها لرؤيته، كان يعلوه زبل طيور البحر، وتحوطه القمامة من كل النواحى، فيبدو مضحكًا وهو مغروسٌ بقدميه فى بلاطات الشارع، من دون قاعدة تحمله.

لم أحدِّق كثيرًا فى التمثال كيلا ألفتَ أنظار المسيحيين، والوثنيين، المارين من حولى. لايجب أن يلتفت إلىَّ أحدٌ، لا من أولئك، ولا من هؤلاء، ولا حتى من اليهود الذين يحظون فى المدينة بكراهية الفريقين! يكرههم الوثنيون لجشعهم، ويمقتهم المسيحيون لوشايتهم بالمخلِّص وتسليمه للرومان ليصلبوه.. ليصلبوه.. أتراه صُلب حقًا؟

عند ميدانٍ يتوسط الشارع الطويل، أخرجنى من توالى الأفكار وانتظام خطاى، صوتُ المنادى الزاعق باليونانية من فوق بغلته: *الحاكم أوريستيس يدعو العلماء والمتعلِّمين، إلى محاضرة أستاذة كل الأزمان، صباح يوم الأحد بالمسرح الكبير*. تعجبتُ لما تأكَّدتُ من أنه يقول: *أستاذة كل الأزمان*! هل للزمان أستاذة.. امرأة؟ شككتُ أولاً فى صحة فهمى للعبارة، مع أن صيغتىْ المؤنَّث والمذكر فى اليونانية لا يلتبسان، لوضوح الفرق بينهما. ثم شككتُ فى صحة عقل المنادى، مع أنه بدا لى جادًا. والجديةُ، بحسب ما تعلَّمناه فى أخميم هى نقيضُ الخبل.

دفعتنى شكوكى للخروج من حرصى، فلحقتُ بالمنادى، وسألتُ تابعه الصغير، فنظر الولد فىَّ مندهشًا، ولم يجاوبنى. كان المنادى قد أوقف البغلة بضَمِّ ساقيه إلى صدرها، ومَدَّ يده فى مخلاته ليخرج قنينة طويلة العنق من الفخار الأبيض ارتشف منها جرعة، فكانت لدىَّ الفرصة لأسأله:

ـ يا خال، أين ستكون المحاضرة؟

ـ مالك أنت بالمحاضرات، يا فلاح، أم تراك تطمع فى الحلوى التى يوزِّعها الحاكم هناك؟

ـ أنا لا آكل الحلوى. أريدُ فقط أن أعرف منك، من هى أستاذة كل الأزمان؟

ـ فلاحٌ لا يأكل الحلوى، ويتكلم اليونانية الفصيحة، ولا يعرف هيباتيا.. هذا وحَقِّ سيرابيس، عجيبٌ!

تركنى المنادى، ومضى مستخِفًّا بى، وراح يصيح بالعبارة نفسها: *الحاكم أوريستيس يدعو العلماء والمتعلمين*.. غاب عنى فى شارع جانبىٍّ بعدما تركنى مبهوتًا، أفكر فى المرأة التى يمكن أن تكون: أستاذة كل الأزمان!

انتبهتُ بعد تيهٍ ذهنىٍّ إلى مقصدى الذى انحرفتُ عنه قبل ساعة، أعنى الوصول إلى البحر. فأكملت مسيرتى شرقًا فى الشارع الكانوبى حتى لقيتُ شارعًا كبيرًا إلى ناحية الشمال. كنتُ قد تجاوزتُ الموضعَ الذى وصفه لى المرشدُ المتطوع، حارسُ البيت، فأسرعتُ الخطى أملاً فى الوصول إلى مبتغاى، أو إعادة المحاولة. كنتُ كلما سرتُ شمالاً، أحسُّ بالبحر أكثر فأكثر.. شيئًا فشيئًا، صارت أرضيةُ الشوارع الفرعية رملية، وصارت البيوتُ متباعدةً عن بعضها، وأحجارُ جدرانها متآكلةً حائلةَ اللون. عرفتُ بعدها أنه فعلُ هواء البحر، الآتى من مكانٍ قريب.

رائحةُ البحر قويةٌ، وصوتُ أمواجه راح يلامس أُذنى، فيلفُّنى شعورٌ غريب. لما ظهر لى البحرُ من بين البيوت، أسرعتُ خطاى حتى جزت إلى

المنطقة الرملية الواسعة، الممتدة خلف البيوت.. بيتٌ منها كبيرٌ كالقصر، كان آخر البيوت ذات الأسوار الأنيقة. عند بابه الكبير كان يجلس حارسٌ متقدِّمٌ فى السن، يرقد عند قدميه خروفٌ نحيل. مررتُ بهما من دون التفات، الحارسُ أيضًا لم ينظر ناحيتى. كان الخروفُ هو الذى نظر.

لما رأيتُ البحر محيطًا باللسان الرملي الممتد فيه، هممتُ الخطو حتى اقتربتُ من منطقة صخرية وسط اللسان، ثم سلكتُ سُبلاً رملية ممتدةً بين الصخور.. صخورُ الإسكندرية حادةُ الحواف، شعثةٌ وقاسية. هى لاتشبه البيض الصخرى الذى تدحرج مع النيل من السماء، فاستقر على ضِفَّتيه فى بلادى الأولى. بدا لى البحرُ يومها، كأنه بلا ضفاف! مع أنه كان يظهر لنا صغيرًا فى رسوم كتاب الجغرافيا. مشيتُ مبتعدًا عن الصخور، حتى انبسطت من تحت قدمى الرمالُ، وأحاطنى البحر من الجهات الثلاث.. على مقربةٍ من الموضع الذى يتلاشى فيه زَبَدُ الأمواج، ألقيتُ عنى مخلاتى التى ثقلت علىَّ من طول ما حملتها. وبحرصٍ بالغ تقدَّمتُ، حتى لمس ماءُ البحر أقدامى.. هالنى الامتدادُ.. كاد يُغمى علىَّ من هول اتساع الماء. مددتُ ذراعى كأننى أوشك أن أطير، وملأتُ صدرى بالهواء الآتى من فوق الموجات. أبهجنى مَسُّ البحر لكعبىَّ، ورقَّةُ ارتماءةِ موجاته المنهكة تحت قدمى.

البحرُ.. إنه الماءُ الأعظم الذى بدأ منه الوجود. من وراء هذا البحر بلادٌ، من ورائها بحرٌ أعظم يحيط بالعالم. إذ أتذكَّر الآن هذه اللحظة التى عشتها قبل عشرين سنة، أكاد أشعرُ بالرذاذ يمسُّ وجهى، وبالروعة التى أوقفتنى ساعتها على ساحله شاخصًا كالمسلاَّت العتيقة.

كانت رائحةُ البحر غريبة علىَّ، والماء مالح. ساعتها تاقت نفسى للعوم فى هذا اليم العميم، مثلما كنتُ أسبح فى النيل أيام الطفولة. كنتُ أعرف من الكتب، أنه لاتوجد فى هذا البحر تماسيح، ولا أفراس نهرٍ، ولايعيش عند ضفافه الورل[1].. ولكننى كنتُ متوجِّسًا، مما يمكن أن يخبِّئه لى هذا البحر العظيم من أخطار.

تلفَّتُّ فى كل الجهات، فلم أر فى المدى أحدًا غيرى. ملتُ بكفى إلى البحر وغسلتُ وجهى بمائه المالح، فخفَّ توجُّسى. تقدمتُ متردِّدًا، حتى وصل الماءُ لركبتى. انتابنى شعورٌ آخر ما كنتُ أعرفه.. لا طين ولا لزوجة فى قاع البحر. الرملُ ممتدٌ، ومن فوقه يتتالى الموجُ. كانت الموجاتُ تهزُّنى، وتدغدغ فىَّ حَوَاسًّا منسية. أغمضتُ عينى، مستسلمًا لهَزَّات الموج اللطيفة، المثيرة. كادت موجةٌ توقعنى، فضحكتُ بصوتٍ عالٍ لم أسمعه منى قبلها بسنواتٍ، ولا بعدها بسنوات.. عدتُ مسرعًا إلى الشاطئ، فوضعتُ مخلاتى قرب صخرةٍ ناتئةٍ وسط الرمال، وألقيتُ فوقها جلبابى التعيس، واندفعتُ إلى الماء.. يا إلهى، كان قلبى لحظتها يخفق بالغبطة.

العومُ فى البحر سهلٌ، الماءُ يحملنى ولا يجذبنى تياره مثلما كان النيلُ يفعل بى أيام الطفولة. ماءُ النيلِ عَذْبٌ وطينىُّ القاع، وهذا البحرُ مالحٌ وكاشفٌ لقاعه الرملى. كنتُ أقف وسط مائه الذى يغطى صدرى ويمسُّ كتفىَّ، ومع ذلك أرى قدمى، وأرى الرمال وقطع الصخور النائمة على القاع. النيلُ إذا نزلناه، ثار طينُ قاعه، وصار ماؤه عكرًا، وقد تُخفى العَكَرةَ التماسيحَ. أما البحر، فلا أخطارَ فيه تهدِّد العائمين، وتبدِّد فرحة رجوعهم المؤقَّت إلى الماء الأصلى الذى بدأ منه العالم.

لما حملتنى صفحةُ الماء بلا جهدٍ كبيرٍ منى، جال بصرى فى السماء وفى الأفق الممتد من حولى.. ناحية الغربِ لمحتُ مراكبَ كبيرة، بعيدة.

---

(١) الورل: نوع من الزواحف، كأنه سحلية ضخمة، كان يعيش قديماً عند حواف النيل، ويكاد اليوم ينقرض من هناك. (المترجم).

وإلى جهة الشرق كانت نوارسُ تطير على امتداد الشاطئ. النوارس كانت كثيرةً، وطيرانها مبهجٌ.. أُتراها هى الطيور التى تزور كل عام، الجبل الذى حَدَّثنى عنه الرجل فى الخيمة؟

غمرتنى السعادةُ فوق صفحة الماء، حتى وقع ماجرى معى، فجعلنى لا أقرب البحر من بعد ذلك أبدًا.. فوق صفحة الماء الرقراق، كانت نبضاتُ الدفء الداخلى تزيح عنى برودة قلبى وارتعاشة أطرافى. ولما حملنى البحرُ، شعرتُ بأننى جنينٌ يخرجُ من رَحِم هائل. انتابتنى الأحاسيسُ الغريبة، وأخذتنى لهفةُ اللمس ودغدغةُ الشهْوة. أنا الذى لم أعرف قبلها امرأةً فى حياتى، ولم أكن أنوى أن أعرف. غير أننى ساعتها تفكَّرتُ فى تلك اللذة، وجال ببالى أن البحرَ امرأةٌ لعوبٌ تمتِّع الرجال العائمين، من دون خطيةٍ تُحسب عليهم أو يحاسبون عليها.. البحرُ رحمةٌ من الله للمحرومين، لك المجد يا أرحم الراحمين.

تركتُ نفسى للماء الصافى، بأن استلقيتُ على ظهرى فوق صفحته، ومددتُ ذراعىَّ بطولهما. كنتُ أفعل ذلك فى صغرى، فوق صفحة ماء النيل، ثم صرتُ أفعله فى صومعتى، حيثما أخلو.. وأصفو! أتمدَّد على الأرض وأبسط ذراعىَّ، وأجول فى سماوات خيالى، غير أن المرة التى فعلت فيها ذلك فى بحر الإسكندرية؛ كانت مختلفة. كان ماء البحر يحملنى بأكثر مما كان النيل يفعل. كنتُ أخفَّ، وكانت الشمسُ يتلألأ نورها بين جسمى الطافى وسطح الموجات، فتنعكسُ الأضواءُ على أعضاء جسمى العارى، وتتقاطع فوق سمرة بشرتى، فتكسوها أَلَقًا نادرًا.. كانت المرة الأولى، التى رأيتُ فيها أن جسمى جميلٌ وسُمرتى لطيفةٌ! البحرُ يظهر مالا يظهره النهرُ من بدائع الصُنع الإلهى فى الكون، وفى أجسامنا.

فوق صفحة الماء تذكَّرتُ، هانئًا، استلقائى على التلة التى يرتاح فوقها البيتُ الذى وُلدتُ فيه، حيث كان الحمامُ يحطُّ من حولى.. ولما مالت الشمسُ عن وسط السماء إلى جهة الغروب، انتبهتُ لعضَّات الجوع. بدا الشاطئُ بعيدًا عنى، ولمحتُ قرب ثيابى شخصًا يلوِّح لى بطول ذراعيه، فانتابنى قلقٌ مفاجئٌ وغاص فى صدرى توجُّسٌ. رحتُ أضربُ بساقىَّ وذراعىَّ بقوة، لأعود سريعًا إلى ملابسى. بعد لحظات طوال كالدهر، عرفتُ أننى لا أتقدَّم نحو الشاطئ.. زِدتُ من سرعة ضرباتى فى الماء، غير أنى لم أقترب من مقصدى. أُنهكتُ فجأةً، وكادت ذراعى اليسرى تتصلَّب. تركت جسمى ليطفو، لأستريح برهةً، غير أننى فزعتُ لما أدركتُ أن الماء يجرُّنى إلى قلب البحر العميق. عاودتُ العوم منهكًا، ولكن جَذْبُ الماء كان أقوى من ضربات ذراعى المتلاحقة الفزعة.. وأدركتُ ساعتها أن البحر غادرٌ.

الشخصُ الواقف على الشاطئ كفَّ عن التلويح لى، وغاب عن عينى لما حال بيننا الموجُ.. كنتُ قد أُنهكت تمامًا، وكان البحرُ لايرحم. لما تيقَّنت من أننى أغرقُ صحتُ رغمًا عنى، ثم كتمت صيحاتى لأستعين بما تبقى من قوتى على الرجوع. صار الألمُ مبرِّحًا بذراعى اليسرى، لكنى واصلتُ التجديف بها. هتفتُ فى باطنى: *يايسوعُ المسيح كُنْ معى الآن، وسأنذرُ كل حياتى لك*. ازدادتْ ضرباتى لسطح المياه، وعانيتُ طويلاً مما زَجَجْتُ نفسى وتورَّطتُ فيه.. بعد معاناة طويلة فى مغالبة جذب الماء للوراء، وجدتنى أندفع مع ضربات ذراعى إلى ناحية الشاطئ. كان لهاثى متتابعًا، مثل زخَّات بهجتى بالنجاة.. لما وصلتُ إلى النقطة التى بقرب الشاطئ، حيث تنقلب الأمواجُ وتهدرُ، لمستْ قدمى الأرض. وشكرتُ الربَّ بقلبٍ مضطرب.

رحتُ إلى مخلاتى مترنِّحًا، وحين لم أجد أحدًا غيرى على الشاطئ الرملى الممتد، ظننتُ لوهلةٍ أن الذى كان يلوِّح لى منبِّهًا من خطر الغرق، لم يكن من البشر. وإنما هو ملاكٌ أرسله الله من السماء، لينقذنى من التوغُّل

فى غواياتى.. قلتُ فى نفسى إن أبانا الذى فى السماوات رحيمٌ بنا، وإن أسراره فى الوجود لا تنتهى، وإننى لن أقرب البحر من بعد ذلك أبدًا.

جلجلتْ ضحكةٌ ناعمةٌ من ناحية الصخور القريبة، فنهضتُ من استلقائى على ظهرى. نظرتُ إلى جهة الصوت مذعورًا، فرأيتُ امرأةً بيضاءَ فى ثوبٍ سكندريٍّ مكشوف الصدر والذراعين.. أقبلت المرأةُ متمايلةً، كأنها نجتْ توًا من الغرق فى بحر الميوعة:

ـ أنت سبَّاحٌ ماهرٌ، ومحظوظٌ أيضًا.

ـ من أنت يا سيدتى؟

ـ سيدتى.. هأ هأ، أنا أوكتافيا خادمة السيد الصقلى، تاجر الحرير.

نظرتُ إليها بعينٍ زائغة كأننى فى حلم، أو كأننى متُّ غرقًا وبُعثتُ فى زمنٍ آخر. نظرت حولى، فكانت النوارس ماتزال تطير، والبيوت البعيدة فى موضعها مثلما كانت. مسَّتنى نسمةٌ باردة، فانتبهتُ.. ما الذى جاء بهذه الخادمة التى لا تبدو كالخادمات، إلى هنا؟ لم أجد عندى إجابة، فسألتها متلعثمًا، وردَّت هى بلا تردُّد:

ـ أرسلنى بوسيدون.. إله البحر الذى أنقذك، فأنا من حورياته.. هأ هأ.

ـ أرجوك، لا تعبثى بى.

ـ لا تعبس أيها الجنوبى.. سوف أخبرك بكل شئ.

قالت إن اسمها أوكتافيا، وإنها تأتى لهذا المكان معظم الأيام التى يكون فيها سيدها مسافرًا مع تجارته، فيأخذ معه خدمه كلهم. فلا يبقى معها بالبيت، إلا الحارسُ الجالسُ على بابه.. هى، كما قالت، تفضِّل المجيئ إلى هنا لتحكى همومها إلى البحر، لأنه يحفظ الأسرار! أخبرتنى وهى تنظر ناحية الموج، أن هذا الشاطئ لا يرتاده الناسُ لكثرة صخوره وخطورة دوَّاماته القريبة من الشط.

ـ آه، عرفتُ الآن ما جرى معى.. ولكن كيف عرفتِ أنت أننى جنوبيٌّ.

ـ من لهجتك. وأعرف أيضًا أنك الآن جائعٌ، من طول بقائك فى البحر! فتعال لتأخذ شيئًا تأكله.

لم أعرف ساعتها كيف أردُّ عليها. كان الجوعُ يقتلنى، والخجلُ. أخرجتنى هى بلطفٍ من حرجى، حين قالت بحسم ممزوجٍ بميوعةٍ لم أر مثلها: *هات مخلاتك، وتعال*.. مشتْ نحو شَقٍّ واسعٍ بين الصّخور، وبقيتُ فى موضعى مشدوهًا مُدلَّهًا، أرقب من قريبٍ مشيتَها المتدللة. كانت فى سن الأربعين، أو الثلاثين، لم أعرف. جسمها يميل قليلاً إلى البدانة، ويميل كثيرًا إلى اللدونة. كانت تتمايل فى مشيها، كأنها خيط بخور. فهل تراها كانت تتعمَّد يومها إغوائى، أم أنها طبيعة النساء فى الإسكندرية؟

سأكفُّ الآن عن الكتابة، فالذكرياتُ تحتشد بقلبى، وتُثقلُ رأسى ويدى. سأكتفى بما دوَّنته الليلة، وأعود للكتابة فجرًا، إن صحوت من نومى. وقد امتلأ هذا الرَّقُّ على كل حال، فلأبدأْ غدًا مع رَقٍّ جديد أستسلم فيه لدَوَّامة أخرى من دوامات الذكرى التى لايتوقَّف دورانها.

الرَّقُّ الرَّابعُ

غوَايَاتُ أوكْتَافِيَا

لطالما أحببتُ الأشياء التى تتم، فقط، فى داخلى. يُريحنى أن أنسج الوقائع فى خيالى، وأحيا تفاصيلها حينًا من الدهر، ثم أُنهيها وقتما أشاء. تلك كانت طريقتى التى تعصمنى من ارتكاب الخطايا، فأظلُّ آمنًا. غير أن ما جرى على الشاطئ الرملى الصخرى، الواقع شرقىَّ الإسكندرية، كان مختلفًا.. كان فعليًا، ومؤرِّقًا لى لزمنٍ طويلٍ تالٍ.

كان الهواءُ قد صار باردًا، حين خرجتُ من البحر ناجيًا من الدَّوَّامة الغادرة. وكنتُ وحيدًا، جدًا، مع المرأة التى اسمها أوكتافيا، فلم أستطع تدبُّر الأمر. هى دَبَّرتْ كل الأمور، لأنها وفق ما أخبرتنى به فى اليوم الثالث، كانت تنتظر وقوع نبوءةٍ أخبرتها بها عجوزٌ من كاهنات المعبد المهدوم.. سوف أقصُّ ما جرى بيننا:

حين تركتنى أوكتافيا عند ملابسى، ومشتْ بدلالٍ نحو الشَّقِّ الصخرىِّ. وقفتُ مشدوهًا، وقَد تسمَّرت بها عيناى. قبل أن تتوارى بمؤخرتها العالية الرشيقة بين الصخور، نظرتْ نحوى نظرةً ولهى. وأشارت بذراعها اليسرى إلى أسفل بطنى، وهى تقول باسمةً:

ـ هل ستظل واقفًا هكذا، للأبد. البس جلبابك ليدارى ما أنت فيه، والحقْ بى بسرعة.. هئ هئ!

ارتبكتُ حين انتبهتُ لانتصاب شيطانى من تحت سروالى المبلول بماء البحر المالح. دُرْتُ بسرعة نحو مخلاتى، فالتقطتُ من فوقها الجلباب، وألقيته فوقى. حملتُ مخلاتى، ومشيتُ إلى المغارة الصخرية القريبة حيث غابتْ هى عن عينىَّ المشدوهتين. أردتُ أن أعتذر لها عن كل شئ، وأشكرها، ثم استأذن منها، وأمضى بعيدًا أجرُّ ذيول خيبتى وفُحشى.

وقفتُ أمامها، مرتبكًا، عند مدخل المغارة الصخرية الصغيرة التى جلست هى فى وسطها.. كانت تُخرج أشياء من قفصٍ أنيق من ذلك النوع الذى يصنعه الفلاحون لأسيادهم من رقائق جريد النخيل. رأيتُ من مكانى ومن جلستها انضمامة نهديها. كنتُ قد رأيتُ قبل ذاك اليوم نهود نساءٍ يُرضعن أطفالهن، لكن ما رأيته يومها كان مختلفًا. خلق الله نهود النساء كى يُرضعن بها، فلأى سببٍ آخر خلق هذين النهدين؟

كانت أوكتافيا مشغولةً عنى بما تفعله.. فرشتْ على الأرض منديلاً كبيرًا، وبعنايةٍ ماهرة وضعتْ على أطرافه الأربعة قطعًا من صوان البحر المتناثر فى أرض المغارة، ثم أخذتْ تصفُّ على المنديل المأكولات: بيضٌ مسلوق، أرغفةُ الدقيق الأبيض، الجبنُ الأبيض، جُبنٌ آخر أشد بياضًا، ماءٌ أو نبيذٌ فى قنينة خزفية بيضاء.. كل شئ على المنديل الأبيض الكبير، كان أبيض. ثوبها الشفيفُ أيضًا، كان أبيض. نهدها المطلُّ، أبيض. بشرتها، كلها، بيضاء.. وكانت دهشتى بيضاء.

ـ اجلسْ هنا.

جلستُ مستسلمًا، مسحورًا. سلَّمتُ نفسى لها، وأسلمتنى هى إلى خَدَرٍ لذيذ. فعلتْ مالم يفعله أحدٌ معى من قبل، ولا من بعد، حتى فى

زمن طفولتى. راحت تضع الطعام فى فمى، وتبتسم لى حتى أبلع اللقمة السابقة، فتضع التالية. تمنَّعتُ فى البداية، ثم استحليتُ الأمر، وأكلتُ من يدها هانئًا كطفلٍ رضيع.

شبعتُ حتى ظننتُ أننى لن أجوع بعدها أبدًا. لما زَمَمْتُ شفتىَّ فى وجه اللقمة الأخيرة، أعادتها لفمى حتى فتحته.. مَدَّتْ يدها اليمنى برفق نحو القنينة، ويدها اليسرى مَدَّتها بحنوٍ آسرٍ نحو كتفى اليسرى، فأمالتنى برِقَّةٍ إلى صدرها. ارتبكتُ، وصحتُ فيها فزِعًا:

ـ ماذا تفعلين؟

ـ سأسقيك أطيب نبيذٍ سكندرى، بطريقتى.

كانت طريقتها، أن أُريح خدى الأيمن على نهدها الأيسر، حتى يلتصق شِقُّ وجهى بنعومة صدرها الممتلئ. قاومتها قليلاً، ثم استسلمتُ. لم أشعر قربها بخطر الخطية، وإنما شعرتُ بأننى أغوصُ فيها، وأنسى ماعداها.. وحين أحاط باطنُ ذراعها اليسرى بكتفىَّ، أحسستُ أنها احتوتنى للأبد، وأن وجودى اضمحلَّ حتى تلاشى بحضنها الدفئ.. براحتها اليمنى راحتْ تقرِّب القنينة من شفتى، فتداعب بفم القنينة فمى، ثم تسكب فى روحى رشفات من نبيذها السماوى. لم أذقْ مثل هذا النبيذ، ولم أشرب بعد أيامى هذه مع أوكتافيا أىَّ نبيذ.. لما ارتويتُ أغمضتُ عينى، فأحسستُ بخدرٍ يتخلَّل روحى، ويرتفع بى إلى آفاقٍ علوية. لم أفتح عينىّ، إلا حين قالت:

ـ اشربْ المزيد، النبيذُ مفيدٌ يا حبيبى.

ـ حبيبك.. كيف تقولين هذا؟

ـ لاتسأل.. ولاتجادل حوريات البحر. أغمضْ عينيك، حتى تشعر بى أكثر.

كانت الشمسُ تستعد لمغيبها، وكان السكونُ تامًا من حولنا، إلا من صوت الموج. أغمضتُ عينى رغمًا عنى، لم أستطع مدافعة حُضورها الإسكندرانى الجارف. ظهر لى أنها محقَّةٌ، فحين أغمضت عينى على صدرها، ازداد شعورى بها.. وحين مرَّت براحتها اليمنى الحانية على رقبتى، أخذتنى سكرةٌ. راحت هى تتلمَّس عظام كتفىَّ، وتمر بأناملها على صدرى الجاف النحيل.. شعرتُ بيدها اليسرى تعتصرنى، وبأنفاسها الفَوَّاحة بالتنهُّدات تلفحنى. يدها اليمنى توغَّلتْ تحت سروالى، المبلول بماء البحر والرغبة المحرَّمة. كانت يدها تغوص فىَّ، فتنتهك أرضى المستسلمة كلها، من أصابع قدمىَّ إلى سائر جسمى المتكوِّم فى حضنها. لما لمستْ بباطن كَفِّها ركبتى اليمنى، وضَمَّتنى إليها بقوة، غبتُ تمامًا. كنتُ آدم الذى يوشك أن يخرج من الجنة؛ لأنه يوشك أن يدخل الجنة فيأكل ثانيةً من الشجرة.. وبهذا الاشتهاء المحرَّم، المفعم بانجذابٍ سحرى، كدتُ أُقبلُ عليها من دون روية.

ـ يا حبيبى، مهلاً. جسمك مبلولٌ بماء البحر.. جسمك يا حبيبى، يابسٌ كشجر الخريف. آه، كم أحبُّ يبوسة هذا الشجر.

أنا لم أكن ساعتها أنا.. شعرتُ كأن الكون الأعلى توقف عن دورانه، والنيلُ البعيدُ سكن جريانه، ولم يعد على وجه الأرض بشرٌ، واختفت الملائكة من السماء.. اندفق مائى فى غفلةٍ منى، فضحكتْ. وددتُ لو أحيطها بذراعىَّ، فتمنَّعتْ. رَدَّت بدلالٍ يدى عن كتفها، وأخذتها نحو فمها. قبَّلتْ أطراف أصابعى، وأطالت القُبلة. ولما شعرت بلسانها يلمس أناملى، غلبتنى غيبوبة كادت تأخذنى منها.

ـ الشمس غابت يا حبيبى، ستبرد.. تعال للبيت. إنه قريبٌ، ولا أحد هناك إلا البوَّابُ الطيب.

اعتدلتُ فى جلستى. وبحركةٍ يدها الرشيقة، جمعتْ هى كل ما نثرته من سَلَّتها على الأرض: المفرش الأبيض، قنينة النبيذ الفارغة، الأساور الفضية التى خلعتها وهى تطعمنى فى فمى.. لما وقفتْ كسنديانةٍ وارفةٍ، وقفتُ كنخلةٍ يابسة. أفهمتنى همسًا فى أذنى، من غير داعٍ للهمس ونحن وحدنا! أن أتبعها من قريبٍ، حتى تصرف حارس البيت عن البوابة.

سرتُ وراءها غير بعيد، فرأيتها تكلِّم حارسَ البيتِ المسنَّ بشئٍ، ثم توارى الرجل خلف البيوت الهادئة، وتبعه خروُفه النحيلُ الذى كان ينظر نحوى كما تنظر الكلاب. تقدَّمتُ نحو البيت الكبير، وكانت تنتظرنى باسمةً عند البوابة. غرفةُ الحارس لصيقة بسور المنـزل من خارجه، ومن وراء السور حديقةٌ كبيرةٌ، يتوسَّطها بناءٌ أنيقٌ من طابقين يرتفعان على أعمدةٍ رصينةِ القامة. أغلقتْ خلفنا، بهدوء، بابَ الحديقةِ الأنيقة المليئة بشجرٍ قصيرٍ ملوَّن، وزهورٍ اكتست مع الغروب حمرةً زادتها بهاءً.. كنتُ أتلفَّتُ حولى، مسائلاً نفسى: *هل تكون الجنةُ، أجملَ من هذا المكان!*

كنتُ كأننى فى حُلم بديع، لا أحبُّ أن أصحو منه.. فتحتْ أوكتافيا باب المنـزل بمفتاحٍ نحاسىٍّ أخرَجته من القفص الجريدى الخفيف، وأشارت إلىَّ بالدخول. ياملكوت السماء. قلت لها هامسًا: *ما هذه الفخامة؟* فابتسمتْ وهى تأخذ ذراعى إلى صدرها.. أمسكتْ يدى بإحدى يديها، وبالأخرى حملتْ سراجًا منيرًا لا يتصاعد منه دخانٌ. فى طريقنا من البهو الفسيح إلى الدور الأعلى، رأيتُ الجمال مبثوثًا فى كل الأماكن. كلما سارت أوكتافيا بسراجها، وقعتْ عيناى على زاويةٍ رخاميةٍ مزخرفة، أو تمثالٍ بديعٍ لآلهة الوثنيين الخلابة، أو مفارشَ حريريةٍ متقنةِ التطريز رهيفةِ الحواف.. السلم الواصل بين الطابقين، كله، كان من الرخام الأبيض. وفى درجاته كلها نقوشٌ متنوعة، وحلياتٌ من الرخام الملوَّن المبثوث فى رخامه الأبيض. كان لكل درجةٍ زخارفها، وصورها المختلفة عن الدرجة الأخرى. بكم من المال والوقت والجهد والفن والإتقان، عُمل هذا السلم! حتى بقايا المعابد البديعة الممتدة على طول وادى النيل، وقد بناها الأقدمون المعمِّرون فى سنين طويلة(١)، ليست بهذه الدقة ولا بهذا الإتقان. سألتُ نفسى ساعتها: *هل ستعطى ديانتنا للأجيال التالية، جمالاً، كهذا الذى قدَّمته لنا الأزمنةُ الوثنية؟* ما يزال هذا السؤال عالقًا برأسى بعد مرور كل هذه السنين، ومايزال بلا إجابة.. آهٍ يا أوكتافيا وآهٍ لذكرى غواياتك، وزمانك الذى كان.

أسرجتْ فتيلاً آخر، فشعَّ نوره ونورها عند أعلى السلم. نظرتُ خلفى، فبدتْ لى فى أرضيةِ البهو لوحةٌ مرسومة بالفسيفساء، لم أتبين تلك الليلة ملامحها. وعرفتُ صبيحة اليوم التالى أنها صورة كلب! استغربتُ الأمر، فشرحتْ لى أوكتافيا حقيقة الحال: *هذا الكلب الحزين المرسوم داخل الدائرة الكبيرة بقطع الرخام الصغيرة، وبجواره إناء اللبن المسكوب، كان كلب السيد الصقلى الذى أراد أن يخلِّد كلبه الوفى فى مرض وفاته،* تقصد وفاة الكلب؛ *فكلَّف الفنانين المهرة برسمه فى بهو الدور الأرضى، أمام السلم، ليراه كل يوم عند نزوله من الطابق الأعلى!*

فى الطابق الأعلى من المنـزل، تقع غرفةُ النوم التى سألتُ أوكتافيا حين رأيتها: إن كانت هذه غرفةَ نوم تاجرٍ، فكيف تكون غرفُ نومِ الملوك؟ فردَّت بما معناه أن سيدها فاحش الثراء، وأننى يمكننى المبيت فى سريره لو أردتُ.. وبطبيعة الحال، رفضتُ.

---

(١) ساد الاعتقاد قديمًا، بأن المصريين القدماء كانت أعمارهم مديدة، ولذلك بنوا الأهرام والمعابد الضخمة! وتأكد ذلك فى وَهْم اليهود والمسيحيين الأوائل، بسبب ماذكرته التوراة من أن أعمار بنى آدم كانت تعدُّ بالمئات، بل منهم من عاش قرابة الألف سنة.. والحقيقة، أن متوسط عمر الإنسان فى مصر القديمة، كان فى حدود ستة وثلاثين عامًا فقط..(المترجم).

كان ذهنى ساعتها مشغولاً بهذا التاجر الصقلى الذى عرفتُ منها أنه ليس صقليًا تمامًا، وأن أباه هو الذى وفد فى صغره مع أسرته، من صقلية إلى الإسكندرية. بدا لى أولاً أنه رجلٌ مختلٌ، وإن كان غنيًا ومحبًا للفنون ومخلصًا لكلبه الميت! غريبٌ أمر هذا الرجل، لم يفكر فى تخليد زوجته المتوفاة قبل الكلب بسنوات، إلا بتمثالٍ وحيدٍ فى غرفة نومه الفسيحة، بينما يخلِّد كلبه صاحب النظرة الحزينة، بهذه اللوحة البديعة.. فى اليوم التالى، قالت لى أوكتافيا إن صاحب المنـزل ظلت عيناه تدمعان عدة شهور، كلما مَرَّ فوق كلبه المرسوم على الأرض.. عيناه كانتا تدمعان من أجل كلب! تعجَّبتُ من غرابة هذا العالم الجديد، وتذكرتُ ساعتها بلادى الأولى، حيث الكلابُ هناك بائسةٌ.. والناسُ!

أمضيتُ مع أوكتافيا فوق سطح المنـزل ثلاث ليالٍ سويًا، فلم يشعر بنا أحدٌ سوانا. أنا لم أقرِّر شيئًا، هى التى أخذتنى منذ الليلة الأولى، من الطابق الأعلى للمنـزل إلى مكان إقامتها بالغرف الأعلى من الطابق الأعلى. مضت بى إلى الأعالى واثقة الخطى. صعدنا من بعد السلم الكبير سلمًا آخر صغيرًا، أوصلنا إلى غرفتها الفسيحة اللطيفة المبنية بعناية على سطح المنـزل، ومن حولها امتدت بلاطاتُ السطح الرخامية التى يحيط بها سورٌ أنيقٌ يؤطِّر حوافَّ السطح بقوائم قصار على هيئة نساءٍ رشيقات عاريات، يحملن جميعهن طاولة رخامية طويلة، منحوتٌ فيها أنواع الفاكهة. ومن بين المسافات الممتدة بين تماثيل العاريات بالتساوى، يظهر البحر، وتظهر السماء النائمة فوق البحر. وددتُ لو اقتربتُ من السور أكثر، فأرى ذاك المنظر الخلاب عن قرب. غير أن أوكتافيا نبَّهتنى إلى أننى لو فعلت، فقد يرانى حارس البيت الغافل عن وجودى.

عند دخولنا غرفتها، أسرجتْ أوكتافيا قنديلاً معدنيًا شَعَّ نورُه فى جوانب الغرفة، وأنارتْ هى روحى بقبلةٍ أبهتتنى، وأشعلتْ اللهب بباطنى، كنتُ قبلها أعرف لفظ القُبلة من دون أن أدرى ماهى.. أوكتافيا.. وهى تحتضننى قالت بلفظٍ لين، إنها تشمُّ فىَّ رائحة البحر التى تعشقها. ثم استمهلتنى، ومشت متمايلةً إلى سور السطح. نادت الحارس وكلَّمته بكلام لم أتبينه، وعادتْ مطمئنةً باسمةً لتأخذنى إلى غرفة الحمَّام المجاورة لغرفتها. هى غرفةٌ صغيرة، فى وسطها حوضٌ رخامى شبيهٌ بتوابيت الجرانيت الرمادية التى تملأ المغارات فى بلادى الأولى، غير أن هذا الحوض كان رخامه أبيض، وله قوائم قصيرة، ومنقوشٌ على جوانبه صور المصارعين.

ضاحكةً، أزاحتنى بصدرها إلى ناحية الحوض الرخامى، فتقدَّمتُ إليه وَجِلاً. رفعتْ بيديها جلبابى، فلم أمنعها، ثم أجلستنى عاريًا فى قلب الحوض، وراحت تصبُّ حول جسمى المرتجف الماءَ العذب. استسلمتُ لها، مسحورًا بكل ما حولى. سكبتْ فى الحوض زيتًا عطريًا فواحًا، من قنينةٍ كانت موضوعة على رفٍ قريب، ثم تناولت بكفيها من الماء وفركت شعر رأسى، وتركتنى لأكمل تغسيلى. لما انتهيتُ، خرجتُ من الحوض الرخامى حَذِرًا من الانزلاق، وغير حَذِرٍ من انهيارى إلى الهوة التى كنتُ مقبلاً عليها، مستسلمًا إليها.. ارتديتُ الرداء الواسع القصير، مطرز الحواف، الذى أعطته أوكتافيا لى عند دخولى.

عند خروجى وجدتها فى رداءٍ آخر، غير الأبيض الذى كانت ترتديه. رداؤها الآخر بدا لى على ضوء القمر، أكثر بياضًا وعريًا. عند باب الحمَّام التصقتْ بى، احتضنتنى طويلاً بحبٍّ طاهرٍ من أىِّ شهوة، وتنهَّدت، فمسَّ صدرى حَرُّ صدرها.. ثم تركتنى لتفرشَ على أرضية السطح الرخامية سجادةً، لا هى شرقية ولا غربية، ولا تشبه أى سجاد رأيته من قبل ولا من بعد. كانت أكثر زخرفةً من كل السجاد، وأكبر حجمًا، وأنعم ملمسًا، وأجمل تلوينًا. فكانت أطرافها المزركشة، هى حدودُ عالمنا طيلة الليلة، حتى أخرجنا منها شعاعُ شمس الصباح.

أحضرت أوكتافيا من غرفتها كل شئ قد نريده. إبريق ماء، وطبقًا فضيًا فيه فاكهة، ووسادتىْ رأس، ودثارًا من الصوف الناعم الملون.. لفَّنى عطرُها لما جلستْ ملتصقةً بى وهى تهمسُ بأهمية أن نخفض صوتنا، لكيلا يسمعنا حارسُ المنـزل الطيب، السهران مع خروفه خارج السور. ثم تمددتْ على ظهرها هانئةً، وهى تبتسم للقمر البعيد. كدتُ أخرجُ عن تردُّدى المعهود، وأمدُّ يدى لألمس نهديها، لكنها استمهلتنى وهى تقرِّب منى الطبق الفضى الملئ بفاكهةٍ لم أعهد مثلها، ولم أذق أشدَّ حلاوة منها. سألتنى هامسة عن فواكه بلادى، وضحكتْ بتكتُّمٍ لما أجبتها بقولى: *الليمون والدوم والبلح!*

دنوتُ منها من دون أن ألتصق، فاستلقتْ ثانيةً على ظهرها، ومدَّدتنى بجوارها. النجومُ كانت شبيهةً بالنجوم فى بلادى الأولى، والسماء مثل التى كانت هناك، لكن الأرض كانت غير الأرض.. وكنتُ أنا غيرى.

أخذتْ تداعب بأصابعها الناعمة أطراف أصابعى. ولما نظرتُ ناحيتها، رأيتُ دمعةً تسيل من عينيها، ولما تصل بعدُ إلى أذنها. مسحتُ دمعتها بأنامل كفِّى اليسرى، وسألتها:

ـ لماذا بكاؤك الآن؟

أجابتْ باقتضابٍ بما معناه: *هذه قصةٌ طويلة*.. ثم أزاحتْ عن عينيها بقيةَ الدمع، ومالت بجسمها ناحيتى وقد وَسَّدت رأسها بذراعها اليسرى، وأبقتنى يدها اليمنى التى افترشت صدرى؛ مستلقيًا. كانت، حسبما قالت، تريد أن تنظر فىَّ طويلاً؛ لأنها انتظرتنى طويلاً! لم أفهم ما تقصده.. ولما استفهمتُ قالت:

ـ سأحكى لك كل شئ صباح غدٍ. أما الآن، فدعنى أراك متألقًا كالحلم تحت ضوء القمر.

ـ أنا لا أفهم شيئًا.. ماذا تريدين منى؟

ـ ليس مهمًا الآن أن تفهم، المهم أن تحسَّ! قُلْ لى يا حبيبى: كم تبلغ من العمر؟

ـ ثلاثةٌ وعشرون عامًا أو أربعةٌ وعشرون.

ـ ظننتُ عمرنا واحدًا. أنا إذن، أكبر منك بخمس سنين. لكنك على كل حالٍ أطول منى، وأجمل.. تعال إلىَّ.

بباطن يدها اليمنى التى كانت على صدرى، أدارتْ وجهى نحوها واقتربتْ بوجهها لتقبِّلنى قبلةً حريرية، كانت ساعتها وافيةً بمطلوبها وغير موفيَّةٍ بمطلوبى. كان تَنُّورى قد فار، واشتعلت نار غواياتها الآسرة باطنى.. غالبتُ اشتهائى لها حتى انغلب، وآثرتُ الهدوء، وقد شعرتُ بشئ من القلق يتسلَّل إلى باطنى. سألتنى إن كنتُ أراها جميلة، فقلتُ مندفِعًا أنها أجمل النساء.

ـ وهل عرفتَ نساءً كثيرات؟

ـ لا.. أنت أول امرأة تلمسنى، أقصد أنك أجمل امرأة رأيتها فى حياتى. صَدِّقينى.

ـ لن أصدِّقك أبدًا، أبدًا.. هيَّا، أخبرنى عن النساء فى بلادك الجنوبية البعيدة؟

ـ هُنَّ يابساتٌ مثلى، وحزينات. أنتِ مختلفةٌ جدًا، أنت أحلى وأرقُّ. أنتِ استثناءٌ بين النساء.

ـ هاه، أنت بليغٌ جدًا.

شجَّعتنى عبارتها، فاعتدلت قليلاً لأواجهها، وأخبرها بفخرٍ بأننى أحفظ أشعار هوميروس وبندار، وأننى قرأت كل أعمال إسخيلوس وسوفوكليس.

ـ ياه، أنت متعلِّمٌ.. هل جئتَ الإسكندرية تبحثُ عن عمل؟

ـ لا، جئتُ لأكمل دراسة الطب.

كان لكلمة الطب وَقْعٌ سحريٌّ عليها! رفعتْ حاجبيها، وأشرق وجهها ببسمةٍ بدتْ معها أسنانها الناصعة، وقد زادها نورُ القمر بياضًا وألقًا. مالت بوجهها، بل بجسمها كله، ناحيتى. حتى أعادتنى إلى استلقائى الأول، بارتمائها المتوهِّجة بالاشتياق. كنتُ أظن قبلها أن الرجل إذا خلا بالمرأة، فإنه يعتليها. لكن الذى جرى لحظتها، هو أنها اعتلتنى.. لن أستطيع تدوين بقية ما جرى بيننا فى ليلتنا الأولى هذه.. ليلتنا.. كانت حافلة بالشهوات المحرَّمة التى أهبطت آدم من الجنة.. تُرى، هل طرد اللهُ آدم من الجنة لأنه عصى الأمر. أم لأنه حين عرف سِرَّ أنوثة حواء، أدرك رجولته واختلافه عن الله، مع أنه خلقه على صورته!

فى الصباح أزعجتنا الشمسُ، وأدخلتنا غرفتها. وفى الغرفة عرفتُ منها أنها أرملةُ رجلٍ مسكين، كان يعمل معها بهذا البيت الأنيق.. رفضتْ بقطع أن أسمِّى بيتها قصرًا، قالت برفقٍ وأسى: *أنت لم تَرَ القصور التى كانت فى البرخيون!* تقصد: الحىَّ الملكى بالإسكندرية. جمح لحظتها خيالى، فيما كانت عليه هذه القصور التى لم أرها، ولن أراها أبدًا. كنتُ ساعتها جالسًا على سريرها الذى اعتلتنى عليه ثانيةً فى الصباح، حين سألتنى ثانيةً عن سنوات عمرى، ولما قلتُ: *ثلاثة وعشرون*. ردَّتْ بسرعة بأنها، وإن كانت أكبر منى بخمس سنين، إلا أن العبرة لاتكون بفارق السنين بيننا! وأكَّدتْ بحرارةٍ أن النساء اللواتى أحببن رجالاً أصغر منهن سنًّا، جعلن منهم أسعد الرجال، وأنها ستجعلنى أسعد هؤلاء السعداء! قلتُ؛ بسُخفٍ قاصدًا مشاغبتها، إن كليوباترا السابعة حين أحبَّتْ مارك أنطونيو لم تجعل منه رجلاً سعيدًا! وإنما جعلته رجلاً منتحرًا مهزومًا متبرِّئًا من أهله وأصدقائه، ومطلِّقًا زوجته أمَّ أطفاله. قلتُ وأنا أنظر فى قلب عينيها الدَّهِشتين: *كان اسم زوجته أوكتافيا مثل اسمك، وكانت أخت حاكم روما أوكتافيوس، صديقه القديم الذى انقلب عليه، فصار عدوًّا له بعدما كانا كأخوين*.. قاطعتنى وقد احمرَّتْ وجنتاها حنقًا:

ـ دعك من هذه القصص القديمة، وصدِّقنى فيما أقول. سوف أجعلك أسعد رجلٍ فى العالم.

ـ كيف.. أقصد: لماذا؟

ـ أنت كثير الأسئلة. سأتركك الآن برهةً، فابقْ هنا، وسوف أخبرك بكل شئ، حين أعود.

تركتنى غارقًا فى حيرتى، وقد بدا لى أن كل شئ صار عجيبًا. قبلها بيوم كادت الدَّوَّامة تأخذنى إلى قلب البحر الغادر، والآن تأخذنى هذه المرأةُ الشهية إلى حيث لا أعرف.. لا أعرف كيف أخذنى الوسنُ، ثم انتبهتُ مع مجيئها وفى يدها طعام عرفته من رائحته:

ـ يا أوكتافيا، أنا لا آكل السمك.

ـ طيب، سنأكل أىَّ شئ آخر. سأعطى السمك للحارس، وأُحضرُ لنا جُبنًا وعنبًا.

لم أرد، ولم تكن تنتظر ردًا. قامت مسرعةً، وعادت بعد قليلٍ، وقد اكتسى وجهها بجديةٍ كانت مفقودةً بالأمس. راحتْ كما فعلتْ أول مرة، تضع بيدها الطعام بفمى. لم أكن جائعًا، ولم تأكل هى غير لقمتين.. أزاحتْ أطباقَ الطعام من بيننا، وجلست بمودةٍ إلى جوارى بعدما ابتسمت لدهشتى وترقُّبى، ثم راحت تقصُّ علىَّ القَصَص.. مازلتُ أذكرُ جلستها وحركة يديها وهى تحكى! بل إننى مازلتُ أذكر كلماتها بحروفها: *بعد موت زوجى أردتُ أن أهب نفسى للآلهة، وأخدم واحدًا من المعابد الباقية*

فى المدينة. السيد الصقلى لم يوافق، هو يحُبنى كابنته. هو الذى علَّمنى القراءة، حين كنتُ فى العاشرة من عمرى.

ـ ولماذا منعك عن خدمة المعبد؟

ـ قال إن الآلهة لا تحتاج اليوم من يخدمها، بل مَنْ يبكى عليها! ونصحنى قائلاً: احزنى قليلاً يا ابنتى، فالحزنُ شأنٌ إنسانى. وسوف يتبدَّد حزنك مع الأيام، مثل كل شؤون الإنسان. ويوما ما، سوف تجدين زوجًا آخر.

عرفتُ منها أن سيدها الصقلى هذا، لايؤمن بدينٍ معين، وإنما يعتقد فى صحة كل الأديان وجميع الآلهة، مادام ذلك يرتقى بالإنسان! همستْ وهى تضع رأسها على كتفى بأن سيدها يؤكد دومًا، أن الله يظهر للإنسان فى كل موضعٍ وكل زمان، بشكلٍ مختلف، وأن تلك هى طبيعةُ الألوهية!

ـ رأىٌ عجيبٌ.

ـ ما علينا منه الآن، دعنى أُكمل لك.

كان وجهها قد اكتسى بالجدية تمامًا، ولكنها ظلت مع ذلك جميلةً. أسندتْ كتفها إلى الجدار الملاصق للسرير، وراحت تحكى كيف مَرَّت عليها الأيامُ ثقالاً بعد رحيل زوجها، خاصةً أن السيد الصقلى الذى كان يملأ البيت حضوره، سافر بعد وفاة زوجها بأيامٍ إلى رحلة تجارته السنوية التى يغيب فيها شهورًا. للسيد الصقلى رحلتانِ كل عام، الأولى قصيرة إلى أنطاكية، تستغرق شهرًا، والثانية تطول لثلاثة أشهرٍ أو أربعة تمرُّ فيها مراكبه على المدن الخمس الغربية (ليبيا) ثم تبحر شمالاً، فترسو أسبوعًا فى القسطنطينية، ثم تُبحر إلى برجامة، وترسو بقبرص وصقلية قبل أن تعود للإسكندرية. هو فى الستين من عمره، يملك ثلاثة مراكب كبيرة، ولا أهل له ولا ذرية. وهو يردِّد على مسامعها كُلَّ مرة، أن هذه قد تكون رحلته الأخيرة. وإذا مات فى البحر، فإنه يهب لها هذا البيت، شريطة ألا تطرد الحارس. وقد أودع لها مالاً فى مكانٍ سرىٍّ بالمنـزل، لن يصل إليه غيرها. قالت إنها تتمنَّى دائمًا عودته من رحلاته، ولاتتمنى أن تملك البيت والمال المخبوء.. وهى تعتقد فى الآلهة القديمة، خاصةً إله البحر المسمى بوسيدون، وتتحدث عنه بإجلال كبير.

كانت ظلالُ المساء قد امتدت، فقامتْ لتنير السراج، وتعود لتندسَّ فى حضنى، وتُكمل حديثها: *لما خرَّب أتباع الأسقف المسيحى الذى كانوا يسمونه ثيوفيلوس، كُلَّ ما بقى من المعبد الكبير الذى كان قائمًا على الطرف الغربى من جزيرة فاروس التى تحتضن الميناء، هرب بقية كُهَّان المعبد وتفرَّقوا فى الأرض. كاهنةٌ عجوز منهم لجأتْ إلى بيتنا؛ لأنها كانت تعرف إجلالى للإله بوسيدون، وتضرُّعى الدائم إليه كى يحفظ مراكب سيدى الصقلى. أقامت الكاهنةُ معى، هنا على سطح البيت، الأسابيع الأخيرة من حياتها. كانت تقضى أغلب أوقاتها عند هذا السور، محدِّقةً فى البحر.. قبل وفاتها بأيام نادتنى إلى غرفتها، وبصوتها الممتلئ بصدق الكاهنات، قالت لى وهى نائمة على سرير موتها: يا أوكتافيا لاتحزنى، سوف يرسل الإله بوسيدون من البحر، رجلاً تحبينه ويحبك، يمسح عنك دمعك، ويملأ أيامك بالفرح، سيأتيك بعد علامتين!*

لما سألتْ أوكتافيا عن العلامتين، أخبرتها الكاهنة أنهما علامتان فى مسيرة الزمن: يومان، أسبوعان، شهران، سنتنان. ماتتْ الكاهنةُ ومَرَّت الأيام على أوكتافيا بطيئةً حتى انقضتْ سنتان كاملتان، فكادتْ تشكُّ فى النبوءة.. ولما رأتنى أغرق، ثم أنجو من الغرق، وأخرج إليها عاريًا إلا من سروالٍ مبلول ومصير مجهول، تيَقَنتْ من صدق النبوءة! أضافت وقد غمرتها بهجةٌ خفيةٌ مفاجئة، فأظهرت ابتسامتها لمعان أسنانها:

ـ طيلة العامين الماضيين، كنت أظن أن رجلى الآتى سيكون بحّارًا يأتى على أحد المراكب، لكننى وجدتك تأتينى محمولاً على أجنحة الإله العظيم وأمواجه.

ـ ألهذا السبب كنتِ تقولين: يا حبيبى، منذ رأيتنى؟

ـ نعم، لأننى أحببتك قبل أن أراك بعامين كاملين، وربما من قبل ذلك!

لم أدرِ ساعتها كيف أردُّ عليها، فضممتها إلىَّ بإحاطةٍ كَسْلى من ذراعى اليسرى، فسكنتْ فى حضنى.. حتى نامت كطفلٍ رضيع، وتركتنى لعصف الظنون والخواطر. ساءلتُ نفسى: ماذا سأفعل بهذه المرأة البيضاء التى تنام الآن على صدرى، ويُخايلنى، بل يَخبلنى فخذاها العاريان؟ هل أتخلَّى عما انتويته طيلة السنوات الماضية، لأبقى فى سريرها بقية عمرى؟ هل تغنينى محبتها الوفيرة عن حلمى الكبير: النبوغ فى الطب واللاهوت؟ أيام مات زوجها كنتُ مراهقًا فى نجع حمادى أفكرُ فى الزواج بفتاةٍ من النوبة مثلما فعل عمِّى الذى كنتُ أعيش فى بيته.. أهلُ النوبة لا يزوِّجون بناتهم لغير رجالهم، إلا فيما ندر. جدى لأبى جاء إلى بلادهم من قلب الوادى، فعاش معهم، ومات بينهم بعدما صار كواحدٍ منهم. أبى وعمى وُلدا هناك. عمى تزوَّج منهم، وأبى اختار زوجةً من قرى الدلتا صارتْ من بعد ذلك أمى.

فى الثامنة عشرة من عمرى، كان يثيرنى سفادُ العصافير ونكاح الدواب. فاتحتُ عمى فى تزويجى بفتاةٍ من أهل النوبة، فهو محبوبٌ عندهم، وكان يمكنه أن يُنجز لى الأمر لو تحمَّس. غير أنه لحكمةٍ غابت عنى، نصحنى بأن أكمل دراسة الطب واللاهوت.. عمِّى مسيحىٌّ طيبٌ، ومريضٌ جدًا. هو الذى ألحقنى بالكنيسة فى نجع حمادى، وبالمدرسة والكنيسة فى أخميم. لابد أنه مات الآن. أتراه أراد أن يصيرِّنى راهبًا، ليمسح من قلبى ذكرى ما فعله قتلة أبى؟.. اغتالوا أبى وتزوَّج أحد أجلافهم من أمى؟ كيف تنمحى الذكريات.. أمى.. كيف ارتضتْ الزواج بواحدٍ من القتلة. أبى كان رجلاً طيبًا، لم أره ينهرها يومًا، ولم يضربنى قط. كان يأخذنى ليلقى شباكه فى النيل من فوق الصخور البيضاوية، التى يعتقدُ أنها بيضٌ سماوىٌّ مقدسٌ هبط مع ماء النيل، ليحمى الواقف عليه من التماسيح، التى هى أيضًا مقدسة. كنتُ أفرح بالأسماك العالقة فى شباكه، وكان يفرح لفرحى.. لماذا أمعنوا فى قتله، على هذا النحو؟.. يا يسوع المسيح.. إننى أشعرُ بحُرْقةِ قلب العذراء ولوعتها عليك.. أُحسُّ بعمق عذاباتها، يوم دقُّوا المسامير فى يديك وقدميك المشبوحتين فوق الصليب. فأنا مشبوحٌ مثلك فوق صليب الذكريات، وملتاعٌ مثلها بحرقة الفُقدان..

ـ حبيبى، أتبكى.. آه، لقد أحزنتك بحكايتى.

ـ لا يا أوكتافيا. أكملى نومك، إننى أبكى لبؤس هذا العالم وهلعه.

ـ لا عليك يا حبيبى، أرجوك لاتبكِ.. تعال فى حضن أوكتافيا التى تحبك.

جمعنا حضنٌ واحد، فأخذنا فى غمرةٍ من النوم.. النوم رحمةٌ سماوية لكل الكائنات. لم أحلم ليلتها بشئ. أفقتُ مبكرًا على حركتها الرشيقة فى الغرفة، كانت تروح وتجيئ سعيدةً هانئةً. لما فتحتُ عينى، ألقتْ نفسها نحوى بخفةٍ، فتمدَّدتْ بجوارى على بطنها، وقد أشرق وجهها ببهجةٍ تمتدُّ من وسط سريرها إلى آخر الكون.

انتبهتُ إلى أن سمرتى اكتست حمرةً خفيفةً، فصار جسمى فى لون الأوانى النحاسية. ظننتُ أولاً أن السبب فى ذلك، هو ما فعلناه معًا من فواحش! غير أن أوكتافيا أخبرتنى وهى تتمايل ضحكًا، بأن السر فى

ذلك هو شمسُ الأمس، مع هواء البحر المالح؛ فأدركتُ السبب فى أن بياض جسمها، مشوبٌ بالحمرة.. تمدَّدت بجوارها هائنا بالعرى، كانت تلك هى المرة الثانية، التى أحس فيها أن جسمى جميل.. المرة الثانية، الأخيرة، فى عمرى كله.

بعدما تحرَّشت بى كثيرًا، وقَبَّلتنى فى فمى. دعتنى لحمَّام قالت إنها ملأته بماءٍ ساخن، وأعشابٍ عطرية تأتيهم من بلاد الشرق. أخبَرتنى وهى تنـزل من السرير، أنها ستأخذ ملابسى من المخلاة لتغسلها، فصرختُ كالملسوع: *لا، لا تفعلى!* أضفتُ مرتبكا: *لا أحب أن يغسل ملابسى أحدٌ، أنا أفعل ذلك بنفسى منذ سنين.*

ـ يا حبيبى، لم تكن أوكتافيا معك منذ سنين.

ـ أرجوكِ، لا تعارضينى فيما أقول.

لم تُعارضنى. لفَّتنى بحضنٍ عميم يسعنى ويسعُ كل ذكرياتى، بكل ما فيها من آلام دفينة وأفراحٍ قليلة. كأنَّ حضنها يسع العالم كله. همستْ فى أذنى بما معناه أننى لم أعتد عليها بعد، وأن زماننا الآتى كفيلٌ بذلك. كانت أنفاسها لحظتها، تدفئ صدرى، وشفتاها المتوهجتان تمران على عنقى، فتلهبانه توقًا إليها.

لما نزعتْ عنى، ثانيةً، ثيابى فى الحمَّام المجاور لغرفتها. لمحتُ فى عينيها نظرة اشتياقٍ، كنت أيضًا مشتاقًا لها ومضطربًا. تحسستُ الماء، فكان فاترًا ومشجِّعًا على الجلوس فى الحوض الرخامى ذى الأرجل الأربعة المنقوشة، أرحتُ ذراعىَّ على جانبيه، ومدَّدت رجلى فى مائه، وراحت هى تدلِّك أكتافى برفقٍ وبشهوةٍ طاغية. أغمضتُ عينى محاولاً أن أتذكَّر شيئًا مما مَرَّ بى، لأنشغل به، وأهدأ. غير أن الذكريات انفلتت كلها من رأسى، إذ كانت لمسات أوكتافيا تمسح عنى كل ما رأيته قبلها.

بلطفها الآسر، أمالتنى إلى الأمام كى تدلِّك ظهرى، مِلتُ مع كَفَّيها وقد هدأ الجزء الذى تولاَّنى حين كادت تُفرغ مخلاتى. كان سيصدمها زِىُّ الرهبان والصليب الخشبى، لكننى أدركتها فى لحظة حاسمة.. عاودتنى الأفكارُ الرمادية، والتساؤلات: إلى متى سيدوم هذا الحالُ المخايل.. هذا النعيمُ المؤقَّت، والخداع؟ لستُ مخادعًا بطبعى، ولم أكذب طيلة عمرى. فلماذا أضلِّلها وأضِلُّ معها منذ رأيتها؟ الرَّبُّ يرانى ويراها، ولن يغفر لى ما أنا فيه. لن يجيرنى من عقابه إلا توبتى ورحمته. لو شاء عفا عنى، ولو أراد فسوف ينكِّل بى عقابًا على خطيَّتى.. وقد نكَّل بى قبلاً، دونما أقترفُ أىَّ خطيَّة! فلعلَّ ذاك، جزاءُ هذا.. ماذا عن خطايا أوكتافيا؟ هل سيعاقبها الرَّبُّ عليها، أم يتجاهلها لأنها وثنيةٌ لاتؤمن به؟ أتراه يعذِّب؛ فقط، المؤمنين.. أظنه سيعفو فى النهاية عن الجميع، لأنه رحيم!

نويتُ فجأة أن أقوم من فورى، فأرتدى جلبابى الأول، وأطلب منها أن نزور المغارة التى بين الصخور، وفى المكان الذى رأيتها فيه أول مرة سأخبرها بكل شئٍ عَنىِّ، فينتهى كل شئ من حيث بدأ، وأعودُ إلى ما جئت من أجله: الطب واللاهوت.. ثم أرجعُ يومًا إلى قريتنا، فأفتح بيت أبى المغلق منذ سنين، وأعيش هناك حياة الرهبنة ومداواة الناس. ستجرى على يدىَّ المعجزاتُ المؤكِّدة وجودَ الرب، وسينسى الناسُ هناك ما جرى مع أبى وماجرى من أمى، وسأختار لنفسى الاسم الكنسى الذى يعجبنى وأرتاح إليه.. وسوف..

ـ فيم تفكر يا حبيبى؟ هل تفكر فىَّ، وأنا معك!

ـ أود الخروج من هذا الإناء الكبير، وزيارة المغارة الصخرية التى عند البحر.

ـ سنذهب فيما بعد.. تعال يا حبيبى، سأنشِّف جسمك.

تساؤلاتى عاودت عصفها بى: لماذا تدلِّلنى هذه المرأة؟ وكيف تعطينى هذه المحبة الدافقة التى تُغرق الكون، مع أنها لاتعرفنى؟ وأنا لا أعرف عنه إلا ما أخبرتنى به.. لابد أنها أخفت عنى أشياء، ولابد أن أشياءها المخفيَّ مخيفةٌ! وهى على كل حال امرأةٌ وثنيةٌ، وتعتقد فى خرافات الآلهة اليونانـ الحمقاء. الآلهة الذين يخادعون بعضهم، ويحاربون البشر، ويتزوجو كثيرًا، ويخونون زوجاتهم! أىُّ خيالٍ مريضٍ أنجب آلهة اليونان. والأعجب أن هناك مَنْ يؤمن بهم! مثل أوكتافيا التى تعتقد أن إله البحر بوسيدون أرسلنى إليها. ليس للبحر إلهٌ، وأنا لم يرسلنى أحد.. ولكن، كيف لى أن أعرفْ بيقينٍ أنها ضالةٌ وأنا مهتدٍ؟ إن التوراة التى نؤمن بها، مليئةٌ أيضًا بمخادعات وحروب وخيانات. وإنجيل المصريين الذى نقرأ فيه، مع أنه ممنوعٌ، فيه ما يخالف الأناجيل الأربعة المتداولة! فهل هذا وذاك خيالٌ والله من وراء ذلك محتجبٌ وراء كل الاعتقادات؟

ـ البس يا حبيبى هذا الثوب النظيف، حتى لاتبرد. سوف أغسلُ جلبابك من أثر ملوحة البحر.

أفقتُ من هيمان أفكارى. رفضت بحزم أن أرتدى ثوب السيد الصقلى النظيف، الذى مَدَّته لى. كنتُ سأبدو غريبًا عَنى لو ارتديت الثوب الحريرى الفضفاض. النساء فقط يلبسن الحرير، غير أن رجال الإسكندرية لهم فى ملبسهم شأنٌ عجيب، وتفانين لانعرفها نحن المصريين.

التقطتُ جلبابى بسرعة، فألقيته على جسمى العارى خَجلاً من نظراتها. سبقتها إلى الخروج من غرفة الحمّام، وعند الباب، وبينما كنتُ أغطِّى عينى بكفِّى من قوة شمس الظهيرة، احتضنتنى من ورائى، وراحت تمسحُ بباطن كفيها على صدرى، وقد أراحت رأسها على ظهرى.. وقفتُ متسمِّرًا، ووقفتْ مستمتعةً. بعد لحظةِ صمتٍ طويلة، التفتُّ إليها وقلت لها متجِّهمًا إنها لم تعرف إلى الآن اسمى، وإنها لم تهتم حتى بالسؤال عنه.

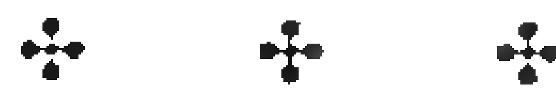
ـ أنا يا حبيبى أعرف الاسم الذى سميتك به، ولن يحمله أحدٌ سواك: ثيوزوروس بوسيدونيوس!

كانت أوكتافيا تدهشنى بجرأتها ونزقها الجامح.. هل كانت تظن نفسها إلهةً تهبُ الناسَ الأسماء؟ صحيحٌ أنها اختارت لى اسمًا مميزًا، هو يعنى باليونانية: الهدية الإلهية من بوسيدون! غير أننى أظهرتُ لها الغضب. فأظهرتْ هى الدلال. قالتْ إن كان ذلك الاسم لايعجبنى، فسوف تعطينى اسمًا آخر بدلاً منه، هو ثيوفراستوس الذى يعنى حرفيًا: الكلام الإلهى.

ـ يا أوكتافيا كُفِّى عن جنونك، فهذا أيضًا ليس اسمى. هذه كلها أسماءٌ يونانيةٌ، وأنا لى اسمٌ مصرى.

ـ دعك الآن من مصر واليونان. أنت المصدِّق لكلام الإله، فاسمك منذ الآن ثيوفراستوس.. أو ثيوزورس بوسيدونيوس، اخترْ لك واحدًا منهما، وأخبرنى لأناديك به! وتعال الآن لأُريك المنـزل.

لم أعرف ساعتها كيف أردُّ عليها، ولم تتركنى هى فى تردُّدى. أخذتنى من يدى، وخرجتْ من غرفة الحمّام، فأخرجتنى من التيه بصحراء حيرتى. كان جانبًا منى يريدها، ويحب ذكاءها ومرحها ورائحة جسمها. نعم. كانت أوكتافيا ذكيةً، زكيةً، شهية. ولكننى ضيَّعتها وضيَّعتنى، مرتين.. آه.. مَنْ يُوقف بقلبى إعصارَ الأسى الفتَّاك.. سأتوقف الآن عن التدوين، وأهجع قليلاً، ثم أعود للكتابة إن أفقت من نومى.



ما الذى يريده عزازيل منى، ولماذا يدفعنى لكتابة ما كان وماهو كائن؟ لابد أن له غرضًا شريرًا، موافقًا لطبيعته. لقد احتال علىَّ حتى أغوانى بحكاية ما جرى مع أوكتافيا من فُحشٍ وخطية، فتدنَّستْ روحى وتكدَّرتْ.

- وهل كانت روحك صافيةً، يا هيبا، قبل الكتابة؟

- عزازيل! جئتَ..

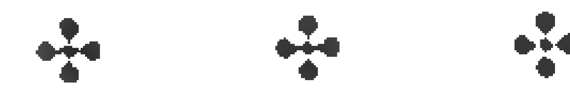
- يا هيبا، قلتُ لك مرارًا إننى لا أجئ ولا أذهب. أنت الذى تجيئ بى، حين تشاء. فأنا آتٍ إليك منك، وبك، وفيك. إننى أنبعثُ حين تريدنى لأصوغ حلمك، أو أمدّ بساط خيالك، أو أقلِّب لك ما تدفنه من الذكريات. أنا حامل أوزارك وأوهامك ومآسيك، أنا الذى لاغنى لك عنه، ولاغنى لغيرك. وأنا الذى..

- هل بدأت ترنيمة التمجيد، لذاتك الإبليسية؟

- عفوًا، سألتزمُ الصمت.

- وماذا تريد الآن؟

- أريدك أن تكتب ياهيبا. اكتبْ كأنك تعترف، وأكمل ما كنت تحكيه، كله.. اذكرْ ما جرى بينكما وأنتما تنـزلان الدرج.



الاعترافُ طقسٌ بديع، يطهِّرنا من خطايانا كلها، ويغسل قلوبنا بماء الرحمة الربانية السارية فى الكون. سأعترفُ إلى هذه الرقوق، ولن أُخفى سِرًّا، لعلنى من بعد ذلك أنجو:

السلمُ الواصل بين سطح البيت وطابقه الأعلى، كانت درجاته عشرة، كأنها على عدد العقول السماوية الواصلة بين الله والعالم، بحسب ما يقول أفلوطين الحزين. عند الدرجة العليا، التصقتْ بى أوكتافيا وأخذتْ شفتى السفلى بين شفتيها، ثم راحتْ تمرِّر لسانها على حافتها، حتى أوشكتُ مع ارتجافة اللذة أن يغمى علىَّ. أشرق وجهها وهى تقول لى إن تلك، كانت القُبلة الأولى من القبلات العشر التى ستغمرنى بها! بينما أهبط إلى الدرجة التالية، دسَّت كَفَّها اليسرى من فتحة جلبابى، فاعتصرتْ إبطى اليمنى، وأحكمتْ التصاقى بالجدار بالتصاقها بى. كانت تعلونى بدرجة، فمالت بعنقها نحو أذنى والتقمتْ شحمتها، فكأنها رضيعٌ يلتقم الحلمة عن غير جوع. لما تنفستْ فى أذنى، سرت بباطنى رعشةٌ. ترنَّحتُ مع القبلة التالية، وكدتُ أتدحرج من فوق الدرج، فجلستُ وقد سرى فىَّ الخدرُ، فتركتها تفعل بى ما تشاء. ألقت عنها ثوبها، فألقيتُ عنى ثوبى وقد أخذنى الوهجُ.. القبلات التاليات، لايجوز ذكرها.

عند نهاية الدرج كنا قد التحمنا تمامًا، فكأننا المادة الأولى التى بدأ منها الوجود. كانت تمور تحتى وفوقى، مثل قطةٍ بريةٍ تفترسُ وتُفترس.. ولما هدأ الكونُ الصاخبُ، قُمنا متثاقلين فالتقطنا ثوبينا، وأخذتنى من يدى لترينى المنـزل فى ضوء النهار الذى انبسط على المكان، وانتشر فى داخلنا. كانت أوكتافيا حنونًا وجريئةً ومتهوِّرة. سرتُ وراءها وأفكارى تلاحقنى، والاحتمالات: قد أقع فى حبها، وأعتاد اجتياحها الممتع، لكننى لن أستسلم لها أبدًا.. يمكن أن أبقى معها بضعة أيام، فقط، ثم أذهب إلى ما جئت الإسكندرية من أجله، ولن أسمح لقلبى أنَّ يتعلَّق بها، ولن أختار لنفسى اسمًا وثنيًا من لغة اليونان، مهما كان.. لن أسمح أبدًا بأن تسلخنى من اسمى ومن لغتى، أرملةٌ سكندريةٌ عرفتها قبل يومين، مهما كانت جميلةً ومتوقِّدة بالرغبة الوثنية الجامحة.. لن أسمح لأوكتافيا أن تجرفنى.. آه.. كنتُ صغيرًا جدًا آنذاك.. تُرى.. هل لو كنتُ استجبتُ لها، أيامها، كان مصيرنا المفجع سيتغير؟.. مَنْ يدرى؟ لا فائدة الآن من الأمانى، فما كان، كان، وما كُنَّا فيه زال ولن يعود.. سألتها ونحن نطل من الدور الأعلى، على صورة الكلب الحزين:

- لماذا أسموك أوكتافيا؟

ـ أبى تزوَّج مرتين، وأنجب كثيرًا، وكنتُ الثامنة بين أبنائه وبناته العشرة.

ـ إذن سوف أسمِّيك تيماَشْمُونَى، فهى تعنى بالمصرية الثامنة، مثلما تعنى أوكتافيا باليونانية.

ضحكتْ بعذوبةٍ صافية، ولم تعلِّق على كلامى. دخلتْ بى غرفةً فسيحةً، أرضيتها وحوائطها من الرخام الأبيض الفاخر، فى وسطها حمَّامٌ أكبر مرتين من ذاك الذى بجوار غرفتها، وأكثر منه نقوشًا. أخبرتنى أن سيدها أحضر هذا الحمَّام البديع من روما. الحمام كان بديعًا فعلاً، وكذلك كل ما فى الغرفة والغرف الأخرى. غير أننى غمرتنى، فجأة، أحزانٌ خفيةٌ طفت من باطنى، وأخذتنى مما حولى، فما عدتُ مهتمًا بهذا الحطام الدنيوى الزائل لامحالة.

طوَّفتَ بى أنحاء المنـزل. كنتُ أسير معها غائبًا عنها، حذرًا. أحسستُ أنها تغوينى، وتحسِّن لى البقاء معها، فاستعصمتُ منها بأن قلت فى نفسى: كيف سأرضى لذاتى أن أصير خادمًا عند تاجرٍ صقلى، وزوجًا لخادمةٍ وثنيةٍ تكبرنى بخمسة أعوام، وتفجؤنى دومًا برغباتها الجامحة. ومن يدرينى، فقد يكون سيدها يضاجعها! وإلا، فمن الذى عوَّدها هذا الفحش الذى أراه منها؟ لابد أن سيدها فاحشٌ أصيلٌ، يلاحق رغباته، ويملأ بيته بالفاجرات، فيقضى لياليه السكندرية فى أحضانهن، ويضم أوكتافيا إليهن!.. شعرتُ لحظتها بكراهيةٍ شديدةٍ لهذا الرجل، وبغضبٍ شديد من هذه المرأة التى توشك أن توقعنى فى حبها، وتنسينى كل الآمال.

ـ هذه يا حبيبى، غرفةُ الكتب.

انتبهتُ مع عبارتها ولمستها الرقيقة على كتفى. لما دخلنا الغرفة هالنى عددُ الكتب المصفوفة مجلداتها على أرففٍ بطول الحوائط، واللفائف منها موضوعة فى ثقوب بالجدران. كنتُ دومًا أحبُّ الكتب. لحظتها وددتُ الانفراد، وكاد يغلبنى البكاء من دون سبب؛ أو بسبب انهزامى الدائم.. طلبتُ أن أبقى قليلاً مع الكتب، فأسعدها طلبى. قالت بعدما قبَّلتنى على خدِّى، إنها ستذهب لإعداد طعام الغداء.

تركتنى أوكتافيا حائرًا، وسط الغرفة الفسيحة. جال بصرى بين جدرانها المليئة بتجاويف حفظ البردى، ورفوف صَفِّ الكتب. كنتُ أيامها أقرأ باليونانية والمصرية (القبطية) ولم أكن قد أتقنت العبرية والآرامية (السُّريانية) بعد. وقد وجدت هناك كتبًا بلغاتٍ أخرى، مثل اللغة الوليدة المسماة اللاتينية، وكتابات بلغاتٍ أخرى، شرقية، لم أكن رأيت مثلها قبل ذاك اليوم.. بكم لغة يقرأ هذا التاجر الفاحش، الذى لا يؤمن بأىِّ إله؟ أم تراه يقتنى الكتب للتباهى، مثلما يفعل أغلبُ الأغنياء الأغبياء؟ لا، يبدو أنه لم يكن يتباهى.. فقد وجدتُ فوق مكتبه الأنيق الذى بزاوية الغرفة، كُتبًا متناثرة ومجلدين مطبقين على أوراق بردى، مكتوبٌ عليها بقلمٍ دقيق تعليقات باليونانية. لما تصفحتُ المجلدات التى كانت على مكتبه، وعلى الأرفف، وجدتُ حواشى وتعليقات مكتوبةً كلها بخطٍ واحد، وممهورةً باسمه. هو إذن يقرأ باليونانية، وبغيرها. والغالب على قراءاته، بحسب ما يظهر من تعليقاته الذكية، التاريخُ والأدب. كان الرجل يحتفظ بعدة نسخ قديمة من أمثال إيسوب، وقصائد هيراقليطس الفيلسوف. ولديه أيضًا رسالة لاهوتية بخط أوريجين (أوريجانوس).. رحتُ أُقلِّب صفحات الكتب، وأفتح المطوىَّ من اللفائف، فكنتُ أرى على أطرافها مزيدًا من تعليقاته وحواشيه الموجزة.

ـ حبيبى، الأكل جاهزٌ، هيَّا.

ـ سأبقى ساعةً أخرى، لستُ جائعًا الآن.

ـ هَيَّا، الطعامُ سيبرد. لاتعذبنى مثلما يفعل السيد الصقلى، واضحٌ أنك مثله تحبُّ الكتب.

ـ هل يمكن أن تأتى بالطعام إلى هنا؟

ـ لا، لا يجوز ذلك. سنأكل فى غرفتى، والكتبُ لن تطير من هنا. هَيَّا، اترك هذا الكتاب، فإننى جائعةٌ جدًا، ومشتاقةٌ إليك جدًا.

وهى تعود بالكتاب الذى انتزعته من يدى، إلى موضعه على الرَّفِّ. فتحتْ غلافه الجلدى السميك، وقالت وهى تضحك: *أرسطو، هل تريد أن تفوِّت علينا غداءنا الشهى الساخن، من أجل هذا الرجل*.. أفزعنى كلامها واستهتارها بالفيلسوف العظيم. قلتُ غاضبًا:

ـ ما هذا الذى تقولين؟ أرسطو معلمُ العالم القديم، وهو أول مَنْ أهدى البشرية أصول التفكير وعلم المنطق.

ـ هأ هأ، وهل كانت البشرية قبله لاتعرف المنطق وأصول التفكير؟ أنا على كل حالٍ لا أحبه، فهو يقول فى كتبه سخافات كثيرة، ويدَّعى أن المرأة والعبد من طبيعةٍ واحدة، تختلف عن طبيعة الرجل الحرِّ. متخلِّف.

ـ يا أوكتافيا لايجوز ذلك، ولكننى أراكِ تعرفين علوم القدماء!

ـ هأ هأ، أعرفُ بعض الأشياء. والسيدُ الصقلىُّ يحبُّ أن يقرأ علىَّ النصوص القديمة. هو يهتمُّ بتعليمى. جارٌ لنا من المسيحيين الأغبياء، رآه يومًا يقرأ لى فى حديقة البيت، فقال: الصقلىُّ يسقى الأفعى سمًا.. جارنا الجديد، متخلِّف أيضًا، مثل صاحبك القديم.. هأهأ.

لم أدرِ بأىِّ شئٍ أرد عليها، ولم تتركنى هى فى تردُّدى. سحبتنى برفقٍ من يدى إلى خارج الغرفة، وعند بابها أطالتْ احتضانى.. كانت أوكتافيا لاتهدأ! قالت مازحةً إن هذه القُبلة، من أجل فتح الشهية.

افترشنا أرضية غرفتها.. أثناء الأكل، على طريقتها المعتادة من وضع الطعام فى فمى، قالت إن السيد الصقلى سوف يحبنى، فهو يحبُّ العلم والمتعلِّمين. أضافت أنه صديقٌ لحاكم المدينة، وله معارف كثيرة، ولسوف يساعدنى على دراسة الطب، وستحوطنى هى بمحبتها حتى أصير أشهر أطباء الإسكندرية، بل أشهر أطباء العالم.. أدهشتنى عبارتها حين قالت:

ـ ستكون يا حبيبى أكثر شهرة من جالينوس ومن أبقراط، ومن كل أبناء الإله إسكليبوس.

ـ أوكتافيا.. أنت تعرفين أشياء كثيرة.

ـ لا أريد أن أعرف إلا أنت. قل لى، هل أنت سعيد معى؟ لا، لاتجاوبنى الآن. اصبرْ، وسوف ترى. سوف يعود السيد الصقلى بعد شهر، وسأخبره بكل شئٍ عَنَّا، وسوف يرحِّب بك بيننا..

السيد الصقلى! كنت أشعر بكراهيةٍ تجاهه، كراهيةٍ عميقةٍ امتزجت بعدما رأيتُ تعليقاته وحواشيه، بشئٍ من التوقير والحسد الغبىِّ.. وكنتُ لحظتها مشوَّشًا، فانفلتتْ منى العبارة:

ـ هل يضاجعك سيدك الصقلى.

صفعها سؤالى، فطفرتْ من عينيها دمعاتٌ مفاجئةٌ، وعلت وجهها حمرةُ الكُمدة وعلاماتُ غيظٍ كظيم. أنا لم أكن أقصد، تمامًا، ما قلته لها يومها. كان قصدى أن أسألها عن طبيعة العلاقة بينهما، وهل يغازلها الرجلُ حين يكون بالبيت، خاصةً أنها أرملةٌ وحيدةٌ ومفعمةٌ بالرغبة، أو بعبارة أخرى: هل يطلب منها أن تدفئ فراشه أيام الشتاء، وتخفِّف وحدته وهو الحزين على كلبه.. أعنى: هل يحق له، وهو سيدها، أن يضاجعها؟

ظلت أوكتافيا مطرقةً، تنظر إلى طرف سجادتها من دون أن تقول أىَّ شئ. ولما حاولت أن أسترضيها بضمَّةٍ إلى صدرى، انفلتتْ منى وأجهشتْ بالبُكاء. ندمتُ على إيلامى لها، وفكَّرت فى النهوض فورًا من أمامها والرحيل عنها، لأطوى كُلَّ ما كنا فيه بحركةٍ واحدة. ويبدو أنها حين وقفتُ فجأةً، أدركتْ ما نويته، فأمسكتْ بطرف جلبابى. سكنتُ. شدَّتنى للأرض وهى بَعْدُ مُطرقةٌ، فجلستُ ثانيةً وعينى معلَّقةٌ بالباب الموارب.

ساد بيننا صمتٌ طويل أخرجتنا منه بقولها المتهدِّج، بعدما مسحت خديها: إننى لا أفهم شيئًا مما قُلته لها، فالسيد الصقلى بمثابة الأب لها، بل هو بالنسبة إليها أقرب إلى الجد منه إلى الأب! هو الذى ربَّاها بعد وفاة أمها وأبيها، وهو الذى رقَّقه الحزنُ وطهَّره. وهو حسبما قالت، يهب نصف ما يكسبه من التجارة كل عام لفقراء الإسكندرية..

ـ أعتذرُ إليك يا أوكتافيا، ولكنك جميلةٌ جدًا.. أقصد أنك..

ـ كفى، لا تعتذر.. وسأعذرك لأنك لم تعرف، بَعْدُ، الرجلَ الذى تتَّهمه.

الرَّقُّ الخامسُ

غوَايَاتُ أوكْتَافِيَا

الحياةُ ظالمةٌ. فهى تمتدُّ بنا وتُلهينا، ثم تُذهلنا عنا وتغيِّرنا، حتى نصير كأننا غيرنا. هل كنتُ أنا الذى كنتُ فى الإسكندرية قبل عشرين عامًا! كيف تحاسبنى الحياة الآن، على أخطاء وخطايا اقترفتها أيامها؟ ولماذا سيعود الرَّبُّ بنا يوم الدينونة، ليحاسبنا على ما فعلناه قبل أمدٍ بعيد، وكأننا عشنا حياةً واحدةً لم نتبدَّل خلالها؟.. لم يمض علىَّ وقتٌ طويلٌ، حتى عرفتُ أننى أخطأتُ فى حَقِّ أوكتافيا وسيدها الصقلى، غير أننى حين عرفت كان الأوان قد فات، ومات مَنْ مات، وبقى الحىُّ ميتًا.

ظَلَّت أوكتافيا صامتةً تلك الليلة، إلا من كلمات قليلة، فظَلَّ صمتها يُربكنى حتى خايلنى النعاسُ، فنمت على سريرها. كان آخر ما وعيتُ به قبل نومى، نظرتها الحزينة إلىَّ وهى تشدُّ فوقى الغطاء.. أيقظتنى حركتها فى الصباح الباكر، وطمأنتنى ابتسامتها وجلستها على الأرض بجانب السرير. كان أمامها ما أعدته لنا من فطورٍ، مفروشًا على الأرض. عاودتُ فى الصباح الاعتذار عن كلام الليلة الماضية، فأوقفتْ كلماتى المتلعثمة بلمسةٍ من أناملها على فمى، وبدمعةٍ لاحت فى أعماق عينيها. غيَّرتْ مسار

الكلام بأن سألتنى عن بلادى الأولى وحياتى الأولى، فأجبتُ بحسب ما سمح به الحال من غير أن أقول شيئًا خطيرًا.. لكنها بقيتْ مهتمةً بكل كلمةٍ قلتها.

ـ تعال، سأُريك شيئًا.

شدَّتنى برباطٍ غير مرئى، فنـزلنا إلى غرفة النوم الكبيرة التى فيها سرير السيد الصقلى. كنتُ قبلها قد رأيتُ الغرفة من عند بابها، لكننى تلك المرة دخلتها. فتحت أوكتافيا شباكها وشرفتها الواسعة المطلة بطولها على الشاطئ والبحر القريب، فملأ النورُ المكان. لم أدخل الشرفة كيلا يرانى حارسُ المنـزل أو أحدُ المارين، مع أننى تمنيتُ لو جلست قليلاً على الكرسى الخشبى الكبير، المتقنةِ صنعته، متأملاً من هذه الزاوية البديعة، التقاء البحر والسماء.

ـ ها هو السيد الصقلى.

أشارت أوكتافيا إلى تابوتٍ خشبىٍّ مستندٍ بطوله إلى زاوية الغرفة اليمنى، التى فى الجهة المقابلة للشرفة. التابوت مرسومٌ عليه بشكلٍ دقيق، صورة رجلٍ أشيب فى زىٍّ يونانى من النوع الذى يلبسه الأغنياء. فى نظرته حزنٌ دفينٌ، وذكاء. كانت الصورة مرسومة بحسب ما جرت عليه عادةُ الأثرياء فى مصر والإسكندرية، من رسم وجوههم على توابيت، ليُدفنوا فيها محنَّطين، عند وفاتهم. التحنيط عادةٌ وثنيةٌ موروثة. كان القدماءُ من أهل مصر يحفظون أجسادهم بعد الموت، فى توابيت من رخام الجرانيت، منقوش عليها صور الآلهة القديمة. ثم صارت التوابيت مؤخرًا من الخشب، وصاروا يرسمون على غطائها صورة المتوفى.. فهمتُ لما تأملتُ صورة الصقلى، أن أوكتافيا تقصد أن تعرِّفنى بأنه طاعن فى السِّنِّ، هادئ الملامح، عليه سمات الفلاسفة! وقد أضافت مؤكِّدةً ما توحى به

صورةُ الرجل: *هو زاهدٌ فى الحياة، يحتفظ بتابوته فى غرفة نومه، ويفكر دومًا فى الموت. يجلس فى معظم أيامه السكندرية بشرفته هذه، يحدِّق فى البحر، أو يقرأ فى الكتب.*

ـ ولماذا يبدو حزينًا؟

ـ لأنه وحيدٌ. وهو أيضًا شاعر، هل تحب أن ترى أشعاره؟

أجبتُ بالإيجاب، فأخذتنى إلى غرفة الكتب الفسيحة، وأخرجت أوراقًا من درج المكتب فيها أشعارٌ مكتوبة باليونانية، بالخط ذاته الذى رأيته على حواشى الكتب.. دون أن أطلب منها؛ تركتنى أوكتافيا فى غرفة الكتب، بعدما دَسَّتْ نفسها فى حضنى لحظةً، ظلت خلالها تردِّد هامسةً: أُحبُّك! وكنتُ صامتًا. بعد قبلةٍ طويلة عند منبت عنقى، تركتْ الأشعار بين يدى، وأخبرتنى أنها ستذهب لتعدّ لنا وجبة غداء شهية.. أتتْ مراتٍ لتطل علىَّ باسمةً، وبقيتُ هانئًا بين الكتب.

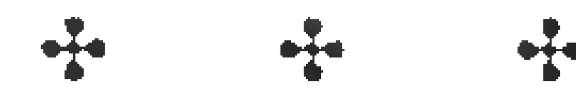
أشعارُ السيد الصقلى كانت مثل صورته، هادئةً وحزينة. وكان أغلبها تأملات ساخرة حول الحياة والبحر، على طريقة القدماء من الشعراء والمحدثين من الفلاسفة. بعض سطوره الشعرية أعجبتنى، فطلبتُ من أوكتافيا فى واحدة من طلاَّتها علىَّ، أن تأتينى بأوراق لأنسخها فأعطتنى لفافةً طويلة من البردى، وقطعتىْ رَقٍّ من جلد الماعز المدبوغ بمهارة كبيرة. لم أنقل الأشعار اليونانية بنصِّها، لوثنيتها المفرطة، وإنما كتبت الكلمات رأسيةً، من الأسفل إلى الأعلى، على أعمدة متفرقة. فإذا قُرئت السطورُ أفقيةً أو على وجهٍ آخر غير الذى أعرفه، بدت مجرد كلمات مفردة لامعنى لها.. والكلماتُ المفردةُ لا إثم فيها ولا خطية، فالآثام والخطايا تكون فقط عند سبك العبارات.

بالطريقة ذاتها، نقلتُ بعضًا من تعليقات السيد الصقلى المكتوبة على

حواشى الترجمة اليونانية للتوراة، أعنى الترجمة المعروفة بالسبعينية، وتعليقاته على بعض الأناجيل. كانت تعليقاته تبدأ بعبارة: *كيف لإنسانٍ أن يؤمن بأن..* ثم يورد ملخص الآيات، ويعقِّب عليها بأنه من المستحيل عقلاً قبول تلك المعانى!.. كان الرجل فيما بدا لى، لايدرك أن الديانة لاشأن لها بالعقل، وأن الإيمان لايكون إيمانًا، إلا إذا كان يناقض العقل والمنطق، وإلا فهو فكرٌ وفلسفة. ومع ذلك، فقد أشفقتُ يومها على هذا الرجل الحائر، مثلما صرتُ اليوم مشفقًا على نفسى، لفرط حيرتى.

ساعةَ الظهر، عبقتْ الغرفةُ برائحة طبخٍ شهىٍّ، فأغلقت الباب، وفتحت الشباك بحذرٍ، وعاودت نبش الكتب ونقلَ التعليقات. لم تكن لفافة البردى قد امتلأت بعد، حين دخلت علىَّ أوكتافيا ببهجتها المعتادة لتدعونى إلى الطعام، استمهلتها، فلم تُمهلنى. كانت ترتدى ثوبًا كحليًا شفافًا مكشوف الصدر والذراعين، وكان شعرها البنى الكثيف ينهمر هائجًا حول وجهها البَسَّام.. كانت أوكتافيا امرأةً جميلة.

قمتُ معها، تاركًا على الأرض الكتب والدواة واللُّفافة، على أمل أن أعود إلى جلستى تلك، بعد الغداء، لكننى ما عدت قط. حتى اللفافة تركتها ورائى هناك، بعدما جرى ما سوف أحكيه.



طابتْ نفسى وابتهجتُ لما دخلنا غرفتها، فكان الطعام فى أطباق مفروشةٍ على الأرض. لم يبهجنى الطعامُ، وإنما الاهتمامُ الذى توليه أوكتافيا لى. فلم أكن قد اعتدتُ منذ مات أبى، أن يُعنى بى أحدٌ مثل ذاك الاعتناء الحنون الذى غمرتنى به أوكتافيا أيامها. على الرغم من استعطافها، لم أستطع أن آكل كثيرًا، مع أن الطعام كان شهيًا. صار اشتهائى لها أشد من رغبتى فى الطعام، وقد أدركتْ هى اشتياقى من طول نظرتى إليها، فلم

تمنعنى عنها حين اقتربتُ منها، وضممتها. شعرتُ فجأة أننى أحبها، وأنها ربما كانت تستحق البقاء معها بقية العمر. قلتُ فى نفسى لحظتها: *لِمَ لا؟ سأدرس الطب، وأمارس العلاج فى هذه المدينة الكبيرة، ولن أرتد عن الديانة، بل سأصرف النظر، فقط، عن الرهبنة. وبلادى البعيدة ليس فيها ما يغرينى بالعودة إليها،* ستكون أوكتافيا موطنى وموئل روحى. *لِمَ لا؟ أنا ما رأيتُ قبلها امرأةً أجملَ، ولا أرقَّ، ولا ألطف. أوليست وهى الوثنية، أنقى قلبًا وأصفى روحًا من أغلب المسيحيات اللواتى عرفتهن؟ أعنى: اللواتى رأيتهنَّ من بعيد!.. ولكن، ما يدرينى أنها لن تغدر بى يومًا، مثلما غدرت أمى بأبى؟ إن أغضبتُها يومًا لأىِّ سببٍ، فسوف تنقلب علىَّ مثلما تنقلب النساءُ دومًا على أزواجهن، والنساءُ طبعهنَّ التقلُّبُ..*

بلفظٍ رقيقٍ سألتها وهى فى حضنى، إن كانت ستظل تحبنى مهما جرى! مازالت إجابتها ترنُّ فى باطنى، وتتردَّد بقلبى أصداؤها: *مهما جرى يا حبيبى، وسوف أقضى عمرى كله بجانبك، راعيةً لك، يا أملى الوحيد؛ فقد انتظرتك طويلاً، وحلمت بك كثيرًا.. ولن أجد لنفسى أفضل منك أبدًا.*

ـ إذن، لتكن مشيئة الرب.

ـ يا حبيبى، لاتتحدث هكذا مثل أهل الصليب، فأنا أكرههم.

ـ لماذا يا أوكتافيا؟

ـ لأنهم كالجراد، يأكلون كل ماهو يانع فى المدينة، ويملأون الحياة كآبةً وقسوة.

كادت تُسرف فى الكلام المزرى بأهل ديانتنا، فغيَّرتُ مجرى الكلام بأن سألتها عن أستاذة كل الأزمان هذه، التى كان يذكرها **المنادى** فى الشارع الكبير.. اعتدلت فى جلستها، وعاد وجهها لإشراقه، وهى تقول:

ـ هو يقصد هيباتيا ابنة العلاَّمة ثيون، الأستاذ الفيثاغورى. هى امرأةٌ

مشهورةٌ، جميلةٌ وذكيةٌ، تزورنا هنامع أصدقاء السيد الصقلى، فى تلك الأمسيات التى تمتد الساعات.. وهى لاتناديني إلا بأختى الحبيبة أوكتافيا.

ـ وفى أيِّ علمٍ تُلقى المحاضرات التى يدعو المنادى إليها؟

ـ فى الرياضيات والفلسفة، وليس فى الطب! فلا تظن أننى سأسمح لك بالاقتراب منها، وإلا فقد تحبها هى وتهجرنى، مع أنها أكبر منك سنًا بكثير.. هأ هأ.

ـ لاتمزحى الآن، فأنا أريد حقًا معرفة المزيد عنها.

أخبرتنى يومها بأشياء كثيرة عن هيباتيا الموصوفة بأستاذة الزمان.. وقد حكت لى عنها مستمتعةً بالحكى، ومهيجةً أشواقى لرؤيتها. قالت إنها تلقى دروسها بالمسرح الذى بقلب المدينة، أبوها ثيون كان يلقى دروسه فى المعبد الكبير السيرابيون الذى كان يقف شامخًا عند الحى المصرى، جنوبىَّ المدينة، لكنَّ المسيحيين خرَّبوه وهدموه على رؤوس مَنْ فيه، أيام ثيوفيلوس! تقصد الأسقف. لما سألتها عن أيام دروس هيباتيا نظرتْ لى بطرف عينها، نظرةً مائلةً امتزجت فيها الغيرة برغبتها فى المشاكسة، ولم تُجب. لما ألححتُ قالتْ إن محاضراتها تكون أيام الآحاد، لأنها تكون هادئةً فى الصباح، والمسيحيون يذهبون فيها لكنيسة القمحة لسماع خطبة رئيسهم الحالى، الذى خلف خاله ثيوفيلوس فى قيادة تلك الكنيسة التى أظلمت العالم! قلت فَزِعًا من كلامها، وقد هالتنى جرأتها:

ـ تقصدين الأسقف كِيرُلُّس ؟

ـ هو، عجَّلت الآلهةُ بنهاية أيامه السوداء، لقد جعل المدينة، كئيبةً كالخرائب، منذ تولَّى أمرهم.. ولكن أمرك عجيبٌ، تعرف كِيرُلُّس ولا تعرف هيباتيا!

ـ يا أوكتافيا، أنا لا أعرف شيئًا هنا. ولم أمض فى مدينتكم قبل أن أراك، إلا بمقدار ما مشيتُ من بوابة القمر إلى هذا الشاطئ الذى كدتُ أغرق فيه أمامك.

لن أنسى بهجتها المفاجئة، وهى تصيح فَرِحةً: صحيحٌ *يا حبيب قلبى، صحيح.. أنا الآن سعيدةٌ، ومتأكدةٌ من أن الإله أرسلك لى، حقًا وصِدْقًا.*

ـ عُدنا للخرافات!

ـ يا حبيبى أنت أجمل خرافةٍ عرفتها، وسوف أظلُّ مؤمنةً بها بقية عمرى.

كانت أستار المساء قد انسدلت، وكنتُ أشعر بأننى تائهٌ تمامًا فى أنحاء أوكتافيا، وغارقٌ بالكلية فى نهرها الجارف.. كانت تحيط بوجودى من كل الجهات، مثلما يحيط البحرُ الأعظم بالعالم أجمع.. قلتُ فى نفسى: *سأحزمُ أمرى الليلة، وأفكر بروية ثم أقرر غدًا، ساعة الفجر، كل ما سوف يكون من أمرنا معًا.* نويتُ ذلك وأنا جاهلٌ بما سيقع، وغافل عما كان الزمانُ يُخبئه.

دعتنى أوكتافيا إلى سريرها. كان الكون قد هدأ من حولنا، وسكن فى داخلنا. أكدَّت لى أنها تطلبُ غفوةً بريئة! لم يكن لدىَّ رغبةٌ فى النوم، فطلبتُ منها أن أعود إلى غرفة الكتب، فقالت برقةٍ تفيض ميوعةً وتفوح بعطر الخطية: *إذا بقيتَ معى، فسوف أعلِّمك أشياء لاتوجد فى أىِّ كتاب.*

تصنَّعتُ الجديةَ، عساها تستجيب لمطلبى، فجرفتنى بروحها المرحة ولم أجد معها سبيلاً، إلا الاستسلام لجذبها لى نحو السرير.. ورأيتُ منها يومها، حقًا، ما لا يمكن أن يجده أحدٌ فى أىِّ كتاب، فقد كانت

لأوكتافيا فنونٌ لم يسمع عنها مؤلفو الكتب! بقينا من بعد ذلك عاريين، حتى توغَّل الليلُ وقرصتنا لسعاتُ البرد.. شدَّتْ فوقنا دثارًا، وأحاطت صدرى بذراعها، وتهيَّأتْ للنوم. غير أنها قامتْ فجأةً، وقد طفرت فى ذهنها الوهَّاج فكرةٌ جامحةٌ:

ـ يا حبيبى، تعال معى لأُريك قبو النبيذ؟

ـ أريدُ أن أنام.

ـ تنام! هأ هأ.. هل تعبتَ فى أول الليل، فماذا ستفعل فى آخره؟ تعال معى، سوف نأتى من القبو بأطيب نبيذ فى العالم.

كانت أوكتافيا لاتهدأ أبدًا.

الرَّقُّ السَّادسُ

النُّقْطَةُ الفَاصِلَةُ

أتذكَّر جيدًا أننا كى نصل إلى القبو، نزلنا السُّلَّمَ الصاعد للسطح، ومن بعده السُّلَّمَ الكبير الواصل بين الطابقين، ثم سلمًا آخر خلف الباب الخشبى الذى بأقصى بهو الصالة الكبيرة المرسوم بأرضيتها صورة الكلب الحزين. السلَّمُ الأخيرُ حَجَرىٌّ، يتسع دَرَجُهُ كلما هبطنا القبو.

هواءُ القبو رطبٌ بارد، ورائحته قوية. الأرضية حجريةٌ، وفوق بلاطها صُفَّتْ ألواحٌ سميكة من خشب البلُّوط. لم أكن أعرف أن الأقبية قد تكون فسيحة، فالبيوت والمعابد فى بلادى الأولى لا أقبية تحتها. فكنتُ أظنُّ أن القبو، هو ممرٌّ منخفضٌ تحت البيوت الكبيرة والقصور، يشبه الدهليز، وأنه بالضرورة ضيقٌ ومحدود. لكننى رأيتُ مع أوكتافيا على ضوء سراجها المعدنى، طابقًا فسيحًا مرتفع الحوائط يقوم تحت الأرض على صفوفٍ من أعمدةٍ رخامية قوية، كل صَفٍّ منها موصولٌ بجدارٍ من الطوب، عليه من الناحيتين أرففٌ ثلاثة، فوق كل رَفٍّ منها جِرَارٌ لاتكاد من كثرتها تقع تحت الحصر. قالت بفخر:

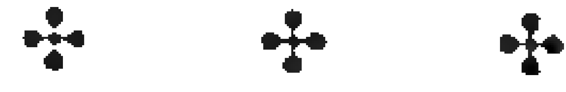
ـ عندنا نبيذ يكفينا لألف سنة. تعال إلى هذه الناحية، ففيها النبيذ المعتق الذى عُصر فى أجود السنوات.

ـ ولماذا تُعتِّقون كل هذا النبيذ؟ هل يظنُّ صاحب البيت أنه سوف يعيش إلى الأبد!

ـ رفقًا يا حبيبى، لقد كان أبوه يُعصر له نبيذٌ كثير، وكان هو يجلب بعض أنواعه من اليونان وقبرص. فقد كانوا يستقبلون هنا ضيوفًا كثيرة، ويقيمون الولائم الحافلة.. رأيت ذلك منذ كنتُ طفلةً صغيرة.

أخذتنى إلى ممرٍ ممتدٍّ بين صفوف الجِرار، وعند آخره مَدَّت يدها خلف الجَّرة المجاورة للجدار، فأخرجت قنينةً من زجاجٍ أخضر صافٍ.. عادت للوراء خطوتين حتى التصقت بى. وقالت وهى تحكُّ مؤخرتها بمقدمتى، إنه نبيذٌ ممتازٌ يناسب سهرتنا! أدارت وجهها نحوى باسمةً، وهى توالى حركتها المثيرة، وتضيف: *ادَّخرتها هنا من أجلنا منذ شهور، لما أعجبنى مذاقها.*

نسيتُ ذاتى ساعتها، وغاظنى أنها غالبًا ما تبدأ الأمر، فدعتنى نفسى إلى البدء تلك المرة، حتى أشعرها بقوتى! كنتُ صغيرًا، ومندفعًا. أدرتها من كتفيها حتى وَلَّت وجهها نحو الجدار، ثم أزحتها بضغطَّةٍ من كفيَّ على جانبىْ ظهرها، فانزاحتْ مستسلمةً لى. نفختُ شعلة القنديل فانطفأت، ولفَّنا الظلامُ. كان صدرها إلى الجدار الرطب، وصدرى إلى ظهرها الدافئ. تحسَّستُ فى الظلام جسمها، فوجدتها مستسلمةً تمامًا وقد أسندتْ يديها إلى الحائط، ومالت برأسها قليلاً إلى الإمام. رفعتُ عنى جلبابى، وأنزلتُ السروال، ورفعتُ عنها ثوبها، ولم يكن تحته شيئ لأُنزله. صرنا عاريين تمامًا.. علا صوتها، وهى تئنُّ طالبةً منى شَقَّها لنصفين.. يا إلهى.. لايصح هذا الذى أتذكره وأذكره بعد مرور هذه السنين الطوال!



ارتقينا إلى غرفتها من القبو، مُترنِّحين. غلبنا النومُ ليلتها ونحن جالسان على الوسائد المتناثرة بأرضية الغرفة، من دون أن نحتسى قنينة النبيذ كلها.. اليوم التالى صحوتُ مبكرًا، وكانت أوكتافيا نائمةً بجوارى كحلم فاحش. بهدوءٍ نزلتُ إلى غرفة الكتب، وقد أخذتُ فى يدى مخلاتى، خشيةَ أن تنظر فيها حين تصحو. وبهدوءٍ فتحتُ الشباك، فانفرش الضوءُ بالمكان، وافترشت الأرض معاودًا جلستى بين الكتب. أكملتُ نقولى من حواشى الكتب المقدسة، أقصد تعليقات السيد الصقلى على الآيات التى استوقفته. وبينما أُعيد نصَّ التوراة إلى موضعه فوق الرَّفِّ، وقعت عينى على مجلدٍ كبير، بغلافه الداخلى عنوانٌ واصفٌ لمحتواه: *رسائل وشذرات لفلاسفة الإسكندرية القدماء.*

كنتُ أعرف كثيرًا من تلك النصوص، فأصحابها كانوا من المشهورين؛ غير أن بعض الرسائل والشذرات كانت غريبةً علىَّ تمامًا، ولم أسمع بأصحابها فى مدارسنا بأخميم.. عدتُ بالمجلد الكبير إلى موضعى بأرضية الغرفة، وبدأت فى قراءة ما استغربته من نصوص، خاصةً تلك الشذرات المنسوبة إلى فيلسوفٍ قديم لم أكن قد سمعتُ به، اسمه بحسب ما ورد فى بداية شذراته، هو: هيجاسياس الداعى إلى الانتحار!.. ما كدتُ أشرع فى اختيار بعض الشذرات لأنقلها إلى لفافتى، حتى دخلت علىَّ أوكتافيا فزعةً وقد اصفرَّ لونُ وجهها. كانت خصلات شعرها البنى الوفير، تغطى كتفيها وصدرها الزُّبدى المرتجف بأنفاسها اللاهثة:

ـ أنت هنا، ظننتُ أنك.. لماذا أخذتَ مخلاتك معك؟

- ما هذا الفزع؟.. فى مخلاتى كتبُ رأيتُ هنا نسخًا أقدمَ منها وأصحَّ، فأردت أن أصوِّب نُسخى.

- يا حبيبى. أرجوك، لا تفجعْنى ثانيةً برحيلٍ مفاجئ من جوارى.. لقد كاد خوفى عليك يقتلنى، هيا لنصعد إلىَ غرفتنا.. هيًّا يا حبيبى.

ألقتْ بنفسها فى حضنى، كطفلةٍ أتاها أبوها من بعد سفر طويل. لم أحسّ ساعتها بعريها، قدرَ ما شعرتُ بالتياعها. أخذتها فى حضنى بحنوٍ أبوىٍّ برئ من تلك الخطية التى عصفت بنا الليلة الفائتة، فاطمأنَّتْ.. بينما أتنسَّم رائحة شعرها، كدتُ أوقن أنها حقًا تحبنى، بأكثر مما أحبَّتْنى أمى.. هل كانت أمى تكرهنى، مثلما كانت تكره أبى؟ وهل تراها أحبَّتْ، من بعدنا، زوجَها الغشوم؟

أحسستُ بدموع أوكتافيا تسيلُ على صدرى المكشوف، فتغسل قلبى من أوجاع الصبا. زدتُ من ضَمِّتها إلىَّ، ومررتُ بكَفىَّ على كتفها وذراعها العارية، فسكنتْ.. هل كان يجب علىَّ، أيامها، أن أثقَ بأوكتافيا، بأكثر مما فعلتُ؟.. مَنْ يدرى! وما الفائدة الآن؟.. على كل حال، هى مغامرةٌ خطيرةٌ أن نأمن، مثلما هى مغامرةٌ كبرى أن نؤمن.

- لا تتركنى أبدًا يا حُبِّى الوحيد!

مسحتْ أوكتافيا دموعها بباطن كفَّيها، واغتصبتْ لشفتيها ابتسامةً وهى تنظر فىَّ بولعٍ جارف. كانت عيناها العسليتان الدامعتان، فيَّاضتين بالحب والروعة.. بعْدما راقت ابتسامتها، وصَفَت عيناها من غيوم الدمع الذى سال، أخذتنى إلى سطح المنزل من دون أن نقول شيئًا، وكأننا اكتفينا لحظتها بما تبوح به عينانا لعينينا.

أوقفتنى خارج غرفتها، حتى عادت وقد ارتدتْ الثوب الأبيض الذى رأيته عليها أول مرة، وفى يدها ثوب السيد الصقلى المطرزة حوافه، الثوب الذى رفضتُ قبلاً أن أرتديه. كانت عيناها ترجونى، فخلعت عنى جلبابى وارتديته صامتًا. هى ألبسته لى. كنتُ أودُّ أن أقف قليلاً عند السور المؤطر للسطح، غير أنها حذرتنى ثانيةً بلطفٍ، وأخذتنى بعطفٍ إلى داخل غرفتها! فتحتْ شباكها، فامتلأتْ الغرفة نورًا من ذاك الذى كان يفترش السطح.

على طرف سريرها جلست وهى تمدُّ ذراعيها نحوى، مثل رَبَّةٍ مانحةٍ.. ربَّةٍ حنون، وطيبةٍ، ومرحة. لكن أفكارى ساعتها عاودتنى: *مَنْ يدرى أن صفاتها هذه سوف تدوم إلى الأبد؟ لا شئ يدوم إلى الأبد.. ماذا لو غدرت بى؟ والنساءُ بطبعهن غادراتٌ.. قد تغضب منى يومًا لأىِّ سببٍ، فَتَشى بى عند رجال الكنيسة، وتفضح لهم سِرِّى.. تقول إننى أغويتها، أو إننى كنتُ راهبًا وفسقتُ معها.. كنيسةُ الإسكندرية بحسب المشهور من أخبارها، قويةٌ وحاسمة، ورجالها الآن أغلبهم قُساة.. فما الذى يمكن أن يفعلوه بى؟ هل سألقى، هنا، المصير الذى لقيه أبى هناك.. هل..*

- مَالَكَ شاردًا يا حبيبى؟ خُذْ هذه التفاحة.

- تُفَّاح! لا أحبه، فهو الثمرة التى أخرجت آدم من الجنة..

- ماهذا السخف! مَنْ أخبركَ بهذه الخرافات يا طفلى الصغير؟

مضطربًا، ومن دون أن أفكِّر، قلتُ لها بحدةٍ:

- هو مكتوبٌ فى شروح التوراة..

- هأ، التوراة. إنها كتابٌ عجيب، يهزأ طول الوقت بالمصريين القدماء، ويتَّهم نساءهم. كان سيدى يقرؤه لى، وهو يبتسم ويهزُّ رأسه تعجبًا.

أثارنى كلامها وهيَّج باطنى، غاظنى أنها تُهين عَهْدَ الرَّبِّ القديم الذى آمنا به مئات السنين، وآمن به اليهودُ من قبلنا.. أثارنى كلامها، مع أن

الشكوك كانت تملأ نفسى تجاه ما ورد فى أسفار التوراة الخمسة. ولكن مهما كان، فلا يجوز لإنسانٍ إهانة عقائد غيره من الناس، وإلا لهانت كل الاعتقادات وأُهينتْ، ولم يصحَّ أىُّ دينٍ لأىِّ إنسانٍ.. قُلت فى نفسى لعل وقت المصارحة بيننا قد حان، فقلتُ بحزم:

ـ أوكتافيا، لا يجوز لك أن تسخرى من عقائد الناس.

ـ لاتغضبْ هكذا يا حبيبى. لن أسخر بعد ذلك من عقيدة أحدٍ أبدًا، مادام ذلك يغضبك.. فلا تُغضبنى أنت، وخُذْ هذه التفاحة من يدى.

أخذتُ التفاحة مترددًا، فرفعتْ أوكتافيا بها يدى نحو فمى. كنتُ لحظتها أفكِّر فى سفر التكوين. قضمتُ من تفاحتها قطعةً صغيرة، وقد اجتاحنى شعورٌ جارف بأننى آدم الذى أغوته امرأته، وخدعه عزازيل اللعين، فأورثنا من بعده خطية العصيان الأولى.. الخطية الأولى! طافت بذهنى الآياتُ التوراتية المشهورة، التى لا يمكن أن يصدقها غيرنا. وتوالت على قلبى الأسئلة: لماذا أمر الربُّ آدم بالابتعاد عن شجرتىْ المعرفة والخلود؟ ولماذا انزعج الربُّ لما أكل آدم من شجرة المعرفة؟ فقال فى نفسه، بحسب ما هو مكتوبٌ فى سفر التكوين: *هو ذا الإنسانُ قد صار كواحدٍ منا، عارفًا الخير والشر. والآن لعله يمدُّ يده، ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا، فيصير خالدًا. فأخرجه الربُّ الإله من جنة عدن، ليحرث فى الأرض التى أُخذ منها. طرد الربُّ الإله الإنسان، وأقام شرقىَّ جنة عدن ملائكةً لهيبَ سيف متقلِّب، ليحرس طريق شجرة الحياة*.. لماذا أراد الله أولاً، أن يبقى الإنسان جاهلاً؟ وهل المعرفة التى أدركها آدم، هى تمهيدٌ لإدراكه الخلود؟ ومن هم أولئك الذين قال الرب إنه واحدٌ منهم؟ وهل لو بقى آدم وحواء جاهلين، كانا سيخلدان فى الجنة؟ كيف يصح الخلودُ مع الجهل والغفلة عن الطبيعة؟ وما الذى عرفاه بالضبط حين أكلا من

الشجرة؟ أهو ذاك الذى عرفته مع أوكتافيا فى الأيام الماضية.. ما جرَّتنى إليه هى، من غير تدبير منى ولا قصد.. أتراني أُعيد فعلة آدم، فأُغضبُ الربَّ، فيعيدُ الطرد؟.. من أين، وإلى أين سيطردنى، أنا الطريد منذ سنين.. ولا أين لى، ولا كيف!

اعتصرتنى الأفكارُ التى أحاطتنى بها هذه الربة الوثنية التى تُجلسنى على سريرها.. أكانت أوكتافيا ربةً، أم عبدةً لشهواتها.. تُرى، هل أرادتْ بتفاحتها تلك أن تُعيدنا إلى الخطية، فتعود بنا إلى بدء خلقٍ جديد؟ لقد أسقطتنى معها فى بحر الخطايا، فكيف كنتُ سأنجو من الغرق؟ وهى تريدنى أن أمضى العمر معها.. كيف؟ وهى لاتعرف الإيمان القويم، ولا تعرف أننى من أهل الإيمان..

ـ فيم تفكر يا حبيبى؟

ـ فى الزواج، أقصد فى زوجك الميت.. هل كان مريضًا؟

ـ لا، كان يكبرنى بعشرين عامًا. كان بدينًا جدًا وضعيفًا، لكنه لم يكن مريضًا.. مات فى المعبد الغربى!

غلب عليها الأسى وهى تقصُّ ما جرى مع زوجها، فى اليوم الذى وصفته بالمشؤوم.. فقد كان زوجها الوثنى، يُوصى دومًا سيده الصقلى أن يجلب له البخور من أسفاره، ويوصله للمعابد، ويعود فى المساء سعيدًا. كانت تخشى عليه، وكان يستهين بقلقها. لم يكن يعتدُّ بأن المعابد صارت أماكن خطرة، وكان يردِّد على مسامعها العبارات الجوفاء التى لامعنى لها: *إلهنا سيرابيس هو إلهُ العالم، ولابد من أن نُظهر احترامنا له رغم أنف كل المسيحيين، بمن فيهم الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى نفسه*.

فهمتُ من كلامها، أن رجلها الميت كان فيه شئٌ من الحمق والضلال.. أذابتْ قلبى جلستها الحزينة وهى تحكى، وقد حَفَّ شعرها بجانبى وجهها،

فكأنها زهرةٌ آلت إلى الذبول. كان يجب علىَّ ساعتها أن أحتضنها، وأعدها بأننى سأكون لها خير زوج. قلتُ فى نفسى: *هى على كل حالٍ لم تكن تحب زوجها الأول، وهى تقول إنها تحبنى. فربما أخذ الربُّ زوجها، ليعطيها أفضل منه!*.. كان عقلى غائبًا فى خَدَره، وكانت تكمل حكايتها، فتخبرنى أن زوجها خرج ذات صباح ليضع البخور فى المعبد الصغير الذى كان قائمًا بشرق الميناء، فحوصر هناك، تقصدُ حاصرَه أهلُ ديانتنا.. أجهشتْ وهى تقول: *قتله المجرمون وقادتهم من الرهبان، وهم يدمِّرون المعبد.*

ـ ما هذا الذى تقولين؟.. الرهبانُ لايقتلون!

ـ رهبانُ الإسكندرية يفعلون.. باسم ربهم العجيب، وبيركات الأسقف ثيوفيلوس المهووس، وخليفته كِيرُلُّس الأشد هوسًا.

ـ أرجوكِ يا أوكتافيا.

ـ طيب، ما علينا من هذا الكلام الآن. ولكن لماذا تبدو يا حبيبى متألمًا هكذا، ومنحازًا لهم؟ إنهم يطاردوننا فى كل مكان، ويطردون إخوانهم اليهود، ويهدمون المعابد على رؤوس الناس، ويصفوننا بالوثنيين الأنجاس. إنهم يتكاثرون حولنا كالجراد، ويملأون البلاد مثل لعنة حَلَّت بالعالم.

ـ أرجوكِ!

ـ وما شأنك أنت بهم.. لماذا تحمرُّ عينك هكذا، وتوشك دموعك أن تنسال؟

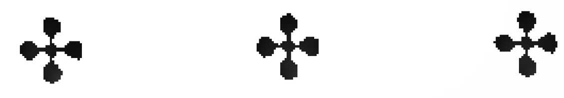
ـ لأننى..

ـ لأنك ماذا؟

ـ أنا..

ـ أنت ماذا؟

ـ أنا.. راهبٌ مسيحىٌّ.



سادتْ لحظةُ صمتٍ طويلة، ممزوجةٌ بالذهول.. وبعد إطراقةٍ مقلقة، نظرت أوكتافيا نحوى، وقد اكتسى وجهها بحمرة الحنق، واحتقنتْ عيناها بحزنٍ كظيم. فجأة، انتفضتْ واقفةً وقد صارت لها هيئةٌ كتلك التى تكسو التماثيل الضخمة القديمة. وبكل مافيها من عنفوانٍ وثنىٍّ، ومن مرارةٍ موروثةٍ، مَدَّتْ ذراعها اليمنى نحو الباب، وزعقتْ فىَّ بصوتٍ هائلٍ، مثل هزيم رعدٍ سكندرىٍّ، أو صرير ريحٍ وثنيةٍ عاتيةٍ:

ـ اخرجْ من بيتى ياحقير، اُخرجْ يا سافل.

الآن.. آه يا أوكتافيا المسكينة.. لو كنتِ قد صبرتِ عليَّ قليلاً.. ولو كُنتُ أعرف ما يخبئه لى الزمان.. أو.. الآن.. إن يدىَّ ترتجفان.. أوكتافيا.. الحبيبة، المسكينة.. ماعدتُ قادرًا على الكتابة.. (١)

(١) هذا هو كل المكتوب فى الرق السابع. وبين السطور، شطبٌ كثير ودوائر متداخلة. وعلى الحواف، وبيدٍ مضطربة، رسم الراهب هيبا فى الفراغ المحيط بالكلمات، صُلبانًا كثيرة متفاوتة الحجم.. (المترجم).

الرَّقُّ السابعُ

الرَّقُّ النَّاقِصُ

ألقيتُ الجلباب الحريرى بقلب الغرفة، والتقطتُ جلبابى الملقى عند الباب، فارتديته بينما أهبط الدَّرَج على عجل. كنتُ كمَنْ يقع فى الفراغ، وقد استُلَّتْ منه روحه. دُسْتُ على صورة الكلب الحزين، فى طريقى إلى باب المنـزل. وقبل أن أفتحه، أتانى من أعلاى ومن خلفى، صوتُ نحيب أوكتافيا وأنينها المرير.. بالكاد سمعتها، لحظة مررتُ من الباب مسرعَ الخطى، مخترقًا حديقة المنـزل إلى بابها الذى كان مواربًا. ضوءُ الشمس الساطع على الرمال الممتدة آلم عينى، وآلمت قدمىَّ الحافيتين، سخونةُ الرمال.

ولَّيتُ وجهى نحـو البحـر، غير عابئ بنظرة الحارس المندهشة، إذ رآنى أخـرج فجأة من باب الحديقة الموارب. لم ألتفـت إليـه، ولـم أنظر خلفــى حين ســار ورائى خروفُهُ بضع خطـوات.. لم أشعر بمثل هذه المهانة فى حياتى قطُّ.. إننى مَهينٌ.. ومُهانٌ.. وهينٌ إلى آخر المدى.

هل وقع ذلك كله، حقًا، قبل عشرين عامًا؟ مالى أشعرُ به كأنه يحدث

الرَّقُّ الثامنُ

الخلْوَةُ بيْنَ الصُّخُورِ

أيُّ ذكرى مؤلمةٌ بالضرورة. حتى لو كانت من ذكريات اللحظات الهانئة، فتلك أيضًا مؤلمةٌ لفواتها.. أودُّ لو خرجتُ هذه اللحظةَ إلى حافة سور الدير، وصرختُ إلى جهة الشمال حيث حوصر نسطور، وإلى جهة الجنوب حيث غابت مرتا.. ولو صرختُ بكل ما فى القلب من ألم، فهل يصل الصوتُ أم يصل الموتُ، أم يُصلينا الفوتُ الدائمُ والأحزانُ؟

ماذا أفعل مع هذه الشجون، وأنا المسجونُ فى قلقى المحصورُ مع ذكرياتى؟.. هل أمزِّق الرقوق، وأسكبُ محبرتى؟ أم أشقُّ ملابسى مثلما كان يفعل يوحنا المعمدان وأصرخ فى الصحارى؟..أم أهيمُ فى آفاق ما كان، وأُعاود الكتابة لأُنهى ما بدأت، ثم أرحلُ عن موضعى هذا إلى غير رجعة؟

آه منك يا أوكتافيا.. يا أيتها الطاهرة.. أتذكَّرُ بنصوعٍ أنها لما طردتنى بقسوةٍ من جنَّتها، قادتنى خُطاى من بحر الرمال المحيطِ ببيتها إلى المغارة التى بين الصخور. خُطاى أخذتنى إلى هناك من دون تدبير، أو لعلنى أردتُ ساعتها استغفار ربى وانتظار رحمته، فى الموضع الذى عصيته فيه أول مرة. فور دخولى المغارة، انزويتُ فى ركنٍ قصيٍّ، وألصقت كتفى اليمنى وركبتىَّ بالجدار الرطب، عَلَّنى أحتمى من دوىِّ انهيارى.. كنتُ مُنهارًا تمامًا.. وبعد لحظةٍ من ذهولٍ تامٍّ، أجهشتُ فجأةً بدمع الندم.. هنا، كانت أوكتافيا تجلس على ركبتيها، وتُخرج من سَلَّتها الطعام الأبيض. وهنا، كنتُ أقف مأخوذًا بطَلَّة صدرها. وهنا، مَسَّ وجهى جسمها، فغمرنى ضياؤها أول مرة.. هنا كانت اللحظة التى انطوت، وطوتنى، وألقتنى فى جُبٍّ سحيقٍ.

لم يكن حولى إلا الفراغُ وصوتُ البحر. سحبتُ مخلاتى الثقيلة، التى زاد ضعفى من ثِقَلها، وألقيتُ فوقها رأسى المليء بالفراغ.. كان فراغى موجعًا، ووحدتى. أخذتنى غفوةٌ كتلك التى غلبت تلاميذ يسوع ليلة العشاء الأخير، بعدما أخبرهم بقرب رحيله عنهم إلى الآب الذى فى السماء.

تفزَّعتُ من نومتى التعسة مَرَّاتٍ، وأفقتُ مَرَّاتٍ على أحلام مفجعة. المرة الأخيرة، كانت ساعة غروب اليوم التالى. أردتُ أن أعاود نومى وغيبوبتى، فتجافتْ عنى أرضيةُ المغارة وجدرانها. وددتُ لو أغفو، فلا أصحو، لكنى صحوتُ، فلم أنم حتى الفجر التالى. مَرَّتْ بخاطرى أوهامٌ كثيرة، واجتاحتنى المخاوف. كنتُ خائفًا منى، ومن أيامى الآتية، ومن انفرادى بين الصخور، ومن احتمال أن تكون المغارة مأوىً لوحوش! لم أكن يومها قد تأكَّدتُ بَعْدُ من أن الإسكندرية ليس فيها ضباعٌ أو ذئابٌ هائمة، ولا يخرج من بحرها وَرَلٌ ولا تمساحٌ مثلما يخرج من النيل عند المساء.. فى الإسكندرية، ما هو أشد خطرًا من الوحوش السارية ليلاً، والهائمة فجرًا.

بعد قلقٍ طويلٍ، عرفتُ أن الهسيسَ الذى كنتُ أسمعه، هو دبيبُ أرجل سرطانات البحر التى تبيتُ ليلاً بين شقوق الصخور. كان ضوءُ القمر يفرش مدخل المغارة، حيث تختلط الرمال بقطع الصخر المتناثر.. باستثناء البقعة

المضاءة بنور القمر، لم أكن أرى شيئًا واضحًا من حولى ولا من أمامى. رأيتُ أن أُعطى ظهرى لمدخل المغارة، وأُولى وجهى إلى الحائط وأذوب فى صلاةٍ مخلصة وابتهالٍ حارٍّ، عسى أن يرحمنى الرب، ويغفر ما كان منى ومن أوكتافيا.. حين دعوتُ لها بالرحمة، انهمرت دموعى من جديد.

وفيما كنتُ متوغِّلاً بقلب صلواتى، خطر لى أن أظلَّ بالمغارة بقية عمرى؛ أفرغُ تمامًا للعبادة، وأهجرُ الطبَّ. وكل ما كنتُ أرغبُ فيه، أرغب عنه. فأصيرُ إذا أخلصتُ النية، قديسًا.. وراودتنى أمانٍ لا تليق بالرهبان: *سوف يعرف الناس مع الأيام أننى أقيم هنا، وسيأتون للتبرُّك بى. سأضربُ فى التقشُّف المثلَ الأروعَ؛ لن آكل فى اليوم والليلة، إلا بلحةً واحدة. وإذا عطشتُ، سأضعُ النوى فى فمى وأحرِّكه، فأرتوى، مثلما كنا نفعل فى القرية ونحن صغار. إذا طال عطشى سأبلِّل شفتىَّ بماء البحر، وأعود لخلوتى فى المغارة. يُقال إن الإسكندرانيين لا يحترمون غيرهم، لكنهم سيرحِّبون بى حين يظهر لهم وَرَعى وتقواى وإمعانى فى العبادة. ستحلُّ على مغارتى بركاتُ السماء، وسوف تجرى على يدى المعجزات. وقد تأتى أوكتافيا يوما لزيارتى بين الجموع وقد اهتدتْ، فترانى محاطًا بأنوار القداسة.. لن أشغل نفسى بشئ من حطام هذه الدنيا، لن يشغلنى إلا تسبيحُ الرب، ومشاهدةُ حقائق الوجود المتجلية على باطنى الذى سوف أجلوه فيصير كالمرآة.. سوف أصفو عن كدر هذا العالم.*

أراحتنى تلك الأفكار، وخفَّفت من جزعى. ولكن مع نور الصبح، عضَّنى الجوعُ، فشوَّش علىَّ أفكارى وأمنياتى الساذجة. أخرجتُ بلحةً من مخلاتى، ومضغتها على مهل، فأثارتْ فىَّ العطش. لم ينفعنى تحريك نواتها فى فمى، فخرجتُ من المغارة متلفِّتًا كثعلب مُحاصر. فى طريقى إلى البحر،لم أجد أحدًا حولى على امتداد البصر. كُلُّ شئ عدا الهواء، ساكنٌ. بللتُ يدى، ومسستُ بالماء شفتىَّ ولسانى، فأهاجتْ الملوحةُ عطشى.

عدتُ للمغارة أَجُرُّ قدمىَّ، وتكوَّمت فى الركن مثل قطٍّ بائس يلعق جُرحًا غائرًا لا أمل فى شفائه. رأيتُ أن النوم هو ملاذى الوحيد، فاستجلبتُ إلى عينى النعاس.. وبعد معاناة طويلة، نمتُ نومةَ غريق.

انتبهتُ من غيبوبتى ظهرًا على صوت طيور البحر، وعلى جوعى وعطشى. لم أعرف قبلها جوعًا وعطشًا بمثل تلك الشدة. وضعتُ بفمى بلحةً أخرى، ورحتُ على مهل أمتصُّ رحيقها. بعد حينٍ خرجتُ من بين الصخور، ورحتُ أتلفَّتُ حولى.. لم يكن هناك أحدٌ غيرى.. لم تكن أوكتافيا واقفةً فى الموضع الذى رأيتها فيه، يومَ أخذتنى الدوَّامة.

عرفت ساعتها أننى لا أحبُّ البحر. النيلُ أحلى منه، وأرحم. النيلُ يجلبُ إلى ضفَّتيه الحياة، والبحرُ يزيحُ عن شواطئه كل ما اخضرَّ، فلا يجاوره إلا الصخور. الإسكندريةُ مدينةٌ للبحر والصخر، مدينةٌ للملح والقسوة. كان انفرادى يمزِّعنى، وتطحننى وطأةُ الغربة.. ساعة العصر، خطرت بذهنى فكرةٌ جامحةٌ، رأيتُ أنها قد تؤكِّد توبتى، وتقرِّبنى من جوهر الطهارة التى أهدرتها.. وسوف أتفرَّدُ بها عن أهل زمانى، فأصيرُ مميزًا بينهم؛ فلن يقدر أحدٌ على فعلٍ كهذا: أن أخصى نفسى!

نويتُ أن أخرج من فورى، فأبحث بين الرمال عن شعرةٍ من ذيل حصان، وأغسلها جيدًا فى ماء البحر، وأعود بها للمغارة، فأربط خصيتى بالشعرة، وأحتمل الألم أيامًا حتى تسقط خصيتاى وأستريح إلى الأبد. لن أقع بعدها فى غوايات النساء! سأصير مثل الملائكة.. الإنجيل دعانا لذلك، لكننا لم نستجب لأننا ضعفاء. الآياتُ صريحةٌ فى إنجيل متى الرسول: *يوجد خصيانٌ خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات، فمن استطاع أن يَقبل، فليقبل..* ولسوف أَقبلُ مختارًا، راضيًا بالتضحية على مذبح الطُّهر. سأفعل ذلك بمشيئة الرب، صباح غدٍ.

ولكن مهلاً، فإن أوريجين قد فعل بالأمس البعيد، ما أنويه فى غدى القريب، فاعتبره البعضُ قدِّيسًا، واعتبره آخرون مذنبًا. أسقف الإسكندرية فى زمانه، ديمتريوس الكرَّام، أدان فعلته، ووصفها بأنها شنعاء، وغضب عليه، وعزله عن رئاسة مدرسة اللاهوت، بل طرده من صفوف الكنيسة.. فكيف سينظرون اليوم إلى فعلتى التى إن أقدمتُ عليها، فلا مجال لتعويض ما سوف أفقده. ولن يكون أمامى مجال للانتظام فى سلك الرهبنة، إذ لامجال لمقاومة رغبات النفس واشتهاءات البدن. سيحرموننى، ويطردوننى من الكنيسة مجلَّلاً بالعار، ومصحوبًا باللعنات المجلجلة.. فكرتى فاشلة.. لن أفكِّر فى خصاء نفسى، أبدًا!

قبيلَ الغروب، أشفقتُ من المبيت ثانيةً فى المغارة، فخرجتُ إلى الشاطئ، ومشيتُ غربًا. نظرتُ رغمًا عنى نحو بيت أوكتافيا مراتٍ، وكدت أقع على وجهى مرات.. كانت الشمس تنوى المغيب، فيزيدُ احمرارها من زرقة البحر عن يمينى. وعن يسارى كانت البيوت تتزايد كلما سرتُ نحو قلب المدينة. كانت المنازل تكثر وتعلو طوابقها، فتقترب هيئاتها من بهاء القصور. بعدها بقليلٍ لمحتُ عند البحر حراسًا، فلم أقترب منهم. عرفتُ أننى أكاد أصل إلى موضع الحى الملكى، الذى لم يعد ملكيًا بعدما صارت معظم قصوره، مثل بيوت الأشباح وموائل الكلاب. تفاديتُ المضىَّ غربًا، واتجهت جنوبًا لأجوس بين بيوت المدينة. لعلِّى ألتمس هناك دفئًا لقلبى المرتجف، وماءً أو طعامًا. رأيتُ من بعيد، كنيسةً على رأسها صليبٌ كبير، فاتجهتُ نحوها وأنا أتحسَّس بأطراف أصابعى، خطابَ التوصية الثمين، المندس فى مخلاتى.

على باب الكنيسة، كان جمعٌ من أهل ديانتنا يتحدثون همسًا. فى وجوههم طيبةٌ، ومن أعناقهم تتدلى صلبانٌ من الخشب المصبوغ وعظام البقر المنحوتة. لم يلتفتوا نحوى، ولم أتردَّد. قصدتُ ناحيتهم، وفاتحتهم:

ـ مساؤكم مباركٌ يا أخوتى. أنا غريبٌ من أهل الجنوب، أحملُ رسالة للراهب يوأنَّس الليبى.

لم يعرفوه، ولم يكترثوا بى كثيرًا. نصحنى أحدهم بأن أسأل عنه فى كنيسة قيصرون، ووصف لى الطريق إليها. فارقتهم إلى الاتجاه الموصوف، وقد منعنى الحياءُ من إخبارهم بأننى جائعٌ جدًا، وعطشان. بين الشوارع المتقاطعة، سألتُ أحد البوابين أن يعطينى من عنده شربة ماء، ففعل. سألنى عن وجهتى، وامتعض لما أخبرته. مازلتُ أذكر نظرته المستريبة لى، حين عرف أننى أبحثُ عن راهب يسكن كنيسة! شكرته متلعثمًا، ومضيتُ من أمامه.. بعد حينٍ صادفتُ أطلالَ بيتٍ قديم متهدِّم، فجلستُ برهةً لأريح قدمى وقد أسندت ظهرى للحائط الساقط.

كان الليل قد ثقل على السماء، وبدت لى النجومُ وكأنها تُجاهد كى ترفع ظلمته. بيوتُ الإسكندرية لاتكترث للمساء، تطلُّ من نوافذها أنوارٌ كثيرة، وحركةُ الناس هناك لايمنعها هبوط الليل، فهم يحبُّون السهر، وأظنهم لاينامون كثيرًا، لا ليلاً ولا نهارًا. هم أكثر بدانة من الناس فى بلادى الأولى، وبشرتهم أكثر بياضًا ونضارةً. النبيذُ الجيد يكسو الوجوه نضارةً، ويحسِّن ألوانها.

لم أُطل استراحتى عند البيت المهجور، مع أننى فكرتُ فى الدخول للمبيت فيه. لكنى عدلتُ عن فكرتى. سألتُ مرتين فى طريقى، عن موضع كنيسة قيصرون حتى وصلت إليها. هى تطل على الميناء الذى يسمونه هناك الشرقى؛ لأن ميناءً أكبر منه يقع إلى جهة الغرب. كنيسةُ قيصرون

هذه كبيرةٌ، وجدرانها العالية مليئة بخربشةٍ وتكسير. عرفتُ فيما بعد أنها كانت معبدًا، ثم صارت كنيسةً، ثم ارتدت معبدًا بين الوثنيين.

على باب الكنيسة، استوقفنى رجلٌ يلبس ثوبًا كنسيًا ضيقًا، يكاد ينفزر معه بدنه الضخم. كانت هيئته غريبة: بدنُ مصارعٍ مكسوٌ بثياب قَسّ! فى عينيه حِدَّةٌ، وفى عبوس وجهه قسوةُ سيافٍ لا وداعة قسوس. ولأن ملابسى كانت تدعوه لاحتقارى، فقد نظر إلىَّ باستهانةٍ وهو عاقد ذراعيه على صدره.. بلسانٍ مضطرب سألته إن كانت هذه هى كنيسة قيصرون، فأومأ برأسه ومَطَّ شفته، وبدا كأنه سوف يعضُّنى من كتفى! سألته بلطفٍ عن القَسّ يؤانِّس، فهزَّ رأسه بعنفٍ، بما يعنى أنه لا يعرفه، ولا يريد مزيدًا من أسئلتى. ابتعدتُ عنه بخطى سريعة لم تتوقف، إلا عند تقاطع الشارع الآتى من البحر، مع الشارع الكانوبى الكبير.. كان يجب علىَّ ساعتها أن أعبر الشارع الكانوبى، وأتجه يمينًا إلى الربع الجنوبى من المدينة، المعروف بحىِّ المصريين، فأندسُّ بينهم. غير أننى كنتُ أسير على غير هدى، ولم يكن لى علمٌ بمواضع المدينة ومواقع أحيائها.

فكَّرتُ فى الخروج للمبيت خارج السور، لأدخل المدينة فى الصباح كأننى أدخلها لأول مرة، فتنمحى الأيام الماضية بكل ما جرى فيها.. اتجهتُ إلى ناحية الأسوار وقد عقدتُ النية على الخروج، لكننى لما مررت فى طريقى بالحديقة الفسيحة المحيطة بالمسرح الكبير، ودخلتها، فوجدتها خالية، ومناسبة لمبيت أمثالى، صرفتُ عنى نيةَ الخروج. وتكوَّمتُ تحت شجرةٍ كبيرة، تتدلَّى منها أغصانٌ ملتفةٌ كضفائر العذراوات. كان المبيت بذاك الموضع أكثر أمنًا من النوم فى المغارة الصخرية، وأدفأ، فارتميتُ على جوعى، وعلى رائحة النجيل الذى تفوح به الأرض.. كثيرًا ما عاودتنى تلك الرائحة بعدها، فى غير مواضع النجيل.

ليلتها امتلأ نومى بالأحلام، وامتلأتْ أحلامى بأوكتافيا الحنون القاسية، الباكية الضاحكة، الوسنانة المرحة، النقية الوثنية، الغاضبة.. ساعةَ الفجر، فتحت عينى متنبهًا إلى أنه يوم الأحد، يعنى يوم المحاضرة. قلتُ فى نفسى، لا بأس لو بقيتُ يومًا آخر فى المدينة مرتديًا ثيابى الجنوبية! سوف أرى هيباتيا، ثم أخرج للمبيت وسط الفلاحين التعساء.. وغدًا، أعودُ إلى هنا فى زِىِّ الرهبان، وأتجه من فورى إلى الكنيسة الكبيرة المرقسية، حيث العالم الذى أنتمى إليه حقًا.

الرَّقُّ التَّاسِعُ

شَقِيقَةُ يَسُوع

أتذكَّرُ جيدًا.. مشيتى المتلصِّصة نحو بوابة المسرح الكبير، وخجلى من ملابسى الرثة وسط المتأنقين. مع أن الرهبنة تعلِّمنا عدم الاكتراث إلى الرثِّ، أو غير الرثِّ من الثياب! أشار لى حُرَّاس البوابة إلى مكان المحاضرة، فدخلتُ مع الداخلين. كانت قاعة كبيرة كائنةً فى الجهة الغربية من المسرح، وليست جزءًا منه، وإنما تحوطها حديقةٌ واحدة. جمهورُ المحاضرة كبيرٌ، وفيه نساء! كانت المرَّة الأولى، والوحيدة، التى أحضر فيها درسًا تلقيه امرأةٌ، وتحضره النساء.. كل ما فى الإسكندرية عجيبٌ، ومختلفٌ.

الداخلون إلى القاعة كلهم يتكلمون اليونانية، وكلهم درسوا الفلسفة. ظهر لى ذلك من همهماتهم، ونقاشاتهم خفيضة الصوت، قبل بدء المحاضرة. كان كلامهم مليئًا بأسماء قدماء الفلاسفة، لم يجر على لسانهم أىُّ اسم لواحدٍ من القديسين أو الشهداء. فكأنهم يعيشون فى عالم غير العالم. ظننتُ أولاً أننى سأسمع محاضرةً وثنيةً جدًا، ثم عرفتُ أن الرياضيات لا شأن لها بالوثنية، ولا بالإيمان.

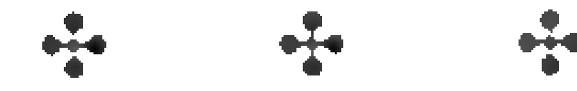
كانت الساعة الشمسية التى بمدخل القاعة، يكاد ظلُّ عمودها يلامس علامة العاشرة صباحًا، الناسُ جاءوا مبكرين. بقيتُ بينهم ساعةً منطويًا على ذاتى، وكانوا منهمكين فى أحاديثهم الخافتة وضحكاتهم الرقيقة.. ملابسهم نظيفة، ووجوههم تكسوها آثار النعمة الدنيوية الزائلة. جلستُ قريبًا من الباب، على طرف الثالثة من الأرائك الخشبية المصفوفة. من غلبة حرجى وغربتى بين الحاضرين، كنتُ متصلِّبًا وهَشًّا كالخشب القديم.

قبيل دخول هيباتيا بلحظات، التفت نحوى رجلٌ بدينٌ كان يجلس على يمينى بالصف الثانى. حيَّانى بابتسامةٍ، فحيَّيته بابتسامةٍ وَجِلة؛ إذ لا رَدَّ على الابتسام، إلا بالابتسام! كاد الرجل البدين يفاتحنى الكلام، لولا أن الأبواق صاحتْ مخبرةً بمجيئ حاكم المدينة أورستوس الذى توسَّط الصف، وانتشرت حاشيته على جانبيه، فامتلأ الصَّفُّ الأول. دخلت هيباتيا الصالة الفسيحة، فوقف لها الجميع بمن فيهم الرجال! منعنى وقوفهم المفاجئ من رؤيتها تدخل. لما حيَّتهم وجلسوا، رأيتها ترتقى الدرجتين إلى المنصة، وتقف كالحلم أمام الجمهور الذى انتظم جلوسه على الأرائك.. تهيَّأتْ هى للكلام، فسكن الجميع كأنهم تماثيل طريق الكباش الطويل.

من قبل أن تنطق الأستاذة بشئ، ظل قلبى يرتجف ويزداد خفقانه، حتى خشيتُ أن يسمع الجالسون حولى دقاته المضطربة.. هيباتيا امرأةٌ وقورٌ وجميلة، بل هى جميلة جدًا. أو لعلها أجمل امرأة فى الكون. كان عُمرها فى حدود الأربعين، وكان أنفها جميلاً جدًا وفمها، وصوتها، وشعرها، وعيناها.. كل ما فيها، كان أبهى من كل ما فيها. ولما تكلمت زاد بهاؤها ألقًا. عرفتُ بعدما رأيتها بشهور، أنها اشتغلت بالعلم من صغرها، على يد أبيها الرياضىِّ الشهير ثيون، وعرفتُ أنها ساعدته، وهى بَعْدُ مراهقة،

فى شروحه التى دوَّنها على أعمال كلوديوس بطليموس صاحب كتاب الجغرافيا، والكتاب الكبير فى الفلك (١).

هيباتيا.. أكاد إذ أكتب اسمها الآن، أراها أمامى وقد وقفتْ على منصة الصالة الفسيحة، وكأنها كائنٌ سماوىٌّ هبط إلى الأرض من الخيال الإلهى، ليبشِّر الناس بخبرٍ ربانىٍّ رحيم. كانت لهيباتيا تلك الهيئة التى تخيَّلتُها دومًا ليسوع المسيح، جامعةً بين الرقَّة والجلال.. فى عينيها زرقةٌ خفيفة ورُماديةٌ، وفيها شفافية. فى جبهتها اتساعٌ ونورٌ سماوىٌّ، وفى ثوبها الهفهاف ووقفتها، وقارٌ يماثل ما يحفُّ بالآلهة من بهاء. من أى عنصر نورانى خُلقت هذه المرأة؟.. كانت تختلف عن بقية الناس! فإن كان الإله خنوم هو الذى ينحت أجسام الناس، فمن أى صلصال طاهر نحتها، وبأى عطرٍ سماوىٍّ سَبَكها؟.. يا إلهى، إننى أُجدِّف.



لم يطل صمتُ هيباتيا بعدما اعتلت المنصة، إلا ثوانٍ معدودات، رفعت بعدها عينيها نحو جمهورها الساكن، وراحت تقول ما ترجمته: *أيها الأصدقاء، وصلتنى الأيام الماضية من جزيرة رودس، رسائلُ فيها ملاحظاتٌ كثيرة وتقريراتٌ، على ما ذكرته فى محاضراتى التى شرحتُ فيها كتاب الفاضل ديوفنطس فى حساب القيم العددية المجهولة. ونظرًا للتخصُّص الشديد لهذا الموضوع، فسوف أؤجل المناقشة فيه إلى ما بعد هذه المحاضرة، حتى لا أُثقل على غير الرياضيين من حضراتكم، مع أننى أؤمن بأن الفلسفة التى يودُّ معظمكم أن نتحدَّث فيها اليوم، لا يمكن أن تستقيم إلا بالرياضيات. وتعلمون، أخواتى وإخوتى، أن أفلاطون العظيم كتب على باب مدرسته فى أثينا، الأكاديمية، عبارةً تقول: لا يدخل علينا إلا من دَرَسَ الهندسة!.. ومع ذلك، فسوف أتحدَّث أولاً فى الفلسفة، ثم أتلو محاضرتى بجلسةِ نقاشٍ للمسائل الرياضية الواردة فى كتاب الفاضل ديوفنطس الإسكندرانى، لمن أراد منكم متابعة الموضوع معى.*

كنتُ أتابعها بنظرات لاهثة، وقد نظرتْ هى نحوى أثناء كلامها مرتين، فروَّعتنى عيناها. كنتُ قد درستُ الفلسفة سنين فى أخميم غير أنى لم أسمع من غيرها، مثل هذا الذى قالته. كانت تشرح لنا بلغةٍ يونانيةٍ راقيةٍ، كيف يمكن للعقل الإنسانى أن يستشفَّ النظام الكامن فى الكون، وأن يصل بالفهم إلى معرفة جواهر الأشياء، وبالتالى يميِّز أعراضها وصفاتها المتغيرة.. كان يجرى على لسانها عباراتٌ من مبادئ الفلسفة، عبارات طالما سمعتها من غيرها، لكنها نطقتْ بها وكأنها تفتح عقلى وتدسُّها فيه. حتى المشهور من كلام الفيثاغوريين، مثل قولهم: العالم عددٌ ونغمٌ.. شعرتُ من عمق إحساسها بالعبارة، ومن رهافة نطقها بها، أن الكائنات كلها ايقاعاتٌ منظومة واحدة.. وعلى هذا النسق، فهمتُ من عباراتها مالم أفهمه قبلها من أهل الفلسفة.

قبل نهاية المحاضرة، خايلتنى فكرةُ أن أبقى تابعًا لهيباتيا بقية عمرى، أو خادمًا يسير وراءها. وفكَّرت فى أننى لو عدتُ إلى أوكتافيا، واعتذرتُ إليها عن خداعى لها طيلة الأيام الثلاثة، فقد تسامحنى. سأتعللُّ لها بأننى خشيتُ أن أفقدها، فآثرتُ الصمت؛ لأننى ارتبكتُ، ولسوف تسامحنى أوكتافيا، وتقبلنى ثانيةً، فأعيش معها، وأنسى الأوهام التى تملؤنى وتسيِّر خُطاى إلى حيث لا أعلم.. سأتعرَّف إلى السيد الصقلى حين يأتى من سفره، وأعرف هيباتيا عن قرب، وأشتغل بالطب حتى أنبغ فيه، وقد أجد علاجًا لمرض العاع.. أخذتنى الأفكارُ، حتى شردت عن بقية المحاضرة.

---

(١) فى هامش الرَّقِّ، كُتب بالعربية: هو يقصد كتاب المجسطى، وهو العمدة فى علم الفلك حتى يومنا هذا، رأيتُ منه نسخةً يونانية قديمة، وعدة ترجمات عربية عليها حواشٍ كثيرة، فى كنيستنا بالرها.

ثم انتبهتُ إلى آخر ما قالته الأستاذة يومها، وما يزال عالقًا بذهنى. قالت: *والفهمُ أيها الأحبة، وإن كان فعلاً عقليًا، إلا أنه فعلٌ روحيٌّ أيضًا. فالحقائق التى نصل إليها بالمنطق وبالرياضيات، إن لم نستشعرها بأرواحنا؛ فسوف تظلُّ حقائق باردة، أو نظلُّ نحن قاصرين عن إدراك روعة إدراكنا لها.. وقد مرَّتْ ساعتان وأنا أتحدَّث إليكم، وأعرف أننى أطلتُ جدًا، وأرهقتكم، فتقبَّلوا اعتذارى، واقبَلوا تقديرى لحضوركم اليوم. ولسوف أعودُ بعد نصف ساعة إلى هذه القاعة، للكلام عن رياضيات ديوفنطس. فمن أراد أن يشرِّفنى بمشاركته، فأهلاً به، شريطةَ أن يكون من المشتغلين بالرياضيات، حتى لا يكرهها، ويكرهنى معها.*

ابتسم الجمهورُ وقَهْقَه بعضُه، وتهيَّأوا جميعًا للخروج وراءها. وبقيتُ راسخًا فى مكانى كأحجار الأهرام، كالصخور البيضاوية التى على ضفاف النيل فى بلادى الأولى. كانت هيباتيا ستعود بعد نصف ساعة، فإلى أىِّ مكانٍ آخر كان يمكننى أن أذهب؟

كادت الصفوف تخلو، إلا من بعض المتعلِّمين الذين بقوا يلملمون أوراقهم، وينتقلون بكتبهم إلى مقاعد الصف الأول. كان الحاكمُ والحاشيةُ والجمهورُ، يتحلَّقون حول هيباتيا عند الطاولة الممتدة خارج الباب، الطاولة المثقلة بألوان الحلوى. تلك إذن، ما كان يقصده المنادى المتبجِّح علىَّ، يوم دخولى الإسكندرية. أنا لا أحب الحلوى، ولم آكلها معهم يومها مع أن الجوع كان يطحن باطنى، حتى يكاد من شدته يُغمى علىَّ، لكننى لحرجى اكتفيتُ بآخر بلحتين كانتا فى مخلاتى، من دون أن أرضى لنفسى بالوقوف بين الآكلين المتأنقين، بملابسى الرثة.. بعد نصف الساعة الطويلة، هدأت أصواتهم الآتية من خلف الباب، وانصرف الحاكمُ وأغلبُ الجمهور، وعادت هيباتيا يحيط بها جماعةٌ صغيرةُ العدد من العلماء والمتعلِّمين مختلفى الأعمار. ارتقت المنصة مثلما فعلت أول مرة، وسكنتِ الصالة مثلما سكنت أول مرة.. لم يكن عددنا يزيد عن عشرين، وكنتُ مازلت فى مكانى بالصف الثالث حين أشارت إلىَّ قائلةً:

ـ يمكنك أن تأتى للصَّفِّ الأول، إذا أحببت.

ـ لا، أنا يا سيدتى.. أنا مرتاحٌ هنا، أنا شاكرُ رحمتك.

ـ شاكرُ رحمتى! ألفاظك غريبةٌ أيها الأخ الغريب.

ـ أنا قادمٌ من الجنوب يا سيدتى المبجلة.

ـ مرحبًا بك فى مدينتنا.

لم أفهم معظم ما قالته هيباتيا فى محاضرتها الثانية، كنت شاخصًا إليها فحسب، ونادمًا على فرارى فى شبابى من دروس الرياضيات. أثناء كلامها ملأنى الحماسُ، فقررتُ فى نفسى شيئًا لم أفعله قط: *سأدرس الرياضيات مع الطب ومع اللاهوت*، سوف *أطلب مبادئ الهندسة والحساب أولاً، ثم أتخصَّص فيهما وأبرز*.. كنتُ فى تلك الأيام، كورقة شجرٍ جافةٍ تلعب بها الرياح.. وأظننى مازلتُ كذلك!

بعد المحاضرة، تحلَّق الحاضرون حولها ثانيةً.. لا أعرف كيف واتتنى الجرأةُ، فاقتربتُ من هيباتيا غير متهيِّبٍ منها، ومن دون أن تسألنى، أخبرتها أننى أتيتُ للإسكندرية لدراسة الطب، وإننى أنوى البقاء فى المدينة خمس سنين حتى أنهل من معارفها، ثم أعود لأعالج المرضى فى بلادى الأولى. أضفتُ فى غمرة اندفاعى أننى فى مدة إقامتى فى المدينة، سأحرصُ على حضور كل جلساتها العلمية، حتى الرياضية منها. لم يفارقها الابتسامُ ولا الاهتمامُ بما أقول، فتشجَّعتُ على الإفاضة فى كلامى الذى لاداعى له، إلا بقائى ناظرًا إليها.. لما انتهيتُ من كلامى، تكلَّمتْ:

ـ إذن، سأراك هنا يوم الأحد القادم، أيها الصديق الجنوبى الطيب.

ـ يا سيدتى.. ألا تلقين دروسًا فى الطب؟

ـ لا يا صديقى، للأسف الشديد.

وهى تُجيبنى على سؤالى المفاجئ، ابتسمتْ بما يكفى لتبديد وحشتى وجوعى وغربتى.. أضافتْ وهى تشير إلى أحد الواقفين حولها، وكانوا خمسة رجالٍ فى منتصف العمر وامرأةٌ نحيلة: زميلى *الوسيم هذا، سينيسيوس القورينائى، كان أيضًا يريد دراسة الطب فى بدايته، لكنه درس الفلسفة*. أضافتْ، وهى تنظر إليه بطرف عينها: *وهو الآن يريد أن يكفر بالفلسفة، ويؤمن بنقيضها!*

ضحك الرجل المسمى سينيسيوس ضحكةً عذبةً، مال معها رأسه قليلاً إلى الخلف، ثم قال لى بمودةٍ صافيةٍ وقد وضع كفَّه اليمنى على كتفى اليسرى: *لا تصدِّق الأستاذة يا أخى، فهى خالفت الحقيقة فى كلامها مرتين، الأولى حين وصفتنى بالزميل، وما أنا منها إلا تلميذٌ، وهى مِنِى بمنـزلة الأستاذ.. والثانية أننى لو سلكت السبيل الكنسى، فهذا لا يعنى أننى سأكفر بالفلسفة وأؤمن بنقيضها!* ضحكوا جميعًا لكلامه، إلا أنا، وتهيَّأوا للخروج من القاعة.. الرجل المسمى سينيسيوس القورينائى لم أره من بعد ذلك اليوم، لكننى سمعتُ فيما بعد أنه صار واحدًا من كبار رجال الكنيسة فى المدن الخمس الغربية المعروفة بليبيا، بل أسقفًا لواحدةٍ منها.. أظنها مدينة طلمثية (برقة).

خرجوا جميعًا، وتأخَّرتُ برهةً وقد ثقلتْ ساقاى. لم أكن أعرفُ لى مقصدًا، بعد هذا الدرس الذى وددتُ لو كان قد طال إلى الأبد.. قبل أن تتوارى خلف الباب، نظرتْ هيباتيا باسمةً نحوى، وكأنها تثبِّت ملامحى بذاكرتها، إلى أن ترانى فى المرَّةِ المقبلة.. المرةِ التى ليتها لم تُقبل أبدًا.

رحلت هيباتيا كمثل حُلم رائقٍ، أسْعَدَ فى لحظةٍ قلبَ محزونٍ، ثم انطوى عنه للأبد.

على بوابة المسرح، وقفتُ تائهًا أرقبها وهى تركب عربتها ذات الحصانين. كان ذيل ثوبها المطرزة حوافه، هو آخر ما رأيته منها. وآخر شئ جميل رأيته يومها، والأيام التالية.. لما غابتْ عنى عربتها، عدتُ لتوحُّدى وحيرتى. لم يكن لى مكانٌ لأذهبِ إليه، فبقيتُ لحظةً حائرًا وقد اختلطت فى قلبى الأشياء بالأشياء. متثاقلَ الخطو، درتُ حول الحديقة الكبيرة، ولما احتدت الشمس عدتُ لشجرتى التى بِتُّ الليلة الفائتة تحتها. تحتها، وحولها، كان أناسٌ كثيرون يستظلُّون من شمس الظهيرة. وكان من بينهم، مالم أتوقع يومها رؤيته.. جماعةٌ من زملاء الدراسة فى نجع حمادى، كلهم فى اللباس الكنسى!

لحظة رأونى، أحاطوا بى متهلِّلين بقدومى المفاجئ، مع أنهم كانوا المفاجئين لى! سألونى عما جاء بى إلى هذا الموضع، فقلت إننى تائهٌ.. سألونى عن لباسى الكنسى، فقلتُ إنه مقطوعٌ ومتسخٌ، أحفظه فى مخلاتى لأحفظه إلى حين رتقه وغسله، فأحفظ نفسى من تهكم الوثنيين.. سألونى عن وِجْهتى، فقلت إن معى رسالة للقسِّ يوأنَّس الليبـى. عرفوه، وساقونى إليه. وهكذا دخلتُ لأول مرة الكنيسة المرقسية الكبيرة بالإسكندرية، كنيسة القمحة، يحيط بى ثمانيةٌ من الرهبان.

حين انتهى يوأنَّس الليبـى من قراءة رسالة التوصية التى كانت بمخلاتى، رفع وجهه نحوى ليسألنى بهدوءٍ، وباقتضابٍ، عن صحة صديقه الموصِى وأحواله. طمأنته عليه. لم أخبره بما أعرفه من أنهما كانا يرفضان أفكار الأسقف السابق ثيوفيلوس وأعماله العنيفة، وأن بينهما رسائل متبادلة فى ذلك. مع أنهما كانا فى شبابهما من تلامذته، وكانا يعتقدان أنه يحارب الوثنية التى حاربت المسيحية طويلاً، ولما وجداه يطيل حربه إلى ما لا

نهاية، نفرا منه واجتنباه.. ولم أخبره بأن صديقه أرسلنى للإسكندرية بعد وفاة الأسقف المذكور، أملاً فى أن الأحوال سوف تهدأ.. لم ألمح إليه بأى شئ من ذلك، ولو من بعيد؛ وإنما ذكرتُ بعضًا مما كان يحكيه لى عنهما أيام كانا راهبين بدير الأنبا أنطونيوس، وأيام كانا فى جوار الأنبا شنودة، رئيس المتوحِّدين بأخميم؛ فبدتْ على وجهه علامات الارتياح. لما انتهيتُ دعانى لأرتاح من سفرى الطويل، ونادى على خادمه ليصحبنى.

أخذنى الخادم أولاً، إلى قاعة الطعام هائلة الاتساع. أكل معى طعامًا ساخنًا، ثم أوصلنى إلى المضيَفة ذات الغرف الكثيرة، بالغة الضيق. وأخبرنى أننى سأنتقل من مقرى المؤقَّت هذا، إلى صومعةٍ ما، بعد أيام.. مَرَّ يومان وأنا سابحٌ فى بحار الكنيسة، البحار التى لا شاطئ لها.. عشرات الكهنة والرهبان، ومئات الزوار والوافدين طيلة النهار للصلاة أو التبرك أو الاعتراف. الكنيسةُ لاتسكن أبدًا، هى خليةُ نحلٍ يسبِّح دومًا ملكوت السماء. حتى فى الليل العميق، حيث يضاء القنديل الهائل البديع، المعلق بالكنيسة.. بدا لى أن هذا المكان، هو الكونُ الذى أنتمى إليه حقًا. وحَدَّثْتُ نفسى أيامها، مرارًا، بأننى لستُ من أهل هذه الدنيا الفانية.. الربُّ اختارنى لأمرٍ خفىٍّ يعلمه، فلتكن مشيئة الرب.

استقر بى المقامُ فى غرفةٍ صغيرة داخل الكنيسة، حولها غرفٌ يسكنها كثيرون من أمثالى، خُدَّام الرب. أغلبهم رهبان من المدن الخمس الغربية (ليبيا) وبلاد مصر العليا (الصعيد) وبعضهم كهنةٌ وفدوا فى مهام قصيرة من نواحٍ بعيدة، مثل بلاد الأحباش الذين يتكلمون اللغة الغريبة، لم يأبه لى أحدٌ فى أيامى الأولى، غير راهبٍ زائرٍ أصله من قريةٍ صغيرة بالقرب من دير المحرَّق الذى مررتُ به فى طريقى للإسكندرية. الدير النائى الذى بناه قبل سنوات، الأسقفُ السابقُ ثيوفيلوس، فى جبل قسقام المشرف على ليكوبوليس (أسيوط).. كان الراهبُ يقيم بالغرفة المجاورة، انتظارًا لرحيله مع الأحباش ليقيم ببلادهم، ولا يعود من هناك أبدًا.. ماعدتُ الآن أتذكَّر اسمه، ربما كان بيشوى، لكننى لستُ متأكدًا الآن. بيشوى فى اللغة المصرية تعنى العالى، ولكن هذا الراهب كان قصيرًا. جذبنى إليه وقارُه، وطيبته، وغربته. كان آنذاك فى حدود الثلاثين من عمره، وكان يتكلم المصرية (القبطية) الصعيدية، مثلى. كنا نتحدث سويًا بين الصلوات والقُدَّاسات، وفى طريقنا لقاعة الطعام، ثم صرنا بعد أيام أخوةً فى حظيرة الرب. لما أخبرته يوم السبت بنيَّتى الخروج غدًا للذهاب لمحاضرة هيباتيا صاح فىَّ: *يا أخى، هذا لا يجوز أبدًا..* وأخبرنى فَزِعًا، بأن هذا الفعل لو اقتُرف، فهو مما لايغتفر! ونصحنى ألا أذكر اسمها مرةً ثانية. أضاف ما معناه: *أنها خطيئةٌ عظمى، ألن تسمع خطبة الأحد من البابا كيرُلُس، الأسقف الأعظم، من أجل الذهاب لرؤية شيطانة! لن يُغفر لك هذا الذنب إذا اقترفته، أما من ناحيتى، فلا تخش شيئًا. سوف أعُدُّ ما سمعته منك مزاحًا ثقيلاً، ولن أحدِّث به أحدًا أبدًا.*

أمضيتُ ليلةً ليلاء، تنازعتنى فيها كُلُّ متناقضات الأفكار: هل أنسى أننى رأيتُ الأستاذة، وأحصرُ هَمِّى فيما جئت من أجله، ثم أعود إلى بلادى الأولى سالمًا غانمًا؟ أم أهجر الكنيسة للأبد؟.. هل أخرجُ غدًا صباحًا، ولا أعود قط؟.. لستُ على كل حال معتقلاً بين هذه الجدران. ما معنى بقائى هنا؟ لقد بدأ المسيحُ يسوع بشارته العظمى بين الناس، لا وسط الجدران والرهبان والقسوس. كانت حوله حياةٌ حقيقية، فلماذا نموت نحن قبل أن نموت!.. ولكن، أنا آمنٌ فى الكنيسة، بعدما كنتُ مشرَّدًا. ورجالُ الديانة هم أهلى الحقيقيون، ولا عائلة دنيويةً لى، إلا عمى الذى أنهك العَاعُ كبده، ولا أظنه يبقى حيًا إلى حين عودتى. لمن أعود إذا رجعت إلى بلادى الأولى؟.. وما بلادى الأولى؟ أهى قرية عمى الذى ينتظر الموت؟ أم قرية أبى التى لن يعرفنى فيها أحد؟ أم القرية التى استقرت فيها أمى؟ أمى التى

تنام كل ليلة، فى حضن رجلٍ آثمة يداه. إننى أكرهه وأكرهها. الكراهيةُ ستقتلنى، أنا الذى يجب عليه أن يحب أعداءه، ويُحسن لمن أساء إليه، كى يكون مسيحيًا حقًا، ومحبًا حقًا.. لم أرَ المحبة الحقة، إلا فى امرأةٍ وثنيةٍ لقيتنى صدفةً على شاطئ البحر، وأدخلتنى جَنَّتها ثلاثَ ليالٍ سويًا، وأربعةَ أيام لا تُنسى.. لو عدت إلى أوكتافيا ثانيةً، هل ستقبلنى، أم تصفعنى ثانيةً بالوضاعة والحقارة؟ إنها المرة الأولى التى يشتمنى فيها إنسان، وسوف أحرص أن تكون الأخيرة. لن يجرؤ على شتمى أحدٌ، مادمت راهبًا فى الكنيسة العظمى. وربما ارتقيتُ سلم الأكليروس، حتى أصير يومًا أسقفًا لإحدى المدن الكبيرة.. ولكن، ماذا أريدُ من رتبة الأسقفية؟ هل ستُغنينى عن حلمى بالنبوغ فى الطب، وأملى فى علاج العاع [1]؟ هل سأترك الأمنيات الدنيوية تقودنى، بعدما وعدتُ عمى الميت عن قريب، أن أهب حياتى ليسوع المخلِّص؟ لن يصحّ مِنّى هذا، وسأفقد معه معنى وجودى.. ماذا لو عرضتُ على هيباتيا غدًا، أن أعيش فى بيتها لأخدمها، وأتعلّم منها. ستوافق! وسوف تساعدنى على دراسة الطب فى الموسيون (المعهد العلمى) فأكون طبيبًا نابهًا خلال عامين فقط، فقد درست من الطب الكثير فى أخميم، ولاينقصنى من بحره الواسع إلا علم التشريح، وأطباء الموسيون هم الذين يشرِّحون منذ مئات السنين، وعندهم كل أسرار الطب.. كنتُ ليلتها أقول ذلك فى نفسى، ولم أكن قد عرفت بَعْدُ أن الموسيون أُغلق قبلها بسنين!

لم تتوقّف برأسى ليلتها طاحونةُ الأفكار المتناقضات، بل كادت تطحن مع الأفكار قلبى وتتلف روحى. رحتُ أقول فى نفسى: لو خرجتُ من الكنيسة، وخرجتُ عليها بعدما عرفونى، فسوف يعدُّوننى مارقًا، ويعصفون بى مثلما عصفوا بالذين ارتدوا عن الديانة أيام الإمبراطور جوليان. والمسيحية اليوم، هى الدين الرسمى للإمبراطورية كلها. لن أنجو من وشايات الجماعة الرهيبة المسماة محبى الآلام، وسوف ألقى بسببهم مصير أبى، ويسعدون هم مثلما سعدتْ أمى.. ولكنى أتحرَّق شوقًا لرؤية هيباتيا غدًا، ولسوف أناقشها فى المسائل الفلسفية، فيزداد تقديرها لى، وهى على كل حال تقدِّر كل إنسانٍ. إنها مصداقٌ لمعنى اسمها هيباتيا فى اللغة اليونانية: السامية.. هى تكبرنى بعشر سنوات فقط أو خمسة عشر عامًا، وهو فارقٌ ليس بالكبير! فلتتخذنى ابنًا لها أو أخًا أصغر، أو يأتى يوم فتحبنى، ويكون الحال بيننا مثلما ذكرت أوكتافيا من أن النساء اللواتى أحببن رجالاً أصغر منهن سنًا، جعلن منهم أسعد السعداء.. ولكن، لاسعادة ولا غبطة فى هذا العالم.

أفقتُ من جَوَلان أفكارى على صوت الأجراس تدعو لخطبة الأسقف كِيرُلُّس، فخرجتُ مع الخارجين من صوامعهم، وانحشرتُ مع مئات الداخلين إلى الكنيسة. الساحة الداخلية امتلأت، فلم تعد هناك أصلاً فرصةٌ للخروج، ولا للحركة من الموضع الذى كنت محشورًا فيه، بين الرهبان والقسوس والشمامسة وقُرَّاء الإنجيل والموعوظين الكبار والصغار، والمصارعين القدامى الذين صاروا مؤمنين، وأفراد جماعة محبى الآلام، وأبناءُ التائبين المنخرطين فى سلك الديانة، وأتباع الأخوة طوال القامة الحائرين، وجماعات من رهبان أديرة وادى النطرون.. كنتُ محاطًا من كل الجهات، بجيش الرب. هتافهم المزلزل الذى يملأ الساحة ويهزُّ الجدران، يُنبئ عن قُرب نبأٍ عظيم وحدثٍ جلل.. لما بلغ الهتاف غايته القصوى، وكادت الحناجرُ تتشرَّخ، أطلَّ علينا الأسقف كِيرُلُّس من مقصورته.

هيئةُ الأسقف المهيبة أثارت استغرابى، وهيَّجت حيرتى. كانت المرة

---

(١) العاع المذكور فى هذا الرَّقِّ، مرتين، هو على الأرجح الاسم المصرى القديم، للمرض الذى صرنا نعرفه فى العصر الحديث باسم البلهارسيا.. (المترجم).

الأولى التى أراه فيها، وقد ظللتُ بعدها أراه صباح كل يوم أحد، لمدة عامين أو ثلاثة من دون استثناء، ورأيته أيضًا يوم اللقاء الخاص الذى سوف أذكره إن جاءت مناسبةٌ للكلام عنه.. لما رأيتُ الأسقف أول مرة، استغربتُ واحترتُ؛ لأنه أطلَّ علينا من مقصورةٍ مُذهَّبة الجدار بالكامل، هى شرفةٌ واحدةٌ، فوقها صليبٌ ضخمٌ من الخشب، معلقٌ عليه تمثال يسوع المصنوع من الجصِّ الملوَّن. من جبهة المسيح المصلوب ويديه وقدميه، تتساقط الدماءُ الملوَّنة بالأحمر القانى.

نظرتُ إلى الثوب الممزَّق فى تمثال يسوع، ثم إلى الرداء الموشَّى للأسقف! ملابسُ يسوع أسمالٌ باليةٌ ممزقةٌ عن صدره ومعظم أعضائه، وملابسُ الأسقف محلاةٌ بخيوط ذهبية تُغطيه كله، وبالكاد تُظهر وجهه. يَدُ يسوع فارغة من حطام دُنيانا، وفى يد الأسقف صولجان أظنه، من شِدَّةِ بريقه، مصنوعًا من الذهب الخالص. فوق رأس يسوع أشواكُ تاج الآلام، وعلى رأس الأسقف تاجُ الأسقفيةِ الذهبيُّ البرَّاق.. بدا لى يسوع مستسلمًا وهو يقبل تضحيته بنفسه على صليب الفداء، وبدا لى كِيرُلُّس مقبلاً على الإمساك بأطراف السماوات والأرض.

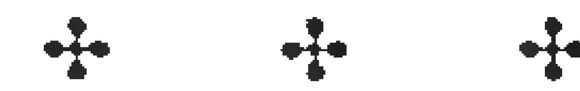
نظر الأسقفُ فى شعبه ورعاياه، وأجال عينيه فى الحشد الذى انحشر فى ساحة الكنيسة، فهدأوا. رفع صولجانه الذهبى، فصمتوا. ثم تكلم فقال: *يا أبناء المسيح، باسم الإله الحى أبارك يومكم هذا، وكل أيامكم. وأبدأ كلامى بالحق الذى تكلَّم به بولس الرسول فى رسالته الثانية إلى تيموثاوس، حيث يقول له، ولكلِّ مسيحىٍّ فى كل زمان ومكان: احتمل المشقات كجندى صالح للمسيح يسوع، فالذى يتجنَّد لا ينشغل بهموم الحياة حتى يُرضى الذى جَنَّده، والمجنَّد لن ينال إكليل النصر حتى يُجاهد الجهاد الشرعى.*

ظننتُ لوهلةٍ أن الأسقف يقصدنى بكلامه، وأن هذه واحدة من معجزاته الخفية.. أضاف وقد علا صوته، حتى جلجل فى جوانب الكنيسة المهيبة: *أبدأُ بهذا، لأذكِّركم بأننا نعيش زمن الفتن، ومن ثم فنحنُ فى زمن الجهاد. لقد انتشر نورُ المسيح حتى يكاد اليوم يغطى الأرض، ويُبدد ظلامها الذى طال زمانه.. غير أن الظلمات مازالت تعشِّش هنا وهناك، وتطلُّ على أرض الله بوجه الفتن والهرطقات التى تنخر فى قلوب الناس.. ولن يهدأ جهادُنا لها، مادمنا أحياءً.. لقد وهبنا أنفسنا لربنا يسوع المسيح، فلنكن جنود الحق الذين لا يرضون إلا بإكليل النُّصرة السماوية، ولنكن المخلصين لدين المخلِّص، حتى نلحق بالشهداء والقديسين، الذين عبروا الدنيا ليلحقوا بالمجد السماوى والحياة الأبدية.*

لمحتُ عيونًا كثيرة انهمر منها الدمعُ، ووجوهًا عديدة كاد الحماس يفجِّرها. كانت كل العيون شاخصةً إلى الأسقف كِيرُلُّس الذى ملك بكلامه أطرافَ القلوب وملأ جنباتِ الصدور. كانت ألفاظه اليونانية قويةً بليغةً، فكأنه ينطق بلسان الرسل وأفئدة الآباء الأولين. تهتُ بين أفكارى، وسرحتُ فى آفاقٍ بعيدة، حتى انتبهتُ ثانيةً إليه وهو يقول: *فهؤلاء الذين يسمُّون أنفسهم بالأخوة طوال القامة، لن نعاود النظر فى أمرهم الذى انحسم، ولن نخوض فى جدلٍ هرطوقىٍّ جديد، من أجل البحث فى صحة معتقد صاحبهم أوريجين، بعدما أدانه البابا ثيوفيلوس أسقف هذه المدينة العظمى، من قبل انتقاله إلى الملكوت الأعلى بثلاثة عشر عامًا. لن أعيد عليكم قرارت المجمع المقدَّس لكنيسة الإسكندرية، الذى أدان أوريجين سنة خمس وثلاثين ومائة من تاريخ الشهداء، الموافقة لسنة تسع وتسعين وثلاثمائة لتجسُّد المسيح. ولن أعيد عليكم قرارات المجامع التالية التى أكَّدت إدانة أوريجين وطرده وحَرْمه، فهى مجامعُ كثيرةٌ انعقدت فى أورشليم، وقبرص، وروما. لن أعيد قراءة القرارت التى اتخذها الآباءُ الفضلاءُ فى تلك المجامع، فهى قراراتٌ مشهورةٌ متداولة. فليقرأها مَنْ*

كان يقرأ، ومَنْ لا يقرأ فليذهب لمكتبة الكنيسة، ويطلب من أحد الآباء أن يقرأها له. ولكننى أقول اليوم، إننى لن أسمح بمعاودة النظر فى عقيدة فيلسوفٍ مات منذ قرن ونصف من الزمان، فيلسوفٍ اشتغل باللاهوت، فأخطأ وضَلَّ وهرطق، فيلسوفٍ لم تصحّ رسامته قسًّا. فليهدأ أتباعه طوال القامة[1]*، ويتواضعوا كما تواضع يسوع المسيح. وليكفوا بقاماتهم الطويلة المترنِّحة بالشكوك، عن التطواف بين البلاد وعن إثارة القلاقل والهواجس الهرطوقية المهدِّدة للإيمان القويم.. الإيمان القويم الذى نذرنا حياتنا للدفاع عنه، كجنود صالحين للمسيح يسوع.*

فجأة صاح أحدُ الواقفين، بصوتٍ أجش، حتى كادت حنجرته تنخلع مع زعيقه: *مباركٌ أنتَ من السماء، أيها البابا، ومباركةٌ كلماتك باسم الإله الحى*.. وراح يردِّد العبارة نفسها، حتى ردَّدها من خلفه سائرُ الحاضرين. كاد الحماسُ يذهب عقول الناس، وكان هتافهم للبابا كِيرُلُّس يرجُّ جدران الكنيسة.. رسم البابا فى الهواء علامة الصليب، ورفع للجمهور صولجانه مرتين، فانفجر حماسُهم الجنونى. بعضهم غُشى عليه فسقط بين الجموع، وبعضهم راح بدنه يهتزُّ مع هتافه، وبعضهم أغمض عينيه المنهمرتين بالدمع. استدار الأسقف أو البابا كما يسمونه فى الإسكندرية، وغاب وراء باب مقصورته وسط جمع من كبار القسوس، الممسكين بصلبانٍ لم أرَ قبلها أكبر منها.

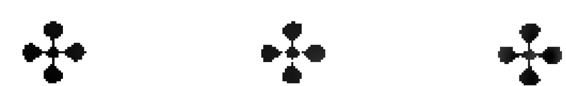


(١) فى طرف الرَّقِّ، كُتب باللغة العربية: *هم أربعةُ رهبان، أخوةٌ، كانوا ينتصرون لأوريجين ويعدونه قديسًا. وكانت قامة الرهبان الأخوة الأربعة طويلة، فعُرفوا لذلك بالأخوة طوال القامة. وقد طافوا البلاد للدعوة لمذهبهم بعدما طردتهم الإسكندرية، فصار لهم أتباع يمجدون أوريجين ويقدِّسونه.*

مضت علىَّ الأيامُ فى الكنيسة المرقسية رتيبةً، باستثناء أيام الآحاد الصاخبة. أسلمت نفسى، شيئًا فشيئًا، إلى مشيئة الرب. وكان القَسّ يوأنَّس يرعانى من بعيد، ويوصينى دومًا بأن أتجنَّب الاندماج مع الرهبان الإسكندرانيين، خاصةً، الذين يسمون أنفسهم جماعة محبى الآلام.. كان منهم راهبٌ طاعنٌ فى السِّنِّ، يرهبونه كثيرًا، عرفتُ بعد شهور سِرَّ نفورى من نظرته القاسية. الراهبُ المسنُّ أصله من الصعيد، ومع ذلك لم يكن يحب الوافدين إلى الإسكندرية من هناك! لقينى ذات يوم فى ساحة الكنيسة، وكان قد مَرَّ على وجودى هناك قرابة العام. دعانى إليه بإشارةٍ من عصاه التى تتكئ عليها سنواته السبعون، ولما اقتربت منه قال لى هامسًا: *عُدْ سريعًا إلى بلدتك، فالإسكندريةُ ليست مكانك!* كان صوته أقرب لفحيح الأفاعى، وكانت لهجته لاذعةً كلسع العقارب. لم أفهم إشارته، وقد نصحنى القَسّ يوأنَّس لما أخبرته بالأمر، بالابتعاد عنه. بعدها بأيام أخبرنى خادم المضيفة بسرٍّ دفين، قال بعدما تلفَّتَ حوله: *هذا الراهبُ المسنُّ، محبُّ الآلام، هو أحدُ أبطال الكنيسة! فقد كان فى شبابه واحدًا من الجماعة الذين فتكوا بأسقف الإسكندرية جورج الكبادوكى ومَزَّقوه بالسواطير فى شوارع الحى الشرقى*.. أضاف الخادم هامسًا، بعدما تلفَّت ثانيةً: *جرى ذلك قبل ثمانٍ وأربعين سنة، فى العام السابع والسبعين للشهداء!* يقصد سنة إحدى وستين وثلاثمائة للميلاد.. سألته:

ـ ولماذا فعلوا ذلك بأسقف المدينة؟

ـ لأنه كان مفروضًا علينا من روما، وكان مارقًا يميل إلى آراء آريوس الملعون.



فى الأعوام الرتيبة التى قضيتها بالإسكندرية، كنتُ أحضر دروس الطب واللاهوت بانتظام. واشتهرتُ بين أهل الكنيسة بكثرة الصلاة وقلة الكلام، فحسن اعتقادهم فى صلاحى وورعى.. ومع كَرِّ الأيام والشهور، نسيتُ ما كان من أمر أيامى الأولى بالمدينة، ولم أعد أسمع أخبارًا عن هيباتيا، ولا عن غيرها. حتى جاءت تلك الأيامُ العصيبة من شهور سنة خمس عشرة وأربعمائة للميلاد المجيد، إذ سَرَتْ أولاً بين رجال الكنيسة، همهماتٌ عن احتدام الخلاف بين البابا كِيرُلُّس وحاكم الإسكندرية أورستوس. ثم شاعت أخبارٌ كثيرةٌ عن اعتراض جماعة من شعب الكنيسة، المؤمنين، طريقَ الحاكم أوريستوس، ورجمهم له بالحجارة. مع أنه فى الأصل رجلٌ مسيحىٌّ، ومعروفٌ أن عماده أيام شبابه، كان فى أنطاكية على يد يوحنا فم الذهب.. ومع أن يسوع المسيح فى بدء بشارته، نهى اليهود عن رجم العاهرة، فى الواقعة المشهورة التى قال فيها: *مَنْ كان منكم بلا خطية، فليرجمها بحجر.*

غير أن هذا الخلاف الثائر بين الأسقف والحاكم، لم يكن أيامها يعنينى فى شىء! ومن ثم، انشغلت عنه بهمومى اليومية وصلواتى ودروسى المملَّة، فلم أحرص على التقاط الهمهمات أو تتبُّع الأخبار.. حتى بدأ اسم هيباتيا يجرى على الألسنة فى أكثر الجلسات. كنتُ أظن أننى نسيتها تمامًا، ثم وجدتنى كلما سمعت اسمها، أضطربُ ويخفق قلبى لذكرها.

تاقت نفسى لمعرفة ما يدور وراء أسوار الكنيسة، فتتبعتُ الحكايات ومحدثات الأمور. بدأتُ بسؤال القَسّ يوأنّس الذى نهرنى، وأمرنى بعدم الانشغال بغير ما جئت من أجله. بعد أيام عاودتُ سؤاله بلطفٍ، فنصحنى بالابتعاد عن الموضوع، والاهتمام بما أنا موجودٌ فى الكنيسة من أجله. سألتُ غيره، فلم أهتد منهم إلى خبرٍ يطمئن له قلبى.. غير أننى تأكَّدت من همهمات الخدم الذين يتردَّدون بين المدينة والكنيسة، أن كراهية البابا لهيباتيا كانت قد بلغت المدى. كانوا يقولون إن الحاكم أوريستوس طرد رجلاً مسيحيًا من مجلسه، فغضب البابا. ويقولون إن الحاكم يعارض ما يريده البابا من طرد اليهود بعيدًا عن الإسكندرية، بعدما طردهم الأسقف ثيوفيلوس إلى رَبْع اليهود الكائن بالجهة الشرقية، وراء الأسوار. ويقولون إن الحاكم كان يُفترض فيه أن يصير نصيرًا لأهلِ ديانتنا، إلا أن الشيطانة هيباتيا تدعوه إلى غير ذلك. ويقولون إنها تشتغل بالسحر، وتصنعُ الآلات الفلكية لأهل التنجيم والمشعوذين.. قالوا أشياء كثيرة، لم يطمئن إليها قلبى.

مرت الأيام مترعةً بالتوتر، حتى كان يوم الأحد المشؤوم. المشؤوم بكلِ ما فى الكلمة من معنى عميق.. ففى صبيحة ذاك اليوم، خرج البابا كِيرُلُّس إلى مقصورته ليلقى على الجموع عظته الأسبوعية، وكان على هيئته الحزنُ. لم ينظر إلى مستمعيه فرحًا بشعبه كعادته، وإنما أطرق لحظةً طويلة، ثم أسند صولجانه الذهبى إلى جدار المقصورة، ورفع يديه إلى السماء حتى انسدلت أكمامه الواسعة وبدت ذراعاه النحيلتان. انشرعت أصابعه فى الهواء، فكأنها أطراف المذراة.. وبصوت جهيرٍ هادرٍ، راح يقرأ الصلاة المذكورة فى إنجيل متى: *أبانا الذى فى السماوات، ليتقدَّس اسمُك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئك فى السماء، وكذلك فى الأرض..*

أخذ الأسقفُ يعيد الصلاة، حتى أخذ الناسَ النشيجُ وهم يردِّدون الدعاء وراءه.. ثم صار صوته ناريًا متأججًا وهو يقول لهم: *يا أبناء الله، يا أحباء يسوع الحى، إن مدينتكم هذه، هى مدينةُ الرَّبِّ العظمى. فيها استقر مُرقس الرسول، وعلى أرضها عاش الآباء، وسالت دماءُ الشهداء، وقامت دعائم الديانة. ولقد طَهَّرناها من اليهود، المطرودين. أعاننا الرَّبُّ على طردهم، وتطهير مدينته منهم. ولكن أذيال الوثنيين الأنجاس، مازالت تثير غبار الفتن فى ديارنا. إنهم يعيثون حولنا فسادًا وهرطقةً، يخوضون فى أسرار كنيستنا مستهزئين، ويسخرون مما لا يعرفون، ويلعبون فى*

مواطن الجد ليشوهوا إيمانكم القويم. يريدون إعادة بيت الأوثان الكبير الذى انهدم على رؤوسهم قبل سنين، ويودون تعمير مدرستهم المهجورة التى كانت تبثُّ الضلال فى العقول، ويفكِّرون فى إعادة اليهود من الرَّبع الذى سكنوه إلى داخل أسوار مدينتكم. لكن الرَّبَّ، ياجند الرَّبِّ، لن يرضى بذلك أبدًا. ولسوف يُحبط مساعيهم الدنيئة، وسوف يبدِّدُ أحلامهم المريضة، وسوف يرفع قَدْر هذه المدينة العظمى، بأيديكم أنتم. مادمتم بحقٍّ، جنودَ الرب. مادمتم بحقٍّ، جنود الحق.. لقد صدق ربنا يسوع المسيح، حين نطق بلسانٍ من نورٍ، فقال: الحقُّ يطهِّركم! فتطهَّروا يا أبناء الرب، وطهِّروا أرضكم من دنس أهل الأوثان. اقطعوا ألسنة الناطقين بالشَّرِّ. ألقوهم مع معاصيهم فى البحر، واغسلوا الآثام الجسيمة. اتَّبعوا كلمات المخلِّص، كلمات الحق، كلمات الرَّبِّ. واعلموا أن ربنا المسيح يسوع، كان يحدثنا نحن أبناءه فى كل زمان، لما قال: ماجئتُ لأُلقى فى الأرض سلامًا، بل سيفًا!

اهتزت الجموعُ مهتاجةً، حتى كاد اهتياجُها يبلغ الغاية.. وراح كِيرُلُّس يكرِّر بهديره الحماسيِّ الآسر، قول يسوع المسيح: *ماجئتُ لأُلقى فى الأرض سلامًا، بل سيفًا!* فيزداد هياجُ الجموع، ويقارب بحدَّته حدود الجنون. بدأ الناس يردِّدون وراءه العبارة، ولم يكفوا إلا حين قَطَعَ الترداد بصرخةٍ كالرعد، ذلك الضخمُ المعتادُ على إنهاء خطب يوم الأحد النارية، أعنى بطرس قارئ الإنجيل بكنيسة قيصرون الذى انفجر من بين الجموع قائلاً: *بعون السماء، سوف نطهِّر أرض الرب من أعوان الشيطان.* سكت الأسقف، فسكن الناسُ إلا بطرس القارئ.. ثم أخذ بعضهم يعيد وراءه عبارته، وأضاف إليها أحدهم الترنيمة المرعبة: *بسم الإله الحى سنهدم بيت الأوثان، ونبنى بيتًا جديدًا للرب.. بعون السماء سوف نطهر أرض الربِّ من أعوان الشيطان.. بسم الإله الحى سنهدم بيت الأوثان..*

استدار الأسقفُ، فتناول صولجانه، ورفعه فى الهواء ليرسم به علامة الصليب، فاجتاح الكنيسة هوسُ الجموع.. تداخلت الهتافاتُ واصطخبت، عَمَتِ العقولُ، وعمَّتِ القلوب فوضى منذرةٌ بحادثٍ جسيم. كان بطرس القارئ أول مَنْ تحرَّك نحو الباب، ثم تحرَّك من خلفه الناس جماعاتٍ وهم يرددون عبارته الجديدة: *بعون السماء سوف نطِّهر أرض الرَّبِّ.*

كادتْ ساحةُ الكنيسة تخلو، وكانت أصواتُ الهاتفين وراء بطرس القارئ تأتى من خارج الأسوار. دخل الأسقفُ من شرفته ووراءه القسوس، ولم أدرِ ساعتها إلى أين أذهب؟ هل أعود لصومعتى وأغلق بابى علىَّ، مثلما أفعل دومًا؟ أم أظل فى ساحة الكنيسة، حتى يظهر ما سوف يظهر من مشيئة الرب؟ أم أخرج وراء الجموع؟.. ومن دون تدبيرٍ منى، أو بتدبيرٍ خفىٍّ عنى، خرجتُ مدفوعًا بتوجُّسى خلف الجموع، فلحقت بهم. ولكننى بالطبع، لم أكن أردِّد وراءهم ما يقولون.

اتجه بطرس قائدُ الجموع إلى الشارع الكانوبى الكبير، ومن خلفه سار مئاتُ الهاتفين. كانت شمسُ الظهيرة مُتَّقدةً، والرطوبةُ العالية تخنق الأنفاس. البيوتُ ارتجَّت مع حركة المؤمنين ومن علو الهتافات، كان بعضها مغلقَ النوافذ والأبواب، وبعضها يقف ساكنوه على سطحه يلوِّحون بالصلبان.. ثار غبار الطرقات، وهربت الملائكة الرحيمة من السماء، وحَدَّثنى قلبى بقرب وقوع حَدَثٍ مروع. كنتُ أسيرُ مأخوذا بما يجرى من حولى، وكأننى أعيش واحدةً من رؤى سفر حبقوق المنذرةِ بفناء العالم وزوال الدنيا.

بعد حينٍ، تناقص الهاتفون المهلِّلون، وتفرَّقوا فى الطرقات مع طول الجولان فى أنحاء المدينة. صاروا عشرات موَّزعة فى الشوارع، وساروا

يردِّدون الهتافات ذاتها.. فى لحظةٍ ما، اعتقدتُ أن غرض هذا الصخب، تبيانُ أن المسيحيين هم الأظهرُ والأقوى بالمدينة. هى إذن، رسالةٌ ضمنيةٌ إلى الحاكم، وتنبيهٌ صريحٌ لكل السكان. ولكن الأمر انقلب إلى ماهو أعمق من ذلك، وأبعد، وأبشع.

شمسُ الظهيرة حَمَّ شعاعُها، وازدادتْ رطوبةُ الهواء حتى ثقلت علىَّ أنفاسى اللاهثة وراء الجماعة الهاتفة الباقية وراء بطرس القارئ. كدتُ أستدير راجعًا إلى أسوار الكنيسة، إلى حصنى الحصين، لولا أننى انتبهت إلى ذلك الرجل النحيل، طويل الرأس، الذى جاء من أقصى الشارع يجرى، وهو يصيح لبطرس والذين معه:

ـ الكافرةُ ركبتْ عربتها، ولا حُرَّاس معها.

خفق قلبى بشدة، واعترانى فزعٌ مفاجئ لما رأيتُ بطرس يجرى وهو يصرخُ، نحو الجهة التى أشار إليها الرجل ذو الرأس الطويل، وتبعه الآخرون. جريتُ خلفهم، وليتنى ما فعلتُ.. عند الكنيسة الصغيرة التى فى منتصف الشارع الواسع المؤدى من المسرح الكبير إلى الميناء الشرقى، بدت من بعيدٍ عربة هيباتيا ذات الحصانين، العربة ذاتها التى رأيتها تركبها، وترحلُ بها عنى، قبلها بثلاثة أعوام.. العربةُ هى هى، والحصانانِ هما هما، أنا وحدى الذى ما كنتُ أنا. بطرسُ القارئ انطلق ببدنه الضخم ليلحق بالعربة وهو يصرخ، ويصرخ وراءه أتباعه بألفاظٍ غير مفهومة. قبل أن يصل إليها، بأمتارٍ، وقف فجأةً وتلفَّت؛ فاندفع إلى ناحيته أحدهم وهو يصيح صيحةً هائلة ويُخرج من تحت ردائه الكنسى سكينًا طويلاً.. صدئًا.. أيضًا.. السكين..

✣ ✣ ✣

لن أكتب حرفًا واحدًا.. لا..

✣ ✣ ✣

يارب. شُلَّ يدى.. خذنى إليك.. ارحمنى..

✣ ✣ ✣

سأمزقُ الرقوق، سأغسلها بالماء.. وسوف..

ـ اكتبْ يا هيبا، اكتبْ باسم الحقِّ المختزن فيك.

ـ يا عزازيل.. لا أقدر.

ـ اكتبْ ولا تجبُن، فالذى رأيته بعينك لن يكتبه أحدٌ غيرك، ولن يعرفه أحدٌ لو أخفيته.

ـ حكيته لنسطور فى أورشليم، قبل سنين.

ـ ياهيبا، حكيتَ يومها بعضًا منه؛ فاكتبه اليوم كاملاً، اكتبه الآن كله.

✣ ✣ ✣

آه.. لما التقط بطرسُ السكين الطويلة الصدئة، رآه سائقُ عربة هيباتيا، فقفز كالجرذان وجرى متواريًا بين جدران البيوت. كان بإمكان السائق أن يُسرع بحصانيه فى الشارع الكبير، وما كان لأحدٍ أن يلحق بالعربة. لكنه هرب، ولم يحاول أحدهم أن يلحق به! ظل الحصانان يسيران مُرتبكين، حتى أوقفهما بطرس بذراعه الملوِّحة بالسكين.. أطَلَّت هيباتيا برأسها الملكى من شُبَّاك العربة، كانت عيناها فزعةً مما تراه حولها. انعقد حاجباها، وكادت تقول شيئًا، لولا أن بطرس زعق فيها: *جئناك يا عاهرة، يا عدوَّة الرَّبِّ*.

امتدتْ نحوها يدُهُ الناهشةُ وأيدٍ أخرى، ناهشةٌ أيضًا، حتى صارت كأنها ترتقى نحو السحاب فوق أذرعهم المشرعة. وبدأ الرعبُ فى وضح النهار.

الأيادى الممدودة كالنصال، منها ما فتح باب العربة، ومنها ما شدَّ ذيل الثوب الحريرى، ومنها ما جذب هيباتيا من ذراعها فألقاها على الأرض. انفلت شعرُها الطويل الذى كان ملفوفًا كالتاج فوق رأسها، فأنشب فيه بطرس أصابعه، ولوى الخصلات حول معصمه، فصرختْ، فصاح: *باسم الرَّبِّ، سوف نطهِّر أرض الرَّبِّ*..

سحبها بطرسُ من شعرها إلى وسط الشارع، وحوله أتباعه من جُند الربِّ يهلِّلون. حاولت هيباتيا أن تقوم، فرفسها أحدهم فى جنبها، فتكوَّمت، ولم تقو على الصراخ. أعادها بطرس إلى تمدُّدها على الأرض، بجذبةٍ قويةٍ من يده الممسكة بشعرها الطويل. الجذبة القوية انتزعت خصلات من شعرها، فرماها، نفضها من يده، ودَسَّ السكين فى الزُّنَّار الملفوف حول وسطه، وأمسك شعرها بكلتا قبضتيه، وسحبها خلفه.. ومن خلفه أخذ جُندُ الرَّبِّ يهتفون هتافه، ويهلِّلون له وهو يجرُّ ذبيحته.

كنتُ لحظتها واقفًا على رصيف الشارع، مثل مسمارٍ صدئ. لما وصلوا قبالتى، نظر بطرس ناحيتى بوجه ضبع ضخم، وتهلل وهو يقول: *أيها الراهب المبارك، اليومَ نطهر أرض الرَّبِّ*.. وبينما هى تتأرجح من ورائه على الأرض، تقلَّبت هيباتيا، استدار وجهها نحو موضعى. نظرت إلىَّ بعينٍ مصعوقة، ووجهٍ تكاد الدماءُ منه تنفجر. حدقت فىَّ لحظتها، فأدركتُ أنها عرفتنى، مع أننى كنتُ فى الزِّىِّ الكنسى! مدَّت ذراعيها ناحيتى، وصاحتْ مستصرخةً بى: *يا أخى*.. تقدمتُ إلى منتصف الشارع خطوتين، حتى كادت أصابعى تلمس أطراف أصابعها الممدودة نحوى. كان بطرس القارئ يلهثُ منتشيًا، وهو يمضى ناحية البحر ساحبًا غنيمته. وكان البقيةُ يتجمَّعون حول فريستهم، مثلما تجتمع الذئاب حول غزالٍ رضيع.. لما أوشكتْ أصابع هيباتيا أن تعلق بيدى الممدودة إليها، امتدت يدٌ نهشت كُمَّ ثوبها، فتطوَّحت كَفُّها بعيدًا عنى، وتمزَّق الثوبُ فى اليد

الناهشة، فرفعه الناهشُ ولَوَّح به، وهو يزعق بعبارة بطرس: *باسم الرَّبِّ، سوف نطهِّر*.. العبارة التى صارت يومها أنشودة للمجد الرخيص. من بعيدٍ، أقبلت امرأةٌ حاسرةُ الرأس، كانت تصرخ وهى تُقبل نحونا مسرعةً فزعةً، قائلةً:

ـ يا أختاه.. ياجنود الرومان.. أغثنا يا سيرابيس!

المرأة المسرعة نحونا كان ثوبها وشعرها يرفَّان وراءها، وكنا قد اقتربنا من ناحية البحر.. أقبلت المرأةُ تجرى نحو الجمع، حتى ارتمت فوق هيباتيا، ظانةً أنها بذلك سوف تحميها. فكان ما كان متوقَّعًا. اندستْ فيها الأذرع، فرفعتها عن هيباتيا، وألقتها بقوة إلى جانب الطريق. اصطدم رأسها بالرصيف، وانسحج وجهها، فتلطَّخ بالدم والتراب. حاولت المرأةُ أن تقوم، فضربها أحدهم على رأسها بخشبةٍ عتيةٍ، بأطرافها مسامير، فترنَّحت المرأةُ وسقطت من فورها على ظهرها، أمامى، والدم يتفجَّرُ من أنفها وفمها، ويلطِّخ ثوبها. عند سقوطها أمامى، صرختُ من هول المفاجأة.. فقد عرفتها.. هى لم تعرفنى، فقد كانت تنتفضُ وهى تلفظ آخر أنفاسها. وهكذا ماتت أوكتافيا، يوم الهول، تحت أقدامى، من دون أن ترانى.

رجعتُ خطواتٍ حتى التصق ظهرى بجدار بيتٍ قديم، لم أستطع انتزاع عينى عن جثة أوكتافيا التى أهاجتْ دماؤها الصخبَ، فاشتدت بجند الربِّ تلك الحمى التى تتملَّك الذئاب حين تُوقع صيدًا. صارت عيونهم الجاحظة مثل عيون المسعورين، وهاجت بواطنهم طلبًا لمزيدٍ من الدم والافتراس.. تجمعوا فوق هيباتيا، حين وقف بطرس ليلتقط أنفاسه. امتدت إلى يدها يدٌ مازعةٌ، ثم امتدت أيادٍ أخرى إلى صدر ردائها الحريرى الذى تهرَّأ، واتَّسخ بالدماء والتراب.. أمسكوا بإطار الثوب المطرَّز وشَدُّوا فلم ينخلع، وكاد بطرس يقع فوق هيباتيا من شِدَّةِ الشَّدَّة المباغتة، لكنه سرعان ما عاد واستعاد توازنه، ومضى يجرُّ ذبيحته، ومن ورائه انحنى أتباعه

محاولين اقتناص رداء هيباتيا.. هيباتيا.. أستاذة الزمان.. النقية.. القديسة.. الربة التى عانت آلام الشهيد، وفاقت بعذابها كل عذاب.

على ناصية الطريق الممتد بحذاء البحر، صاحت عجوزٌ شمطاء وهى تلوِّح بصليب: *اسْحِلوا العاهرة*.. وكأن العجوز نطقت بأمرٍ إلهى! توقف بطرس فجأة، وتوقف أتباعه لحظةً، ثم تصايحوا بصرخاتٍ مجلجلة.. تركتُ جثة أوكتافيا ورائى، ولحقتُ بهم مبهوتًا، آملاً أن تفلت هيباتيا من أيديهم، أو يأتى جنودُ الحاكم فيخلِّصوها منهم، أو تقع معجزة من السماء.. أو.. كنتُ غير بعيدٍ عنهم وغير قريب، فرأيتُ نتيجة ما أوحت به المرأة الشمطاء.. رأيتُ.. انهالتْ الأيدى على ثوب هيباتيا فمزَّعته.. الرداءُ الحريرى تنازعوه حتى انتزعوه عن جسمها، ومن بعده انتزعوا ما تحته من ملابس كانت تحيط بجسمها بإحكام. كانوا يلتذُّون بنهش القطع الداخلية ويصرخون، وكانت العجوزُ تصرخ فيهم كالمهووس: *اسحلوها*! وكانت هيباتيا تصرخ: *يا أهل الإسكندرية*! وكان البعيدون عن الوصول إلى جسمها، يصرخون: *العاهرة، الساحرة!*.. وحدى، أنا، كنتُ صامتًا.

صارت هيباتيا عاريةً تمامًا، ومتكوِّمةً حول عريها تمامًا، ويائسةً من الخلاص تمامًا، ومهانةً تمامًا.. لا أعرف من أين أتوا بالحبل الخشن الذى لفُّوه حول معصمها، وأرخوه لمترين أو ثلاثة، ثم راحوا يجرُّونها به وهى معلَّقةٌ من معصمها.. وهكذا عرفتُ يومها معنى كلمة السحل التى أوحت به المرأةُ إلى بطرس القارئ وأتباعه [1].

شوارعُ الإسكندرية تفترشها بلاطاتٌ حجرية متجاورة، تحمى الطرقات أيام الشتاء من توحُّل الأرض بسبب المطر. البلاطات متجاورة لكنها غير متلاحمة، وحوافها حادة بفعل طبيعتها الصلبة، فإذا جُرَّ عليها أىُّ شئ مزَّقته، وإن كان ذا قشرٍ قشَّرته، وإن كان إنسانًا كشطته.. وهكذا سحلوا هيباتيا المعلَّقة بحبلهم الخشن، الممددة على الأرض، حتى تسحَّج جلدها وتقرَّح لحمها.

وسط الصخور المتناثرة عند حافة الميناء الشرقى، خلف كنيسة قيصرون التى كانت فى السابق معبدًا، ثم صارت بيتًا للرب يقرأ فيه بطرس الإنجيل كل يوم! كانت هناك كومةٌ من أصداف البحر. لم أر أول مَنْ التقط منها واحدةً، وجاء بها نحو هيباتيا، فالذين رأيتهم كانوا كثيرين. كلهم أمسكوا الصدف، وانهالوا على فريستهم.. قشَّروا بالأصداف جلدها عن لحمها.. علا صراخُها حتى تردَّدت أصداؤه فى سماء العاصمة التعيسة، عاصمة الله العظمى، عاصمة الملح والقسوة.

الذئابُ انتزعوا الحبل من يد بطرس وهم يتصايحون، وجَرُّوا هيباتيا بعد ما صارت قطعةً، بل قطعًا، من اللحم الأحمر المتهرِّئ. عند بوابة المعبد المهجور الذى بطرف الحىِّ الملكى البرخيون ألقوها فوق كومةٍ كبيرة من قطع الخشب، وبعدما صارت جثةً هامدة.. ثم.. أشعلوا النار.. علا اللهبُ، وتطاير الشرر.. وسكتت صرخاتُ هيباتيا، بعدما بلغ نحيبها من فرط الألم، عنانَ السماء. عنانَ السماء، حيث كان الله والملائكة والشيطان يشاهدون ما يجرى ولايفعلان شيئًا.

ـ هيبا.. ما هذا الذى تكتبه؟

ـ اسكتْ يا عزازيل، اسكتْ يا ملعون.

---

(١) فى طرف الرق، مكتوب بالقلم العربى الدقيق: بطرس القارئ هذا، ارتقى بعد ذلك سُلَّم الأكليروس حتى صار أسقفًا، وقد اتخذ لنفسه الاسم الكنسى: مونجوس. هذا هو كل المكتوب بالحاشية، ولم أستطع التأكد من صحة هذه المعلومات.. (المترجم).

الرَّقُّ العاشرُ

التِّيــه

أتذكَّر جيدًا، وقفتى المتهالكة المخزية، أمام بوابة المعبد المهجور. كانت الجموع تنفضُّ، وألسنةُ اللهب تخبو عن الخشب المحيط بجثَّة هيباتيا وقد صار الباقى من جسدها، مثل بقية الأخشاب المحيطة بها، قطعةً من فحم أسود.

أفقتُ من ذهولى، على حيرتى فى مقصدى: هل أعود للكنيسة المرقسية التى كانت موئلى وملاذى فى الأعوام الثلاثة السابقة، فأشارك الأخوة هناك احتفالهم بنشوة الظفر والانتصار على آخر رموز الوثنية الغابرة، وأُعلن معهم الابتهاج باستعلان الديانة واستيلائها التام على المدينة؟ أم ألقى بنفسى على الجمر الباقى حول جسد هيباتيا، فأحتضنه، علَّنى أدركُ بقيةً من النار التى احترقت بها، فأموت معها متطهِّرًا من خنوعى الثانى؟.. يومَ قُتل أبى خنعتُ، لأننى كنت صغيرًا ولا حيلة لى. فلماذا خنعتُ عن إغاثة هيباتيا وقد مدَّت ذراعها نحوى؟ أوكتافيا حاولتْ حمايتها، واستجلبتْ عون إله الإسكندرية المدعو سيرابيس، فصارت جثةً ملقاةً على جانب الطريق، مكفَّنةً بدمائها الطاهرة. أبى لم يستغث بى، لكن هيباتيا فعلت.. المرأة الخاطئة لم تستغث بالمسيح يسوع، لكنه أغاثها من راجميها قساة القلوب.. وأنا، لم أُغِثْ شقيقة يسوع من أيدى إخوتى فى الديانة.. لكنهم ليسوا إخوتى.. أنا لستُ منهم، ولستُ منى.

شعرتُ بقلبى يسيل كماءٍ بين ضلوعى، ثم يصير هواءً. دارت برأسى السماءُ والبحرُ والبيوتُ والجمراتُ الباقية بمدخل المعبد المحترق، فسقطتُ مغشيًا علىَّ.. ولما أفقتُ من إغماءتى ساعةَ الغروب، مذعورًا، أخذنى بردٌ مرجفٌ لبدنى. كان صدر ثوبى مبللاً بماءٍ أخبرنى مَنْ حولى أنهم كانوا يرشونه علىَّ، لإفاقتى. كان حولى ثلاثةٌ: صبىٌّ يافعٌ، وامرأةٌ سوداء فى أواسط العمر، وراهبٌ متقدمٌ فى السن. تلفَّتُّ حولى، فوجدتنى مُسَجَّى أمام بيت صغير، فى الشارع الممتد من كنيسة قيصرون إلى المعبد الذى احترق. لم أسأل كيف حملونى إلى هناك. قمتُ مترنحًا، فصدعتْ رأسى حين وقفتُ، أصداءُ صرخات هيباتيا التى كانت لم تزل تملأ سمائى وتختلط بأمواج البحر القريب، البحر الذى اعتقدتُ يومًا أن الحياة ابتدأت منه، ثم عرفتُ أنه منتهى الأشياء كلها.. وسوف يأتى زمانٌ، يغطى فيه البحرُ المِلحىُّ العالمَ كله، فيموت اللونُ الأخضرُ وتختفى الحياة.

حاول الراهبُ والصبىُّ أن يسندانى، فأبعدتُ عنى ذراعيهما. بعد كبوتين، اجتهدتُ حتى وقفتُ منتصبًا. بيدى اليسرى أمسكت الصليب المعلق فوق صدرى وانتزعته، فانقطع الخيطُ الذى كان يلفُّه حول عنقى. ارتاع الراهبُ والصبىُّ، وأجهشت المرأةُ. أحسستُ براحةٍ مفاجئةٍ حين انتزعتُ الصليب عن عُنقى، وتركته يسقط على الأرض وسط ذهول الثلاثة. الراهبُ انحنى فالتقطه، والصبى تراجع خطوتين نحو الجدار، والمرأة انتحبت.. ومضيتُ مبتعدًا عنهم، فارًّا منهم، ومن كل شئ.

قادتنى خُطاى إلى الشارع الكانوبى، فقطعته بطوله متجهًا ناحية الشرق، من دون أن أدرى سببًا لسيرى فى ذاك الاتجاه. كنتُ هائمًا بلا تدبيرٍ،

وبلا تدبُّر لمسعاى. لم ألتفت لشئ فى طريقى، حتى خرجتُ من بوابة الشمس ساعة المغيب.. فور خروجى من البوابة، شققتُ رداء الرهبان عن صدرى، فتهدَّل على جانبىَّ. مررت من رَبْع اليهود الممتدة بيوته عند السور الشرقى. كانت كلابهم تنبح خلفى، وتكاد تأخذ بردائى المتهدِّل ورائى، وكان الليل ثقيلَ السواد.

لم أجد أحدًا فى طريقى، لا من اليهود ولا من غيرهم، فكأن الكون قد خلا تمامًا عن الحسيس والأنيس، عن الإنس والجن والملائكة والشياطين. وكان الربُّ غائبًا عنى، أو كان يستريح من خلق جديد، صنعه فى ستة أيامٍ أخرى. كنتُ وحدى أجوس بين الطين، والرمال، وأطراف البحر والبحَيرات، والأرض السبخة.. مبتعدًا عن الإسكندرية.

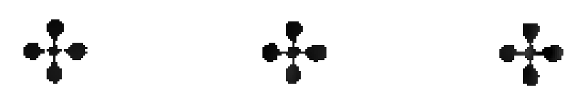
فى منتصف الليل وصلت قرية كانوب، ولم أدخلها كيلا أرى أحدًا، أو يرانى أحد. فى الصباح الباكر عبرت الفرع الكانوبى من النيل، فى عَبَّارةٍ خشبيةٍ متهالكةِ الأركان، بمجدافين، كان حولى فلاحون وماعز وزكائب فيها غلال. لم يسألنى صاحب القاربِ العابر بين الضفتين عن أجر، وواصلتُ السير شرقًا.. لا أتذكرُ مامررت بأطرافه من قرى وحقول، غير مشاهد تخايلنى الآن كالحلم، وصورٍ لبحيرات مررتُ بها.. بحيراتٍ نبت فيها البوصُ، فصار كأشواكٍ كبيرةٍ تبدو كأنها تودُّ لو تصل إلى السماء بوَخَزَات أطرافها.. كان صدى الآيات الأولى من سفر حبقوق يتردَّد فى باطنى: *إلى متى ياربُّ أستغيثُ بك، فلا تسمع؟ إلى متى أصرخ إليك من الجور، فلا تخلِّص؟ لماذا تُرينى الإثم، وكيف تطيقُ النظر إلى البؤس؟ الاغتصابُ والعنفُ ينتصران أمام عينى، والخصامُ والنـزاعُ يسودان كل مكان.*

كنتُ كمثل اليهود فى سنوات التيه العظيم، بصحراء سيناء التى كنتُ أسير نحوها.. لماذا أخذتنى خطاى نحو سيناء؟ هل كان ذلك تدبيرًا إلهيًا لم أفطن إليه؟ أم هى الأيامُ تعبثُ بى، وتقلِّبنى كل مُنقلب، لأرى فى البلاد من أفعال العباد، مالم يكن يخطر لى ببال؟.. حين أتأمَّل اليومَ تدابير الأقدار، أُسائلُ نفسى: لماذا كان خروجى من الإسكندرية عبر بوابتها الشرقية؟ ألم تكن البوابة الغربية هى الأقرب! أم ترانى أردتُ، من دون قصدٍ، أن تكون سنواتى بالإسكندرية عابرةً؟ دخلتها من بوابةٍ وخرجت من التى تقابلها، فكأنها حالةُ مرورٍ عابرٍ بمكانٍ وددتُ لو أننى ما مررتُ به.. هل كان الأوفق أن أتجه يومها غربًا، فأقضى بقية عمرى فى واحدة من المدن الخمس الغربية، الهادئة، المتناثرة على امتداد شاطئ البحر فى الصحراء الليبية؟ أليست مُدنًا قصيةً، تناسب روحى الثكلى؟.. أم ترانى نفرتُ منها واتجهت الناحية المقابلة، لأن هذه المدن المسماة بالخمس الغربية، تابعةٌ للإسكندرية!.. لو كنتُ ذهبتُ إلى هناك أيامها، ما التقيتُ نسطور فى أورشليم، ولا رأيت مرتا هنا، ولا كان الزمانُ قد عبث بى، ورَشَّ الملح فوق جراحى!.. حين لا أجد اليوم إجابة على تساؤلاتى، لا أجدا بُدًّا من القول إنها كانت مشيئة الرب.. الربِّ المحتجب خلف سرادق حكمته الخفية، أو خلف عجزنا الدائم عن فهم أحوالنا، وذواتنا.

ـ لا فائدة الآن من هذا الكلام، يا هيبا. فارجعْ إلى ما كنتَ تحكيه، وأكمله، فقد صار وقتك ضيقًا، ولسوف ترحل بعد عشرين يومًا عن هذا الدير.

ـ عزازيل، ألا تنام؟

ـ كيف أنامُ وأنت مستيقظٌ!



تابعتُ سيرى شرقًا، مسلوبَ الروح. كنتُ مسرعًا نحو غايةٍ لا أعرفها، فى لحظةٍ ما أدركتُ أننى لا أعرفنى! وأن ما مضى من عمرى لم يعد

موجودًا. كانت الأفكارُ والصورُ تمر على خاطرى ولا تثبت، تمامًا كما تمرُّ قدماى على الأرض، فلا تقف. شعرتُ أن كل ما جرى معى، وكل ما بدا أمامى فى أيامى وسنواتى الماضية، لايخصنى.. أنا آخرُ، غير هذا الذى كان، ثم بان!

وصلتُ إلى منطقةٍ رحبةٍ بأعلى دلتا النيل، حيث تلتقى الأرض بالبحر عند نقائع شاسعة، ماؤها مزيجٌ بين المالح والعذب. ولايكاد عمق الماء فيها يزيد عن ارتفاع ركبتى، وارتفاع كثبان الرمال السوداء التى امتدت يومها أمام عينى إلى المدى.. هناك رميتُ على صفحة الماء ردائى الكنسى المشقوق وغطاء رأسى، وبقى علىَّ جلبابى الداخلى المصنوع من الكتان.

لما رميتُ الرداء، انزاح بعضُ الثقل عن روحى. كانت نسماتُ الضحى، تماوج الماء الذى أخوض فيه، فأشعر مع تموجاته بأننى لا أسير وإنما أطير إلى أفق مجهول. لم يكن حولى شئٌ، على امتداد النظر فى النواحى الأربع. وحده، الماءُ الضحلُ، يمتد فى كل الجهات. قلتُ لنفسى بصوت مسموع، باللغة القبطية: *هنا تمتزج الأرض والماء بالسماء، ومن هنا سأبدأ من جديد!* طرقتنى الفكرةُ، واستولت فجأة على خاطرى. خلعتُ ما ألبسه، وكوَّمته فوق ربوة من تلك القباب الرملية المتناثرة بين الماء والماء، ثم خضتُ حتى غاصت قدماى.. اتجهت ناحية الشمال، فاستقبلت الريح بصدرى العارى، وفتحت ذراعىَّ بطولهما، ورحتُ أتلو صلاة لم أكن قد قرأتها من قبل فى كتاب، ولا سمعتها فى قُدَّاس:

باسمك أيها المتعالى عن الاسم،

المتقدِّس عن الرسم والقيد والوسم.

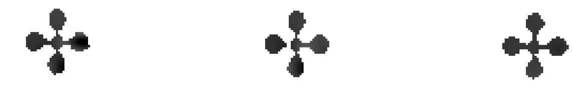
أُخلى ذاتى لذاتك، كى يُشرقَ بهاؤك الأزلىُّ على مرآتك،

وتتجلَّى بكلِّ نورك وسناك ورونقك.

باسمك أُخلى ذاتى لذاتك، لأُولَدَ ثانيةً من رَحِمِ قدرتك،

مؤَيَّدًا برحمتك.

رحتُ أعيد هذه الصلاة وقد أغمضت عينى. وفى كل مرةٍ تالية، يعلو بها صوتى. حتى صار بعد عشرات المرات، صراخًا يملأ الفراغ المحيط بى. الفراغ الأول، الذى ابتدأت منه الأشياء.. لما توسَّطتْ الشمسُ كبد السماء، ولم يعد ظلِّى يمتد على أىِّ جانب، انحنيتُ، فغرفتُ بكفَّىَّ من الماء الطاهر، ووقفتُ فألقيته فوق رأسى، ليغسلنى من كل الذى كان. لحظتها، عمَّدت نفسى بنفسى، وأعطيتُ لنفسى فى لحظة الإشراق المفاجئ هذه، اسمًا جديدًا. هو الاسم الذى أُعرف به إلى الآن.. هيبا.. وما هو، إلا النصفُ الأول من اسمها.



التقطتُ بعد العماد ملابسى، وشعرتُ حين ارتديتها بأننى صرتُ الإنسان الآخر الذى كان كامنًا فىَّ. أنا الآن هيبا الراهب، ولستُ ذاك الصبى الذى وشت أمه بأبيه، فقتلوه أمام ناظريه. لستُ اليافع الذى ربَّاه عمُّه فى نجع حمادى، ولا الشاب الذى كان يومًا يدرس فى أخميم.. أنا الآخر المؤيَّد بالملكوت الخفى، وأنا المولود مرتين.

امتد ظِلِّى أمامى لما مالت الشمس نحو المغيب، فمضيتُ وراء ظلى الذى قادنى إلى جهة الشرق. سألتُ نفسى من دون انتظار إجابة: هل أتابع المسير إلى أورشليم؛ لألمس هناك أصل الديانة، أم أتابع حتى أصل إلى شرق العالم ومبتداه، أم أغوص فى نفسى، فأعرف مشرقها وأُدرك الإله؟.. لم أنتظر جوابًا ما؛ لأن كل الإجابات واحدةٌ، الكثيرةُ المتعدِّدة هى الأسئلة!

قبيل الغروب، وصلتُ إلى حيث تتضح الحدود بين الأرض والبحر والسماء. رأيت أمامى ثانيةً الشجرَ والناسَ، وأدركتُ لأول مرة أن الناسَ شجرٌ، وأن الشجر مثل الناس، غير أن عمر الإنسان قصير.. على حدود قريةٍ يسكنها صيادون، قضيتُ ليلتى بأن أسندتُ ظهرى لجدارٍ قديم متهالك يريدُ أن يرتاح من وقفته، نمتُ جالسًا، وفى الصباح دخلت قرية الصيادين. لم يكن فى بيوتها القليلة كثيرٌ من الناس. سألتُ رجلاً يابسًا مثلى، يصنع الشِّباك، إن كان يحتاج مساعدتى، فساعدنى على جوعى بطبقٍ من حساء السمك، فيه قطع من لحمه الأبيض. الأسماك فى تلك النواحى، غير التى عرفتها فى بلادى الأولى سمكُ البحر أكبرُ، وأطيبُ طعمًا، وأنسبُ لأجسام الناس. لم أكن قبلها آكل السمك، ولكننى أقبلت يومها عليه، وكأن الذى كان لا يأكله من قبل، شخصٌ غيرى!

أمضيتُ أيامًا أصنع مع الرجل شِباكه، وأقتات معه من الطعام الذى كانت امرأته العجوز توافينا به كل يوم مرتين. ثم استأذنته فى استكمال مسيرتى، شرقًا، فوصلتُ بعد أيام إلى بلَدة اسمها دمياط، يسكنها صيادون وصُنَّاع مراكب وبعضُ التُّجَّار. قضيتُ فى هذه البلدة ثلاثة أشهر، أو أكثر من ذلك بقليلٍ من الأيام. كنتُ أعمل نهارًا فى نجارة المراكب، ومساءً فى صُنع الشباك، ولا أنام فى الليل إلا سويعات. كان رَبُّ العمل هو رئيس الصيادين هناك، وكان لديه قرابة العشرين من العاملين المبتدئين، من أمثالى، ومثلهم من الصيادين والصناع المهرة. كان الرجل مسيحيًا، على اعتبار أن الرجل الطيب لابد أن يكون له دين. وقد كان طيبًا بالفعل، مع أنه ثرىٌّ.. لماذا قال يسوع المسيح إن دخول الأغنياء ملكوت السماء أصعب من المرور فى ثقب الإبرة؟ قلتُ يومًا للرجل الدمياطى إن عمله الجامع بين الصيد ونجارة المراكب، هو خيرُ الأعمال التى يمكن أن يمارسها إنسانٌ مسيحى، لأن بطرس الرسول، وهو الصخرة التى قامت عليها الكنيسة، كان يعمل صيادًا فى هذا البحر. وكان يوسف (النجار) هو الذى ربَّى يسوع المسيح. ابتسم الرجل وهو يقول: أعرفُ ذلك، *لكننى ما اخترتُ الصيد ولا النجارة، فأبى وجَدِّى من قبله اختارا لى. ولو كان الأمر بيدى، لفضَّلتُ أن أكون مزارعًا، فلا يفجعنى البحرُ كل حين بالتهام أحد رجالى!* هَزَّ رأسه أسىً، ومضى يتفقَّد أعمال النجارين والصيادين.

بعد أسابيع من إقامتى بدمياط، رحتُ أصف للمرضى الأدوية، فيشفون. كاد ذلك يشهرنى هناك كطبيب، لكننى أسرعتُ بالرحيل عنهم. خاصةً بعدما اعتذرتُ عن قبول ما عرضه علىَّ رئيسهم، من الإقامة الدائمة بينهم والزواجِ بامرأةٍ منهم! خرجتُ من دمياط بعدما ودَّعتهم، وأودع رئيسهم فى كَفِّى بعض المال، وأعطانى مخلاةً فيها رداءٌ من صوف الغنم، ودثارُ مسافرين، وطعامٌ جاف. كان الزمانُ شتاءً، وكان أوانُ خروجى فجرًا، وكانت أورشليم وِجْهتى.

بعد أيام من مسيرتى شرقًا، تناقصت الحقولُ الخضراء، واختفتْ آفاقُ البحر والبُحَيرات الزرقاء وراء بعض التلال، وساد اللونُ الأصفر. كنتُ على أبواب سيناء حيث الصحراوات المتوالية بكل ما فيها من قَفْرٍ وفَقْرٍ وجَدْب. على أطراف الصحراء، كان يقوم ديرٌ متواضع البناء، منفردٌ وسطَ الرمال، فى هيئته توحدٌ. لمحته من بعيد ولم أقترب منه، ولم أسأل نفسى عما سأقتات به فى صحراء سيناء، فلا أعشاب خضراء هناك لألتقطها وأدسَّها فى جوفى، مثلما كنت أفعل فى أيام خروجى الأولى.. رهبتى من التيه الذى اخترته، دعتنى إلى المبيت تحت شجرةٍ حنون ترى الديرَ من بعيد. ساعة الفجر، رآنى راهبٌ من الدير القريب، كان قد خرج مبكرًا يرعى أغنامهم. أقبل نحوى وفى إحدى يديه رغيفٌ، وفى الأخرى عصاه التى يهش بها على غنمه. لم أكن قبلها بيومين قد تكلَّمت مع أى إنسان، غير أنى لم أجد بُدًا من الكلام معه، وقد مَدَّ لى الرغيف بمحبةٍ.

- يومك مبارك يا أخى، قلبى يخبرنى بأنك جائع.

- شكرًا لك.

- هل تنوى عبور الصحراء بهذا الثوب، ومن غير دابة!

هكذا بدأ كلامنا الذى انتهى إلى مالم أكن أتوقعه، فقد وجدت فى هذا الراهب النحيل، شيئًالم أجده عند غيره من الرهبان الذين قابلتهم قبله، هو: القلق!.. أخبرنى أن أصله من البلدة التى اسمها دمياط، وأنه أحبَّ فتاةً هناك وهام بها، لكنهم أجبروها، فتزوَّجت غيره؛ فاختار لنفسه حياة الرهبنة.. جرى ذلك معه، حين كان فى العشرين من عمره، وكان قد بلغ الثلاثين. وخلال سنوات رهبنته العشر، كان يسأل نفسه كل يوم، إذا ما كان قد أخطأ فى قراره، أم أصاب.. صِدْقُهُ وقع فى قلبى موقعًا حسنًا، فأنستُ إليه، وأفضتُ فى الكلام معه مثلما أفاض، فحدثته عما أخرجنى من الإسكندرية هائمًا على وجهى. فاستهان به! لم يكن يعرف هيباتيا، ولم يسمع بمقتلها. استهان بما أخبرته به، لأنه كان مستهينًا بكل شئ جرى، أو سيجرى فى مقبل الأيام! أثارت استهانته بكل شئ استغرابى، وأثار عندى مزيدًا من الاستغراب، تلك السهولةُ التى قال بها إنه لو عادت إليه محبوبته اليوم، فسوف يرجع عن حياة الرهبنة! أو يصير كاهنًا فى كنيسة، أو يعود للتجارة مع أبيه.. لكنه حسبما قال، يعرف أنها لن تعود إليه، وبالتالى سيقضى عمره راهبًا.

- أنت إذن، لم تودِّع الحياة.. يوم رُسمت راهبًا.

- يا أخى. الرهبنةُ ذاتها موقفٌ دائمٌ من الحياة، فكيف أزعمُ أننى وَدَّعتها!

قال لى ذلك من غير انفعال، وهو يقوم من أمامى ليجمع غنمه التى استظلَّت بالشجرة من حولنا.. قبل أن يمضى، قال بلهجته البحيرية الطريفة، إننى لا يجب أن أدخل سيناء قبل أن أمرَّ على كبير الرهبان، بهذا الدير القريب. لازلت أذكر عبارته التى ترجمتُها: *هو إنسانٌ لا بد أن يُرى، فلن تقابل مَنْ هو مثله قط!*

لم أجد بأسًا فى المرور بالدير قبل دخول صحراء سيناء.. لقيتُ هناك، فى كنيسته الصغيرة، كبير الرهبان الذى كان طاعنًا فى السن حتى أننى صدَّقتُ ما قاله لى أهل الدير، من أن عمره تجاوز المائة بكثير. تجاعيدُ وجهه كانت تؤكِّد ذلك، ولمعانُ عينيه يكذِّبه! فى عينيه بريقٌ وألقٌ لافتٌ، وفى كلماته القليلة حكمةٌ صافية.. كان يحدثنى وهو ينظر نحو الصليب الذى بأعلى المذبح، التفت نحوى مرةً واحدة ليقول لى بعد جلسة امتدت ساعتين: *إن كنتَ تبحث عن أصل الديانة كما تقول، فاذهبْ إلى مغارات البحر الميت، وقابل الأسينيين، فهم اليهود حقًا.. واليهودية هى الأصل.. وإذا ذهبت إلى هناك، فاحرصْ على لقاء الراهب خريطون، فهو أكثر أهل الأرض صدقًا وتوحُّدًا.*

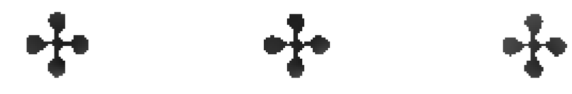
قضيتُ فى الدير النائى ثلاثة أيام، خرجتُ بعدها إلى سيناء.. عند رحيلى عنهم، أعطانى الرهبانُ ثوبًا، وكِسرًا من العيش المخبوز بدقيق الحلبة وعسل القصب، وقربة ماءٍ من جلد الماعز.. كانت تلك عدتى لعبور سيناء أكثر أماكن العالم وحشةً. على باب الدير لقينى سقَّاءٌ نحيل أعرج، كان يحمل على ظهره قربة ماءٍ لايقل طولها عن طوله، لما عرف أننى متجهٌ إلى سيناء، أوصانى: *لاتدع البحر يغيب عن عينك، ولاتدخل جوف سيناء لأى سببٍ، وإلا فلن تخرج منه أبدًا.. وابحثْ عن حمارٍ تركبه، فهذه الصحراء لايمكن عبورها مشيًا.*

كنت أعرف جغرافية سيناء، مما ورد فى كتاب كلوديوس بطليموس الحكيم القديم الذى عاش فى الإسكندرية، يوم كان نبهاء الدنيا يعيشون فيها. ومن ثم؛ فقد أدركتُ مراد السقَّاء الأعرج، وفهمتُ إشارته. لم أبتعد

كثيرًا عن الساحل الشمالى للصحراء. وقائعُ كثيرةٌ مرت بى فى الشهرين اللذين عبرت فيهما سيناء، وكان بعضها مما لايمكن نسيانه.. من ذلك أننى مررتُ بجماعة من البدو الرُّحَّل، وعالجتُ شابًا منهم كان كتفه قد انخلعت؛ إذ وقع من فوق جدارٍ قديم، كانوا ينصبون بإزائه خيمةً. انخلع كتفه صبيحةَ يوم مرورى بهم، وبعدَ ساعتين من معاناة آلام الكتف المخلوعة، أدركتُ الشاب بما كنت أعرفه من فنون جبر الكسور وعلاجات الوَثْى والخلعِ، فهدأ ألمه. ثم أعطاه أهله نوعًا من الأعشاب المخدِّرة، فمضغها قليلاً، ثم نام عميقًا. أكرمنى البدو فى الليلة التى قضيتها معهم، وفى اليوم التالى أهدونى حمارًا هرِمًا؛ لأستعين على عبور الصحراء بركوب ظهره اليابس الذى تقرَّح منه باطن فخذىَّ.. واشتريت منهم دثارًا، ولحمًا مقدَّدًا، وعليقة جافة للحمار. ودفعت لهم مقابل ما اشتريته، نصف ما أعطانى الثرىُّ الدمياطى.

ومن الوقائع التى لاتنسى، أننى أدركتُ ساعة الغروب قافلةَ حجيج، كانت قبلها بشهرين قد خرجت من قورينة إحدى المدن الخمس الغربية، قاصدةً أورشليم.. فرحتُ كثيرًا حين رأيتُ القافلة، مع أننى كنتُ أظننى سعيدًا بوحدتى. سرتُ معهم شهرًا كاملاً، حتى نزلنا أرض فلسطين، فأكملوا طريقهم شمالاً، ومنفردًا عنهم أكملتُ مسيرتى شرقًا، قاصدًا البحر الميت للبحث عن أصل الديانة. كنتُ أيامها أعتقدُ أن الديانة الحقة واحدةٌ، ولها أصلٌ واحدٌ!

الواقعةُ الثالثة فاجعةٌ، ففى جوف الصحراء الواصلة إلى البحر الميت هاجمتنى قبيل الفجر ذئابٌ صحراويةٌ. دارت أولاً حولى من بعيد، فاضطربت خطى الحمار، وما عاد يستجيب لى.. لماذا خرجتُ يومها مبكرًا، ولم أنتظر بزوغ الشمس؟.. تنادت الذئابُ واقتربت، وكان عواؤها دالاً على شدة جوعها واشتداد شراستها. لم يكن معى ما أدفعهم به عنى، إلا عصاى وحمارى الذى ألقانى من فوقه وانطلق فزعًا، فانطلقتْ خلفه الذئابُ.. نَبَضَ قلبُ السكون بحشرجة الحمار وصخب الذئاب الناهشة التى انشغلت به عنى. مضيتُ فى طريقى وقد ملأتنى فكرةٌ أشرقت فجأةً بباطنى: لقد أرسل الإله الحمار إلى هنا، ليكون وجبةً شهيةً دافئة، لحيوانات خلقها وجعل قُوتها افتراسًا. الإله المحتجب خلف أستار العزَّة؛ يفعل ما يريد بمن يريد!



ها قد امتلأ الرَّقُّ، وما انتهت الذكرياتُ التى صيرتها الكتابةُ حاضرًا يُعاش مرتين، غير أننى أراها على نحوٍ جديدٍ كلما مضت السنون، وكلما استرجعتنى من الماضى البعيد.. وهاَ هو عِقْدُ التذكُّر ينفرط منى، ويكاد خيطَ التدبُّر ينقطع؛ فلأرجعْ فى الرَّقِّ التالى إلى حكاية ما جرى مع نسطور أيام لقيته أول مرة عند كنيسة القيامة.

الرَّقُّ الحادى عَشَر

بَقِّيةُ مَا جَرَى فِي أورشَلِيم

أتذكرُ جيدًا هذا الصباح الأورشليمى البعيد، وهواءه الثقيل. كانت الذكرياتُ التى أثارها سؤال نسطور عن مقتل هيباتيا قد هَدَّت أركانى طيلة ليلتى السابقة، وأعادتنى إلى الزمن السكندرى الذى أفزُّ دومًا من ذكراه. لما أشرقت الشمسُ لم أشعر بها، ولم أخرج يومها لصلوات الصباح.. بقيتُ جالسًا على الأريكة كالمبهوت، بل إننى ذهلتُ عن موعدى مع نسطور حتى فوجئتُ به يدق بابى، ولما فتحته أطلَّ وجهُه الصبوحُ، ومن خلفه ضوءُ النهار:

ـ صباحك مبارك يا ولدى.. ماذا جرى لك؟ ووجهك شاحبٌ، وعيناك زائغتان.

ـ لاشئ يا أبتِ، تفضَّل.. تفضَّل.

ـ سريرُك باردٌ ومرتَّبٌ، هل نمت على الأرض!

ـ تفضل يا أبتِ.. تفضل.

ـ سوف أفتحُ هذا الشباك.. ماذا ألَمَّ بك يا هيبا؟

جلسنا متقابلين، صامتين. هو جالسٌ على سريرى يحدِّق فىَّ بعينٍ ملؤها القلق والشفقة، وأنا مطرقٌ على الأريكة، وما زالت صرخاتُ هيباتيا يتردَّد صداها فى أنحاء روحى. كانت سنواتٌ عشر قد مَرَّت على مقتلها، وكأنها ما مَرَّت. بعدما امتدت بنا دقائقُ من صمتٍ فادحٍ، دعانى للخروج كى نلحق بالصلاة فى الكنيسة، أو نطوف حول أسوارها. نظرت نحوه بعينٍ زائغةٍ، ولم أرُدَّ، فقام وهو يقول:

ـ هيا، المشىُ مفيدٌ لك.

ـ كما تحبُّ يا أبتِ المبارك.

أغلقتُ باب صومعتى، وصرف نسطور الشماسة الذين كانوا ينتظرونه بالخارج.. سرتُ بجواره صامتًا، أو كنتُ غير قادر على الكلام. ارتحتُ لأنه لم يدخل من باب الكنيسة، كان القُدَّاس الطويلُ سيكون مُمِّلاً. مال نسطور من عند السور، ومضى بى يسارًا إلى ناحية الأشجار النحيلة المجاورة لأسوار المدينة من خلف الكنيسة، حيث الموضع الهادئ الذى أحبه كثيرًا، وكثيرًا ما أنزوى تحت أشجاره. حاول أن يلتقطنى من غيابى، فأخبرنى بأن صحة الأسقف تيودور تحسَّنت، وأنه يشكرنى ويرغب فى رؤيتى ثانية، بل يفكر فى اصطحابى معه إلى المصيصة لأعيش هناك! لما انتهى من كلامه الهادئ، كنا قد وصلنا إلى موضع الشجيرات النحيلة. سألنى إن كنت أريد الجلوس، فوافقتُ من فورى، لأنى كُنت أشعرُ بضعفٍ فى ساقىَّ وضعفٍ عن المسير. أخرج من جيبه إنجيلاً صغيرًا دقيق الكلمات، قَدَّمه لى وهو يقول:

ـ هذه هديةٌ إليك.. من الأسقف تيودور، ومنى.

فتحتُ الكتاب، فوجدته رسالةً طبية لا إنجيلاً. هى رسالة جالينوس إلى أغلوقن تلميذه، فى التأتِّى لشفاء الأمراض. شكرته، فابتسم مشجِّعًا

لى على الخروج مما أعانيه. قال ما معناه: *إن كانت ذكرياتك السكندرية تؤلمك هكذا، فعليك بنسيانها. وإننى أعتذر إليك، إن كان سؤالى عن هيباتيا قد أزعجك.*

كان نسطور رقيق المشاعر، مع أن ظاهره لايفصح عن ذلك. تصنَّعتُ ابتسامةً، وأخبرته أن هيباتيا ليست ذكراى الوحيدة المؤلمة، فلا داعى لاعتذاره، ثم قلتُ مطيِّبًا خاطره: *سوف أحكى لك، حتى يشاركنى فاضلٌ مثلك، الهمَّ الذى أحمله.*

ـ قُلْ يا ولدى، ما تريد.

حكيتُ لنسطور كيف سحل الأستاذةَ بطرسُ القارئ، ومَنْ كانوا معه، ثم جرُّوها وقد تقشَّر جلدُها عن لحمها وتنسَّلت أعضاؤها، إلى حيث أضرموا فيها النار عند أطلال المدرسة العلمية المهجورة التى كانت معروفة باسم الموسيون.. عند هذا الحد توقفتُ عن الحكاية، لما رأيته على وجهه من علامات الألم.

لم أقصَّ على نسطور كل القصص، ولم أخبره بأننى وقفت أحدِّق فى النار المشتعلة إلى أن خمدت، بعدما التهمت جسم هيباتيا، وبقايا الموسيون الذى كنتُ أحلم يومها بدراسة الطب فيه. ولكننى أخبرته بأننى خرجتُ هائمًا يومها من الإسكندرية إلى غير رجعة، ومذهولاً سرتُ وحدى فى الشارع الكانوبى، وكأن المدينة صارت موطنًا للأشباح.

ـ الرحمة يا إلهى!

زفر نسطور بالعبارة، فانتبهتُ إليه، وهالنى احتقانُ قَسَمات وجهه بالمرارة. أدركتُ أنى أصبتُ؛ إذ أوجزت الواقعة وأخبرته بمجمل الأمر، لا تفصيلاته.. لم يُدهشنى ما قاله متحسِّرًا، من أن القضاة الذين أرسلهم الإمبراطور للتحقيق فيما جرى لهيباتيالم يصلوا لشئ، ولم تتم إدانة واحدٍ من قاتليها، وأن الواقعة مرَّت كأنها لم تكن!

ـ نعم يا أبتِ، عرفت هذا. سمعته من الحجاج الذى قدموا إلى هنا من مصر والإسكندرية.

ـ وهل أخبرك الحجاج يا هيبا، بأن كِيرُلُّس دفع لهذه اللجنة القضائية رشاوى كثيرة، وبذل لهم الهدايا النفيسة حتى ينطمس الأمر؟

ـ نعم يا أبتِ، قالوا ذلك. وقالوا أيضًا إن الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى اكتفى كى يطوى الصفحة الدامية، بإرسال تنبيهٍ إلى الرهبان السكندريين بعدم اختلاطهم بالناس فى الأماكن العامة بالمدينة!

رَدَّ نسطور بسخريةٍ تقطر مرارةً:

ـ عقابٌ شديد.. وليتهم التزموا به!

كانت شمسُ النهار قد اشتدت من فوقنا. ولما رأيتُ حبات العَرَقِ قد راحت تنحدر على جبهة نسطور، أشفقتُ عليه وعلى نفسى، فدعوته إلى صومعتى. قال: *بل نذهب للكنيسة أولاً لنصلِّى، ومن بعد ذلك نشرب فى صومعتك النعنع الجبلى.*

عند باب الكنيسة، كان كبيرُ الكهنة يودِّع بعض الزوار. لما رآنا تهلَّل وجهه، وأقبل على نسطور مرحبًا به، ومشدِّدًا عليه أن ينضم إليه ساعة الغداء. شكره نسطور بلطفٍ، واعتذر بأنه سيتناول غداءه مع الأسقف تيودور، ودعاه إلى أن ينضم هو إليهما، ممازحًا إياه بقوله:

ـ إذا أكلت معنا اليوم ما يعدُّه الرهبان من طعام طيبٍ، ستفكر جديًا فى الانضمام إلى بيعتنا، والعودة معنا بعد انتهاء أيام الحج!

ـ يانسطور المبارك، وكيف سأترك امرأتى وعيالى المساكين؟ ثم إننى فقدتُ الشهية للطعام من زمنٍ طويل.

ـ أما أسرتك، فسوف تقيم معك فى أنطاكية أو المصيصة، وأما شهيتك فسوف يعيدها الراهب هيبا إليك، ببعضٍ من أعشابه المقوية للمعدة والمشهية للطعام الطيِّب!

ضحك الكاهنُ وهو يقول لى: *إذن، سوف تعالجنى مثلما عالجتك أول مرة!* ولما استفسر منه نسطور عمَّا قاله، حكى له كاهن الكنيسة قصة وصولى إلى أورشليم، وكيف أسقطنى الإعياءُ على باب كنيسة القيامة، فحملونى إليه. نظر نسطور نحوى بعطفٍ وهو يقول: *الإنسانُ، مهما كان، ضعيفٌ، نحن ضعافٌ ولا قوة لنا إلا بالمحبة*. هَزَّ الكاهن رأسه موافقًا، ثم انتبه لأمرٍ، فقال لنسطور وقد تملَّكه حماسٌ مفاجئٌ: *على ذكر المحبة، ألا تحبُّ أن نعقد لك اليوم مجلسًا، تحدِّثنا فيه عن أنواع المحبَّات، سيكون حديثك فى هذا الموضوع شيِّقًا، فقد سمعتُك تتحدَّث فيه لإخوانك أيام زرتكم فى أنطاكية*.

ـ الكاهن المبارك لاينسى! لقد كان ذلك منذ زمن طويل، أما اليوم، فلن أعقد مجالس مادام الأسقف تيودور معنا. يكفينا أن نسمع منه، وننهل من علمه.

ـ بارك الله فيك، وفيه. والآن اسمحوا لى، فأعمالُ الكنيسة لاتنتهى.

ـ فى أمان الرَّبِّ أيها المبارك.. هيا إلى الصلاة يا هيبا.

للصلاة فعلٌ كالسحر. فهى مراحٌ للأرواح، ومستراحٌ للقلب المحزون، وكذلك القُدَّاسات التى تغسلنا من همومنا كلها، بأن تلقيها عن كاهلنا إلى بساط الرحمة الربانية، فنرتاح إلى حين. ثم يعاودنا إليها الحنين مادمنا مؤمنين بالرب، فإن خرجنا عن حظيرة الإيمان انفردنا، وصرنا فريسةً تمزِّقها مخالبُ القلق وأنيابُ الأفكار.. ما علينا من هذا الكلام الآن! بعد الصلاة خرجنا من باب الكنيسة وقد أشرق وجه نسطور بالمحبة، فعاوده حاله المعتاد. اقترح أن نذهب أولاً للغداء مع الأسقف تيودور، ونعود بعد ذلك لصومعتى، فلم أمانع.

فى الطريق إلى مقر إقامتهم، جرى بنا خيلُ الكلام فى كل مضمار. حَدَّثنى عن روعة أنطاكية، وعن العلوم الوفيرة فى مدارسها، وعن مكتبة الأسقفية العامرة، وعن البسطاء الذين يفدون من القرى المجاورة، وعن الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى، وتردُّده فى معظم الأمور، وعن أسقف أنطاكية وكمال أخلاقه.. وحدَّثته عن أيامى فى أخميم، ووصفتُ له تلك البلدة العامرة الواقعة على حواف مجرى النيل، ومعبدها الكبير الذى تقف على بوابته تماثيل الفراعين الهائلة، يصل ارتفاع بعضها إلى ثلاثين مترًا! وعن تمثال المرأة الجميلة القائم هناك، يقولون إنها كانت ابنة الفرعون الكبير الذى بنى المعبد.. قال:

ـ سمعتُ أن البقية من أساتذة الإسكندرية، هجروها إلى أخميم ويقيمون هناك منذ سنين.

ـ نعم يا أبتِ. ولكن بأخميم أيضًا كنائس كثيرة، ونصف أهلها مسيحيون، وطيبون.

ـ فليحفظهم الرَّبُّ من عواصف كِيرُلُّس.

ـ من العسير يا أبتِ أن يجرى فى أخميم ما جرى فى الإسكندرية من أهوال، فأهلها مختلفون.

ـ أنت يا هيبا منحازٌ لأهلك المصريين.

ـ يجوز هذا يا أبتِ.. يجوز.

لما دخلنا على الأسقف تيودور، تهلَّل لمجيئنا وابتهج. وشعرت يومها بعمق المحبة التى تجمعهما، وتمنيتُ أن يكون ما بينى وبين نسطور مثل

الذى بينه وبين الأسقف.. طابت نفسى بالمجلس، وكان طعام الغداء طيبًا حقًا، وفيه ألوانٌ غير معروفة فى أورشليم ونواحيها. كان الأسقف يتودَّد إلىَّ بتعريفى بأنواع الطعام، ويمتدح بعضها لجودة هضمه. كان كتاب جالينوس لايزال فى يدى، شكرته عليه، وعلى الدعوة للغداء فى هذا الجمع المبارك من القسوس، فابتسم وهو يقول لى: *سوف أرسل لك كتبًا طبية أخرى بعد عودتى، وسوف أطلب من كَتَبَة الأسقفية أن ينسخوا لك أعمال أبقراط، وغيره من مشاهير الأطباء.*

ـ هذا كرمٌ كبيرٌ منك يا نيافة الأسقف.

ـ سيكون ذلك نافعًا لك وللناس، بمشيئة الرب. فالناس تحتاج الطب، وقد تدهورت صناعته مؤخرًا، فليحفظ الرَّبُّ بكم هذا العلم المفيد.

تدخل نسطور بلطف فى الحوار، فذكر للأسقف أننى أكتب الشعر، فالتفت إليه الأسقفُ مؤكِّدًا أن صديقه القديم، الأسقف يوحنا ذهبىَّ الفم كان فى بداياته يكتب الشعر. أضاف: *ألم أخبرك يانسطور الحبيب، أنهما متشابهان!* ثم راح الأسقف يحكى للجمع المبارك عديدًا من ذكرياته مع يوحنا فم الذهب.. كان يلتذُّ بذكر الذكريات، كأنه يستعيد جزءًا من جوهر ذاته كان قد انطوى.

ضَمَّ مجلسنا راهبًا متقدِّمًا فى السن لاينطق أبدًا، واثنين من القسوس. وما كاد الأسقف تيودور ينتهى من حكاية ذكرياته، حتى طفر من أحد القسوس سؤالٌ: *كيف تجرَّأ الإسكندرانيون على إدانة يوحنا فم الذهب، وهو القديس!*.. بدَّدَ السؤالُ المفاجئ الأجواء الطيبة التى كانت تحفُّ المجلس. نظر نسطور للقس السائل باستنكارٍ أشعره بالحرج، ولُذنا جميعًا بالصمت.. قلَّب الأسقف تيودور كَفَّه اليمنى فى الهواء مرتين، وقال ممتعضًا وقد عقد حاجبيه: *للإسكندرية سخافاتٌ كثيرة، ولأسقفيها السابق والحالى، أفعالٌ وأحوالٌ عنيفة. وأنا لا أحب الكلام عنهما وعن أفعالهما، التى هى أبعدُ ما يكون عن تعاليم المسيح والرسل، وأقرب ما يكون لأفعال طلاب الدنيا. فليشمل الرب الجميع برحمته، وليعفُ عن الجميع.*

توقعتُ أن يكون كلام الأسقف تيودور هو ختامٌ للمجلس وإيذانٌ بانتهائه. غير أننى فوجئتُ بالراهب الصموت الذى لم أسمع له صوتًا منذ رأيته، وهو ينطق بلسانٍ يونانى ذى لهجة شرقية، قائلاً بحدَّة وهو مستندٌ بكتفه على عصاه: **وليغفر الرَّبُّ للإسكندرانيين ما فعلوه، وما يفعلونه الآن، وما سوف يفعلونه غدًا! فكنيسةُ الإسكندرية لن تكف أبدًا حتى تنهار، أو تنهار هذه الديانة كلها.**

أطبق الصمتُ على الجميع، ولم ينظر أحدٌ لأحدٍ.. حَدَّقتُ فيهم جميعًا، مستغربًا وقع كلام الراهب الغريب، وصمتهم كلهم من بعده.. هو بالقطع ذو مكانة عندهم، وإلا ما كان ليتكلَّم بتلك القوة، فيربك الجميع، مع أن هيئته لم تكن تدل على أى أهمية. أدركتُ لحظتها أن للرب فى هذا العالم رجالاً متوغِّلين فى أسرار المحبة، لايعرف أقدارهم إلا الكاملون. كان هذا الراهب فيما بدا لى، من هؤلاء المتوغِّلين فى المحبة. هو شديدُ الشبه بالقديس خريطون الذى رأيته فى المغارة التى بقرب البحر الميت، فكلاهما ذو لهجةٍ شرقية وقوام شديد النحول وسنٍّ متقدِّم. وكلاهما يهتزُّ بدنُهُ حين يتكلم، وتهتزُّ الناسُ حين تسمع كلامه.. فهل كان هذا الراهب الغامض، أخًا للراهب خريطون؟ أم تراهما شخصًا واحدًا، يظهر فى أماكن مختلفة بملامح مختلفة. ليكون هؤلاء القدِّيسون آيةً للناس، شاهدةً على عجائب الرب فى العالم.. كان ذلك يجرى بخاطرى لحظتها، مع كثيرٍ من أفكارٍ إيمانية عجيبةٍ، ما عدتُ أنعم اليوم بها، مثلما كان حالى فى ذاك الزمان البعيد!

انتبهتُ من جَوَلان أفكارى، مع وقفة القَسّ نسطور وهو ينفض رداءه بكلتا يديه، وكأنه ينفض الصمت الذى ساد المجلس.. قال للأسقف تيودور ما معناه أننا سوف نتركه ليرتاح، وأنه يستأذن منه فى الذهاب معى إلى صومعتى للتباحث فى بعض الأمور، وأنه سيعود بُعيد الغروب. وهكذا انفض المجلس الذى رأيتُ فيه الأسقف تيودور المفسِّر لآخر مرة.

فى الطريق إلى صومعتى،لم أستطع منع نفسى من سؤال نسطور عن الراهب الصموت الزاعق، الذى أنهى كلامُه المجلس. فأجابنى بأنه واحدٌ من أشهر الرهبان المتنسكين فى أقدم أديرة بلدة كبادوكيا المباركة، التى قدمت للديانة آباء الكنيسة الثلاثة الكبار المشهورين، المعروفين بالآباء الكبادوكيين. أضاف أن هذا الراهب الصموت، مشهورٌ هناك بحياة الزهد والتقشُّف. وأن الناس تروى عنه عجائب ومعجزات، يصرُّ هو على إنكارها. وهو معروفٌ بطول صمته وندرة كلامه، ورجال الكنائس يبجِّلونه جدًا، والأسقف تيودور يعدُّه من أساتذته الروحيين؛ فهو أكبر منه سنًا بأعوامٍ كثيرة، فقد تعدَّى الثمانين من عمره.

ـ إنه يشبه الراهب خريطون.

ـ وكيف عرفت ياهيبا.. هل رأيتَ القديس خريطون؟

ـ نعم يا أبتِ، زرته فى مغارته قبل أعوام.

كان نسطور يودُّ أن يعرف المزيد عن لقائى بالراهب خريطون، وكنتُ أود معرفة المزيد عما قاله الراهب الكبادوكى الصموت، وهكذا كان لدينا يومها الكثير لنتكلم فيه. جلسنا ساعات طوالٍ، لم يقطع فيها حديثنا إلا مجيئُ رجلٍ مسكينٍ، يطلب دواءً لألم شديد تمكَّن من أحشائه بعدما التهم طعامًا فاسدًا. ولَم يكن للرجل علاَجٌ إلا الترياق الجامع المسمى مثروديطوس، وكان بصومعتى بعضٌ منه، فأعطيته، واعتذرت عن الأجر بعبارتى الدائمة: يمكنك *لو أردت، أن تضع شيئًا بصندوق الهبات بالكنيسة*.. انصرف الرجل، فعدت لجلستىْ مع نسطور الذى أعجبه أننى أعالج المرضى احتسابًا. قال: *كل هذا مدخرٌ لك عند الرَّبِّ، يا هيبا المبارك*.

ـ يا أبتِ. لقد تعلَّمت الطب من دون أن أدفع شيئًا، فكيف آخذ؟ وكما قال مخلِّصنا يسوع للرسل: مجانًا أخذتم، فمجانًا أعطوا.

عدنا إلى جلستنا الرائقة، فأكملتُ لنسطور حكاية ما كان من تطوافى ومشاهداتى بنواحى البحر الميت، ولقائى بالراهب خريطون بعد ثلاثة أيام بتُّ فيها أمام باب مغارته، منتظرًا خروجه إشفاقًا من الدخول عليه وقطع خلوته. كان جماعة من القرويين يضعون كل أسبوع أمام مغارة خريطون صُرَّةً، فيها كِسَرٌ من الخبز وقطعٌ من الجبن الجاف، وقربةَ ماءٍ لا تكفى أى إنسان لأكثر من يومين، فكان يتقوَّت بذلك طيلة الأسبوع. القرويون هم الذين دلَّونى على مغارته، بعدما نصحونى بعدم الدخول عليه إلا إذا نادانى. بعد ليلتين من عكوفى أمام المغارة، شككتُ فى أنه ما يزال موجودًا بها. خطر ببالى أنه ربما مات منذ سنين، ولم يشعر أحدٌ بذلك. وأن ما يضعه له أهل القرى، يأخذه بعض الصعاليك! غير أننى لما غفوت ساعة الظهيرة، رأيتُ خريطون يخبرنى فى منامى بأن الموعد لم يحن بعد، وبأنه سيطلبنى حين يأتى الأوان. بعد الليلة الثالثة، كانت زوَّادتى قد نفد منها الطعام، ولم يبق بحوزتى غير الكتب والرقوق والأحبار. كنتُ مستسلمًا تمامًا فى انتظار الإشارة، غير مستبطئ لها، ولا متفكِّرٍ فى الرحيل عند باب المغارة. يومها عند الظهر، سمعته ينادى من جوف خلوته بصوت عميق ذى أصداء: *إن كان أحدٌ بالخارج، فليدخل!*

لما دخلتُ عليه هالنى منظره، فهو لايكاد يظهر منه إلا عينان تبرقان بالقداسة، وسط وجه يحيط به شعرٌ منفوش، فوق جسم بالغ النحول تغطِّيه

أسمال سوداء كالحة. كانت المغارة على هيئة السرداب، تتخلل حيطانها شقوقٌ كثيرة. وكانت أرضيتها باردةً رطبةً، فاسترحتُ عند دخولها من لفحات الهواء الساخن، التى أذابتنى طيلة الأيام الثلاثة التى قضيتها وحيدًا تحت الشمس الساطعة بقوة فوق تلك النواحى القاحلة. ترفقتُ فى دخولى خلوته المفعمة بالنور والرهبة، وابتدرنى هو بالكلام:

ـ ماذا تريد منى؟

ـ أنا يا أبتِ عاكفٌ على بابك منذ أيام، أنتظر رؤيتك لتحلَّ علىَّ البركات، ولأسألك عن أشياء.

ـ وما أدراك أن عندى الإجابة؟

ـ هذا ما أظنه يا أبتِ وأرجوه، فسؤالاتى تعذِّبنى.

ـ اجلسْ.

جلستُ أمامه على بساط الأدب، وحدَّثته بالشكوك التى كانت تملؤنى، وتدفعنى للنظر فى أصول الديانة، وأخبرته برحلتى إلى كهوف البحر الميت أملاً فى أن أجد عند الأسينيين أجوبةً، فوجدت كهوفهم خالية من الحياة وقد انقطع ذكرهم، فكأنهم ذكرى غابرة!.. وأفضيتُ إليه بفزعى من أنهار العنف التى تتدفق فى أرض الله، ورعبى من القتل المروع الذى يجرى باسم المسيح.. وصرَّحتُ له باحتياجى إلى اليقين، وافتقارى إليه.

صمت الراهب خريطون طويلاً، حتى انتهيتُ، ثم اهتز بدنه النحيل وبرزت عظام صدره وكتفيه وهو يكلِّمنى قائلاً إن اليقين لن يكون إلا بإخماد الشكوك، ولن يخمد الشك إلا بتفويض الأمر إلى الرب، وتفويض الأمر إليه لن يكون إلا بمعرفة معجزاته فى الكون، ومعرفة المعجزات لن تكون إلا بالإقرار بتجسُّد الله وظهوره فى المسيح.. ثم نصحنى بالحج إلى أورشليم، وأكَّد علىَّ ألا أدخلها مباشرة، وإنما أدور حولها، فأمرُّ فى دورانى على البقاع التى لمستها قَدَمُ يسوع المسيح. ثم أقترب شيئًا فشيئًا، من المركز الذى هو موطن قيامته، فلا أدخله إلا بإشارة تأتينى من يسوع المسيح.

ـ ومن هناك جئتَ إلى هنا يا هيبا؟

ـ نعم يا أبتِ، من هناك.

أسند نسطور ظهره إلى الحائط، ومَدَّ رجليه على السرير. أخذته لحظةُ تفكُّرٍ عميق، علت وجهه خلالها علاماتُ الإبحار فى التأمُّل. بعد برهةٍ أغمضَ عينيه قليلاً، ثم نظر إلىَّ وهو يقول هذه العبارة التى حفظتها عنه، ودونتها فى أوراقى عند المساء.. قال ما نصُّه: *خريطون رجلٌ مبارك من غير شك، لكن طريقه يختلف عن طريقنا فى أنطاكية. هو يهجر العالم فيرتاح، ويغوص فى ذاته فينجو بها، ويزهد فى الأشياء فتسعى إليه. ولكن طريقنا يا هيبا مختلفٌ، فنحن نؤمن بقلوبنا ونقرُّ بالمعجزة الربانية، ثم نُعمل عقولنا لنرتقى بالإنسان إلى حيث أراد الرب. نحن نؤمن بأن المعجزة لا تكون معجزةً، إلا لو وقعت على سبيل الندرة، وإلا فإن تكرارها وتواليها سوف يخرجها من باب المعجزات. لقد تجسَّد الرب مَرَّةً فى يسوع المسيح، ليرسم الطريق للإنسانية من بعد ذلك للأبد. فلا ينبغى لنا العيش فى المعجزة ذاتها، وإنما فى الطريق الذى رسمته، وإلا فقدت معناها.. لقد أراح الراهب خريطون قلبك بأن أزاح عن عقلك ما يؤرِّقه، أملاً فى إذهاب قلق العقل، وإبقاء القلب منارةً للإدراك. والقلب ياهيبا فيه نورُ الإيمان، ولكن ليس لديه القدرة على البحث والإدراك وحَلِّ المتناقضات.*

أشار نسطور بيده نحو شباك صومعتى، حيث تظهر قبة كنيسة القديسة هيلانة، وأضاف إلى كلامه: *انظر إلى عظمة هذه الكنيسة بقلبك فيمتلئ بالإيمان، ثم اعرف أن القديسة التى قامت ببنائها، وهى هيلانة أم*

الإمبراطور قسطنطين، كانت فى ابتداء أمرها ساقيةً فى مواخير التَّرها.. كيف لنا أن نفهم ذلك التحول فى سيرة الإمبراطور وأمه، إلا بالقياس على معجزة يسوع المسيح، والمعجزةُ يا هيبا، تحدث على سبيل الندرة، ونحن نؤمن بوقوعها النادر، ثم نُعمل العقل والقياس فى الظواهر، حتى نفهمها ونحلَّ تناقضاتها. وهكذا الحال مع بقية الأمور: نؤمن، ثم نتعقَّل، فيتأكَّد إيماننا.. هذا هو طريقنا.

ـ سوف تبقى ياسيدى تناقضات، لن يستطيع العقل حلَّها.

ـ قد لايستطيع ذلك عقلُك أنت، ثم يأتى مِنْ بعدك مَنْ يقدر على ذلك.

ـ أو تسقط التناقضات من تلقاء نفسها، وتُنسى، فلا تشغل أذهان الناس!

ـ صحيحٌ يا هيبا، وهناك أمثلةٌ كثيرة على ذلك.

شعرتُ بأن الوقت قد صار مناسبًا لسؤاله عن كلام الراهب الكبادوكى الذى أسكت الجميع كلامُهُ، غير أننى تردَّدت قليلاً إشفاقًا من إزعاجه. والظاهر أنه لمح بثاقب بصيرته، ما يعتمل فى نفسى من تردُّدٍ، فنظر نحوى بعينٍ باسمة ووجهٍ صبوحٍ مبشِّر، وسألنى، بينما يصبُّ لنفسه كوبًا من إبريق النعنع الدافئ، عما أُخفيهِ وأتردَّد فيه. قلتُ: *إنك يا أبتِ ترى مافى باطنى، وتشعر به.. ولسوف أصارحك بأن كلام الراهب الكبادوكى أثارنى، وهَيَّج فى فكرى التناقضات الواقعة بين ديانتنا القائمة على الفداء والمحبة، وتلك الأفعال التى تجرى باسم المسيح فى الإسكندرية.*

ـ ياهيبا، مايجرى فى الإسكندرية لاشأن للديانة به.. إن أول دم أريق فى هذه المدينة، بعد انتهاء زمن الاضطهاد الوثنى لأهل ديانتنا، كان دمًا مسيحيًا أراقته أيادٍ مسيحية! فقد قتل الإسكندرانيون قبل خمسين سنة أسقف مدينتهم جورجيوس، لأنه كان يوافق على بعض آراء آريوس السكندرى. وقَتْلُ الناس باسم الدين، لا يجعله دينًا. إنها الدنيا التى ورثها ثيوفيلوس، وأورثها من بعده ابن اخته كِيرُلُّس. فلا تخلط الأمور ببعضها ياولدى، فهؤلاء أهلُ سلطانٍ لا أصحاب إيمان.. أهلُ قسوةٍ دنيوية، لا محبة دينية.

ـ لقد رأيت فى كنيسة الإسكندرية، ياسيدى، واحدًا من الرهبان الذين قتلوا الأسقف جورجيوس الكبادوكى!

اندهش نسطور مما قلته، ثم أدهشتنى العبارة التى قالها؛ لأنها ذكرتنى بما كنتُ أعتقده وأقوله دومًا لنفسى.. بصوتٍ حزينٍ قال: *الذى رأيته هناك ليس براهبٍ، فالرهبانُ لا يقتلون، وإنما يمشون على الأرض هونًا متَّبعين خُطى الرسل والقدِّيسين والشهداء!*

الرَّقُّ الثانى عَشَر

الارتحالُ إلى الدَّيْرِ

كانت أيامى بأورشليم متشابهةً، إلى أن جاء نسطور مع الحُجَّاج فى تلك السنة المذكورة، فصارت أوقاتى بمجيئه طيبةً هانئةً، وتبدَّدت غربتى هناك. بقينا أيامها نلتقى فى أغلب الأوقات، فى الكنيسة، وفى صومعتى، وفى مقر إقامتهم. فأشرقتْ بحضوره شموسُ باطنى، وانزاحتْ عنى الهموم، حتى كدتُ أنساها وتنسانى.. لكنه أخبرنى بعد انقضاء عشرين يومًا، بأنهم يستعدون للعودة إلى بلادهم، بعدما تأكدوا من أن الطرق إلى أنطاكية والمصيصة صارت آمنة. تولاَّنى الهمُّ طيلة ليلتى، وصحوتُ يوم رحيلهم مبكرًا، فكنتُ عند مقر إقامتهم مع أول شعاع للشمس. كانت الدواب تملأ الساحة، وكان الوفد منهمكًا فى الاستعداد للسفر.. كان الكُلُّ مشغولاً بأمر الرحيل، وكنتُ منشغلاً بأيامى التى ستجدبُ من بعدهم.

من بعيدٍ، رآنى نسطور وهو يتحرَّكُ بين الجماعة بنشاطٍ وهمةٍ عالية، يقول شيئًا لهذا ويعطى أمرًا لذاك، والكلُّ طائعٌ له. كان له فى نفوسهم مكانةٌ كبيرة. رآنى، فأقبل بوجهه المشرق، حتى انتحى بى عند حائط المضيفة الكبيرة، وعينه تلاحق المستعدين للرحيل.. التفت نحوى، وقال:

ـ لماذا لا تأتى معنا إلى أنطاكية، أو تلحق بنا مع أول قافلة تأتى؟

ـ أنطاكية، يا أبتِ، مدينةٌ كبيرةٌ وصاخبة. وماعدتُ قادرًا على العيش فى مثلها، ولم تعد لى غايةٌ إلا قضاء أيامى الباقية فى سلام.

ـ ماهذا الكلام، وأنت ابن ثلاثين سنة!

ـ أهى ثلاثين؟ إننى أظنها ثلاثمائة.

ضحك نسطور، لدعابتى، فازداد وجهه الصبوح إشراقًا. أبدى اهتمامًا وهو يسألنى إن كنت أنوى استكمال حياتى راهبًا متوحِّدًا، أم طبيبًا ممارسًا للعلاج. أضاف مُداعبًا: *أو تصير فى بلادنا كاهنًا.. ولو أردتَ يومًا، أن تتخلى عن طريق الرهبنة، فسوف أجد لك زوجةً مؤمنةً طيبة، تنجب لك شعبًا من المصريين فى بلادنا.*

ـ ياسيدى، أقول لك إننى أريد العيش فى سلام، فتقترح علىَّ الزواج!

ضحك نسطور فبدتْ أسنانه المصفوفة البيضاء، كأنها قطعٌ من نور. عَدَّل غطاء رأسه وهو يسألنى إن كنتُ مرتاحًا للإقامة فى أورشليم؟ فبسطت كَفَّىَّ بما يفيد أنه لاشئ آخر بيدى. قال إننى مادمتُ أريد العيش فى سلام، فعلىَّ أن أفكِّر فى الإقامة بأحد الأديرة. أضاف مُلاطفًا: *ولن أصف لكَ سلام الحياة فى الدير، فأنتم المصريين ابتدعتم الرهبنة والديرية، إحياءً لتقاليد كانت عندكم منذ القدم.*

أخبرنى نسطور يومها بأن ديرًا تابعًا لكنيستهم الأنطاكية، يقع فى منطقة خضراء إلى الشمال من حلب، هى من أهدأ مناطق الأرض وأجملها، وسألنى إن كنت أحبُّ الاستقرار هناك، فقلتُ من دون أن أفكر: نعم *يا أبتِ أحبُّ ذلك، فقد ضقتُ بالإقامة هنا، ولا شئ سيعزِّينى فى أورشليم، بعد رحيلكم عنها.*

طلب نسطور دواةً وقلمًا، ومَدَّ يده فى جيبه، فأخرج رَقًّا صغيرًا من الجلد المغسول، خطَّ فيه على الوجهين، وهو يخبرنى أنها رسالةٌ إلى رئيس الدير، وأنه سوف يُحسن استقبالى. وَصَفَ لى موضع الدير، وحدَّثنى عن طيب هوائه، وقرب موقعه من أنطاكية. بل هو منها على مسيرة يوم واحدٍ، يمكننى زيارتهم فى أسقفيتهم وقتما أحب، وقد يمُر علىَّ هو فى طريق أسفاره بين المدن والأديرة الكثيرة فى تلك النواحى. قال: *الديرُ أكثر راحةً وأمنًا من أورشليم المحاطة بالجدب من كل النواحى، البعيدة عن عاصمة الإمبراطورية..* تفكَّر قليلاً قبل أن يضيف: *وقد أنتقلُ أنا قريبًا إلى القسطنطينية، فأسقفها مريضٌ، وهم يكلِّموننى فى تولِّى كرسى الأسقفية من بعده. وكما تعلم فإن أسقفية العاصمة، لاتقل أهمية عن الكرسى البابوى فى روما، فعسى وجودى هناك يكون نافعًا لأهل الديانة.*

ـ سيكون نافعًا بمشيئة الرَّبِّ يا أبتِ، ومباركًا.

ـ ليفعل الله بنا ما يريد.. والآن، سأودِّعك يا هيبا على أملٍ باللقاء، فلا تتأخَّر فى الارتحال إلى الدير.

تحرَّكتْ قافلتهم، فحرَّكت كوامن الشجن فى نفسى. مشيتُ وراءهم حتى خرجوا من بوابة أورشليم الجنوبية، التى يسمونها هنا بوابة صهيون، ثم انحدروا غربًا ليعرجوا إلى أنطاكية من الطريق الساحلى المحاذى للبحر الكبير.. لما غابت القافلة عن ناظرىَّ، أحاط بى الوجدُ وعصرتنى يدا الوحشة والغربة.. عدتُ مُسرعًا إلى صومعتى، وقد عقدتُ النية على الخروج إلى الدير الشمالى، فى أقرب وقت.

أمضيت أسبوعين أرتِّب أمر رحيلى، وأسبوعًا ثالثًا أنتظر قيام قافلة التجارة المارة بقرب حلب. رأيتُ أن رحلتى معهم ستكون أقل عناءً، وأكثر أمانًا من كل أسفارى السابقة وارتحالاتى. أغلبُ تجار القافلة كانوا من هؤلاء العرب الذين لامعرفةَ لى بدقائق لغتهم، ولاعندى نية فى تعلُّمها. فهى لغةٌ، وإن كانت قريبة من السريانية، إلا أنها بلا آداب مكتوبة تثير حماسى لتعلُّمها، وأهلها قومٌ بلا دينٍ مخصوص، فيهم يهودٌ ومسيحيون ووثنيون، ولهم فى قلب جزيرتهم الجدباء بيوتُ أوثان، يطوفون بها وهم عراة. يُقال إنهم أبناءُ إسماعيل المذكورون فى التوراة، وأنا لا أصدِّق ذلك. الذين على دين المسيح منهم، لهم أسقفيةٌ فى بادية جزيرتهم، تعرف باسم العربية.. وهم أهل تجارةٍ ومكرٍ وحرب.

كانت رحلتى مع القافلة، مثلما قدَّرت، مريحةً. مررنا فى طريقنا ببلدة كبيرة حولها بساتين، تسمى دمشق. يشرف عليها جبلٌ عالٍ، تنبسط الأرض من بعده، ويمتد السهل شمالاً حتى يصل إلى حلب والقرى المتناثرة حولها.. وصلنا حلب بعد أسبوعين، ساعةَ الغروب، فلم أتبين ملامح البلدة إلا صباح اليوم التالى. هى مدينةٌ لطيفة يسكنها كثيرٌ من العربُ والسريانُ واليونان، وبعض اللاجئين إليها قديمًا من تدمر التى خُرِّبت واندثرت قبل قرنٍ ونصفٍ من الزمان، ولذلك فهى عربية الطابع والسكان.

العجيبُ فى حلب أنه لاسور لها! وإنما تتناثر بيوتها حول تلال صغار، تتوسطها تلَّةٌ كبيرةٌ هائلةٌ، بأعلاها أطلالُ قلعةٍ قديمةٍ مهدَّمة الأبواب، ماتزال أسوارها الباقية عاليةً. ويظهر من قِدَم المدينة، أنها كانت ذات أهميةٍ فى القرون الماضية، ثم انطوت أهميتها مع الأيام، فسكنها التجارُ. أمضيت ليلتى فى المضَيفة الملحقة بأبرشية حلب، وفى الصباح الباكر صحبنى إلى الدير خادمٌ يعمل فى الأبرشية. خرج معى مزوَّدًا ببعض المؤن المرسلة إلى الرهبان المقيمين فى أديرةٍ صغيرة، متناثرة على الطرق الممتدة بين حلب وأنطاكية، ذلك ما قاله لى الخادم لما رآنى مستغربًا الأغراض الكثيرة المحمولة على الحمارين اللذين كانا معه. وكانت الكتب التى معى، كثيرةً،

كان يحملها جملٌ منذ خرجنا من أورشليم، ثم حملتها من حلب إلى الدير البغلتان البائستان اللتان قطعنا الطريق على ظهريهما.

المسافة بين حلب والدير الشمالى قريبةٌ، لاتزيد عن مسيرة نصف يوم. والسهول بينهما رحبةٌ، فيها المروجُ الخضراء بالزرع والتلالُ الصفراء بالرمال.. أشار خادمُ الأبرشية إلى أولى التلال التى بدت لنا بعد خروجنا من حلب، وقال إن خلف هذه التلة تقع مقابر المدينة، وإن أمه وأباه مدفونان هناك. أضاف أنه يزورهما كل أسبوع، ليأخذ من عند قبرهما العبرة، ويسترجع زمانًا لن يعود.. سألته إن كان يودُّ المرور عليهما، فأجاب متردِّدًا بما معناه أنه لايريد أن يعوِّقنى أو يضايقنى بذلك، ولكنه يتمنى المرور على القبور، لأنه سيوصلنى إلى الدير، ويكمل طريقه إلى أنطاكية؛ ليزور أخته المتزوِّجة هناك، وسوف يبقى عندها شهرًا! فلم يكن بيديَّ إلا العروج معه إلى المقابر، والبقاء هناك لنصف ساعةٍ حتى ينتهى من تلاوة صلواته.

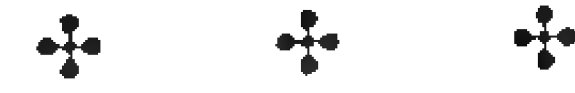
للناسُ هنا طريقةٌ غريبةٌ فى دفن موتاهم، فهم لا يوارونهم التراب، ويجعلون عليهم شاهدًا مثلما نفعل فى مصر، وإنما يضعون الأموات فى فتحات كالثقوب الطوال، بعضها فوق بعض، ثم يسدُّون عليهم بعجينٍ لزجٍ من تراب الأرض، ويرسمون فوق الفتحات علامة الصليب.

بينما الرجل يقرأ صلواته، كنتُ أفكر فى موتاى.. إننى لا أعرف قبرًا لأبى، ولا أظنه دُفن أصلاً! ربما رمى كهنةُ المعبد بقاياه فى النيل، بعدما اطمانوا إلى رحيل قاتليه، فأكلتها التماسيح.. فهل رمى الإسكندرانيون أوكتافيا فى البحر، لتأكلها الأسماك، أم دفنوها فى تلك المقابر القريبة من أطلال الحىِّ الملكى؟.. هيباتيا لم تُدفن بالطبع، لم يبق منها شئٌ ليُدفن. ولم يأكل دودُ الموتى شيئًا من جسمها، فقد انتهت مثل شجرةٍ أُحرقت فصارت فحمًا. الفحمُ يُشعل النار، والجسمُ المدفون فى الأرض يعيث فيه الدود! فهل كان الأليق بهيباتيا أن تُحرق بعد موتها، كيلا يصير جسدها الكافورى مرتعًا للديدان؟.. من أين يأتى الدودُ ليأكل الموتى؟ الأطباءُ القدامى الكبارُ، الذين شرَّحوا الأجسام الحيَّة والميتة، لم يذكروا فى كتبهم وجود دودٍ فى الأحياء، فمن أين يأتى الدودُ بعد الموت؟ هل هو كامنٌ فينا، بحيث لايظهر إلا بعد موتنا؟ أهو كامنٌ أيضًا فى الفواكه الرطبة، وفى الجبن القديم، وفى الأجسام الحية! ينتظر موت الكائن وفساد جسمه، كى يحيا على الموت، ثم يموت. يُقال إن هذا الدود لايأكل رفات القدِّيسين والشهداء! فهل هى معجزةٌ لهم، أَمْ هى معجزةٌ للدود الذى يفرِّق بين الأجسام، المقدسة منها وغير المقدسة؟.. على أن الدود فيما أظنُّ لايفرِّق، ولا يعرف أجساد القدِّيسين من غيرهم، وإلا فهو لا يتطرَّق أيضًا لأجسام المومياوات المحفوظة ببلادنا فى التوابيت العتيقة.. لماذا حفظ المصريون القدماء أجسام موتاهم بسحرٍ أو علمٍ، يمنع عنها الدود؟ أم تُرى أن أجسادهم كانت هى الأخرى مقدَّسةً!

ـ تفضل يا أبتِ.. باركك الرب.

انتبهتُ من غيبتى مع أفكارى، على دعوة خادم الأبرشية للعودة للطريق.. على ظهر البغلة، عاودتنى الأفكار والتساؤلات التى لا آخر لها ولا إجابة عليها: أَتُرانى يومًا سأُدفن، فيكون لى قبرٌ كثقبٍ فى جدار، مثل هذا الذى قرأ عنده الخادمُ الصلوات، مستنزلاً الرحمة على أمه وأبيه بعدما صارا ترابًا؟.. وإن صار لى مثل هذا القبر، فمن عساه يأتى كى يستنزل الرحمات بالصلوات على قبرى، وأنا لا أهل ولا ذرية لى!.. أتُرانى سأصير يومًا مرتعًا لهذا الدود الأبيض الذى يأكل الموتى، مع أنه لا أسنان له! أَمْ تراه ابتدأ بالفعل يأكلنى، من دون أن أفطن له.. أشفقتُ على نفسى إذ تذكَّرتُ منظره، يوم رأيت فى طفولتى بطةً ميتةً ملقاةً بين الصخور، وكان الدود يصطخب بباطنها. فى باطن الأرض إذا حفرناها، نرى الدود! فهل

ماتت الأرض، والدود ينخر فى باطنها من دون أن ندرى؟ حتى يضمحل هذا العالم، ويصير إلى العدم، ونحن غافلون..



على الطريق الترابى الواسع المتجه شمالاً من حلب إلى الدير، مررنا بأرضٍ واسعة ترابها مائلٌ إلى الحمرة، ونباتها جيد. يعتقدون هناك حسبما أخبرنى خادم الأبرشية، أن تربة هذه السهول كانت فى الأصل صفراء رملية، ثم احمرّت لما سالت عليها دماءُ الشهداء أيام الاضطهاد، وبقيت التربةُ حمراء لتذكّر أهل ديانتنا بزمن الظلم! هذا ما قاله لى الرجل المسكين، ولم أر داعيًا لمراجعته ونقض أفكاره، التى ألفيته هانئًا بها، مرتاحًا إليها.. التقطتُ فى طريقى بعض الأعشاب، لأنظر فى خواصها ومنافعها عندما استقر فى الدير. لكل ما تخرجه الأرض منافع وفوائد، قد نعرفها، وقد نغفل عنها.

استراحت نفسى لمشاهد الطريق. وكان خادمُ الكنيسة الذى صحبنى طيبَ الرفقة، لا يتأخر عن خدمتى والعناية بى. فى أوان العصر، كنا نسير على تلك التلال الشبيهة بالأمواج الكبار التى يعلو بعضها فوق بعض، وكنتُ غارقًا فى تأملاتى التى انتبهت منها، وخفق قلبى بشدةٍ، حين أشار الخادمُ بطول ذراعه إلى رأس أعلى التلال المحيطة، وقال مبتهجًا:

ـ ها هو الدير.. وَصَلْنا!

الرَّقُّ الثالثُ عَشَر

الدَّيْرُ السَّمَاوِىُّ

يوم رأيتُ هذا الدير أول مرة، بدا لى كأنه يقع عند التقاء الأرض بالسماء. كان الأوانُ آنذاك شتاءً، وكانت نسماتُ آخر النهار الباردة تمسح عنى تعب الرحلة، وتسكبُ على العالم بهجةً خفية.. صعدنا التلة إلى الدير بجهدٍ زائدٍ من البغلتين، وبأملٍ يراودنى فى أن هذه محطتى الأخيرة. كنتُ قد تعبتُ من الترحال الدائم، وآن أن أجد لى ملاذًا بقيةَ عمرى، فأهنأ بسكينتى حينًا، ثم أموت ميتةً هادئة تنسلُّ فيها روحى من صخب هذا العالم واضطرابه إلى صفاء السماوات. بدا الدير محطةً أخيرةً لارتحالى المتتالى، لهجرتى المتوالية التى امتدت حتى تبدَّدت من عندى ألفةُ كل الأماكن. ظننتُ أن مشيئة الرب قادتنى أخيرًا إلى هنا، ثم عرفتُ مؤخرًا أنها كانت ظنونَ ذاتٍ منهكة.

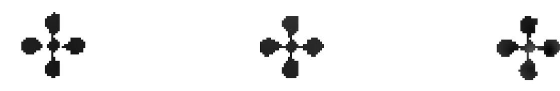
الديرُ أطلالُ مبنى قديم، لعله يعود إلى زمن ماقبل الرومان، بل هو يعود بالقطع إلى زمن سحيق. بعض الرهبان هنا، يرجِّحون أنه كان فى البدء قلعةً بائدةً، أو منـزلَ قائدٍ غابر. ولكننى لأننى خبرتُ المعابد فى بلادى الأولى، ماهو قائمٌ منها وما هو أطلالٌ لما اندثر منذ قرون، متيقنٌ من أن

مبنى الدير كان معبدًا فى الزمن الغابر، بل كان معبدًا هائلاً. هذا ما تدلُّ عليه أحجاره المتناثرة، كما يدلُّ عليه هذا المذبح الرخامى البديع الذى بنوا حوله الكنيسة الكبيرة للدير.. لبقايا المعابد حضورٌ خاصٌ، لايمكن لمصريٍّ مثلى أن يخطئه.

لم أُخبر أحدًا هنا بما أعتقده من أصل المكان، وهم هنا على أية حالٍ لايكترثون كثيرًا بالأصول، ولا يهتمون إلا بالحاضر الماثل أمام أعينهم. ولعلهم فى ذلك معذورون! أو هم بذلك محظوظون.. أما أنا، فكثيرًا ما كنتُ أفكر فى خلواتى، فى الأزمنة الغابرة التى امتلأ فيها هذا المكان بالمؤمنين بالإله القديم! كنتُ أفكر فيهم وفيه، وأشقى بأفكارى.. الكُلُّ إلى زوالٍ! كل شئٍ قائم على وجه الأرض يندثرُ، إلا أهرامات مصر الكبيرة. فهى عصيةٌ على الاندثار، وإن اختفت قاعدة الهرم عن أعيننا تحت الرمال.. نرى قمة هرم تطلُّ من تحت الرمال، فنوقن أن الهرم موجودٌ مهما كان مطمورًا.. فماذا عن الآلهة التى بنوا لها الأهرامات، وماذا عن الإله القديم الذى ظل يُعبد بموضع هذا الدير مئات السنين السحيقة السحيق؟ أين ذاك الإله الآن، بعد كُلِّ ما كان؟

أدركتُ بعد طول تدبُّرٍ أن الآلهة على اختلافها، لاتكون فى المعابد والهياكل والأبنية الهائلة، وإنما تحيا فى قلوب الناس المؤمنين بها. ومادام هؤلاء يعيشون، فآلهتهم تعيش فيهم، فإن اندثر أولئك انطمر هؤلاء.. مثلما مات الإله خنوم بعد موت أبى، والبقية الباقية من الكهنة الذين كانوا محصورين، فى معبده الكبير جنوبىَّ جزيرة ألفنتين. لابُدَّ أنهم اليوم جميعًا مَيِّتون، ولابد أن معبدهم قد انهدم، أو صار كنيسةً لإلهٍ جديد. المسيحُ يسوع قال لليهود فى أورشليم: *اهدموا الهيكل، وسوف أبنيه فى ثلاثة أيام*. فكذَّبوه وقدَّموه للرومان ليصلبوه، لأنهم لم يفهموا أن الهيكل هو ذاتُ يسوع المسيح الذى هدم هيكلهم بالفعل، ثم أعاد بناءه حين قام من موته بعد ثلاثة أيام. نحن أيضًا لم نفهم قول يسوع حين أشار إلى بطرس الرسول وقال: *على هذه الصخرة، أبنى كنيستى*. لأننا لم نُدرك أن كل كنيسةٍ بُنيت أو سوف تبنى، فهى لابد أن تقوم على رسولية بطرس وإيمانه الذى لايعرف الشك، وإن كان يعرف الضعف! فكما هو مكتوبٌ، أنكر بطرسُ يسوعَ المسيح ثلاثَ مرات فى ليلةٍ واحدة، وقد أنبأه يسوع بما سيكون منه، من دون أن ينكر عليه ما سوف يفعله من إنكارٍ له وخنوعٍ عن نصرته. لم يكن يسوع يريد نُصرةً، بل فداءً وتضحيةً، فبأى شئٍ كانت النصرة ستفيد، وأىَّ ضررٍ كان من الإنكار؟ أنا أنكرتُ هيباتيا أمام قاتليها، وأنكرتُ نفسى ثلاثةَ أيامٍ أمام أوكتافيا، لأننى كنتُ خائفًا. الخوف صار طبعًا عندى، من يوم قتلوا أبى أمامى.. واليوم، لماذا أخاف الموت؟ خليقٌ بى أن أخاف من الحياة أكثر، فهى الأكثر إيلامًا! ولماذا تتفرَّق سُحُبُ الإيمان من سمائى كلَّ حين. إيمانى مثل سحابات الصيف رقيقٌ، ولا ظلَّ له. أنا لن أبنى كنيسةً أبدًا، ولن تقوم فوقى كنيسةٌ أبدًا؛ لأننى لستُ صخرة مثل بطرس الرسول، ولأن إيمانى مشوبٌ بشكوكٍ كثيرةٍ.

ما الذى يأخذنى إلى هذا الكلام؟ وما الذى كنتُ أقوله أصلاً.. آه.. هذا الدير السامق إلى السماء، وأيامى الأولى فيه. كنتُ أصفُ المكان وما فيه، فعلىَّ أن أعود إلى ماكنت أحكيه.



يقع الديرُ على رأس تلَّةٍ مرتفعة، تحيط بها تلالٌ متفرقة وسهول. بوابتهُ فتحةٌ فى جدارٍ قديم لا يحيط بإحكام، بالساحة المتناثر فيها أعمدةٌ رومانية قديمة، بعضها قائمٌ عالٍ، والبعض الآخر متهدِّمٌ متناثرُ القطع. مدخلُ الدير من الناحية الجنوبية، حيث المرتقى الصعب للتلة العالية، أما النواحى الثلاث الأخرى، فلا مرتقى لها أصلاً ولا انحدار، فهى انحدارٌ

حادٌّ يبدو معه الدير، كمثل شرفةٍ عالية تطلُّ على آفاقٍ لايحدها البصر شمالاً وشرقًا وغربًا. تحت الدير من ناحية الجنوب، قريةٌ صغيرةٌ، بيوتها متناثرة على غير نظام، قرابة الثلاثين منـزلاً، تنام جميعًا تحت التلة. عند سفح المرتقى الصاعد إلى البوابة، من الناحية اليمنى، غُرفٌ من تلك التى يسكنها الجند. عرفتُ فى اليوم التالى لوصولى، أنها معسكرٌ لحاميةٍ رومانية عددها عشرة من جنود الرومان، يقيمون تحت الدير منذ سنين لحمايته، بعدما تعرض كثيرًا لهجمات اللصوص وقُطَّاع الطرق.. أىُّ أشرارٍ أولئك الذين كانوا يهاجمون ديرًا، ويسلبون رهبانًا مسلوبين من متاع الدنيا!

وعند سفح المرتقى من الناحية اليسرى، حيث التلَّةُ أقل انحدارًا، مساحات خضراء على هيئة مصاطب عريضة من الأرض، بقلبها كوخٌ مهجورٌ. تدلُّ الأشجارُ الجافة المحيطة به، وشجيرات العشب اليابس المتناثرة حوله وأعلاه، على أن هذه الأرض كانت تُزرع فى الماضى، على النسق البابلى القديم المعروف باسم: الحدائق المعلَّقة. ولكن، من أين كانوا يأتون بالماء اللازم لريِّ الزروع، أم تُراهم كانوا يعتمدون فقط على الأمطار؟ سألتُ نفسى عن ذلك، أثناء صعودنا التلة؛ ثم عرفتُ حين الإجابة بعد.

لم يوقفنا أحدٌ عند صعودنا للدير، ولا عند مدخله. الساحة الفسيحة للمدخل، يحدُّها من الناحية الغربية بناءٌ قديم مستطيل، من الحجر الأبيض، يبدو للداخل كأنه منفصلٌ عن الدير. هو المبنى الذى سأصيِّره بعد استقرارى هنا، مكتبةً.. على يسار الداخل، من الناحية الشرقية، تقوم عدةُ مبانٍ متجاورة: الكنيسة الكبيرة، ثم مخزنٌ كبير، ثم مبنى من طابقين ظاهرٌ من هيئته أنه صوامعُ الرهبان تحتها، فى الطابق الأول، مضيفةٌ ومطبخٌ صغير وقاعةٌ كبيرة للطعام. فى الجهة المقابلة لهذه المبانى، حظيرةُ دواجن

بجوارها اصطبلٌ مسقوفٌ بجريد النخيل، فيه ثلاثةُ حمير وكثير من الماعز وخراف الضأن. وعلى يسار العابر للساحة، مساحةٌ خالية تتناثر فيها أحجارٌ قديمةٌ، ورؤوسُ أعمدةٍ متكسِّرةٍ، وينمو نباتُ العوسجِ ذى الشوكِ الوخَّاذ. فى هذه الناحية الشمالية من الدير، تقوم الكنيسةُ الصغيرة. بجوارها غرفةٌ منفردةٌ واسعة، عرفتُ للوهلة الأولى أنها صومعة رئيس الدير.

فى أقصى الساحة من الناحية الشرقية مبنىً كالصندوق المغلق، كبيرٌ وغامضٌ، يسمونه هنا الحصن. المبنى يرتفع بمقدار ثلاثة طوابق، غير أنه يخلو تمامًا من النوافذ والأبواب. فهو جدارٌ أملس ليس فيه إلا كُوَّة صغيرة بأعلاه، بالكاد تكفى لدخول شخصٍ واحدٍ، منحنيًا، إذا صعد إليها مرتقيًا درجات السلم المتدلِّى من الكوة العالية. السلم مصنوعٌ من الحبال المجدولة والدرجات الخشبية، بحيث يمكن طيُّه عند اللزوم. سقفُ المبنى على هيئة قبةٍ عريضةٍ حادة الانحدار من كل الجوانب، وملساءَ بحيث لا يمكن الوقوف عليها والاستقرار فوقها. قد أعود للكلام عن هذا المبنى، لاحقًا.

لما دخلنا بوابة الدير التى بلا أبواب، أنزل الخادمُ متاعى فى وسط الساحة، واستمهلنى لحين إبلاغ أهل الدير بقدومى. وبينما كنتُ أرنو إلى السهل الممتد تحت حوافِّ الدير الغربية، حيث يبدو من بعيدٍ الطريقُ المرصوف المتجه إلى أنطاكية؛ جاء واحدٌ من الرهبان، فرحَّب بى وأخبرنى أن رئيس الدير سيلقانى بعد قليل فى قاعة الطعام.. القاعةُ بناءٌ عتيقٌ متهالكٌ، مسقوفٌ بجذوع النخل وجريده. أحجار جدرانه رصينةُ الرصف، وفى أنحاء حوائطه شقوق. لابد أن زلزالاً وقع فى هذه النواحى منذ أمدٍ بعيدٍ، فأوقع البناء الذى كان قائمًا هنا، وبقيت منه هذه الأطلال التى صارت ديرًا.

دخل رئيسُ الدير إلى القاعة، ومعه اثنان من الرهبان ذوى الملامح

الأنطاكية السمحة. وجوههم هنا صبوحةٌ، ليست كوجوه الرهبان المصريين اليابسة الشاحبة من كثرة الصوم، ومن غلبة لون الطمى الذى يحمله فيضان النيل إلينا كل صيف. رئيس الدير شيخٌ لم يطعن فى السن بعد، هادئ الصوت والحركات، وقورٌ. انبسطتْ ملامح وجهه حين قرأ رسالة القَسّ نسطور، ورحَّب من فوره بانضمامى إليهم.

بعد العشاء قام معى راهبٌ شابٌ، فأوصلنى إلى صومعتى التى وصفتها فى أول تدوينى هذا. جلس الراهبُ معى ساعةً هادئة، عرَّفنى خلالها نظام الحياة فى الدير. نظامهم هنا ليس مختلفًا، كثيرًا، عن المعمول به فى معظم الأديرة. أعمالٌ قليلة فى النهار، وصلواتٌ كثيرةٌ وتسابيحُ فى معظم الأوقات. وَدِدتُ لو أسأل الراهب المرشد، عن المبنى الغامض الذى بآخر أرض الدير، ثم آثرتُ التريُّث.

كانت أيامى الأولى فى الدير هادئة، هانئة. أمضيتُ أوقاتى فى القراءة والعبادة، فسكنتْ روحى. كان المبجَّل نسطور محقًا، فهذا الدير مناسبٌ لى بوجوهٍ خفيةٍ أستشعرها ولا أتعقَّلها. كان الأمر الوحيد المؤرِّق لى، هو ذلك البناء المصمتُ الصامتُ ذو السقف المقبَّب والحضور الغامض، القائم منفردًا بأقصى الطرف الشرقى من الدير.. مع مرور الأيام عرفتُ عنه أشياءَ، وغابتْ عنى أشياءُ أكثر. قالوا إنهم يسمونه الحصن؛ لأنه كان فى الماضى ملاذًا للرهبان من غارات اللصوص الدائمة. فكانوا يبيتون فيه، ويحفظون أغراضهم وأرواحهم بين جدرانه، ويستعملون السلم المعلَّق بالفتحة العليا لدخول هذا الرحم الآمن والخروج منه. وهو ليس مصمتًا، وإنما فيه غرفٌ بينها ممرات. وفى قاعه مدفنٌ لرهبان الدير الذين تنيَّحوا (ماتوا) فى المائة عام الأخيرة، التى هى عمر الدير. قيل لى أيضًا إنهم أقاموا هذا البناء الحامى فوق المقبرة، قبل سبعين سنة، لتحل عليهم بركات المدفونين! وإن المبنى مؤلَّف من أربعة طوابق خفية، لا ثلاثة، ويقوم فى وسطه سلمٌ حجرىٌّ أُفعوانىٌّ الالتفاف، يصل ما بين أرضه وسقفه، ويمرُّ على حوائط طوابقه الأربعة. للسلم فتحةٌ واحدةٌ بأعلاه، تُغلق من داخله بكتلةٍ من النحاس السميك.

قالوا همسًا إنه قبل قرابة خمسين عامًا، ظَلَّ الرهبانُ داخل المبنى المظلم شهرًا كاملاً. كان اللصوص خلاله يحاصرونهم، ويعسكرون فى الكنيسة الكبيرة من دون أن يجدوا سبيلاً لاقتحام مأوى الرهبان. معجزاتٌ كثيرةٌ مبهرة، وقعت خلال هذا الشهر. كان أولها وأبهرها، ظهورُ وجه المسيح ثلاثَ ليالٍ متتالية فى قمر المساء المكتمل. وكان آخر المعجزات، أن اللصوص هَبُّوا من نومهم فزعين فى ليلتهم الأخيرة، فاستلوا سيوفهم، وتطاعنوا وقد انتابهم هوسٌ مروعٌ. تثاخنوا حتى قتل بعضهم بعضًا. فى الصباح، كانت أبدانهم الميتة متناثرةً فى الساحة التى أمام الكنيسة الكبيرة. كلهم ماتوا فى ساعة واحدة، وكان عددهم فوق العشرين.. هذه الرواية يؤكِّدها الجميعُ هنا، ويجزمون بأن رئيس الدير عاينها بنفسه، أيام صباه المبكر.

أثار المبنى وحكاياته حيرتى. تخيَّلته من الداخل على هيئةِ دهاليزَ ملتفةٍ حول بعضها، مثل بيوتِ النمل، غير أنها مبنيةٌ فوق الأرض، ومشرفةٌ من الجهات الجنوبية والغربية والشمالية، على هوةٍ سحيقةٍ لا يمكن ارتقاؤها من السهول التى تطلُّ عليها ربوةُ الدير العالية.. كان ينتابنى هاجسُ الدخول إلى المبنى، لكنى لم أحدِّث أحدًا بذلك. ولم أر أحدًا يدخله قط، طيلة السنوات الماضية.. يؤكدون هنا أنه منذ جاءت الحامية الرومانية قبل عشرين سنة، كَفَّتْ الغاراتُ، وكَفَتْ الحاميةُ الرهبانَ مؤونةَ الاختباء الدائم والخوف المقيم. ولم يعد أحدٌ يدخل المبنى، إلا عند موت أحد الرهبان، لدفنه فى المقبرة التى بالقاع.. لم يمت أحدهم هنا، طيلة السنوات الخمس الماضية، فلم تسنح فرصةٌ لدخولى معهم أو حتى

رؤيتهم يدخلون. قيل لى سِرًا وتلويحًا، إن رئيس الدير يحفظ فى غرفة سرية بالمبنى، المسامير التى دُقّت فى كفَّىْ يسوع المسيح وقدميه، يوم صُلب فى أورشليم.. وإن هذه المسامير تتوهَّج بالليل، إن الرهبان كانوا أيام اختبائهم بالمبنى، يستضيئون بها فى الظلام! هذا ما قالوه لى همسًا، بعد عامين من استقرارى بالدير.

بعد أسابيع من وصولى، طلب منى رئيسُ الدير أن أقضى فترةً من النهار، فى المبنى الذى على يسار الداخل من البوابة المهدَّمة. المبنى قاعةٌ واحدة كبيرة، تقع من الدير فى الجهة الغربية. قال إنه سيخصِّصها لعلاج المرضى الذين قد يفدون من البيوت والقرى القريبة. أضاف أنه يمكننى أن أجعلها مكتبةً أصُفُّ فيها كتبى، وبعض الكتب الأخرى التى كانت مكدَّسة فى صناديق بالغرفة المجاورة لمطعم الدير. أسعدتنى الفكرة، وأمضيتُ فى البداية أيامًا طوالاً لم يأت فيها مرضى، فوجدت الفرصة لمعاودة النظر فى كتبى، وتصفُّح الكتب التى أخرجتها من الصناديق. كان أغلبها أناجيل، وكتب أدعية وصلوات. صففتُ الكتب على الأرفف الخشبية التى أتقن نجارُ القرية صنعها، وجعلها كما طلبتُ منه، بطول الحائط الغربى المقابل للجهة المطلة بشباكها، على ساحة الدير الداخلية المستوية. رتَّبتُ الكتب بحسب موضوعاتها، الطبُّ والصيدلة أولاً، ثم التاريخُ والأدب، وقبلها جميعًا كتبُ الديانة. فى وسط القاعة، أصلح النجَّار الطاولة والكراسى، فأجاد.. وهكذا صارت لى المكتبة التى طالما حلمتُ بها، وكنتُ مستريحًا إليها؛ لأنها أبعد موضعٍ، عن المبنى المهيب الغامض، الجاثم فى أقصى الطرف الآخر.

قبل أن ينتهى عمل النجَّار، بيومين، كُنَّا على باب الكنيسة الكبيرة بعد انتهاء قداس يوم الأحد، وكان فتىً بدينٌ فى حدود الخامسة عشرة من عمره، يجلس على حجرٍ فى زاوية الساحة الممتدة من مبانى الدير إلى المبنى الغربى المخصص لى. ناداه رئيس الدير فأقبل مهرولاً، وسعيدًا من دون سبب. قال رئيسُ الدير لى، أننى يمكننى الإستعانة به فى أمور المكتبة وعلاج المرضى. وألمح إلى أنه يتمنَّى لو يتعلم الفتى منى، أشياءَ نافعةً، فأومأت برأسى مرحبًا. أضاف رئيسُ الدير، بعدما دعا لنا بالبركة: *سيكون معينًا لك، فهو ولدٌ طيب، اسمه الشَّمَّاس.*

ابتسمتُ لما سمعتُ اسم الفتى، الشَّمَّاس. كانت هيئته وسنواتُ عمره، لاتدل على أنه شماسٌ. فهل سُمِّى بذلك، تيمنًا بأنه سيكون يومًا ما شماسًا؟ سألتُ الفتى عند حظيرة الماعز، فأخبرنى أن رئيس الدير أعطاه هذا الاسم، من يوم كان رضيعًا. استغربتُ الأمر، وبدا الفتى غير ممانع فى أن يخبرنى بالمزيد.. جلستُ عند حافة السور المشرف على السهول الغربية، وسمعتُ من الفتى ما ملخصه أنهم وجدوه رضيعًا عند باب الكنيسة الكبيرة، صبيحة يوم أحد. كان عمره يومين، ولم يكن قادرًا من شدة ضعفه على البكاء.. عرض رئيسُ الدير يومها على نساء المؤمنين، أن تأخذه واحدةٌ منهم، فلم يرحبن. غير أن امرأة فقيرة من الموعوظين، تطوَّعت بإرضاعه كل يوم مرتين. فتطوَّعت امرأة كاهن القرية، بأن تؤويه فى بيتها.. وهكذا تعاونوا فى أمره، وأعطاه رئيس الدير اسم: الشَّمَّاس!

ـ تركتنى أمى التى لم أعرفها قط، لأنها كانت خائفة..

تعجَّبتُ من البساطة التى قَصَّ بها الفتى حكايته، من دون أىِّ أسفٍ أو خجل؛ كأنه يقصُّ واقعة عادية، من شأنها أن تحدث لأى شخص.. كان ذلك هو الدرس الأول الذى تعلمته فى هذا الدير، وأفادنى كثيرًا على نحوٍ خفىٍّ. لاينبغى أن نخجل من أمرٍ فُرض علينا، مهما كان، مادمنا لم نقترفه. ساعدنى ذلك، كثيرًا، على نسيان ما فعلته بى أمى زمن طفولتى، وعلى تناسى ما فعلتُه، ومالم أفعله، بسبب خوفى وقلة استطاعتى.

صار الفتى البدين، الشَّمَّاس، معينًا لى فى كل الأعمال. واكتشفتُ مع الأيام، أنه ولدٌ طيبٌ حقًا، وروحه طاهرة. وساعدنى مع الراهب الفِرِّيسى، باجتهادٍ، فى تنظيم الكتب وفى تنظيفها؛ حتى صار المكان جديرًا باسم المكتبة.

بعد شهور من إقامتى هنا، هدأت نفسى حتى شعرت بأن هذا الدير هو محطة ترحالى الأخيرة. كان عمرى آنذاك، فى حدود الخامسة والثلاثين. كنت لم أزل فتيًا، وكانت همتى عالية.. اعتدتُ أيامها أن أبدأ صلواتى فى قلب الليل، ثم أنضمَ لبقية الرهبان فى القُدَّاس. وحين يمضى كُلٌّ منهم إلى أشغاله، أمضى إلى المكتبة، فلا أخرج منها، إلا لأداء الصلوات.

فى بدء إقامتى هنا، كان الرهبان يلحُّون علىَّ فى الانضمام معهم للغداء، وكنت أعتذر بأننى أكتفى بوجبةٍ واحدة فى اليوم والليلة. علمتنى حياة التقشُّف التى عشتها، الاقتصار على أقل قَدْرٍ من الطعام. كان رئيس الدير أيضًا، لايأكل غير وَجْبةٍ واحدة فى يومه ولَيلته.. هو رجلٌ طاهرٌ، بشوشٌ وحازمٌ، يقضى معظم أوقاته فى الصلاة والوعظ، ولا يهجع إلا قليلاً. وهو يكلِّم زوار الدير من القرويين، بلسانٍ طيبٍ مفعم بالمحبة. الناس فى القرية النائمة تحت الدير، والقرى المجاورة، يعرفون قدره، وتميل قلوبهم إليه.

أولُ مريضٍ أتانى طالبًا العلاج، كان من أقارب رئيس الدير. رفيقٌ له من زمن صباه، يصغره ببضعة أعوام، كان قد اختار حياة المزارعين، وأصلح فى شبابه مع أبيه أرضًا واسعةً فى السهول الممتدة شمال الدير، ثم سكن بأسرته فى قلبها الأخضر. كان الرجل قد تعدَّى الستين من عمره، وكان يشكو التهوُّع الدائم والنـزوع المستمر للقئ، حتى نحل بدنه وسقطت قوته. جَسَسْتُ نبضه فكان ضعيفًا، وتفحصتُ ما يخرج منه، فعرفتُ أنه يعانى من ضعف المعدة وسوء الهضم. عالجته علاجًا لطيفًا بالأدوية المصلحة للأمعاء والمعدة، ومنعته من الأغذية رديئة الهضم، من دون أن أخرج به كثيرًا، عن مألوفه المعتاد فى المأكل والمشرب. بعدما اعتدل هضمه، أعطيته مسحوق الحبوب المرة التى تنبت فى مصر، مخلوطًا بالبزور الدابغة للمعدة، المقوية لها بإزالة بلَّتها. لم أُراع فى علاجه القاعدة الطبية التى يردِّدها الناسُ فى زماننا، وينسبونها إلى جالينوس أعنى القاعدة القائلة: *ينبغى أن يُعالج كُلُّ مريض بنبات أرضه!* فهى مما لا أعتقد بصحته، ولم أر تأكيدًا له فى كتاب. بعدَ أسابيع أربعة، برأ الرجل تمامًا واستردَّ عافيته. جاء بعد شفائه إلى الدير، حاملاً هدايا كثيرة من خيرات أرضه؛ فارتفع رأسى بين الرهبان، وسَعد رئيس الدير بالأمر.

بعد أربعة أشهر من إقامتى هنا، وصلتْ الدير ثلاثةُ صناديق كبيرة فيها الكتب التى كان أسقف المصيصة تيودور قد وعدنى فى أورشليم بنَسْخها. فرحتُ بالكتب كثيرًا، ورحتُ مبتهجًا أَصُفُّها على المواضع الخالية من الرفوف، وقضيتُ زمنًا جميلاً فى قراءتها. كنتُ أمضى وقتًا طويلاً بين الكتب، ويأتى الليلُ، فأنام بالمكتبة جالسًا. حفظتُ فى صومعتى، الكتب المنهىَّ عنها والمحرَّمة على العوام، كانت فى حدود المائة كتاب ولفافة. أما التى بالمكتبة، فكانت تزيد عن الألف.. كان ضمن هدية الأسقف تيودور نسخة كاملة من تفسيره للأناجيل وأعمال الرسل، ومجموعة كتب أبقراط الاثنا عشر، كاملةً، وأربعة عشر كتابًا من الستة عشر المعروفة بمنتخبات الإسكندرانيين، لأن قُدامى أطباء الإسكندرية استخرجوها من رسائل جالينوس وشذراته المتفرقة.

عرفنى الناسُ مع توالى الشهور والأيام، وصار المرضى يتوافدون على الدير من النواحى المحيطة، طلبًا لطبى ومعالجاتى. أكثرهم شُفى برحمة الربِّ وحُسن الطبِّ، فاشتهر أمرى فى القرى المجاورة والمدن، وطلب أطباؤهم فى بعض الأحيان مشورتى. أقصد المبتدئين من أطبائهم. كان

رئيس الدير حين يزورني، كثيرًا ما يداعبني بقوله: *يا هيبا المبارك، أتيتَ هذا الدير راهبًا طبيبًا، فأصبحت الطبيب الراهب*. قال لي ذلك مرات كثيرة مازحًا، مازجًا قوله ببسمته الرائقة.. بعدما أنست إليه، قلتُ له يومًا إنني أيضًا شاعرٌ، فضحك وهو يقول ما معناه: *كُنْ طبيبًا جيدًا، ثم كُنْ من بعد ذلك ما تريد أن تكون!* ويبدو أنه استشعر حرجي من عبارته، فخفَّف عني، بإصراره أن أقرأ عليه بعضًا من شعري. وقد أدهشني حين أخبرني أنه يحبُّ الأدب، ويقرأ خطب شيشرون، ويحفظ منها أجزاءً طوالاً! قلتُ مندفعًا:

ـ شيشرون وثنيٌّ ياأبتِ!

ـ نعم. لكنه بليغٌ جدًا، وموهوبٌ من الربِّ. كان القديس كليمان، وهو أحد أجلاء الآباء الأوائل، يحب قراءة أعماله.

ـ لكنه يا أبتِ، كان يلوم نفسه على ذلك. وحُكي أنه رأى في المنام هاتفًا يقول له مؤنِّبًا: أنت يا كليمان شيشروني، لا مسيحي.

ـ هذه يا هيبا منازعاتُ النفس، وقلقُها الدائمُ الذي يثور ثم يهدأ.. ماعلينا من ذلك الآن، ألن تسمعني أشعارك.

ـ غدًا يا أبتِ المبجل، أقرأ لك بعضًا منها.

ـ إذن، إلى الغد بمشيئة الرب.

رئيس الدير يتكلم عادةً باليونانية، لكنه يجيد السريانية تمامًا، ويتحدَّث بها أحيانًا. معظم أهل هذه النواحي يعرفون اللغتين، لكن رئيس الدير يعرف أسرارهما، وهو يتبسَّط في الكلام مع عامة المؤمنين. مع أنه في خُطبه وتعبيراته، بليغٌ رشيقُ اللفظ. وهو يقول عادةً بنظراته وحركة يديه، مالا ينطق به لسانه. ويتعامل دومًا مع رهبانه الذين يبجِّلونه، بالنظر والإشارة.. دخلتُ صومعته مرات في بدء استقراري هنا، فلم أر فيها كتبًا. وحين تناقشتُ معه، وجدته يستحضر الأقوال والنقول من ذاكرته، من غير مراجعة ولا نظر في الكتب. لا أعني الأناجيل وأعمال الرسل، فهو بالطبع يحفظها. وإنما الغريب فيه، أنه يحفظ صفحات كثيرة من مدوَّنات الآباء الأولين، ويتلو من ذاكرته القرارات التي انتهت إليها المجامع المقدسة،بل يحفظ خُطب شيشرون! هو رجلٌ مباركٌ حقًا، ومحيِّرٌ. متى قرأ كل ذلك؟ ولماذا لا يقرأ الآن؟ وهل كان فعلاً ضمن الرهبان الذين استعصموا بالمبنى شهرًا كاملاً، قبل خمسين عامًا؟ ولم لا، فهو في حدود السبعين من عمره، وإذا صَحَّ زمن الواقعة، فقد جرت حين كان في العشرين. غدًا أسأله، بعد قراءة أشعاري له.. هذا ما نويته يومها، غير أن الزمان كان يخبِّئ لنا شيئًا آخر. ففي صباح اليوم التالي، وبينما كنتُ جالسًا وحدي بقاعة الكتب، أرتِّب أوراقي الشعرية، وأختار منها ما سوف أتلوه، سمعتُ صوت أقدام آتيةٍ من خلف باب القاعة. كان صوت الحصى يدلُّ على أن القادمين أربعةً أو خمسة، فظننت أن رهبانًا جاءوا ليسمعوا شعري، مع رئيس الدير.. لكنه لم يكن رئيس الدير.

كانت فرحةً غير متوقعة. فقد انفتح بابُ القاعة، ودخل منه متهللاً الأبُ الطيب، الروحُ اليسوعي الخالص، القَسّ المبجَّل، نسطور:

ـ صباحك مباركٌ يا هيبا، جئتُ خصيصًا لأراك.

ـ مرحبًا بك يا أبتِ الجليل، هذا عيدٌ مباركٌ وحَقِّ السِّتِّ العذراء.

دخل وراءه جماعةٌ، يرفلون في أرديتهم الكنسية الوقورة. كلهم، فيما يبدو من ملبسهم، أنطاكيون. دخل رئيسُ الدير معهم، من ورائه ثلاثةٌ من أكبر رهبان الدير سنًّا. جلسنا جميعًا على الاثنى عشر كرسيًا، الملتفة حول الطاولة. كان جمعًا مباركًا، وقد طابت نفسي لما قال رئيس الدير:

ـ المبجَّلُ نسطور في طريقه إلى حلب، لتجديد أبرشيتها. وقد سألني عنك فور دخوله من بوابة الدير، ولم يجلس إلا عندك.

ـ هذا تشريفٌ كبيرٌ منه، ومنك يا أبتِ المبجَّل.

ساعةَ الظهرِ، دخل علينا راهبان يحملان أطباقًا. كانت المرة الأولى التى يأكل فيها غيرى بهذه الصالة الفسيحة، منذ صيرتها مكتبة. طافت بنا سفنُ الكلام فى كل البحار، وشاركنا الحديث القسوسُ والرهبانُ، حتى صرفهم نسطور ليستريحوا من سفر اليوم، ويستعدوا لرحلة الغد. لما بقينا ثلاثتنا، هو ورئيس الدير وأنا، أخبرنى أنه ابتهج لما عرف باشتهار أمرى فى الطب عند أهل النواحى.. وأضاف: *البعضُ فى أنطاكية يذكرونك بكل الخير والمحبة والثناء على مهارتك، مع أنك لم تمضِ هنا إلا عامًا واحدًا. وقد طلب منى الأخوةُ هناك. أن أعرض عليك الانتقال لأنطاكية، إذا شئت، فقلت لهم إننى سأعاود العرض عليه، مع أنه رفضه يوم كنا فى بيت الربِّ بأورشليم.*

ـ أنا شاكرٌ لكم فضلكم يا نيافة الأسقف المبجَّل، ولكننى مرتاحٌ هنا.

ـ ليكن.. ولكن لماذا لم تزرع بزورك وأعشابك الطبية، مادمتَ تنوى الاستقرار؟ أم أن رئيس الدير، الطيب، يمنعك.

ـ لا يا أبتِ، أبدًا، أنا لم أبحث معه الأمر بعد.

نظر نسطور لرئيس الدير نظرةً مليئة بالمحبة، ثم صَمَتَ لحظةً قبل أن يقول وهو يعدِّل غطاء رأسه، إن علينا الشروع فى إنبات الأرض بلا تأخير، ففى زراعة العُشبِ الطبى خيرٌ كثير للمرضى من المؤمنين.. ثم ذكَّر رئيس الدير بالبئر القديمة المعطَّلة، التى بقلب الساحة الممتدة بين مبانى الدير والمكتبة، مشيرًا إلى ضرورة الاستفادة بمائها فى سُقيا الزرع أيام الصيف. نظر نسطور نحوى وهو يقول: هذا *الدير المبارك مرتفعٌ، وعلى جانبَى الممرِّ الصاعد إليه قطعٌ متدرِّجةٌ من الأرض الصالحة للزراعة، يمكنك أن تزرع فى أسفلها نباتات البلاد الحارة، وفى أعلاها نباتات البلاد الباردة..* ابتسم رئيس الدير وهو يقول: *إيه يا نسطور المبارك، إنك خبيرٌ أيضًا بأمور الزراعة.*

ـ هذه أيها الأبُ الجليل، معارف أولية. ولكننى أفكرُ فى شئ كبير، كأن نبنى بهذا الدير مشفى وكنيسةً كبيرة.

استحسن رئيس الدير الفكرة وباركها، ولكننى أشفقتُ منها. كنتُ لازلتُ أخاف صخب الناس من حولى، وأشعر بالغربة بينهم. وقد ارتحت هنا، من اضطراب عالمهم. فإذا تم الأمر الذى يريده نسطور، فسوف أشارك فى إتمامه إكرامًا له، ثم أرتحل للسكنى فى أىِّ ديرٍ قريبٍ، لأهنأ بابتعادى عن الناس. ذلك ما كنتُ أفكر فيه لحظتها، ثم كانَ ما كان.

بعد الغروب دخل علينا خدَّام الدير بطاولةٍ كبيرة، عليها قطعٌ من الجبن، وبيضٌ مشوىٌّ، وخبزٌ، وخبزٌ معجونٌ بالسكر، وإبريقٌ من اللبن، وبعضُ الفاكهة. لم تكن أيام صوم. تناول رئيس الدير حَبَّة خوخ واحدة، مضغها على مهل كعادته، ثم ودَّعنا وهو يقول: *هذه سوف تكفينى للغد، كُلوا أنتم هنيئًا فمازلتم شبابًا، وأكملوا جلستكم المباركة. ولسوف أسعد برؤياك يا نسطور المبارك، فى الصباح الباكر، قبل رحيلك. هيبا يعرف المضيفة، وسوف يأخذك إليها وقتما تشاء. أترككما فى عناية الرب.*

لم نأكل إلا لقيمات معدودة، ارتشفنا معها بعض الحليب، ثم خرجنا من قاعة الكتب إلى ساحة الدير الفسيحة. كان الأوانُ خريفًا، والليلُ بليغ السكون.. فى الأجواء بردٌ لطيف، وفى السماء نصوعٌ نادر التكرار. قلت لنسطور إننى أشعر هنا بقُربى من السماء، وإننى ما عدتُ أحنُّ إلى بلادى الأولى، وما عادت شكوكى تعاودنى.. أضفتُ: *منذ جئت إلى هنا. أشعر بأن العالم صار آمنًا*! فابتسم وقلَّب كفَّيه فى الهواء وهو يقول بأسى: إن

العالم لم يزل فى اضطراب، لكننى ابتعدت عنه.. أضاف: *أطرافُ الدولة أنهكتها غارات البرابرة وقبائل الشمال، والأكرادُ فى الشرق لا يهدأون، وكذلك القوط فى غالة. وأما مُدن المسيح الكبرى، فهى مترعةٌ بالدسائس والفتن الخفية وأسودات الظنون*. وأخبرنى بأمورٍ أخرى كثيرة، تصطخب فى العالم الذى انزويتُ عنه؛ منها أن تيودور الأسقف ساءت صحته، وثقلت عليه سنواته السبع والسبعون، وأنه سوف يشعرُ بالوحدة من بعده. وأن الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى كاتبه فى أمر كرسى الأسقفية بالقسطنطينية، ولسوف يرحل قريبًا إلى هناك لرسامته أسقفًا للعاصمة. لم يكن مبتهجًا! قال إن عليه إنهاء أمورٍ كثيرة فى أسقفية أنطاكية وما حولها من أبرشيات، وإن عليه إتمام أعمال بدأها، ولا يدرى إلام سيؤول مصيرها بعد انتقاله إلى القسطنطينية.. كان مهمومًا، فأردتُ أن أسرِّى عنه، فقلت ممازحًا:

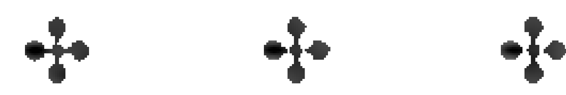
ـ يا أبتِ، أن تكون أسقفًا للعاصمة الإمبراطورية، فى السابعة والأربعين من عمرك، هو شأنٌ كبير وخيرٌ كثير؛ فلا تأس.

ـ كُفّ عن هذا ياهيبا، فقلبى ليس مرتاحًا للقسطنطينية، ولا لمجاورة رؤساء هذا الزمان؛ فإن فيهم ما فيهم.

ـ سيرعاك الرب ياسيدى، ويحفظك.

أدار نسطور وجهة الكلام إلى ناحية أخرى، بأن امتدح هواء الليلة الرائق وصفاءها وبردها اللطيف المنعش، وأخبرنى بأنه أحضر لى كتبًا وأعشابًا طبية من أنطاكية، فشكرته على اهتمامه بالدير بقية عمرى، فأكَّدتُ ذلك.. قضينا النصف الأول من الليل نتحدث فى أمورٍ كثيرة، حتى كدتُ أتشجَّع وأُحادثه فى أمر المبنى القصىِّ الغامض الذى بطرف الدير الشرقى، علّنى أجد عنه خبرًا عنده. غير أننى لحظةَ أشرتُ للمبنى تمهيدًا للسؤال تثاءب، فلم يكن أمامى إلا دعوته ليرتاح بغرفته.. صحبته إلى باب المضيفة، وصعدتُ لأبيت فى صومعتى هذه، وقد امتلأتُ بالأُنس وتملكتنى غبطةٌ سماوية لا يشوبها إلا إحساسى بفوات فرصة سؤاله عن حقيقة المبنى الغامض.

فى الصباح الباكر، كنتُ أنتظر نسطور عند باب المضيفة، كان معى اثنان أو ثلاثة من الرهبان. خرج مشرقًا كعادته، وصلينا جميعًا فى الكنيسة، ثم صحبته إلى مائدة الفطور، وبعدها نزلتُ معه حتى سفح التلة.. مضى هو ومن معه إلى حلب، صعدتُ إلى الدير، فوقفتُ عند بوابته أرقبُ قافلتهم الصغيرة، وهى تغيب عن ناظرى بين موجات التلال التى تعلو السهول.



ثم دخلت علينا السنُة الثامنة والعشرون بعد الأربعمائة للميلاد، وفيها جرت وقائعُ كثيرة. انتقل الأسقف تيودور إلى الملكوت الأعلى، وانتقل نسطور فى فصل الربيع إلى القسطنطينية حيث رُسم هناك أسقفًا للعاصمة الإمبراطورية، واستقرت أمورى فى الدير، وازداد ترداد المرضى طلبًا لمعالجاتى. مضت بى أيامُ هذه السنة، والسنة التالية عليها، هادئةً هانئة. حتى دخل العامُ الثلاثون بعد الأربعمائة لميلاد المسيح، وفيه كان ماكان من وقائعَ مزلزلةٍ لكل ما استقر من أمورى. خاصة ماجرى من تلك الوقائع أواخر السنة، فى بدايات فصل الشتاء. ففى تلك الأيام احتدم الخلافُ بين الكبار، وفيها أطلَّت شمسُ مرتا فى سماء وجودى، أعنى شمسها اللافحة.

الرَّقُّ الرابعُ عَشَر

شُمُوسُ البَاطِنُ

قبل أن تهب علينا العواصفُ العاتيةُ الحاليةُ، وتدهمنا الدواهى، كانت أوقاتى فى الدير موزعةً بين المبيت فى صومعتى أو قاعة الكتب، والصلاة مع الرهبان فى الصباح، ولقاء المرضى ما بين الظهر والعصر، والقراءة وكتابة الأشعار حتى يغلبنى الوسنُ. كان نومى قليلاً، وكانت رؤاى هادئة. وكثيرًا ما سمعتُ الأشعار فى منامى، فانتبهتُ لأكتبها. ولذلك صرتُ، أضع رقوقى ومحبرتى، بجوار مخدتى. وتعمَّقتُ أيامها فى أسرار اللغة السريانية، وعشقتُ آدابها المكتوبة. خاصةً قصة الحكيم أحيقار التى درستها أول مرة على يد شيخ أخميمى، اسمه ويصا، كان يدرِّس لنا اللغات القديمة، ومن بينها الآرامية أو السريانية كما يحب نسطور أن يسميها.. وقد رأيتُ هنا نسخًا أخرى من قصة أحيقار، بينها اختلافات، وكنتُ أنوى مقابلة هذه النسخ الكثيرة، لاستخراج نصٍّ دقيق، محرَّر، لهذه القصة المليئة بالعبر[1]. أما أجمل أوقاتى فى هذا الزمان الذى يبدو الآن

---

(١) هى قصةٌ آرامية (سريانية قديمة) تحكى وقائع حياة الحكيم أحيقار وزير الملك سنحريب وغَدْر الزمان به، ثم صفوه، ونصائحه لابن أخيه. وهى تطابق على نحوٍ لافت، ما نعرفه اليوم من قصة لقمان الحكيم، ونصائحه لولده. (المترجم).

بعيدًا، فكانت جلستى ساعة الشروق على الأحجار المتناثرة عند حافة سور الدير. السور المتهدِّم عند الزاوية الشمالية الغربية، المطلة على السهول الواسعة الممتدة حتى ساحل البحر البعيد، ومدينة أنطاكية. تمنيتُ أيامها لو احتدَّ بصرى، فاستطعتُ من موقعى العالى عند سور الدير، أن أرى المدن البعيدة: أنطاكية والقسطنطينية والمصيصة! ستكون معجزةً لن أحدِّث بها أحدًا، لو حدثت، أعنى لو وهبنى الرب إياها. الرب لايحبُّ إظهار معجزاته التى يجريها على أيدى القديسين، إلا نادرًا. لكننى، لستُ قديسًا، أنا طبيبٌ وشاعرٌ يلبس لباس الرهبان، ويمتلئ قلبه بالمحبة للكون، وينتظر أن يُنهى سنوات حياته الآتية بلا آثام، فيرتقى بخفَّة الروح الطاهرة إلى السماوات، حيث تتلألأ أنوارُ المجدِ الإلهى.. كانت تلك، هى حدود حياتى آنذاك، أعنى قبل سنةٍ واحدة فقط.

وكان رئيسُ الدير قد صار قريبًا منى، بل كنتُ فى هذا الوقت أقربَ سُكَّان الدير إليه، وأكثرهم جلوسًا معه، خاصةً بعد رحيل الراهبين: الضحوك والفِرِّيسى. ولطالما نادانى رئيسُ الدير إلى غرفته الواسعة ذات الشبابيك الثلاثة، أو أتانى فى المكتبة قبيل الظهر، ومكث معى إلى وقت الغداء. الغداءُ وجبته الوحيدة، ولكنه يحرص على الحضور لصالة الطعام وقت الإفطار والعشاء ليقرأ على الرهبان المزامير، ويتكلَّم معهم بكلمات قليلة. كان يسألنى دومًا عن مرضاى، وعما أكون قد كتبته من شعر، ويسعد حين أقرأ له شيئًا جديدًا. بل صار يحفظ بعض أشعارى، وينظر إلىَّ حين أتلوها عليه، بالحنوِّ الذى عرفته قديمًا فى نظرة أبى.. الأبوةُ روحٌ ربانيةٌ ساريةٌ فى الكون، تنـزل بالرحمة السماوية إلى الصغار عبر آبائهم.

أنا لن أكون أبًا أبدًا، ولن تكون لى يومًا زوجةٌ وأبناء. لن أعطى هذا العالم أطفالاً ليعذبهم مثلما تعذَّبتُ، فلا طاقةَ لى لاحتمال عذاب طفل.. إذا سمعتُ بكاء وليدٍ تحمله أمه إلىَّ لعلاجه، أُسرع إلى لقائهما عند باب

المكتبة، فأحمله عنها، وأَهِمُّ به إلى الداخل حيث أحتفظ بين الأدوية، بعلاجات كثيرة لأوجاع الأطفال. الرُّضَّعُ منهم يعانون دومًا من انتفاخ البطون، ومن سوء عناية الأمهات ورداءة لبن بعضهن. أصفُ للأم أغذيةً تحسِّن لبن رضاعها وتجوِّده، وأخفِّفُ القماط عن جسم الرضيع وأمسحه بدهانٍ عطريٍّ ابتكرته واختبرته مرات، فألفيته نافعًا. كثيرًا ما كان الأولاد الرضع يبولون تجاهى، لحظة أفكُّ القماط. كنتُ أضحك، وكنتُ أسعدُ بفرحة الأمهات اللواتى يأتين بأطفالهن الصارخين ألمًا وتوجُّعًا، ثم يخرجن من عندى وقد هدأ أطفالهن وناموا على أكتافهن. لايوجد فى العالم أسمى من دفع الآلام، عن إنسانٍ لايستطيع التعبير عن ألمه. وهل كان مجيئ يسوع المسيح، إلا لتخليص الإنسان التائه، الغافل عن خطاياه الكثيرة؟ احتمل يسوع الألم ليدفع عنا الإثم.. كانت تلك العبارة بدايةَ واحدةٍ من قصائدى السريانية التى أحبها رئيس الدير، وكان يحفظها. هل أذكرها هنا؟.. ولم لا.. تقول قصيدتى:

باحتماله الآلام دفع عنا الآثام،

وبالتضحية افتدانا.

بالمحبة نزل، وبالمحبة علا، وبالمحبة رسم الطريق،

فهدى الناسَ إلى السلام، وأهدى المؤمنين المسرَّةَ.

اكتوى بنار الأرض، ليُنـزل لنا بَرْدَ السماء.

أتاح روحه أضحيَّةً على الصليب،

ليكفِّر عن كفرنا، ونخلُصَ إلى خلاصنا.

القصيدةُ طويلةٌ، وهى إحدى قصائدى التى ستغنِّيها مرتا من بعد ذلك، فتشيع فى حروفها الروح، وتبثُّ الشجن فى السامعين. أَسَالَ غناؤها د.

مرات، لما غنَّتها وهى تنظر نحوى فى إحدى الجلسات التى جمعتنا. لجلساتى مع مرتا حديثٌ آخر لن أحكيه الآن، فالآن أتذكَّر أيام الصفاء التى هدأت فيها روحى بين أحضان هذا الدير، وأشرقت شموسُ باطنى من أفق الرحمة، حتى أننى نسيتُ أيامها عذاباتى الأولى وشكوكى وحيرتى الملازمة.. صرتُ كأننى أعيش بين السحاب، وأكاد أحسُّ من حولى بحفيف أجنحة الملائكة التى تملأ السماء. وعرفتُ أيامها لأول مرة، سِرَّ الرهبنة ونعمة التوحُّد وصفاء الخلاص من صخب العالم. وتيقَّنتُ من أن الدنيا لاقيمة لها، ومن أننى لما تركتها خلفى، اشتريتُ أفق الروح الغالى بمتاع البدن الرخيص.

لم يكن لدىَّ فى تلك الأيام ما يكدِّر صفوى، إلا تلك الأحلامُ التى قد تفجؤنى أحيانًا على غير موعد، لتذكِّرنى بميراثى الثقيل، وما أخبِّئه فى باطنى. كنتُ فى بعض الليالى أصحو باكيًا ومرتجفًا، حين أرى أمى فى منامى وهى تنظر ساخرة لأبى، كان أبى مسكينًا حتى فى أحلامى. هو لم يحدِّثنى بشيئ فى رؤاى، قط.. فقط، ينظر نحوى بأسىً بالغٍ وهو يجدِّف بقاربه، أو يخرج شباكه خالية من السمك. كانت أمى هىَ التى تحدثنى كثيرًا فى تلك الأحلام، وكثيرًا ما كانت تضحك بصوتٍ مجلجل، فتوقظنى فَزِعًا.. ومع أن هذه الرؤى كانت تأتينى فى ليالٍ متباعدة، إلا أنها قد تأتى مرتين أو أكثر فى ليلة واحدة.

فى ليلةٍ رأيت هيباتيا فى ثوبها الحريرى الأبيض ذى الحواف المحلاة بالخيوط الذهبية. كانت تشع إشراقًا ومحبة، وكنتُ فى حلمى شابًا لم أتعدَّ العشرين، وكان عمرها هو هو الذى عرفتها فيه. رأيتها تقرأ لى كتابًا فى علم الكيمياء، مع أنها لم تشتغل فى حياتها بهذا العلم. كنت أحفظ عنها ما فى الكتاب، فور قراءتها للسطور وهى تمرُّ عليها بإصبعها. إصبعها رشيقٌ، ظفرها ناصعٌ بياضه، وناعمةٌ حركته المارة على الكلمات. كانت تلتفت

إلىَّ باسمةً وهى تقرأ، وحين تمنيتُ أن تضمَّنى لصدرها، ضمَّتنى. لما احتضنتها، وجدتها قد صارت أوكتافيا مضرَّجةً بدمائها، فانتبهتُ فزعًا.

ورأيتُ مراتٍ رؤيا غريبة: البحر المالح تَمُورُ مياهُه بدواماتٍ كثيرة، تحاول أمى الخروج منها، بينما أرقبها خائفًا وأنا أقفُ عاريًا على الشاطئ، كانت تنادينى بالاسم الذى اختارته لى أوكتافيا، ولم يعرفه غيرنا: ثيوزورس بوسيدونيوس! ثم ينقلب نداؤها استغاثةً لاتلبث أن تصير صراخًا يتردَّد صداه فى الكون، فيوقظنى من نومى منهكًا، ويُبقينى مسَّهدا بقية ليلتى.

العام الماضى تحدَّثتُ مع رئيس الدير فى أمر المبنى الغامض، مرتين. فى المرة الأولى لاذ بالصمت ولم يجاوبنى، وفى المرة الأخرى كنا جالسين صباحًا، والشمسُ تكاد تطلع علينا من خلف المبنى، قلتُ له ما معناه إننى لن أسأله فى ذلك ثانيةً، مادام لايريد أن يخبرنى. كان الصباحُ رائقًا، والأوانُ صيفًا. أطرق رئيس الدير لحظة، ثم حكى لى ما فحواه أن هذا الدير كان فى الزمن السحيق، معبدًا لإله الخصب والمراعى ولربة الحقول. اعتقد الناسُ قديمًا أنهما التقيا فوق هذه التلَّة، وتحابا! ولمئات السنين، كان المتعبِّدون يأتون إلى هنا من كل فجٍّ عميق، فيعمرون المعبد، ويرفعون مع الزمان أعمدته، حتى صار واحدًا من أكبر المعابد فى الزمن القديم. وفى زمان الملك سليمان بن داود النبى، أراد اليهوُد أن يجعلوا من المعبد بيتًا للرب، فأرسلوا سرًا سريةً عسكرية لهدمه، فاستعصى ذلك عليهم لضخامة البناء، وكثرة الكهنة المقيمين فيه، والزوار. ويُقال إن السرية اليهودية أُبيدت بكاملها فى ظروف غامضة، فغضب سليمان وأرسل لهدم المعبد جماعةً من جنده، فلم يقدروا بسبب الطِّلسمات الرهيبة المدفونة تحته، والرصد الذى عمله الكُهَّان القدماء، ولم يستطع أحدٌ فك رموزه وإبطال سحره.. وظل المعبد قائمًا إلى أيام السيد المسيح، غير أنه اضمحل مع كَرِّ السنين عليه. ولما هجره الناس، سكنه عزازيل وأبناؤه من الشياطين والأبالسة، وعاشوا بين جنباته مع أتباعهم من البشر الذين كانوا آنذاك يعبدون الشيطان! وبعدما عجز عزازيل عن غواية المسيح كما هو مكتوبٌ، وانتصرت كلمة الرب، حدث زلزالٌ هائلٌ انهدم معه المعبد، فلم تبق منه إلا هذه الحجْرة المتناثرة والأعمدة المنكسرة.. ثم حدث أن جماعة من الآباء الأولين كانوا يبشِّرون فى هذه النواحى، فقتلهم الرومان، ودفنهم تلامذتهم فى هذا الجزء الشرقى من المعبد. ثم صار الموضع مزارًا بعدما انتشرت ديانتنا، وشاعت فى هذه النواحى. وأُقيم هذا البناء فوق قبور الآباء الشهداء، خشيةَ أن ينبشها الوثنيون الذين كانوا يحقدون على أتباع المسيح، ويتمنون أن يعود معبدهم القديم إلى ماكان عليه. ورفع أهلُ الصليب هذا البناء ليحيط بمرقد الآباء، وكان حائطه من جهة الساحة ثلاثةُ جدران متلاصقة، لايمكن نقبها أبدًا لصلابة أحجارها وسمك الجدران الثلاثة. أما الجهات الثلاث الأخرى، فهى حصينة بطبعها لإشرافها على الجرف، ولارتفاعها. ثم صار البناء مع الأيام ملاذًا للرهبان، وحصنًا.. صمت رئيس الدير قليلاً، ثم قال: *فى الخامسة عشرة من عمرى، كنتُ هنا يوم حاصرنا اللصوصُ. وبقينا خمسة أيام كاملة بالمبنى، لا شهرًا كما يُقال. وكاد أغلبنا يهلك من شدة الجوع والعطش! ولما عجز اللصوص عن نقب الجدار، رحلوا يائسين. وما عرفوا أن المبنى، ليس فيه أصلاً شئٌ لُيسلب..* أضاف رئيس الدير بعدما صَمَتَ برهةً: *ولا صحةَ لما يُقال عن وجود المسامير التى دُقَّت فى جسد يسوع، وتضئ بالليل.. هذا يا هيبا، كل ما يمكن أن أقوله لك عن هذا البناء، فلا تسألنى عنه ثانيةً بعد اليوم.*

انتهى رئيس الدير من كلامه، فابتدأت حيرتى، وتداخلت أفكارى. لم أفهم كثيرًا مما قاله. كان يتحدث إلىَّ وكأنه يتلو علىَّ نصًّا يحفظه، حتى أن وجهه لم يظهر عليه أىُّ تعبير وهو يتكلم. تردَّدت لحظة، ثم انفلت منى السؤال:

ـ لكننى يا أبتِ كنتُ أسمع أصواتًا تأتى خفيضةً من داخل البناء، إذا ألصقتُ أذنى بالجدار. حدث ذلك معى مرارًا!

ـ يا هيبا، هى أصواتٌ تأتى من داخلك، لا من داخله! وقد يكون فى المبنى فئرانٌ كبيرة أو أفاعٍ وحشرات، فهو لم يُفتح منذ أعوام طوال.

ـ لكنك يا أبتِ سوف تفتحه، إذا مات أحد الرهبان.

ـ لا، ما عُدنا ندفنُ فيه أحدًا، ولن نفتحه أبدًا!

الرَّقُّ الخامس عشر

فِرِّيسيُّ الأُقْنُوم

الرهبانُ فى هذا الدير، وفى النواحى المحيطة، يختلفون عن إخوانهم فى مصر والإسكندرية. أولئك وهؤلاء، فيهم تُقى ومحبةٌ للرب وتوغُّلٌ فى التأله. غير أن طريقنا نحن الرهبان المصريين، أشدُّ خشونةً وأكثر توغُّلا فى ضروب العبادات الشاقة. ولا عجب، فنحن -المصريين- ابتدعنا الرهبنة، وأهديناها لأنحاء العالم المسكونة بالمؤمنين.

كان الرهبان هنا يتعجَّبون من تقشُّفى ومجاهداتى الروحية، ويعجبون من صبرى على النظر فى الكتب، وانكبابى الدائم على الكتابة. كانوا أيضًا وما يزالون، يستغربون نومى جالسًا فى أغلب الليلات، وبقائى متوحِّدًا فى المكتبة معظم الأيام، حتى أنهم صاروا من بعد مجيئى بشهور، يلقِّبوننى هيبا الغريب!.. شيئًا فشيئًا، تبدَّد تعجُّبهم وإعجابهم واستغرابهم، مع الاعتياد علىَّ والتقرُّب منى. ومع ذلك ظلوا ينادوننى بالغريب، وأحيانًا بالطبيب. وهم هنا أقل شغفًا بأخبار الإسكندرية من إخوانهم فى أورشليم، وبالتالى كان إزعاجهم لى أقل، بل الحق أقول إنهم غير مزعجين أصلاً. غير أنهم كانوا فى البدء، توَّاقين لمعرفة سِرِّ الصلة التى تجمعنى بالأسقف

نسطور. فلما أخبرتهم بحقيقة ماكان من لقائنا الأورشليمى، استراحوا. ولما عرفوا فىَّ المهارة فى الطب وأمور العلاج، تقرَّبوا. ولما لاحظونى شهورًا، فلم يلحظوا فى سيرتى ما يؤرِّق، اطمأنوا.. صاروا يمرُّون علىَّ فى المكتبة، ويجالسوننى فى الساحة العليا بعد القُدَّاسات الطويلة.

كنتُ فى بداية الأمر قليل الكلام والمؤانسة، وكانوا يحترمون صمتى ووحشتى.. يومًا من بعد يوم، صرتُ كأننى واحدٌ منهم. بل غدوتُ ميَّالاً إلى مجالستهم، ومبتهجًا ببشاشتهم الدائمة المحبة التى تملأ قلوبهم. كان أقربَهم منى، اثنان من أصدق الرهبان. الأول هو الراهب الذى سميته: الضحوك الوقور! لأنه كان يجمع بين الصفتين اللتين قلما تجتمعان. وقد ارتحل مؤخرًا إلى أنطاكية، واستقر فى ضواحيها، بديرٍ هناك يسمونه يوبربيوس[1]، بعد عامين قضيناهما معًا هنا. كان خلالهما يسكب البهجة فى قلوب مَنْ حوله، ويملأ أرواحهم محبةً وصفاءً. كانت ملامح وجهه، خاصةً شفته العليا المقبَّبة الكاشفة عن أسنانه، توحى بأنه دومًا يبتسم! وقد كان بالفعل كثير التبسُّم، فكأن الربَّ خصَّه ببشارات بدَّدت عنه كل الهموم.. كان طيبَ العينين، يضحك لأهون الدواعى. وحين يضحك، يضع كالعذارى باطن كَفِّه على فمه. ومع ذلك، فقد كانت دمعته قريبةً، سريعةَ الانحدار. حضر مرةً معالجتى لطفلٍ مسكينٍ يشكو التهابًا فى رقبته، من ذاك النوع الذى نسميه النار الفارسية؛ فسالَ دمعه، وانصرف غير قادرٍ على احتمال بكاء الطفل. وصار من بعد ذلك يغادر المكتبة فور دخول أىِّ مريض.. لم أملك دمعى حين ودَّعته عند بوابة الدير، يوم رحيله المفاجئ، ولم أره من بعد ذلك، قط، مع أننى كثيرًا ما اشتقتُ لرؤيته وافتقدتُ مؤانسته.

---

(١) تشير المصادر التاريخية، إلى أن نسطور بدأ سلك الرهبنة فى هذا الدير.. ومن الغريب، أن الراهب هيبا لم يُشر إلى ذلك هنا! (المترجم).

الراهبُ الآخر، هو الآن أقربُ الرهبان إلى قلبى. أمضى هنا عشرين سنة من حياته، وهو أكثر الرهبان شبهًا برئيس الدير، إلا أنه أصغرُ منه بعشرين عامًا، وأكثرُ بدانةً وأكثفُ لحيةً. هو قصيرٌ على نحوٍ لافت وبطنه كبير، حتى يكادُ يبدو فى مشيته المتعجِّلة دومًا، كأنه كُرةٌ تتدحرج. قدماه ويداه صغيرتان كما لو كانتا لصبىٍّ صغيرٍ، وله أيضًا ابتسامةُ طفلٍ أو صبىٍّ يافع. غير أن الذى يعطيه هيئة الرجال، هو صلعته ولحيته السوداء الكثَّة، وخدَّاه المنتفخان تحت عينيه المتحلِّقتين بكُمدةٍ من أثر السهر، أو سوء الهضم. عيناه واسعتان، وفيهما ذكاءٌ وشغف. وفى قلبه طيبةٌ تغيبُ عن عين الغرباء، ويعرفها الذى يقترب منه.

رأيته أولاً مرات فى الكنيسة، ثم تآخينا مع الأيام. خاصةً بعدما ساعدنى بهمةٍ عاليةٍ، فى إعداد المكتبة التى كانت من قبل بناءً مهجورًا. كان ينظر فى الكتب وهو يصفُّها معى فوق الرفوف، نظرةَ الشغوف بالنصوص، غير أننى نادرًا ما رأيته يقرأ. الرهبان هنا ينادونه بلقب غريب: فِرِّيسى الأقنوم! وقد صرتُ مثلهم أُناديه بذلك اللقب الذى لاينـزعج منه، ولايفرح به.

فى ابتداء تعارفنا، حكى لى يومًا ونحن جالسان عند بوابة الدير، أنه من أصول عربية، وأنه يعرف اللغتين اللتين يتكلم بهما عربُ الشمال وعربُ اليمن. لم أكن وقتها أعرف أن للعربية لغتين، شمالية وجنوبية. وأخبرنى بأنه نشأ يتيمًا من جهة أبيه الذى كان ثريًا يشتغل بالتجارة، وكان يسكن بيتًا كبيرًا فى قلب بلدة حلب. ولما تزوج عمُّه بأمِّه ليحفظا ميراث أبيه، هجر دنياهما، والتحق بالأبرشية هناك خادمًا، ثم شماسًا. وصار راهبًا فى الخامسة والعشرين من عمره، وتوحَّد ثلاثة أعوام، ثم جاء إلى هنا، فاستقر بالدير.. بعدما عَمُقَتْ معرفتى به، أخبرنى بأسراره التى منها، أنه عصى الرَّبَّ مع النساء مراتٍ فى شبابه المبكر، واستحلَّ فروجًا بغير حقٍّ، ثم تألم من خطاياه وثاب، واعترف لرئيس الدير بكل ما اقترفه. فعرف

سِرَّ الاعتراف من رحمة الرب بالاعتراف، وأقلع عن الدنس الذى كان يقلقه ويبهجه ويؤرِّقه.. غير أنه صار بعد خدمته الربانية، يكره النساء. بل هو لايطيق أىَّ مؤنَّثٍ، حتى لو كان من غير الناطق من الحيوان! قلت له يومًا، وقد أفاض كعادته فى الحطِّ من الأنوثة:

ـ مهلاً يا فِرِّيسى، فإن الأرضَ أنثى، والربُّ جاء من العذراء.

ـ لا يا هيبا، لا.. الأنوثةُ والنساءُ سببُ كل بلاء، والأرضُ والسماءُ والماءُ والهواء والزروع، ليست إناثًا ولا رجالاً، هى عطايا الرب لآدم الذى أغوته امرأته حواء، فكان ماكان. والعذراءُ مريم استثناءٌ وحيدٌ، جعلها الآب طاهرةً؛ لينبثق منها ربنا يسوعُ المسيح. كى يعرِّفنا أن أَجَلَّ الأمور، قد يأتى من أقل الأشياء، وأن الدُّرَّ يتشكَّل فى الأصداف. وإلا، فما العذراءُ لولا ولادتها المسيح.

استغربتُ قوله: لينبثق منها. غير أننى لم أشأ أن أُجادله، فهو لم يدرس اللاهوت فى مصر، ليعرف أن الانبثاق لفظٌ فلسفىٌّ لايجوز استخدامه للتعبير عن التجسُّد، وأن المسيح أخذ من جسد العذراء بشريته، ومن ثَمَّ نصفه الإنسانىّ، حسبما كانوا يقولون هناك.. يومها، كان قد سكَتَ لحظةً نظر فيها إلى بعيد، وفجأةً قال وكأنه اكتشف شيئًا خطيرًا:

ـ انظرْ إلى هذا الدير، وإلى كل الأديرة والكنائس. لماذا يسودها السلام؟.. لأنها خالية من النساء، وما يسببنه من ويلات وخيانات.

ـ وهل كل النساء خائنات؟

ـ نعم، بالقَطْع. الرجلُ الوحيدُ الذى جاز له أن يأمن خيانة امرأته، هو أبونا آدم. لأن امرأته لم تجد رجلاً غيره، تخونه معه فى فرشتها أو فى خيالها. ومع ذلك خانته مع عزازيل اللعين، وتحالفا ضِدَّه.

كان الفِرِّيسى يحبُّ الإفاضة فى الكلام. وهو يهز رأسه إذا انهمك فى الحكى، ويمدُّ ذراعيه فى الهواء، ويرسم الكلمات بكفيَّه وأصابعه، كما لو كان يحدِّث شخصًا يسمع بعينيه. وهو لايحبُّ أن يُقاطع كلامه، ولا ينظر أبدًا فى وجه مَنْ يحادثه! فكأنه إذا استرسل فى الكلام، يكلِّمُ قومًا آخرين.. أردتُ أن أُشاغبه بمحبةٍ، فقلت له: *وماذا عن أديرة النساء؟* فاندفع كشلالٍ منهمر، وهو يقول:

ـ آه، هذه بدعةٌ ابتدعوها على غير أساس. الرهبنةُ طُهْرٌ وصفاءٌ وهجرانٌ للدنيا الفانية، ومن أهم علاماتها العزوفُ عن النساء. فكيف يمكن ذلك للمرأة؟ ألم تر قول مَتّى الرسول فى إنجيله، عن يسوع المسيح: مَنْ استطاع أن يحتمل عدم الزواج، فليحتمل! وقول بولس الرسول فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثة: حَسَنٌ للرجل أن لايمس امرأة..

ـ لكن بولس الرسول، قال فى الرسالة ذاتها: مَنْ تزوَّج، فحسنًا فعل.

ـ ثم قال بعدها: ومَنْ لايتزوَّج، يفعل أحسن!

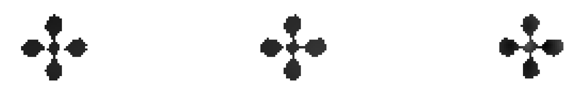
كان الفِرِّيسى أيامها شديدَ المجادلة، لكنه لم يعد الآن كذلك. وهو يحفظ الكتب القانونية كلها والأناجيل الأربعة ورسائل الآباء. ولايطيق الهرطقات والنصوص المحرَّمة، يستريب من الأسفار غير القانونية التى صرنا مؤخرًا نسميها الأبوكريفا. وهو يلومنى دومًا، لاحتفاظى بنسخٍ من الأناجيل المحرَّمة، فى صومعتى. لكنه لم يخبر أحدًا، قط، بهذا السِّرَّ الذى أفصحتُ له عنه، بعد عام من استقرارى هنا.. والفلسفة تغيظه جدًا مع أنه قريبٌ من التفلسف، القريب بطبعه من اللاهوت. وهو معنىٌّ

بقرارات المجامع المحلية، والمجمع الكبير الذى انعقد قبل مائة عام فى نيقية، بحضور الأساقفة الذين صاغوا لنا قانون الإيمان الشهير. وشغوفٌ بشروحات هذا القانون، وبالتعليقات التى على الشروحات. وله بالطبع عنايةٌ بشروح وتفسيرات الأناجيل، وله اهتمامٌ، بل هيامٌ عظيم بكل ما يتعلق بالأقنوم. وهو لا يكف عن الكلام عنه والتفكير فيه والتشدُّد بصدده؛ ومن هنا جاء لقبه الفِرِّيسى، الذى يناديه به المقرَّبون منه: فِرِّيسى الأقنوم [1].

كان الرهبان يحبُّون مشاغبته بالسؤال عن طبيعة يسوع المسيح وجوهره وحقيقته الذاتية، وغير ذلك من المعانى والألفاظ الكثيرة المرادفة لكلمة أُقنوم المحيِّرة، خاصةً فى هذه النواحى التى تتكلم اليونانية والسريانية والعربية، ولغات أخرى أقل أهمية. كان الفِرِّيسى يعرف كل متقابلات الكلمة فى هذه اللغات، وقد سألنى أول ما لقينى عن معنى كلمة أقنوم عند المصريين والإسكندرانيين، فقلت إنها تعنى الشخص أو الكيان الذاتى، وإننا نادرًا ما نستعمل الكلمة فى كلامنا، فقال: *حسنًا تفعلون!*.. وإذا استجاب لمشاغبة الرهبان، وكان غالبًا ما يستجيب، يخوض فى بيان الأقانيم الثلاثة المقدسة: الآب والابن وروح القدس. ويشرح بتفصيل التفصيل، كل الأقوال والمذاهب والبدع، منتصرًا إلى القول بوحدة الله والمسيح، الآب والابن، فى أقنوم واحد أو طبيعة واحدة. وكثيرًا ما كان الرهبان يترحَّلون عن مجلسه، بينما هو منهمكٌ فى الشرح، حتى يرحل عنه آخرُ مستمع فيهم، أو يدخل وقت الصلوات، فيضطر عند باب الكنيسة، إلى قطع شرحه الذى لاينتهى. وكان يردِّد دائمًا، إنه سوف يؤلِّف رسالة فى بيان الأقانيم الثلاثة.. قبل بضعة شهور من الآن، نهاه رئيس الدير نهيًا قاطعًا عن الخوض فى تلك الأمور الأقنومية، وعنَّف بقية الرهبان على إثارتها معه، فانصاعوا. ومع ذلك، التصق وصف فِرِّيسى الأقنوم به، حتى بعدما حُظر الكلام حول الأقانيم.

سألتُ رئيس الدير يومًا، فى جلسةٍ رائقة، عن سبب منعه الرهبان من الخوض فى أمر الأقنوم، فأجاب بقطعٍ وحسمٍ بأن هذا الجدال السقيم، من شأنه أن يصير بابًا من أبواب الفتنة وظهور الهرطقات، حتى وإن نوقش الأمر على هون بغرض الدرس اللاهوتى، أو بقصد شغل الأوقات بالمسامرات.. *الرهبنة أجَلُّ من ذلك كله*! هكذا قال رئيس الدير وقد تكدَّرت روحه، فوافقته مثلما وافق الجميع، ولم يعد أحدنا يتباحث فى هذا الأمر.

قبل أربعة شهور، استدعوا الفِرِّيسى إلى أنطاكية على عجل، فذهب إلى هناك وغاب شهرًا، افتقدته فيه كثيرًا. ثم عاد فجأةً، مثلما ذهب، وقد تغيَّرت أحواله قليلاً، وغابت عن وجهه الابتسامة الرائقة التى كانت تُزيِّنه معظم الأوقات.. لما سألته عما جرى خلال هذا الشهر الأنطاكى، لاذ بالصمت.



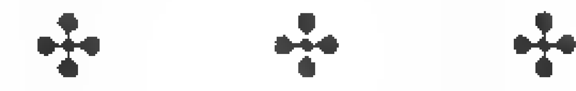
أواخر العام التاسع والعشرين والأربعمائة للميلاد، تجمعت بعض الغيوم المنذرة بالعواصف، إذ كانت تأتينا من القسطنطينية أخبارٌ غيرُ مريحة، وغير مفهومه أحيانًا بالنسبة لى. من ذلك أن الأسقف نسطور، عَقَدَ هناك مجمعًا محليًا، جَرَّد فيه بعض القسوس من رتبتهم الكنسية وحَكَم عليهم بالطرد، لأنهم لم يوافقوه على رأيه القائل إن العذراء مريم، هى أُمُّ المسيح، خريستوتوكوس! وأصرّوا مجتمعين على ما يعتقدونه ويعتقده

(1) الفِرِّيسى، وصفٌ يُطلق على المتشدِّد فى ظاهر الديانة، وهو وصفٌ مشتقٌّ من اسم الجماعة اليهودية (الفِرِّيسيين) الذين تعلَّقوا بظاهر الشريعة اليهودية، وجادلوا السيد المسيح.. ثم صارت الكلمة فى الزمن المسيحى، وما تزال، تعنى عمومًا: المتشدِّد. (المترجم).

عوام الناس، من أن العذراء هى ثيوتوكوس، يعنى أُمُّ الإله.. كما وصلنا أن الأسقف نسطور، هدم كنيسة للآريوسيين فى القسطنطينية، واستصدر قرارًا من الإمبراطور بمطاردة أتباع آريوس.. وأن الأسقف نسطور، أعلن الحرب على أتباع كنيسة الأطهار[1]، وحكم عليهم بالهرطقة، والخروج عن حظيرة الإيمان القويم!

لم أكن أفهم ما يجرى فى عاصمة الإمبراطورية، ولم أهتم بالتحقُّق من صحة هذه الأخبار المشوَّشة. وبالطبع لم أتهم الأسقف نسطور بشئ فى نفسى، ولا اتَّهمه الرهبان هنا بشئ أمامى، لما يعلمونه من محبتى له.. وأنا أحبه حقًا، ومازلتُ إلى اليوم مقيمًا على محبته حافظًا لها، على الرغم من تقلُّبات الأيام.

وفى غمرة تلك الأيام الغائمة، لمحتُ مرتا أول مرة. ولم يخطر ببالى يوم رأيتها، أننى سوف أحترقُ بنارها اللاهبة.



فى الأسبوع الأخير من السنة المذكورة، أعنى التاسعة والعشرين بعد الأربعمائة، مرَّت بنا قافلةٌ من الرهبان. كُنَّا ليلتها مبتهجين بذكرى الميلاد المجيد، نستدفئ ببهجة العيد من برودة ذاك الشتاء الذى جاء بزمهرير مرير، كاد يُسقط منا أطراف الأصابع. كان المطر الغزير يهطل بلا انقطاع على غير العادة، فعرجتْ إلى الدير قافلةٌ فيها كاهنٌ وثلاثةُ رهبان وخادمان، كانوا فى طريقهم من أنطاكية إلى بلاد الأكراد الواقعة وراء هذه الصحراء الشرقية..

(١) هم أتباع الأسقف الرومانى نوفاتيوس، الذين توافقوا مع الدونانيين فى أفريقيا والمليتيين فى مصر، منذ أواخر القرن الرابع الميلادى، فى قولهم جميعًا برفض التائبين العائدين إلى المسيحية، بعد انتهاء عصر الاضطهاد.. وقد عُرفوا آنذاك باسم: كنيسة الأطهار. (المترجم).

قالوا إنهم سوف يبشِّرون (يكرِّزون) هناك فى بلدة اسمها بارس، وإنهم ينوون بناء كنيسةٍ كبيرة فى تلك البلدة، على أمل أن تصير يومًا أسقفية.. ولطول هطول الأمطار وانقطاع الطريق، قضى المسافرون معنا ليلتين، ثم انطلقوا صبيحة اليوم الثالث لاستكمال رحلتهم.. ودَّعتهم بعدما أوصلتهم مع بعض رهبان الدير، حتى سفح التلة. أثناء عودتى، كنتُ أفكِّر فى الصحراء الشرقية، التى يتعين عبورها للوصول إلى بلاد الأكراد. قالوا لى عنها إنها قاحلةٌ جدًا، وملحيةُ التربة، وفيها ذبابٌ وحشراتٌ تلتصق بالوجوه أيام الصيف والحرِّ الشديد، سعيًا لامتصاص رطوبة الأبدان، وربما مات البعض من شدة التصاق الذباب بوجهه. أردتُ يومها أن أمرَّ على رئيس الدير فى صومعته، لأستوثق منه ما سمعته من أخبار هذه الصحراء، فكان بابه مغلقًا.. وألفيتُ لدى الباب امرأتين تنتظران، يلعبُ بأطراف ثوبيهما هواءُ الشتاء. لما اقتربتُ، نظرتْ إحداهما نحوى بعين حالمة، فاضطربتُ، وانصرفتُ من فورى إلى صومعتى. وقد جمَّدتْ أطرافى برودةُ الهواء، وألْهبتْ باطنى نظرةُ المرأةِ التى أتتنى من خلف سترها الحريرى الشفَّاف، فلم أتبَيَّن يومها ملامحها.. من شرفة الطابق الأعلى لمبنى الرهبان، لمحتُ كاهن الكنيسة آتيًا نحوهما. لم أُعنَ يومها باستجلاء الأمر، وإنما أغلقتُ باب صومعتى ورائى، وبقيتُ مستدفئًا فى أمان الرَّبِّ.

فى تلك الأيام، صارت حوائط المكتبة خزائن خشبية. ذلك لأننى عند هطول زخَّات المطر، كنتُ أخشى أن يتسرَّب الماءُ إلى الأرفف الخشبية الموضوعة عليها الكتب والرقوق واللفائف. ومع أن المكتبة مسقوفةٌ بشكلٍ جيد، إلا أننى خشيتُ وصولِ الماء عبر شقوق الجدران، فلاشئ أخطر على الكتب من الماء! فهو يعطِّن الرقوق الجلدية ولفائف البردى، ويُلصقها للأبد ببعضها، كما أن الحبر يميعُ عند البلل، فيمحو السطور بالكلية. كلَّمتُ رئيس الدير فى الأمر، فسارع إلى استدعاء نجار

القرية، وساعدناه فى تغطية الرفوف بضُلَفٍ خشبية فصارت الكتب فيما يشبه الخزائن، وصار حالها آمنًا.. غير أننى افتقدتُ بعدها، ما كنتُ أنعم به دومًا من النظر إلى صفوف الكتب التى على الرفوف. وكنتُ كلما دخلتُ المكتبة، أبادر إلى فتح الضُّلف كلها، ولا أغلقها إلا عند خروجي.

بعد أسابيع تطاولت فيها الليالى، وطالت أبداننا أمراضُ الشتاء؛ هدأ البردُ قليلاً وراقت السماء. وفى ليلةٍ انزاح فيها الغيمُ عن قُبّة الفلكِ الناصعِ بالاسوداد وبألقِ النجوم، كنا نتهيَّأ للخروج إلى الكنيسة الكبيرة لأداء الصلوات الأخيرة، بعد جلسة العشاء التى اجتمعنا لها فى صالة الطعام والتهامس بالكلام.. ليلتها استوقفنى رئيسُ الدير بإشارةٍ لطيفةٍ من يده، فتمهَّلتُ حتى انصرف بقية الرهبان. بدا مبتهجًا وفخورًا وهو يهمس إلىَّ بصوته الهادئ الذى رقَّقته السنونُ والمحن، وهَدَّته كثرةُ المجاهدات والصلوات: *الأسقفُ نسطور يريدك فى أمرٍ مهم، سيلقاك فى أنطاكية غدًا، بعد الغروب.*

غدًا بعد الغروب! لابد إذن أن أرحل مع أول شعاع للشمس، فالرحلة إلى أنطاكية قد تستغرق النهار بطوله، وقد تُطيلها آثار الأمطار التى انهمرت طيلة الأسابيع السابقة. كنتُ مشتاقًا إلى رؤية نسطور والحديث معه، حتى أننى فكَّرت مراتٍ أن أزور القسطنطينية لرؤيته. وهـاهو يذكرنى، ويطلب لقائى على عجل فى أنطاكية! على عجلٍ.. ما الذى جرى؟ وأىُّ داعٍ جعله يستعجل اللقاء؟.. لعله لن يبقى طويلاً فى أنطاكية، أو هى أيامٌ قليلةٌ يزور فيها إخوانه، ثم يُبحر عائدًا إلى القسطنطينية لحضور أعياد القيامة هناك، فأراد قبل رحيله أن يرانى.. أم تراه أرادنى لأمرٍ آخر؟ ليكن، فإن أىَّ أمرٍ يدعو نسطور لرؤيتى، سيكون بالقطع أمرًا خيِّرًا، فالخيِّرُ لايأتى منه إلاّ الخيرُ.. أو لعلَّه يريدنى للذهاب معه إلى مقر أسقفيته؟ أو يدعونى ثانيةً للبقاء فى أنطاكية؟ أو هو يريد البدء فى توسعة هذا الدير، وبناء مستشفاه التى حدَّثنا عنها من قبل..

ـ مابالك يا ولدى، ما كُلُّ هذا الشرود؟

أخرجنى سؤالُ رئيس الدير من متاهة الاحتمالات التى طوَّحتنى بعيدًا، فانتبهتُ إليه، وصختُ سمعى لنصائحه التى كانت ليلتها من نوع: *لاتتأخر يا ولدى فى الخروج فجرًا، خُذ طعامًا ليومك وعليقةً للحمار، لاتكشف رأسك على الطريق، فالهواء باردٌ، ولاتتوقف عند القرى التى ستقابلك كيلا يهبط عليك المساءُ فى الطريق. سأعطيك رسالةً للأسقف نسطور، فضعها بين يديه ولاتدع أحدًا يقرؤها قبله. إن عرض عليك أمرًا فاقبله، فإنه رجلٌ مباركٌ من السماء، فاترك نفسك خارج بابه، وكن بين يديه كالميت بين يدى الغاسل. سوف يغسلك لقاؤه بالنور والبركة، فتهيَّأ للغبطة. أطعْ إشاراته، وكن حيث أراد لك، وأسلِم ذاتك لمشيئة الرَّبِّ.*

الرَّقُّ السادس عشر

وَثْبَةُ الماضِى

بعد القُدَّاس، لم أنمْ طيلة ليلتى إلا وسنات خاطفة، فقد تولاَّنى أرقٌ لم أَدْرِ له سببًا. قبل شروق الشمس بنصف ساعة، انضممتُ للرهبان فى الكنيسة الصغيرة لأداء الصلاة الأولى، متحيِّنًا تلوُّن السماء بالنور.. لما صار لونُ الأفقِ أقرب للزُّرقة من الاسوداد، تهيَّأْتُ للخروج إلى أنطاكية. كانت ساحةُ الدير ساكنةً، والهواءُ. بدا الحمار المربوط بوتدٍ قرب بوابة الحظيرة، كأنه يتتظرنى فى مربطه وقد أدرك أن أمامنا طريقًا طويلاً لنقطعه. أو لعله عرف ذلك، لما رآنى أدخل عليه بمخلاة العليقة.. خرجتُ على ظهره من بوابة الدير، مع أول شعاع أرسلته الشمس لينير العالم بالبهجة.

عند البوابة، رأيتُ واحدًا من جنود الحامية الرومانية، متدثِّرًا فى غطاء من الصوف الثقيل المتخذ من وبر الجمال. كان يفترشُ الأرض بجوار الجدار المتهدم، ويغطُّ فى نوم لامثيل لشخيره العالى. قلت فى نفسى: هاهو حارسُ الدير نائمٌ فى أمان حارس الكون الذى لاينام! فلماذا لايتعلَّم منه القسوس والأساقفة والرهبان، ويلقون إلى الله نواصى الأمور، ويكفُّون عن المنازعة فيما بينهم؟ اليوم أسألُ الأسقف نسطور حين تسنح الفرصة، عن صحة الأخبار التى يتناقلها الرهبانُ حول بطشه بمن يرى أنهم مهرطقون.. ولسوف أسأله عما قاله فى خطبة رسامته أسقفًا، موجِّهًا كلامه للإمبراطور: *ساعدنى فى حربى ضد الكفر، أساعدك فى حربك ضد الفرس. أعطِنى الأرض خالية من الهرطقة، أُعطِكَ مفاتيح السماء ونعيمها المقيم!* إن صَحَّ عنه مثل هذا القول العجيب، صَحَّ عندى أنه تغيَّر عن الحال الذى عرفته عليه، وصار يطلب الأرض لا السماء.. وذلك مما لا أحبه له.

لم ينتبه الحارسُ لخروجى. حتى كلبه المستلقى بجواره فى سلام، لم يهتم لمرورى. رفع الكلبُ رأسه فرآنى، وضرب بذيله الأرض ضربتين خفيفتين، ثم عاد إلى استلقائه الأول.. على المنحدر الهابط من تَلَّةِ الدَّيْر إلى السهول الممتدة فى الأفق، ملتُ للوراء لأحفظ اتزانى على ظهر الحمار. كان رأسى على الرغم من تنبيهات رئيس الدير، مكشوفًا، فتخلَّلت شعرى النسماتُ الباقية من آخر الليل، وملأتنى برودتها بهجةً. خُطى الحمار دلَّت على أنه مبتهجٌ مثلى. فهو يحبُّ نزول التلة. كل الكائنات تحبُّ النـزول، وتبتهجُ له، إلا الإنسان الذى يخدعه وَهْمُهُ وتحدوه أحلامه، فيبهجه الصعودُ والترقِّى. ربما كان ذلك فطريًا فى الإنسان وطبيعىٌ، فهو امتدادٌ للإله العلى. ولذلك تُفرحه مراقيه الصاعدة به إلى أصله العلوى، حيث الآب الذى فى السماوات.. الآب المحتجب، خلف أستار السماوات.

مع انبساط النور على الأرض، كنتُ أسير بحمارى فوق الأرض السهلة وقد أضحى الديرُ العالى خلفنا، والعالم يمتد غربًا أمامنا. بعد سويعة وصلنا إلى الطريق الطويل المتجه إلى أنطاكية، وهو طريقٌ يبدو من طول امتداده، كأنه لاينتهى! الرومان رَصَفوا هذا الطريق بالحجارة قبل قرون، فلماذا لم يرصفوا الطرق فى وادى النيل؟ الرومان لم يهتموا يومًا بمصر،

إلا بمقدار نهبهم القمح، ونبيذ العنب منها.. أو لعل الفيضانَ السنويَّ للنيل، هو السبب المانع من تعبيد الطرق بمصر. فهو خليقٌ بزعزعة الأحجار، إلا أحجار المعابد القديمة والبرابى، فهى من الضخامة والرسوخ بحيث لاينال منها فيضان النيل. وإن كانت ضخامتها ورسوخها لم يمنعا عنها أهلَ ديانتنا! رأيتُ عوام المسيحيين فى بلدة إسنا وهم يخرِّبون الصور المرسومة على المعبد الكبير، بخربشة الجدران، ويجتهدون فى طَمْس الرسومات التى بأعلى الأعمدة، وبطن السقف العالى، بقذف الطين نحوها. لما استعصى عليهم طمسها لعلو السقف، اهتدوا إلى فكرةٍ عجيبة! كانوا يأتون بالبوص الأخضر ونبات الحلفا والخرق البالية، فيحرقونها فى وسط البهو الكبير للمعبد، وفى الغرف الفسيحة، فيتصاعد منها دخانٌ أسود كثيف، كفيلٌ بتغطية الرسوم بطبقةٍ فحميةِ اللون. فعلوا ذلك زمنًا طويلاً، حتى استطاعوا ملأ سقوف المعبد القديم بالسواد، فانطمست رسومه، ثم جعلوه من بعد ذلك ديرًا كبيرًا يضم خمس كنائس.

الطريقُ إلى أنطاكية طويلٌ. لما اشتدت الشمسُ فوقنا، وانتظمت خطى الحمار؛ عاودتنى خطفاتُ الوَسَنِ المليئة بالرؤى. أحبُّ هذه اللحظات الواصلة بين انتباهات الصحو وخلسات النوم. أظنُّ أن الله قرر أن يخلق العالم، فى لحظةٍ كهذه. الله لاينام، هو فقط يتعب ويستريح. راحته هى مثل نومنا، نحن أبناؤه من البشر. النومُ راحةٌ مفعمة بالأحلام والرؤى.. تُرى، هل يحلم الرَّبُّ؟ مَنْ يدرى، فقد يكون هذا الكون بكل ما فيه، هو حلمٌ واحدٌ من أحلامه.

لما علت الشمسُ، وانبسط الطريقُ تحت دقَّات حوافر الحمار؛ كثرت وَسْناتى الخاطفة وأحلامى. رأيتُ يومها رؤى كثيرة: الصخورُ البيضاويةُ الناعمةُ، تترك موضعها وتطفو فوق ماء النيل، فيحملها التيارُ إلى البحر الكبير.. الجبلُ الشرقيُّ للوادى فى بلادى الأولى، تكتسى أحجاره القاحلة خضرة وعشبًا وأشجارًا، فيصير بهيًا بعدما كان مهيبًا.. وجوهٌ كثيرةٌ تضحك.. أوكتافيا نائمة فى ثوبها الحريرى الشفاف.. طيورُ النورس ترفرف فوق أمواج البحر.. أسوارُ أورشليم وقد صارت بيضاء ناصعة! كنتُ كلما غبتُ، أرى مشهدًا جديدًا.

صارت الشمسُ متعامدةً والحمارُ متعبًا، فاسترحنا تحت ظل شجيرات رحيمة عند حواف بلدةٍ صغيرة نائمة على خدِّ الطريق، اسمها سرمدة. فضَّلتُ أن نرتاح قليلاً، على مبعدة من بيوت البلدة وأهلها. بدت لى البيوت من بعيدٍ، ساكنة تحت شمس الظهيرة. كان الحمار سعيدًا وهو يمضغ العليقة المحلاة بالذرة، ولم أكن سعيدًا مثله بالقضمات التى أخذتها على مهل من رغيفى. لحظتها اشتهيتُ، على غير العادة، بيضًا مسلوقًا! لكنها كانت أيامَ صوم، ولا مجال لتلبية داعى الشهوات.. هل ستظل اشتهاءاتى تعذبنى طيلة عمرى؟ لماذا لم يذهب من عندى اشتهاء الأشياء، بعد كل هذه الصلوات والقُدَّاسات والتزهدات وفنون التقشُّف؟ أما آن لى الارتقاء عن أحوال الأطفال، والكفُّ عن وَهم التلذُّذ بتوافه الأمور؟ لابد أن آخذ نفسى بالعزم والحسم، وإلا صرتُ كهذا الحمار ألتذُّ بالعليقة.. هل يعرف هذا الحمار أن للكون ربًا؟

أخذتنى سِنَةٌ من النوم، وكان ظِلُّ الأشجار حين انتبهتُ يميلُ قليلاً جهة الشرق. ركبتُ الحمار، ومررتُ أمام البلدة، من دون أن أكترث لبيوتها المتناثرة ولو بالتفاتةٍ واحدة، لم تكن سرمدة آنذاك تعنى لى شيئًا. ومن أين كنتُ سأعرف ساعتها، أنَّ هذه البيوت الفقيرة المتلاحمة، ضَمَّت يومًا ما، مرتا التى ستعصف بكيانى.. عرفتُ ذلك منها، بعد أسابيع من عبورى غير المكترث بالبلدة.

وصلتُ أنطاكية قبل الغروب. المدينةُ بابها كبيرٌ وصخبها كثيرٌ، مثل كل المدن العظيمة. لم أجد صعوبة فى الوصول إلى كنيستها الأم، حيث

يقيم الأسقف نسطور فى بيت الضيافة الملحق بها، حسبما قال لى رئيس الدير الليلة الفائتة. تطوَّع شابٌ صبوحُ الوجه، فأوصلنى من باب المدينة إلى باب بيت الضيافة. أنطاكية أكبرُ من أورشليم وأصغر من الإسكندرية. أهلها حسبما يبدو من ملامحهم، طيبون. وجوههم أكثر إشراقًا ومودةً من وجوه الإسكندرانيين، وأقل حزنًا ويبوسةً من وجوه أهل مصر. لما اقتربتُ من الكنيسة الكبرى، رأيتُ مزيدًا من رجال الكنيسة فى ملابسهم الكهنوتية الموشاة، كانوا يتحرَّكون حول الكنيسة كأنهم أسرابُ نحلٍ تدور حول الخلية بهمَّةٍ عالية. الكنيسة بهيةُ البناء وعاليةُ الجدران، مثل كل معاقل الديانة.

عند الحديقة الصغيرة التى بمدخل بيت الضيافة، أخبرتُ الحارس أننى جئتُ مُلبيًا دعوة الأسقف نسطور، فرحَّب وأدخلنى من فوره، بعدما سكب علىَّ ألفاظ الترحيب. أخبرنى وهو يأخذ مقود حمارى، أن الأسقف يحضر التسبحة فى الكنيسة الكبيرة. أضاف: *لو أردتَ أن تلحق بهم، سأصحبك إلى هناك، وإنى أنصحكُ بذلك! ففى هذه التسبحة المباركة ثلاثةُ أساقفة كبار، فلا تفوِّت هذه الفرصة النادرة أيها الراهب الطيب.*

طالت التسبحة وصلوات الليل حتى انعقد قُدَّاس الفجر وقد امتلأت الكنيسة. كان القُدَّاس مهيبًا. مئات الرهبان والقسوس وأهل الإيمان، ومالا حصر له من الشموع والقناديل المنيرة التى يتراقص لهبها المضىء، فتتماوج الأنوارُ، وتحلِّق الملائكةُ فى سماء الكنيسة. بهرتنى الترانيمُ والنغماتُ الشجية، وترجيعُ الشمامسة الصغار لعبارة: *مباركٌ أنت أيها الإنسان، بنعمة السماء*.. روحانية المكان غسلتْ قلبى بالنور، وأزالتْ عنى تعب الرحلة، وألهبتْ شوقى للسماء. تقدَّمت نحو المذبح للمناولة القدسية، ولما وضع الكاهن فى فمى قطعة الخبز، ثم ارتشفت بعدها النبيذ المخفَّف بالماء، شعرتُ لوهلةٍ أنهما حقًا لحمُ يسوع ودمُه، يتخللان جوفى وكيانى كله.

المناولة طقسٌ بديع، لو اكتمل عندنا الإيمان برمزيته.. عند دورانى من أمام المذبح، شعرتُ بالدوار اللذيذ الذى يهدهد الأرواح أثناء القُدَّاس، ولمحتُ نسطور فى زِيِّه البطريركى، فأشرقت روحى، وغمرتنى تلك البهجة التى تأتينا أحيانًا من خارج الكون.

استغرق القُدَّاس بالناس ساعتين حتى أطلت الشمسُ، ودخل نورها من نوافذ الكنيسة. خرجتُ مع مئات الخارجين المفعمين بالبركات، فأسرعتُ إلى ساحة بيت الضيافة؛ لأكون فى استقبال المبجَّل نسطور. وصل بعد دقائق وحوله جماعةٌ من القسوس، وبجانبيه أسقفان عرفتُ بعدها بقليلٍ أنهما يوحنا أسقفُ أنطاكية، ورَبولا الشاعرُ أسقفُ مدينة الرُّها.. لما رآنى نسطور المبجَّل أقبل نحوى مرحِّبًا، فلمحتُ فى عيون من حوله نظرات الإجلال لى. لا أحد منهم يعرفنى، لكنهم يعرفون أن نسطور إن اهتم براهبٍ، فهو لامحالة ذو شأن.. أنا لا شأن لى، وإنما هى تدابير الرَّبِّ.

عند باب بيت الضيافة، همس لى نسطور بأنه سيتركنى الآن لأرتاح، وسوف يرانى بعد صلاة الساعة السادسة.. صحبنى خادمٌ شابٌ إلى غرفةٍ بالطابق الأعلى، لأرتاح قليلاً. الغرفةُ مربعةٌ، مرتبةٌ، نظيفة. بزاويتها اليمنى سريرٌ صغير، تحت نافذةٍ على هيئة صليب كبير، وعلى الحائط المقابل صليبٌ خشبىٌّ وأيقونةٌ ناصعة الألوان للعذراء مريم تحمل على صدرها وليدها.. جلستُ على طرف السرير، مشدودًا إلى صورة العذراء يرسمونها هنا بملامح أخرى، غير التى نعرفها بمصر، لكن روحها واحدةٌ فى كل الصور، وسِترُ رأسها واحدٌ فى كل الأيقونات.

العذراءُ.. أطلتُ النظر يومها إليها، حتى خلتُ أننى أراها حقًّا تجاهى. أىُّ سلام ذاك الذى تسكبينه أيتها الطاهرة على أرواحنا، وأىُّ بهاءٍ يشعُّ من وجهك الهادئ، وعينيك المسبلتين. آهٍ لو كنتُ أدركتُ زمانك، واغتسلتُ

بنور لقائك يا أُمَّ النور.. هل تشعرين بى؟ وهل يمكن لى، أن أُريح رأسى على صدركِ الطاهر المقدس..

قمتُ فألصقتُ خَدِّى بصورة العذراء، أغمضتُ عينى وقد انحدرتْ إلى لحيتى دموعٌ حارَّةٌ. بقيتُ لحظةً معلَّقًا بالأيقونة، حتى شعرتُ بها تحملنى إلى سماءٍ بعيدة.. أخذنى النشيجُ حين شعرتُ بدمعتين تنحدران من عين العذراء، وتبلِّلان خدى. احتضنتُ الأيقونة حتى التصقت بها تمامًا، فشعَّ منها بردٌ وسلامٌ وسكينة، فامتلأ صدرى ورأسى بالضياء العلوى.. كنتُ..

ـ هيبا..

ـ مالك يا عزازيل.. ماذا تريد الآن؟

ـ أنطاكية، ولقاء نسطور، وبقية ما جرى..

عدتُ إلى السرير، فارتميتُ عليه، كأننى عدت من تطوافٍ بالسماوات البعيدة. وعلى غير ما توقعتُ، رُحْتُ فى نومٍ طويلٍ امتد بى لحدود الظهيرة.. لم أنم يومها كعادتى، جالسًا.. أفقتُ من نومى مبتهجًا مفعم القلب بالمحبة. نويتُ أن أضع بعد عودتى للدير، ترنيمةً للعذراء مريم، أبدأها بقولى: يا حاوية الحنوِّ، ويانبعَ النور.. نزلتُ الدرجَ المضاءَ بنور النهار عبر نوافذ كثيرة فى الجدار، بديعة الأشكال. كان كثيرٌ من القسوس والشمامسة والخدم، يتحرَّكون فى الممر الطويل الواصل بين الغرف والردهات. سألتُ يومها عن الراهب الفِرِّيسى، فلم أستدل على شئ، وسألتُ عن مكان الأسقف نسطور، فأخذونى إلى القاعة الفسيحة التى بمدخل بيت الضيافة الكبير. نوافذها العالية مطلةٌ على حديقته الصغيرة، وجوانبها الأربعة أرائكُ مصفوفةٌ، عليها فُرُشٌ عتيقةٌ من الصوف الملوَّن.

كان نسطور جالسًا فى زاوية الغرفة اليمنى، وبيده كتابٌ فى مجلدٍ كبير. كان حوله خمسةٌ من الكبار، بينهم الأسقفان اللذان كانا معه فى القُدَّاس. حين رآنى وضع الكتاب بجانبه، وقام لتحيتى، فأسرعتُ إليه وقبَّلتُ يده. قبَّل هو رأسى وباركنى، وأجلسنى بينهم، بجواره، ثم جرى بيننا هذا الكلام، الذى مازلتُ أذكره بحروفه.. قلتُ:

ـ نيافة الأسقف، كنتُ فى شوقٍ لرؤياك.

ـ كان عليك أن تُرسل بأشواقك هذه، ولو فى رسالة واحدة إلى القسطنطينية!

ـ عذرًا يا أبتِ، فلستُ معتادًا على كتابة الرسائل.

ـ لكنك معتادٌ على كتابة الأشعار البديعة.. هل تعرف يا رَبولا أن هيبا شاعرٌ لايقل عنك موهبةً، وهو مثلك يكتبُ الشعر بالسريانية واليونانية، مع أنه مصرىُّ الأصل، والقبطية هى لغته الأولى.

ابتسم الأسقف رَبولا بتثاقلٍ مخلوطٍ بالمجاملة، ثم قال ما معناه إنه لن يحكم بجودة شعرى، إلا لو سمعه منى.. أضاف: *الشاعرُ لا يدلُّ على شعريته إلا قصائده، ولا تنفعه شهادات المحبين له، حتى لو كانوا فى مكانة الأسقف نسطور!* ضحكوا جميعًا بوقارٍ، من دعابته اللطيفة التى لم تُضحكنى. أمسك الأسقف نسطور بالمجلد الذى كان بيده لحظة دخولى، ومَدَّه نحو الأسقف رَبولا، فأخذته من يده وناولته لرَبولا الذى أخذه منى، ووضعه بحرصٍ على ركبتيه:

ـ هذه يا هيبا، هى الترجمة المباركة للأناجيل، التى نقلها الأسقفُ ربولا من اليونانية إلى السريانية.. هل سبق أن رأيتها؟

ـ لا يا أبتِ المبجَّل، لكنى سمعتُ بها. وهى عملٌ جليلٌ من دون شك.

تحسَّس الأسقف رَبولا غلاف كتابه، وقد طفحت ملامحه بالزهو. قال وهو يهزُّ رأسه افتخارًا: *هذا جهدٌ متواضعٌ، أردتُ به صرف الناس في بيعتنا، عن الدياطسّرون وصاحبه المارق*[1].. كنتُ أودُّ لو أخذتُ الترجمة، فنظرتُ فيها. غير أنني صرفتُ عني هذا الخاطر، لما لمسته من عجرفة الأسقف ربولا.. بعد برهة، استأذن القَسَّان، وبقي الأسقفان وذاك الرجل الأنطاكي الذي يلبس رداء الكهنة. كنتُ أعرف الأسقفين لشهرتهما، وقد عرَّفني نسطور بالكاهن بأن قال: *هذا كاهنٌ كنيستنا، انسطاسيوس. هو أنطاكيُّ الأصل، لكنه الآن معي في القسطنطينية. وهو أخٌ نابه العقل، وقلبه مليء بالإيمان.*

أومأت للكاهن برأسي محييًا بمحبةٍ، فردَّ تحيتي بإيماءةٍ باردةٍ من رأسه.. كان في وجهه حدَّةٌ، وفي ملامحه استنفارٌ لم أدر أول الأمر سببًا له، حتى كان الحوار الذي دار بيننا، فأظهر كلامه ما كان مخبوءًا بقلبه! لما بدأ المبجل نسطور الكلام، تبدَّدت الابتسامات، وبدا أن مجلسنا على وشك الخوض في أمرٍ جلل.

ـ ياهيبا، لقد أرسلتُ في طلبك لأستشيرك في أمرٍ.

ـ عفوك يا أبتِ، ومَنْ أنا حتى أُشيرَ على نيافة الأسقف نسطور، المبجَّل.

ـ إنه أمرٌ يخصُّ الإسكندرية.

خَفَق قلبي وارتجفتُ.. الإسكندرية ثانيةً! الأمرُ إذن جللٌ وخطيرٌ، وكفيلٌ بتبديد الابتسامات التي كانت قبلها بقليلٍ تُزيِّن الوجوه. مَدَّ نسطور يده نحوي بلفافةٍ من البردي، مكتوبٌ عليها كلامٌ كثيرٌ على عمودين متوازيين، الأول بالقبطية والآخر باليونانية. في أول اللفافة عنوانٌ باللغتين، خطف قلبي المرتجف: *رسائل البابا كيرُلُّس، رئيس أساقفة الإسكندرية والمدن الخمس الغربية ومصر والحبشة، راعي الكرازة (الدعوة) المرقسية، الناطق بلسان القديس مرقس الرسول. تتلوها اللعنات الاثنتا عشرة، التي كتبها البابا كيرُلُّس ضد المارق نسطور!*

حين رأيتُ العنوان، ولـمَّا أقرأ الرسالةَ بَعْدُ، أخذتني هَزَّةٌ خفيةٌ شاعتْ في بدني، فكأنها صارت تسري في عروقي برملٍ حارٍّ بدلاً من الدم. أدركتُ في لحظة إشراقٍ مفاجئ، أن الرعبَ آتٍ لامحالة.. فها هو الماضي يثب فوقنا من مكمنه، فيوشك أن ينشب مخلب المقت، في لحم ظهورنا المكشوفة.

(١) الدِّياطَسَّرون ملخصٌ للأناجيل الأربعة، بالسريانية، قام بعمله مفكرٌ يوناني اسمه طاطيان وقد ذاع الكتاب وانتشر بأيدي الناس، لكنه لم يعجب رجال الكنيسة، لأن طاطيان كان وثنيًا.. (المترجم).

الرَّقُّ السابعُ عَشَر

الحُبْلَى بالإلهِ

جَرَتْ عيناى بسرعة فوق سطور اللُّفافة، وانعقد حاجباى لما عرفتُ ما فيها. طلب منى نسطور أن أقرأ رسائل كِيرُلُّس الثلاث، وأنظرُ إن كانت ترجمتها القبطية مختلفة عن نصِّها اليونانى فى شئ.. أسند ظهره إلى الحائط، وملتُ أنا برأسى قليلاً للأمام. السطورُ الأولى من الرسالة الأولى قرأتها بتأنقٍ وصوتٍ مرتفعٍ، لم يلبث أن اضطرب وخفت مع توغُّلى بين سطور الرسائل وخناجرِها المشرعة. كانت الرسالةُ الأولى معروفةً لى من قبل ذلك بفترة، والثانيةُ أيضًا؛ فقد رأيتُ نسخةً منهما فى الدير باليونانية، كانتا بحوزة الراهب الفِرِّيسى وأعارهما لى، فأعدتهما إليه فى اليوم التالى من دون تعليقٍ من جانبى، ومن دون اهتمام بالابتسامة الساخرة التى ارتسمتْ على وجهه وهو يأخذهما منى! كنتُ أظنُّ أيامها أن الأمر سيتوقف عند هذا الحد.. الرسالتان الأولى والثانية، فيهما استفساراتٌ حانقةٌ مستنكرةٌ، كتبها كِيرُلُّس بخصوص ما نُقل إليه عن نسطور من إنكارٍ لعقائد عوام المسيحيين وخواصهم، خاصةً اعتقادهم أن العذراء مريم هى والدة الإله!

قرأتُ الرسالة الأولى بسرعة، ونظرتُ فى ترجمتها القبطية، فكانت مطابقة لنصها اليونانى الأصلى. قلتُ ذلك للأساقفة الثلاثة، فهزَّ الأسقف رَبولا رأسه موافقًا، ولم يحرِّك الأسقفان نسطور ويوحنا ساكنًا. وكان الكاهن انسطاسيوس يمطُّ شفتيه، وتعلو ملامحه علامات التذُّمر والضيق. الرسالة الثانية كانت كلمات ترجمتها القبطية لاذعةً، وأكثر حدةً من نصها اليونانى الذى كان بدوره أكثر حدةً من نَصِّ الرسالة الأولى.. قرأت عليهم الرسالتين باللغتين، وبيَّنتُ الاختلافات الطفيفة فى الترجمة القبطية، أعنى الكلمات الأكثر حدة.

الرسالة الثالثة، التى تتلوها اللعنات الاثنتا عشرة، كانت هى الأشدَّ لهجةً والأحدَّ تهديدًا، فى اللغتين! كانت الرسالة تبدأ هكذا: *كِيرُلُّس والمجمع الكنسى المنعقد بالإسكندرية، بمصر، يبعثون بتحية الرب إلى الموقر جدًا، الشريك فى الخدمة، نسطور*.. لما قرأتُ عليهم ما سبق، وأخبرتهم بأنه لا اختلاف بين النَّصَّين اليونانى والقبطى فى الديباجة، علَّق الأسقفُ يوحنا الأنطاكى ساخرًا، بما معناه أن الأسقف كِيرُلُّس يبدأ دومًا مهذَّبًا!.. رَدَّ عليه نسطور بقوله:

ـ هى حيلةٌ يانيافة الأسقف. يبدأ بمخاطبتى بصفات التبجيل حتى يثير حفيظة الناس، ثم يدعوهم من بعد ذلك إلى الإزراء بى. فيَلْعنونى لمروقى، ويبجِّلونه لأدبه.

أشار إلىَّ الأسقف رَبولا بأطراف أصابعه، بما معناه أن أُكمل القراءة. كانت إشارته سخيفة، وفيها مسحةُ تحقيرٍ لم أدر لها سببًا. نظرتُ نحوه بما يفيد بأن إشارته غير لائقة، غير أنه لم يكن ينظر نحوى.. كان مُطرقًا، والوجومُ يكسو هيئته.

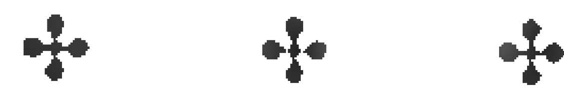
أكملتُ قراءة الرسالة التى سرعان ما انقلب كلامها نارًا فى اللغتين، واحتوت على فقرات عنيفة ضد الأسقف نسطور، بدأت بقول كِيرُلُّس له: *إن نسخ شروحاتك قد انتشرت بين الناس، فأَىُّ حساب سوف يكون لنا جَرَّاء الصمت عليها، وكيف لا يكون ضروريًا أن نتذكر قول المسيح: لا تظنوا أنى جئت لألقى سلامًا على الأرض، ماجئتُ لأُلقى سلامًا بل سيفًا، فإنى جئتُ لأُفَرِّق، ضِدَّ أبيه والابنة ضِدَّ أمها.*

توالت من بعد ذلك الفقراتُ النارية، التى منها قول أسقف الإسكندرية لنسطور: *لن يكون كافيًا لتقواك، الإقرار معنا بقانون الإيمان الذى أُرسى بالروح القُدُس، فى مجمع نيقية العظيم أثناء الأزمة الحرجة. إنك لم تفهمه، ولم تفسِّره تفسيرًا صحيحًا، وإنما بطريقةٍ منحرفة.. ولا بد لك من الاعتراف بأن تعاليمك ممقوتةٌ، وكافرةٌ.*

عند هذا الموضع من الرسالة، كاد خفوت صوتى يصير صمتًا، وقد غلبنى الحرجُ حتى تلعثمتُ، وتبعثرتْ منى الحروف. سكتُّ برهةً، وسكتوا. ثم أشار لى نسطور بباطن كفه أن أُكمل، فأكملتُ قراءة الرسالة النارية: *إننا نقُرُّ بكل تأكيد، بأن الكلمة اتَّحد بالجسد أُقنوميًا، ولذلك نسجد لابنٍ واحدٍ، الرَّبِّ يسوع المسيح، فلا نجزِّئ ولا نفصل الإنسان عن الله.. المسيحُ واحدٌ، ابنٌ وربٌّ.. فهو إلهُ الكُلِّ وربُّ الجميع، وليس هو عبدًا لنفسه، ولا سيدًا لنفسه.*

كانت كلمات الرسالة ومعانيها قد أنهكتنى، وأجهد روحى الانتقالُ بين أصلها اليونانى وترجمتها القبطية، حتى أننى أوشكت على الاستئذان منهم فى أن أستريح قليلاً، أو يعفونى من الأمر برمته! غير أننى وجدت لفافة البردى على وشك الانتهاء، ولم يبق فيها غير السطور المعنونة باللعنات الاثنتى عشرة. كانت الأولى منها تقول: *مَنْ لا يعترف بأن المسيح (عمانوئيل) هو الله بالحقيقة، ومن ثَمَّ فإن العذراء هى والدة الإله، فليكن ملعونًا (محرومًا)*.. عند هذا الموضع، سألنى الأسقف يوحنا الأنطاكى عن الترجمة القبطية لكلمة العنوان اليونانية أناثيما التى تعنى (اللعنات) فقلت له إن الكلمة القبطية تعنى: الحرومات. وإنه لافارق كبير بين المعنيين، اللعنة والحرْم، فكلاهما يعنى فى اللغتين: ما يُصبُّ على رأس المارقين والكفرة والمهرطقين!

عدتُ لتلاوة لعنات كِيرُلُّس أو حروماته الاثنتى عشرة، التى كانت عباراتها موجزةً حاسمةً، لاتدع مجالاً لأى تأويلٍ أو تخفيف من وَقْعها الكاوى للأكباد. وكانت كلها تنتهى بقوله، إن الذى يخالفه فيما يقرِّره من عقائد أُرثوذكسية قويمة: *فليكن ملعونًا.. ليكن ملعونًا.. ملعونًا*.. وعلى هذا النحو سارت الفقرات الاثنتا عشرة الأخيرة من رسالة كِيرُلُّس مؤكِّدةً تلك اللعنات التى انقدحت شرارتها من كنيسة الإسكندرية، ثم تأجَّجت نارُها وهاجت، حتى عمَّت العالم بالحرائق.



لما انتهيتُ من القراءة، طغى على المجلس صمتٌ ثقيل. كنتُ أشعرُ بضيق فى التنفس كأن جبلاً حطَّ فوق صدرى. الأساقفةُ الثلاثةُ والكاهن أنسطاسيوس، كانوا أيضًا مستغرقين فى هَمٍّ محيط. وكان نسطور يقلِّب يده اليمنى فى الهواء، وقد مَطَّ هو الآخر شفته السفلى استهزاءً وتعجُّبًا من الكلام الذى لم تكن هذه، بالقطع، هى المرة الأولى التى يسمعه فيها.. أخرجنا الأسقف رَبولا من إسار الصمت بقوله لنسطور:

- هل تظن أن كِيرُلُّس كتب حقًا للإمبراطور فى هذا الأمر؟
- نعم يا رَبولا المبارك، كتب أولاً رسالتين، إلى بولكيريا أخت الإمبراطور الكبيرة، وإلى يودكيا الإمبراطورة، لما يعلمه من نفوذهما. ثم كتب إلى الإمبراطور رسالةً طويلةً على ظهرها

توقيعات عشرات القسوس والأساقفة. رجالُ القصر أخبرونى بذلك، لكن الإمبراطور لم يردّ عليه بَعْدُ، وأظنُّه لن يرد.

أطرق الأسقفُ رَبولا وقد علاه الهمُّ، وبلغ انزعاجه مداه.. فجأةً انبرى الكاهن انسطاسيوس، وانطلق من فمه الكلامُ كما تنطلق أَلْسنةُ اللهب: *فلنقاوم على الفور هذا العدوان، ولنقف فى وجه جميع المارقين القائلين بأن العذراء هى أمّ الإله (ثيوتوكوس) فالعذراء امرأةٌ من النساء، مجرد امرأة من النساء، ومن المستحيل أن يولد الله من امرأة.*

كان صوتُ الكاهن الزاعق انسطاسيوس مزعجًا، حانقًا، يكاد يخلع حنجرته عن عنقه اليابس، بل وتوشك عروقُ رقبته النافرة من الغيظ أن تنفجر. بدا أنه يريد أن يفيض فى زعيقه، غير أنه توقَّف لما طرق البابَ شماسٌ شابٌ، ودخل علينا بأكوابٍ فيها مشروبٌ دافئ، تناولناها منه صامتين. لا أذكر الآن ماذا شربناه يومها. همس الشَّمَّاسُ بشئ فى أذن الأسقف يوحنا الأنطاكى، ثم خرج من فوره، ومن فوره عاد الصمتُ ليطبق علينا. قطع الأسقف رَبولا أستار الصمت، بأن تنحنح، ثم تكلم فقال:

ـ ألا ترى يا نسطور، أنه يجب عليك مهادنةُ الإسكندرانيين.

ـ كلا يارَبولا، لن أهادن فى هذا الأمر أبدًا. وليكف كِيرُلُّس عن وهمه المريض بأنه حامى الإيمان فى الأرض.

تدخل الأسقفُ يوحنا محاولاً، بلطفٍ، تهدئة نسطور. ولكن راحتْ محاولته، من دون جدوى. كان يناديه باللفظ اليونانى لاسمه: نسطوريوس، وكان يتحدَّث إليه بمودةٍ واحترام.. بدا لى يوحنا الأنطاكى مخلصًا فى محبته للمبجَّل نسطور، ومجتهدًا فى التخفيف عنه بعباراتٍ من مثل: *لا تغضب يا أخى المبجَّل نسطوريوس، فيتسلل الشيطان إلى عقلك، ويكدِّر ذهنك الصافى..* ولكن نسطور لم يهدأ غضبه، وكان يردُّ عليه بما معناه: *إذا لم نغضب من أجل عقيدتنا، أيها الأب الجليل، تسلل الشيطانُ إلى قلب هذه الديانة وروحها..*

لم يسبق لى أن رأيت الأسقف نسطور، ثائرًا على هذا النحو. شعرتُ ساعتها بحرجٍ بالغ من كلام الأساقفة فى هذا الأمر الدقيق، أمامى، فوددتُ لو أستأذن فى الخروج من حضرتهم.. غير أن نسطور فاجأنى بسؤال عن رأيى فيما قرأته عليهم، فقلت:

ـ كما لايخفى عليك يا نيافة الأسقف، فإننى بعيدٌ عما يجرى بين الكنائس الكبرى. ولا علم لى بتفاصيل هذا الأمر، وإن كنتُ قد سمعت بمجملاته. غير أننى توجَّستُ حين وصلتنا، قبل شهور، رسالتكم التى تحظرون فيها على العوام والخواص، ترديد كلمة ثيوتوكوس. وازداد قلقى حين سمعت بالمراسلات الودية بين أسقفىْ الإسكندرية وروما، واتفاقهما على نبذ أقوال نيافتكم.

هَزَّ الأسقف رَبولا رأسه تأثُّرًا بما قلته، وكأنه اقتنع به. ثم توجَّه نحوى بالكلام لأول مرة، فقال ما معناه إن التقارب بين الإسكندرية وروما مؤقَّتٌ، ولا هدف له إلا إضعاف أسقفية القسطنطينية فى شخص الأسقف نسطور! أما رسالة نسطور فى تحريم لفظ ثيوتوكوس، فقد أُرسلت إلى الكنائس الشرقية فقط، ومن المستبعد أنها وصلت إلى الكنائس والأديرة المصرية، ولا تُرجمت إلى القبطية. أضاف رَبولا ما معناه أنه يعتقد بأن الذى وصل إلى الأسقف كِيرُلُّس فأثاره، هو أنباءُ الخطبة التى ألقاها المبجل نسطور يوم رسامته أسقفًا، حيث قال: *يسوعُ إنسانٌ وتجسُّده هو مصاحبةٌ بين الكلمة الأبدية والمسيح الإنسان، ومريمُ هى أمّ يسوع الإنسان، ولا يصح أن تسمى والدة الإله، ولا يجوز أن يقال لها: ثيوتوكوس!*

تعجبتُ من قدرة الأسقف رَبولا على تذكر عبارة نسطور بنصِّها،

وجرأته على تلاوتها بهذه القوة أمام قائلها، ونحن فى قلب هذه الزوابع.

كدتُ أساير رَبولا، فأحاوره فى أقوال نسطور التى كنا نعلم أنها، فى الأصل، آراءُ الأسقف المتنيِّح تيودور المصيصى.. لكننى التزمتُ الصمت مكتفيًا بهزِّ رأسى، ولما لم أقاطعه، أكمل الأسقفُ رَبولا كلامه وهو ما يزال ينظر ناحيتى، من دون أن يرانى! قال: *الأسقفُ يوحنا الأنطاكى كتب ردًّا مطولاً على رسائل الأسقف كِيرُلُّس الثلاث، وناقش معه الأمر تفصيلاً مثلما فعل الأسقفُ المبجَّل نسطور من قبله. ولكنهم لم يصلوا إلى اتفاق. والآن، يريد الأسقف نسطور الرَّدَّ على لعنات أسقف الإسكندرية، بلعناتٍ مضادة.. وأرى أن ذلك سوف يثير مزيدًا من النـزاع، وعديدًا من وجوه العداء، وسوف يؤجِّج نار الاختلاف والفُرقة بين الكنائس الكبرى.*

كان الأسقف رَبولا بليغَ الألفاظ، وفى كلماته صرامةٌ وقوةُ إقناع. ولاعجب، فهو شاعرٌ كنسيٌّ شهير. وهو الذى قضى بقصائده المعروفة، على المعانى التى كان يردِّدها فى أشعاره ابن ديصان (بر ديصان) الموصوف بالمارق! ويحفظها عنه الناس. وقد صار شِعْرُ رَبولا اليوم أشهر من قصائد ابن ديصان.. خاصةً بعدما تولى ربولا أسقفية الرُّهَا، وعظم شأنه عند الناس هناك، وصار رأسًا للديانة فى تلك النواحى الشرقية. حتى أن أشعاره وترانيمه الكنسية، تُغنَّى اليوم فى أغلب القُدَّاسات والأعياد. ومع ذلك، شعرتُ بشئٍ ما فى الأسقف رَبولا غير مريح.

جلستُ ساكنًا على بساط الأدب، متحيِّرًا فى وسيلة خلاصى من تلك الجلسة التى لم تكن تخطر لى ببال. ثم انتبهتُ من شرودى حين نظر المبجل نسطور نحوى بوجهٍ يعلوه احمرارُ حنْقه، وسألنى: *هل تعتقد يا هيبا، أن رهبان الأديرة المصرية الكثيرة فى وادى النطرون وفى صحراوات مصر، يوافقون كِيرُلُّس فيما يقول.*

ـ إنهم يوافقونه فى أى شئ، فهم جيشُ الكنيسة المرقسية، والجنودُ المخلصون لبابا الإسكندرية.

ـ بابا، هه.. إذن، ليكن ما يكون.

نظر يوحنا الأنطاكى إلى نسطور بحنوٍّ أبويٍّ، وكاد يتكلم لولا أن رَبولا الرهاوى قام متثاقلاً، معتذرًا إليهم برغبته فى المرور على حاكم أنطاكية الرومانى فى منـزله، ثم الرجوع لحضور الصلاة. سأل الأسقفَ يوحنا إن كان سيمضى معه، فتردَّد الأخير لحظةً، لكن نسطور حسم الأمر بأن قال: *اذهبا معًا فى أمان الرَّبِّ ورعايته، فإننى أريد أن أخلو قليلاً بالراهب هيبا..* خرجا متجاورين، وتركونا فى ركن الغرفة محاصرين. وهمس نسطور بشئٍ فى أُذن الكاهن أنسطاسيوس، فقام الأخير من فوره، وبقينا منفردين. بعد هنيهةٍ من صمتٍ، قلتُ مُترفِّقًا:

ـ يا أبتِ، إننى قلقٌ عليك. ولا أنصحك بتحدِّى كنيسة الإسكندرية.

ـ يا هيبا، أنا لا أتحدَّى أحدًا. ولكن كِيرُلُّس يريد أن يعلن وصايته على جميع الكنائس فى العالم.

راح نسطور يعيد علىَّ، ما كنتُ أعرفه من اعتقاده بأنه لايجوز تسمية العذراء مريم ثيوتوكوس؛ فهى امرأةٌ قديسةٌ، وليست أمًا للإله. ولايجوز لنا الاعتقاد بأن الله كان طفلاً يخرج من بطن أمه بالمخاض، ويبول فى فرشه فيحتاج للقماط، ويجوع فيصرخ طالبًا ثدى والدته.. قال: *هل يُعقل الاعتقادُ بأن الله كان يرضع من ثدى العذراء، ويكبر يومًا بعد يوم، فيكون عمره شهرين ثم ثلاثة أشهر ثم أربعة! الرَّبُّ كاملٌ، كما هو مكتوبٌ، فكيف له أن يَتَّخذَ ولدًا، سبحانه، ومريم العذراء إنسانةٌ أنجبت من رحمها الطاهر، بمعجزةٍ إلهية، وصار ابنها من بعد ذلك مجلىً للإله ومخلِّصًا للإنسان.. صار كمثل كُوَّةٍ ظهرت لنا أنوارُ الله من خلالها، أو هو مثل خاتمٍ ظهر*

عليه النقشُ الإلهى. وظهورُ الشمس من كُوَّةٍ، لا يجعل الكوة شمسًا. كما أن ظهور النقش على خاتم، لا يجعل من الخاتم نقشًا.. يا هيبا، لقد جُنَّ هؤلاء تماماً، وجعلوا الله واحدًا من ثلاثة!

تحصَّنتُ بالصمت احترامًا لحنق نسطور وشفقةً عليه.. بعد قليل، هدأ، ورقَّت نبراته وهو يقول لى ما ملخَّصه أن التجلِّى المؤقَّت للإله المتعالى فى المسيح يسوع، هو رحمةٌ أهداها الله لنا، ولا يجب علينا إهدار الهدية الإلهية بهذا التوسُّع والاسترسال مع خرافاتنا الخاصة بألوهية المسيح، منذ كان فى بطن أمه أو منذ زمن طفولته، ولا يصح الاعتقاد بأن مريم العذراء ولدت الله! فالله باقٍ على كماله الأزلى الأبدى، فهو الواحد الفرد، لا يولد ولا يموت، وهو يتجلَّى حينًا، ويحتجب أحيانًا بحسب مشيئته.

نظر المبجل نسطور فى عينىَّ بعينين يملؤهما الأسى، وقال ما معناه: *هل فيما أقرره أىُّ شئ عجيب، أم أن العجب مما يقوله كِيرُلُّس وأشياعه؟ يا هيبا، إن الخطر أبعد وأهم من لفظة ثيوتوكوس التى يتسلَّى الجهلةُ والعوامُ بترديدها. فالأمرُ يتعلَّق بحقيقة الإيمان، وبقدرة هذا الدين الحق على مخاطبة قلب الإنسان وعقله، فى كل زمان ومكان. إن الوثنيين يهزأون من إسرافنا فى الخرافة، وسيأتى من بعد هؤلاء المستهزئين بنا مستهزئون منا، يسخرون من تلك الأوهام، ويحاولون طرحها، فيطرحون الديانة بجملتها.. إن البشارة والمعجزة الإلهية ياهيبا، سِرٌّ نادرٌ، لو أفرطَ فيه سيفقد معناه، ونفقد نحن الإيمان، ونضادّ العقل!*

كنتُ أعرفُ رأيه هذا، وأحفظه. ولكنى تركت نسطور يسترسل فى كلامه، تأدُّبًا معه واحترامًا لغضبه النبيل. بعدما انتهى وقد هدأ تمامًا، سألته متلطِّفًا: *ولماذا لا نترك لعوام أهل الديانة، والجهَّال، اعتقاداتهم المختلطة بالأوهام المريحة لهم، والمناسبة لإدراكهم. ونشرح الحقائق لعلماء اللاهوت، ورجال الإكليروس، وكهنة الكنائس، لأن هؤلاء قادرون على فَهم هذه المسائل اللاهوتية الدقيقة، ثم نترك العوام يفهمون منهم، جيلاً من بعد جيل، من دون أن نصدمهم.*

ـ ولماذا نلجأ لهذه المناورة؟

ـ مضطرون يا نيافة الأسقف، مضطرون. حتى نتفادى أنياب ومخالب الأسد المرقسى!

ابتسم نسطور لدعابتى الرامزة، وقد أدرك بذهنه اللمَّاح أننى أُشير إلى ما ينتشر فى الإسكندرية من إيمانٍ بأن القديس مرقس رسول الإسكندرية، اتخذ من الأسد شعارًا. أو بالأحرى، أعطاه الإسكندرانيون وأعطوا أنفسهم رمز الأسد، بأن رسموا القديس مرقس الرسولى فى كتبهم وعلى جدران بيوتهم، وهو يكتب إنجيله والأسدُ رابضٌ بجواره يتأمَّل ما يكتبه.. وقد أعادت الابتسامةُ العابرةُ إلى وجه نسطور بعض الصفاء الذى عرفته فيه سابقًا، وكنت أفتقده منذ ابتدأ لقاؤنا الأنطاكى هذا، غير المتوقَّع.

أردتُ أن أسأله عن صحة الأخبار التى وردت إلينا طيلة العام الماضى عن بطشه بالمعارضين له، وهدمه لكنائس الأريوسيين، وطردهم من القسطنطينية، وغير ذلك.. غير أننى شعرت بأن الأوان لم يحن لذلك بعد، فصبرتُ.

.. بعد هدأةٍ طالت بضع دقائق، اعتدل نسطور فى جلسته، وعَدَّل غطاء رأسه، ثم التفت نحوى وقد غَشيه القلقُ، فلم تفلح ابتسامته فى إخفاء ما يعانيه. بدا مضطربًا وهو يخبرنى بأنه رَدَّ بعنفٍ على رسالة كِيرُلُّس الأولى، ويُعدُّ الآن الردَّ على هذه الرسالة الأخيرة، وأنه يفكر أيضًا فى إرسالى للإسكندرية لأحاجِجه فى الأمر!

ـ عفوك يا أبتِ المبجل، ورحمتك، هل تظنُّ أن الأسقف كِيرُلُّس سوف يسمعنى، أو يحترم أصلاً زيارتى؟

ـ ولم لا! أنت راهبٌ منذ شبابك المبكر وعالـمٌ بالعقائد، وذو لسانٍ يونانيٍّ بليغ، ودَرَست بالإسكندرية.

ـ وهربتُ منها فى يومٍ مشهود.

ـ وهل تظنَّه شعر بذلك وقتها؟ لابد أن نشوته بمقتل هيباتيا شغلته عن غيابك.. بالمناسبة، هل التقيت به يا هيبا فى جلسات خاصة، أيام وجودك بالإسكندرية، المدينة العظمى؟

لفظ نسطور الوصف الشهير للإسكندرية، بسخريةٍ لاتخفى غيظه من وصف المدينة بالعظمى، وحرص كنيستها على الاستعلاء فوق مدينة المقر البابوى روما، ومدينة المقر الإمبراطورى القسطنطينية. ولأنه كان ينتظر منِّى الإجابة على سؤاله، ولأننى كنتُ أحبُّ نسطور كما أحبُّ أبى، ولا أودُّ له أن يلقى مصيرًا بائسًا مثل مصيره.. فقد أخبرته بما كنتُ أحرص دومًا على كتمانه! ومن أجل خاطره حكيتُ:

التقيتُ بالأسقف كِيرُلُّس مرةً وحيدةً.. كان يومها قد مَرَّ على وجودى بالإسكندرية عامان طافحان بالملل، كنتُ خلالهما مستسلمًا لمشيئة الرب، متناسيًا حلم النبوغ فى الطب. قضيتُ أوقاتى هناك ما بين الصلاة مع الرهبان، وحضور القُدَّاس فى أغلب الأيام، والإغفاء فى أغلب القُدَّاسات. والانتظام بفصول المدرسة اللاهوتية، لأتعلَّم ثانيةً ماكان يدرسه تلامذة الكتاتيب فى صعيد مصر. كنتُ أيامها أدرسُ من الطب، ما يمارسه العطارون والعشَّابون وأهل الفلاحة فى بلادى الأولى.. وبقيتُ على هذه الأحوال مقيمًا، مسلوبَ الإرادة والروح، وقد أدركتُ أن أحلامى التى علَّقتنى بالإسكندرية، انقلبتْ بعدما جئت إليها كوابيس جاثمةً على روحى، ولا فكاك منها.. ثم جاء ذلك اليوم الذى أخبرنى فيه كبيرُ كهنة الكنيسة المرقسية، بأننى سأحظى بمقابلة البابا كِيرُلُّس صباح غدٍ، بعد القداس. كان عمرى آنذاك فى حدود الخامسة والعشرين. وبطبيعة الحال، قضيتُ ليلتى تائهًا فى صحراوات القلق والأرق. وفى اليوم التالى، دخلتُ على الأسقف كِيرُلُّس بعد ساعتين من الانتظار أمام بابه. سألنى أول مارآنى عن سِنى عمرى، فأخبرته، وأخبرته أننى أتيت أصلاً للإسكندرية للتبحُّر فى دراسة الطب، فردَّ علىَّ بسؤالٍ لم أفهم فى البداية معناه:

ـ ومن هو أعظم المتبحِّرين فى الطب؟

ـ يا صاحب القداسةِ، يُقال إنه مصريٌّ قديمٌ اسمه آمنحوتب، أو هو اليونانى الشهير أبقراط. أم تراك يا أبتِ تقصد الذين جاءوا بعدهما من الأطباء الإسكندرانيين، من أمثال هيروفليوس، أو الذين درسوا بالإسكندرية من أمثال جالينوس؟

ـ خطأ.. إجاباتك كلها خاطئة، فالذين ذكرتهم كلهم وثنيون، ولم يستطع واحدٌ منهم أن يبرئ المجذوم والأبرص، وأن يحيى بلمسةٍ من يده إنسانًا مات!

ـ عفوًا ياصاحب الغبطة، لكننى لم أفهم ما تقصد إليه.

ـ إن ربنا يسوع المسيح، أيها الراهب، هو بحرُ الطبِّ. فتعلَّم منه، ومن سير القدِّيسين والشهداء، واغترف البركات بيد تقواك وإخلاصك.

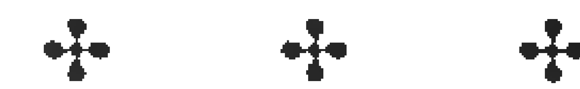
كان كلام كِيرُلُّس معى حادًّا، لايحيد لفظُه عما يراه حقًّا ويقينًا، فآثرتُ ساعتها الصمت، وتكلَّم هو بما معناه أننى أوشكت على انتهاء فترة تعليمى بالمدينة، وأنه ينوى إرسالى بداية الصيف القادم إلى ديرٍ من أديرة وادى النطرون القاحل، الذى بقلب الصحراء الواقعة جنوب الإسكندرية؛ فتحلَّ علىَّ بحسب قوله: *بركات هذه الأرض الطاهرة، الحافلة بُرفات القدِّيسين الذين وهبوا أرواحهم ليسوع، وهجروا من أجله الدنيا..* استدرك كِيرُلُّس

فقال لى، من دون أن ينظر ناحيتى: *وقد أُرسلك إلى أحد أديرتنا بمصر العليا أو بالحبشة، فإن أبناء الرب هناك بحاجةٍ إلى دعمنا.*

سكتَ كِيرُلُّس برهةً كأنه يفكِّر مليًا، ثم نظر إلى واحدٍ من قسوسه، وقال: *لعله من المناسب أن نرسله إلى أخميم، فالشعبُ هناك يجاهد فى سبيل الرب، بعدما تكاثر حولهم فى السنوات الماضية، الفارُّون من هنا والمشتغلون بالعلوم التى لانفع لها..* احترتُ فيما يمكن أن أردَّ عليه به، ثم واتتنى الجرأةُ أو الحمق! فخفَّضتُ من صوتى، وسألته بكل الأدب:

ـ وماهى يا صاحب القداسة، العلوم التى لانفع لها. حتى أعرفها، وأحرص على الابتعاد عنها؟

ـ هى أيها الراهب، خزعبلاتُ المهرطقين وأوهامُ المشتغلين بالفلك والرياضيات والسحر. فاعرفْ ذلك وابتعد عنه، لتقترب من سُبُل الرب وطُرُق الخلاص. إن كنت تريد تاريخًا؟ إليك التوراة وسفر الملوك. أو تريد بلاغةً؟ إليك سفر الأنبياء. أو تريد شعرًا؟ إليك المزامير. وإن أردت الفلك والقانون والأخلاق، فإليك قانون الرب المجيد. قُم الآن أيها الراهب لتلحق بالصلاة، لعلك تحظى بنظرةِ عنايةٍ من ربنا المسيح الحىِّ.



سمعنى نسطور باهتمام وقلق، حتى شعرتُ من إنصاته أنه يدرك من المعانى الكامنة وراء حكايَتى، ماهو أعمق مما يبديه ظاهر الكلام. بعد لحظة صمتٍ جليل، التفت نحوى وقد عاوده التحنانُ الأبوىُّ الذى طالما عرفته فيه، وقال: *سوف أعفيك يا هيبا من مهمة الذهاب إلى هذا الرجل، وسوف أردُّ بنفسى على سخافاته، وأواجه لعناته بلعناتٍ مضادة، أَصُبُّها حاميةً فى رسالةٍ مثل رسالته.. ما علينا من ذلك كله الآن، أخبرنى عنك وعن أحوالك فى الدير.*

تذكرتُ رسالة رئيس الدير، فأخرجتها بسرعة من بين طيَّات ردائى، ومددتها نحوه، ففتحها برفق. نظر فيها، ثم قال باسمًا ومهمومًا: *الراهبُ سمعان يطلب توسعة الكنيسة وبناء سورٍ للدير. طمئنه ياهيبا، سوف أحدِّث الأسقف يوحنا اليوم فى الأمر، وسوف يلبى طلبه بمعونة الرب.*

استدعى نسطور بدواةٍ وقلم، وأخرج من جيبه رقًّا صغيرًا كتب عليه رسالة لرئيس الدير، ثم ختمها بختمه وأعطاها لى. استأذنتُ منه فى العودة إلى الدير صباح الغد، فأخبرنى أنه سيبحر فجرًا إلى القسطنطينية.. ثم قام واحتضننى مودِّعًا، وعاد لجلسته، وحيدًا. عند الباب بدا لى أمرٌ كنتُ أكتمه، فعدتُ إليه لأسأله:

ـ يا أبتِ، لو احتدم الخلاف بينك وبين الأسقف كِيرُلُّس بأكثر من ذلك، هل سينصرك بقيةُ الأساقفة؟

ـ يا هيبا، الأساقفةُ كثيرون فى الأرض شرقًا وغربًا، وأهواؤهم شتى. فامضِ أنت فى عناية الرب، ولا تقلق، فالله هو الناصر والمعين.

أردتُ أن أزيده إيضاحًا، وأستزيده إفصاحًا، فقلت:

ـ إننى يا أبتِ أقصد الأسقفين، يوحنا وربُّولا.

ـ يوحنا الأنطاكى رجلٌ مخلص، وبيننا سنوات طوال من المودة. أما رَبولا، فلا أعرف ما ينويه.. لاتقلق ياهيبا.. لاتقلق يا ولدى، فهذا العالم بكل ما فيه، وكل مَنْ فيه؛ لا يستحق قلق المؤمنين.

الرَّقُّ الثامن عشر

عِنْدَ حَوَافٍّ سَرْمَدَة

فى طريق عودتى من أنطاكية، كنتُ أنوى المرور على دير يوبريبوس لزيارة الراهب الضحوك، فقد كنتُ فى شوق لرؤياه. غير أننى لأمرٍ خفىٍّ، انصرف عنى ذلك الخاطر، وقررتُ العودة إلى الدير رأسًا.. لاحظتُ عند خروجى من البوابة الشرقية أمرًا غريبًا، فالحمارُ الذى كنتُ دومًا أظنه حيوانًا غبيًا، مضى بى مسرعًا وكأنه يعرف طريق العودة! سار بلا أدنى توجيهٍ منى. كانت دَقَّات حوافره، تشى بنشوته وابتهاجه بالرجوع إلى موطنه ومربطه فى حظيرة الدير.. الحمار يحنُّ إلى الأصل، ويبتهج بالرجوع إلى الموطن، وأنا تُرعبنى فكرة الرجوع إلى بلادى، ولو فى مهمة قصيرة. لكننى فى الحقيقة، كنتُ مرعوبًا من العودة إلى الإسكندرية تحديدًا، فرجوع مثلى إليها محفوفٌ بالمخاطر.. فالذى يخرج من الإسكندرية مغاضبًا أو مغضوبًا عليه، لاينبغى له العودة إليها. تجاربُ الأيام دلَّت على ذلك، وأكَّدته! فقد عاد إليها أوريجين بعدما ذَهَبَ عنها مغاضبًا، فأذاقه أسقفُ زمانه ديمتريوس الكرَّام كؤوس المرار. جرى ذلك قبل مائتى عام، ولم يكن أسقف المدينة أيامها بمثل قوة أسقفها اليوم، ولم تكن الإسكندرية وقتها تُعرف بالمدينة العظمى، ولم تكن واجهات بيوتها وجدرانُ كنائسها قد امتلأتْ بصور مرقس الإنجيلى وبجواره الأسد الرابض، ولم يكن أوريجين مسكينًا مثلى! ومع ذلك ذاق على أيديهم المرار والويل.. وبعده بثمانين عامًا، استدرج الإسكندرانيون الراهب آريوس إلى القسطنطينية من منفاه ببلاد القوط (إسبانيا) بعدما كان قد استقر هادئًا هانئًا بأقصى العالم. استدرجوه، بعدما حرموه وعزلوه ومثَّلوا بسمعته.لم يرضوا له أن يموت فى سلام. ولما انخدع وذهب ليلتقى بالأسقف إسكندر فى بلاط قسطنطين الإمبراطور، أملاً فى الوفاق وحل النـزاع اللاهوتى الذى أغضب الإسكندرية، لقى آريوس مصيره المفجع ومات مسمومًا. ولم يكن أسقف الإسكندرية أيامها بمثل قوة أسقفها اليوم، ولا كان آريوس مسكينًا مثلى!

على وقع خطى الحمار الرتيبة فوق الحصى، كانت تلك الأفكارُ تؤرجح رأسى، فلم تنجح خضرةُ الجنَّات المحيطة بأنطاكية، مع جمالها، أن تخرجنى من دَوَّامات الإسكندرية.. عنفٌ كثيرٌ يلفُّ سيرة المدينة التى حلمتُ سنين بالوصول إليها، ولما وصلتها تُقت إلى الفرار منها، وبقيتُ محبوسًا فيها حتى جاء يوم هجاجى العارم.. كنتُ أود لو لبَّيتُ طلب نسطور، وعاونته فيما هو مقبلٌ عليه. ولكن كيف يجوز لى الرجوع إلى الإسكندرية؟ وهل ينتظر كِيرُلُّس راهبًا مثلى، ليحاججه، ويشرح له مقاصد نسطور اللاهوتية؟ إنه لن يقابلنى أصلاً، وإنما سيفتك بى. ولو نجوتُ منه، فهل سأنجو من العوام، ومن جماعة محبى الآلام. وهم يعلمون أننى جئتُ ممثلاً لنسطور الذى يرونه مهرطقًا! أهلُ الإسكندرية لايرحمون، ولا يخشون عقابًا على أفعالهم. قتلوا هيباتيا على مرأى من سُكان المدينة، ولم يُعاقبوا. وقتلوا قبلها أسقف مدينتهم جورج الكبادوكى، ومزَّقوه فى الشارع الكبير، فخنع الإمبراطورُ جوليان وهو المرتد من المسيحية، عن

عقابهم، واكتفى بقوله فى مرسومٍ إمبراطوريٍّ فاضحٍ، إنه سيعفو عنهم إكرامًا لمعبود الإسكندرية سيرابيس!

كيف يمكننى العودة للإسكندرية، بعدما رأيته منها وعرفته عنها؟.. وما أدرانى بما قالوه عنى، لـمَّا عرفوا بهروبى فى اليوم المشهود؟ ألم يحدثهم عنى أحدُ الحجاج العائدين من أورشليم؟ وهل اتخاذى الاسم الكنسى هيبا سوف يُخفينى عن أنظار الكنيسة المرقسية وعن مخلب الأسد؟.. أترانى خذلتُ المبجَّل نسطور بتخاذلى عن تلبية طلبه؟ أم أن الرب كشف له أمرًا، فعدل عن فكرته الملقية بى فى آتون الإسكندرية؟ أم أنه لمح خوفى حين حكيتُ له قصة لقائى بالأسقف كِيرُلُّس، فأعفانى من هذه المهمة المرعبة، غير المجدية أصلاً.

أفقتُ من دوران الأسئلة برأسى، على أمرٍ عجيبٍ آخر فعله الحمار. كنا قد قطعنا قرابة نصف الطريق، وكان الأوان ظهرًا، فوجدته يتجه إلى الشجيرات التى وقفنا تحتها ساعة الظهيرة، قبل يومين، ونحن ذاهبان إلى أنطاكية.. تحت الشجيرات تسمَّرت ساق الحمار، وراح يهز أذنيه وكأنه ينبِّهنى إلى موعد غدائه. الحمار لا يمكن بحال أن يكون غبيًا، هو صبورٌ بطبعه. وقد يبدو الصبرُ غباءً أحيانًا، وجُبنًا أحيانًا. يبدو أننى قضيتُ عمرى حِمارًا!

نزلتُ عن الحمار، وألقيتُ البردعة الخشنة عن ظهره، فزفر زفرة المرتاح. ربطتُ ساقيه الأماميتين بالحبل المعلَّق بإحداهما، وعلَّقت برقبته مخلاة العليقة، فراح يمضغها بالتذاذٍ وتمهُّلٍ. لم يكن لى رغبة فى الأكل، ولا فى النوم، ولا حتى فى التفكير. أسندتُ ظهرى إلى ساق شجيرة، وأغمضت عينى وقد غامرنى شعورٌ غامضٌ بالارتياح، لقرب عودتى إلى الدير.

بعد برهةٍ من سكون الظهيرة، مَرَّ بى شابٌ تكاد سنوات عمره تقترب من العشرين. جاء من بعيدٍ يسعى على الطريق المبلَّط، وهو يمسك بمقود عنـزةٍ يتبعها ثلاثٌ من صغارها. أقبل نحوى من الناحية الأخرى للطريق، وسألنى بلطفٍ إن كنت أحتاج لشئ، فشكرته، ثم استدركتُ، فسألته إن كان من الممكن أن يجد لنا ماءً لنشربه، أنا وحمارى؟ فقال بهمَّةٍ عالية، إن هناك بئرًا قريبة. ربط عنـزته تحت الشجيرات، وطار إلى ناحية بيوت البلدة، وعاد بعد قليل وبين يديه ماجورٌ كبير من الفخار، يترجرج فيه الماءُ العذبُ النظيفُ. ارتشفتُ شَرْبات حتى ارتويتُ، ثم أخذ الفتى الإناء من يدى، فوضعه أمام الحمار، وأنزل المخلاة عن رقبته، فمال لينهل.. عاد الفتى فجلس أمامى متأدِّبًا، عند طرف ظل الشجيرات. بدا لى خجولاً، فأردتُ أن أجاذبه أطراف الحديث على سبيل التعبير عن امتنانى، فسألته من أىِّ بلدة هو؟

ـ من هذه البلدة يا أبتِ.. سَرْمدة.

نظرتُ ناحية البلدة النائمة فى سلام، تحت شمس الله التى تشرق على الأبرار والأشرار. البلدةُ صغيرةٌ، فقيرةُ البيوت، لايزيد عدد منازلها عن المائة. فى أطرافها بساتين قليلة، ومساحات من شجر الزيتون. لم أرَ عند البيوت أحدًا من سكان البلدة! أتراهم كانوا فى مثل هذا الوقت من الظهيرة، نائمين؟ مع أن أيام الشتاء هذه، نهارها قصير.. كان الفتى يجلس صامتًا، فسألته إن كان يشتغل بالرعى، مثلما يبدو من هيئته؟

ـ لا يا أبتِ، أنا أعمل أحيانًا بالمعصرة التى بطرف البلدة الغربى. وهذه معزاة عمَّتى، أخذتها بالأمس لتبيت عند جارٍ لنا لديه جَدْىٌ قوى. والآن أُعيدها إليها، بعدما قضت ليلةً مع الجدْىِّ القوىِّ..

ـ فهمتُ يا ولدى، فهمتُ.

لم تعجبنى النظرة التى طفرت بعينىّ الفتى، حين ذكر الجدى الموصوف بالقوى. كان حمارى ما يزال يعبُّ الماء مستمتعًا ببرودته، وكانت المعزاتُ الصغيرات يتمسَّحن ببطن أُمِّهنَّ.. ظل الفتى جالسًا عند حدود الظل، مواجهًا لى. كانت الشمس تكسو جانبه الأيسر، ويقع على جانبه الأيسر ظِلُّ الشجيرات.. تربَّع الفتى فى جلسته بعدما حَسَرَ طرف جلبابه، فظهرت ركبتاه، وبدا بياض ساقيه الخاليتين من الشَّعْرِ، بعكس حال الرجال! حدَّقتُ فى ملامحه، فبدت لى إلى ملامح النساء أقرب، خاصةً أن لا لحيةَ له.. فى شعر رأسه صفرةٌ، وفى عينيه ميلٌ للاخضرار، وعلى وجهه ورقبته أثرٌ لفحات الشمس، وكانت يداه ناعمتين على غير العادة فى أمثاله من الفقراء.

أثار الفتى قلقى! أخرجتُ من مخلاتى نسخة المزامير المكتوبة بقلم يونانىٍّ دقيق، ونظرتُ فيها، فتململ وكأنَّ لديه ما يريد أن يحكيه. تشاغلتُ عنه بتلاوةٍ خافتةٍ، فسكن. حين توقفتُ عن التمتمة، تزحَّف الفتى نحوى وهو بعدُ جالس، وقال ما معناه أنه يود الاعتراف أمامى!.. أفهمته أن الاعتراف يكون فى الكنيسة، ويتلقَّاه الكاهنُ لا الرهبان من أمثالى.

ـ لكن كاهن كنيستنا يا أبتِ يعرفنى، وأنا أخجلُ من الاعتراف بين يديه.

ـ تغلَّب على خجلك ياولدى، فيصحَّ إيمانُك، ويتأكَّد ندمُك وإقرارُك بالخطية التى فعلتها.

أطرق الفتى وعلى وجهه مزيجٌ من الخجلِ والحيرة والتحسُّر. نظرتُ ثانيةً نحوه مدقِّقًا فى ملامحه، فشعرتُ تجاهه بشعور غريب! فى هيئته مسكنةٌ وبراءةٌ، وفى وجهه طولٌ وبياضٌ مشوبٌ بالهزال. الشعيرات المتناثرة على ذقنه تجعله أقرب إلى الأمرد منه إلى الرجل، ورقَّة نظرته تقرِّبه من النساء بأكثر مما هو إلى الرجال قريبٌ. جلسته الخاشعة مسَّت أوتار الرحمة فى قلبى، ودعتنى للتساؤل عما يمكن أن يكون قد اقترفه هذا المسكين، الغريب. هو محض صبىٍّ يستعظم ذنوبه، ولا أظن خطاياه ستخرج عما يقترفه الناس من الصغائر وتوافه الأمور، ثم من بعد ذلك يتعذَّبون حتى يجدوا مَنْ يلقون بين يديه بأحمالهم، فيريحهم الاعترافُ المؤهِّل للمغفرة، المؤكِّد رحمة الرب. قلت فى نفسى: إن هو إلا طفلٌ صغيرٌ، ولابأس لو ترفَّقتُ به، هو بحاجةٍ إلى مَنْ يستمع له ويهديه إلى الإيمان القويم.. قلتُ له:

ـ اسمع يا ولدى، بإمكانك الذهاب إلى أنطاكية للاعتراف فى واحدةٍ من كنائسها الكثيرة.

ـ الطريق طويل يا أبتِ، وقد يعرفنى الكاهن هناك. ولا أظننى سألتقى بك ثانيةً، فاسمعْ أنت اعترافى.

ـ ولكن يا ولدى..!

ـ أرجوك يا أبتِ الطيب، أرجوك.

ـ.. قل ما عندك.

أطرقتُ بعدما طويتُ المزامير وشددت غطاء رأسى نحو جبهتى، متهيئًا لتلقى الاعتراف لأول مرة فى عمرى، ولآخر مرة.. سمعتُ يومها من الفتى أشياء ليس بمقدورى الآن تدوينها كلها. مع أننى نويتُ أن أكتب هنا، كُلَّ ماكان! غير أن ما حكاه الفتى كان بالغ الفحش والغرابة، ولم يكن وجود مثله يخطر لى على بال.. من الفواحش التى اعترف بها، أنه اعتاد منذ بلوغه نكاح الماعز، فكان يتحيَّن الخلوة بالمعزاة التى تطلب الذكر، فيضُّمها فى جوف الليل بين فخذيه، ويقضى فيها وطره. لما قال لى ذلك، لم أشأ أن أظهر أمامه انزعاجى، وبقيتُ ساكنًا أحدِّق فى التراب الذى

أجلس عليه، وأرتِّب الكلمات التى سأرد بها عليه، مرصعًا كلماتى بآيات من الإنجيل. لكنه لم يُمهلنى، فقد اعترف بعد ذلك بأن أمه الأرملة التى فى سِنِّ الأربعين، رأته ذات ليلة وهو يفعل فعلته الفاحشة فانخطف قلبها قلقًا عليه، ونهرته بشدة وهى تغسل ما بين فخذيه ببعض الماء. ثم جلست وبكت بكاء طويلاً، وندبت فقرهم الذى يمنعهم من تزويجه.

ـ ياولدى، كل الفقراء يتزوَّجون.

ـ فقرهم يا أبتِ، ليس كفقرنا الشديد.

شعرتُ بالأسى يخنق أنفاسى، ولم أشأ أن أسمع من الفتى المزيد، لكنه ألحَّ، وسالت من عينيه الدموع وأخذه النشيج.. لما هدأ قليلاً، قال إن أمه ارتكبت معه خطية الخطايا! ففى قلب ليلةٍ قمريةٍ من ليالى الصيف، كانت تنام بجواره فى كوخهم متهدِّم السقف.. التصقا، وحدث بينهما الحدث..

انزعاجى مما يحكيه الفتى كان قد بلغ الغاية، ولم أعد قادرًا على سماع المزيد.. كان الفتى يسهب فى ذِكْرِ ما جرى بينه وبين أمه، وكنتُ قد امتلأتُ بالقلق. أخبرنى بأنهما اعتادا ذلك فى معظم الليالى، وفى الليلات الأولى كانا يفعلان الخطية مرتين أو ثلاثة. لاحظتُ أنه أسقط حاجب الحياء، وبدا ملتذًّا بما يحكيه، فقاطعته:

ـ يكفى هذا يا ولدى، يكفى. وعليك بالابتعاد عنها فورًا، والبحث عن زوجةٍ صالحة، والتكفير عن ذنبك بمداومة الصلاة وحضور القُدَّاس.

ـ لكنها لن تستغنى عنى يا أبتِ!

تعجَّبت من تبجُّح الفتى، ومن ابتسامة الارتياح التى شاعت فى وجهه، فصارت ملامحه أشدَّ غرابة مما كانت عليه. وبدت لى عيناه باردتين على

نحو مريب! هل كانت علاماتُ الألم الذى اعتصره قبل قليل، وهمًا توهَّمته؟ أم تراه ارتاح بالاعتراف، فلم يعد يشعر بخطورة اقتراف الفعلة الشنعاء؟ نظرتُ إلى السماء البعيدة، كانت سحابةٌ ثقيلة تمرُّ فوقنا، وشعرتُ أن الطريق إلى الدير طويلٌ، وقد مال الظلُّ ناحية المشرق وربما تهطل الأمطار. أردتُ النهوض لاستكمال طريق العودة، ولما لملمت أطراف ردائى متهيِّئًا للوقوف، استوقفنى بقوله:

ـ ألن تسمع بقية اعترافى.. يا أبتِ؟

رَنَّ قوله (يا أبتِ) رنينًا غريبًا فى أذنى. لم يعد صوته ملفوفًا بحياء المعاناة مثلما كان حاله قبل الاعتراف، ولم أعد قادرًا على البقاء معه. بل إننى ندمتُ على أنى استمعتُ إليه أصلاً. قلتُ له إن الوقت تأخَّر، وإن علىَّ استكمال رحلتى الطويلة. فقال ما فحواه إنه لم يُنه اعترافه بعد، وأن لديه ماهو أكثر خطرًا مما يريد أن يعترف لى به.

ـ لا ياولدى، لايوجد ماهو أخطر مما سمعته منك.

ـ بل يوجد أيها الراهب الطيب.

ـ لن أستطيع سماع المزيد.

قمتُ متعجلاً، فوضعتُ مخلاة العليقة تحت بردعة الحمار، بعدما دسستُ المزامير فى جيب جلبابى. تركنى الفتى أفكُّ وثاق ساق الحمار، من دون أن يعرض علىَّ المساعدة. مع أنه كان قبلها يلاحقنى كظِلِّى. لم أكن أنتظر منه كلمات الوداع، لكنه قال وهو يمضى ورائى حتى يكاد يلتصق بى، وقد امتزج صوته بنبرةِ تبجُّح فاحش، إنه صار يستمتع بما يفعله! تجاهلته. أضاف أنه يفعل ذلك أيضًا معَ أخته، حين تبيت معهما فى الليالى التى يسافر فيها زوجها مع القوافل! تجاهلته. أضاف أنه يستمتع بما يفعله معها، وهى أيضًا مستمتعة، لكنها صارت حُبلى منه.. دون أن أنظر ناحيته،

امتطيتُ حمارى ولويت عنانه نحو الطريق. بينما كنتُ أبتعد، صاح الفتى فىَّ بغيظٍ شديد وغلٍّ مكتوم:

ـ لماذا تهرب منى أيها الراهب، قِفْ لتسمع عن اللَّذات والمتع التى حرمت نفسك منها. فعندى منها الكثير والكثير.

لكزتُ بطن حمارى بكعبىَّ، فانطلق شرقًا بكل مافيه من عزم. انطلق الحمارُ كأنه يهرب، أو لعله أدرك مثلى أن هذا الفتى ليس بفتى، وإنما هو الشيطان قد تجسَّد لنا فى صورةٍ آدمية، ليعبث بى.

الرَقُّ التَّاسِعُ عَشَر

السَّـــيِّدَةُ

قبيل الغروب، وصلتُ الدير وقد التصقت ملابسى بجسمى من العرق، مع أن الهواء كان باردًا. كان رأسى يطنُّ بالهواجس، وتطحنه الأفكار. عند منتصف التلة الصاعدة إلى البوابة، لمحتُ رئيس الدير جالسًا على الحجر الكبير المربع، وفى يده على غير العادة، إنجيلٌ يقرأ فيه! مع أنه يحفظ الأناجيل الأربعة وأسفار العهد القديم، عن ظهر قلب. حين رآنى أطبق إنجيله ونهض، وقد وشت نظرته بالقلق الكامن فيه.. وصلت عنده ونزلت عن الحمار، وقبَّلت يده كعادتى، فتأكَّدتُ من ارتعاشة أصابعه أنه مضطرب البال، بل مرتجف القلب. فى طريقنا إلى صومعته راح يسألنى عن رحلتى، وعن أخبار اللقاء بالأسقف نسطور، وفى صومعته سألنى عمن رأيتهم فى أنطاكية، وقدَّم لى طبقًا فيه حفنة من الفواكة المجففة.

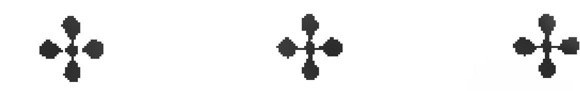
بدأتُ كلامى بإخباره أننى سلَّمت رسالته إلى الأسقف نسطور وبأنه وَعَدَ بتلبية الطلب الوارد فيها، وقدَّمت له الرسالة التى بعثها إليه ففتحها، ونظر فيها بسرعة، قبل أن يطويها ثانيةً، ويدسَّها تحت وسادته! استغربتُ أنه لم يهتم بالرسالة كثيرًا. أخبرته بأننى التقيت فى أنطاكية بالأساقفة الثلاثة وكاهن كنيسة العاصمة، كلهم فى موضع واحد! فلم يندهش لذلك، وكأنه

كان يعرفه من قبل. وهكذا لم أجد بُدًّا من إخباره بالمهمة التى كان نسطور ينوى إرسالى إليها، وكيف بدا له أمرٌ، فعدل عما كان ينويه.. بعدما حكيتُ، صَمَتَ رئيسُ الدير برهةً، ثم قال:

ـ يا ولدى، لا فائدة فى ذهابك للإسكندرية.

أراحتنى العبارة، وأزاحت عنى ثِقَل شعورى الجاثم على صدرى، من فرط إحساسى بذنب التخلِّى عن نسطور فى محنته.. ولأننى كنتُ حائرًا فيما مَرَّ بى على طريق العودة، أخبرتُ رئيس الدير بما جرى مع الشيطان المتجسِّد فى صورة الفتى، عند حواف سرمدة. فابتسم بوهن، وهَزَّ رأسه وهو يقول: قم يا هيبا لتستريح، فما هذا الفتى إلا عابثٌ من أولئك الذين يتلهَّون بالسخرية من الرهبان!

تهَيأتُ للانصراف من حضرته، من دون أن أعرف سِرَّ القلق البادى على رئيس الدير، ومن غير أن أسأله.. قبل خروجى من صومعته، قال وكأنه يحادث نفسه: *عزازيلُ لديه حيلٌ ومداخلُ أدقُّ من ذلك، وأمكَر.. فليشملنا الرَّبُّ جميعًا، برحمته العميمة.*



مضت الأيامُ التاليات رتيبةً، والشهورُ. ثم دخل علينا الصيفُ، وتمطَّى بساعات نهاره الثقيلة، وقِصَرِ لياليه الخاطفة التى تمرُّ بحياتنا، مثلما تمرُّ فى أيامه نتفُ الرباب وقطعُ السحاب.. السحاب.. كنتُ كثيرًا، ومازلتُ، أحدِّق فى الأفق ساعات العصر والغروب. فأشعرُ أن هيئة السحاب فى السماء، هى كتاباتٌ إلهيةٌ ورسائلُ ربانيةٌ مكتوبةٌ بلغةٍ أخرى غيرِ منطوقةٍ، لا يقرؤها إلا مَنْ يعرف أصولها المؤلَّفة من الأشكال، لا الحروف. كان ذلك الإدراكُ واحدًا من أسرارى وخفاياى، غير أننى صرَّحتُ يومًا بهذا السِّرِّ لرئيس الدير، فقال بعد إطراقةٍ طويلة: *لعلها مجلى لما فى أعماق نفوسنا، من الكلام الإلهى الكامن فينا.*

من الوقائع الغريبة التى جرتْ أواخر الصيف الماضى، أعنى صيف العام الثلاثين بعد الأربعمائة للميلاد، نزول الحمام بأنحاء الدير.. ففى صبيحة أحد الأيام، حطَّتْ طائفةٌ كبيرةٌ من الحمام الجبلىِّ الذى اعتدنا أن نراه فُرادى أو أزواجًا قليلة. غير أن عشرات كثيرة ملأت فجأة تلة الدير، وطوَّفت بين أرضه وسمائه. ابتهج الرهبانُ لهذا الأمر، عدا الفِرِّيسى! وعَدُّوها واحدةً من المعجزات، المبشرات بأن موضع الدير سوف يمتلئ ببركات السماء. الحَمَامُ الجبلىُّ يختلف عن النوع الأَهْلىِّ الذى يُربيه الناس فى البيوت المصرية، ويأكلون فراخه. الجبلىُّ أصغر منه حجمًا وأعسرُ هضمًا إذا أُكل، وفى ريشه غبرةٌ لطيفةٌ، وليس له إلا لونٌ واحدٌ، هو الرمادى. بخلاف الحَمَام الأهلىِّ الذى منه الأبيضُ والبنىُّ ومختلطُ الألوان، بحيث يسهل تمييز أفراده. أما هذا الجبلىُّ، فكلُّه على نسقٍ واحد! كأنه نسخٌ كثيرةٌ من حمامةٍ واحدة، ريشُ جناحيها بلون الرماد الفاتح، وأطرافُ الجناحين فيهما خطان داكنان. وفى رماديته لمعةٌ لطيفة، خاصةً عند الرأس والعنق.

وكان من غريب أمر هذا الحمام، أنه لا يفزع كثيرًا من حركة الناس. حتى إذا اقتربوا منه جدًّا، طار غير بعيد، ثم حطَّ فى مكان قريب. كان الفِرِّيسى وحده، هو الذى يحرص على إفزاع الحمام وطرده بعيدًا بقدر ما يستطيع، وكان بقية الرهبان يندهشون من فعله، ولا يفهمون السِّرَّ من ورائه.

فى اليوم الثانى من نزول الحمام، راح الرهبان يتفنَّنون فى بيان سبب نزوله ومكوثه بأرجاء الدير. منهم مَنْ قال إنه هاجر إلى هنا، لينعم بخضرة التلة. والبعض قال إنه يلتمس روحانية المكان، ويأنس إلى أهله. آخرون

أكَّدوا أنه يطيع أمر السماء بالسكنى هنا، وأنه جاء ليجلِّل الدير بهيئة السكينة وروح السلام.. فى الحمام، بالفعل، سكينةٌ وسلام! كنتُ أهنأ بالنظر إليه فى الصباح الباكر وقبل الغروب، وأقضى وقتًا طويلاً فى تأمل أحواله، مستغربًا بقاءه تلك الليلات فى شقوق الجدران، وفى المواضع التى انخلعت منها الأحجار، من دون أعشاش يأوى إليها ويسكن فيها ليفرِّخ الصغار، بحسب ما نعرفه من عادات الحمام الأهلىِّ والجبلىِّ، بل الطيور على اختلافها.

فى ثالث الأيام من نزول الحمام، كنتُ جالسًا عند السور المطلِّ على السهول الشمالية. كنا قد انتهينا من صلاة الصباح، ولم يكن عندى رغبةٌ فى الذهاب للمكتبة. بقيتُ وقتًا طويلاً أُراقب طائفةً من حماماتٍ تطير بين الأعمدة والجدران، وتحطُّ حينًا على الأرض، فتلتقط بمنقارها ما تجده صالحًا لغذائها.. كنتُ ساكنًا فى جلستى، فكان الحمامُ يأنس لسكونى ويقترب، مثلما كان الطير يأنس لمزمار داود النبى، ويحطُّ حوله. بعد حينٍ، صرتُ أميِّز ذكور الحمام من الإناث، وألحظ ما بينها جميعًا من محبةٍ لاتهدأ، ولاتختص بزوجٍ من دون زوج! فالحمام كله متحابٌّ، يتنفش الذكرُ منه، ويظل يومئ برأسه حول الأنثى القريبة، فإن هدأتْ اعتلاها، وإلا طار إلى غيرها آملاً أن تهدأ له، وانتظرتْ هى ذكرًا غيره يحوِّم حولها، فإن طاب لها، طَيَّبتْ نفسها له باقترابها وعدم فرارها منه، فيكون ذلك منها إيذانًا له باعتلائها.. الحمامُ كثير السِّفاد، ولا يكفُّ طيلة نهاره عن التغزُّل والالتصاق، خاصةً أوان العصر وقبيل الغروب!.. كنتُ هانئًا بجلستى عند السور، وبالحمام المحيط، ساعةَ جاء الفِرِّيسى من بعيدٍ يتدحرج فى مشيته كعادته. جلس بجوارى، وراح يلتقط من قطع الحجارة، ما يرجم بها الحمام ليطرده بعيدًا عن موضعنا. سألته عما يفعل، فقال حانقًا إن الحمام يملأ أرجاء الدير زبلاً، ويزعج النائمين فجرًا بصوت ذكوره التى تزوم بلا انقطاع. نظرتُ إليه نظرة المشكِّك فى صدق ما يقول، فأضاف وكأنه يذيع سرًا، أن الحَمَام يثير الشهوات، ويبعث على ارتكاب الخطية، وأن على الناس ألا ينظروا إليه ماداموا أتقياء!.. للفِرِّيسى آراءٌ عجيبة، مثله.

فى اليوم الرابع من نزول الحمام، رحل فجأةً مثلما جاء. اغتمَّ الرهبانُ لرحيله المفاجئ، واغتممتُ، بعدما كنتُ قد أنستُ إليه فى الأيام الثلاثة السابقة. قضيتُ ليلتى فى المكتبة، ورأيت فى وسنات أول الليل أحلامًا يملؤها الحمَامُ.. فى النصف الأخير من الليل، أسرجتُ قنديلى كأننى سأنظر فى الكتب، غير أن عقلى كان يجول فى آفاق بعيدة، وتتقاذفه أسئلةٌ ليس لها إجابة: أين ذهب الحمَامُ حين رحل عنا؟ وهل هى حقًا إشارةٌ إلينا وبشرى من السماء، أم هى مصادفة؟ وهل سيعود الحمام بعد حين، أم أنها كانت مرةً لن تتكرَّر؟ لماذا لا يتعلَّم الناسُ من الحمام، العيشَ فى سلام. الحمامُ طيرٌ طاهر، وبسيط، وقد قال يسوع المسيح: كونوا بسطاء كالحمام.. الحمامُ مسالمٌ؛ لأنه لا مخالب له، فلينبذ الناس ما بأيديهم من الأسلحة وعتاد الحرب! والحمامُ لا يأكل فوق طاقته ولايختزن الطعام، فليكف الناس عن اكتناز القوت وتخزين الثروات.. والحمامُ يعيش حياة المحبة الكاملة، لاتفرِّق ذكوره بين أنثى جميلة وأخرى قبيحة، مثلما يفعل الناس.. وإذا بلغ الفرد منه مبلغ الطيران، لم يعد يعرف أبًا له ولا أُمًا، وإنما يدخل مع البقية فى شركة كاملة لاتعرف أنانيةً ولا فردانية. فلماذا لايعيش الناس على ذاك الحال، ويتناسلون فى جماعات مسالمة، مثلما كان حال الإنسان أول الأمر؟ الكلُّ يعيش فى الكل، يحيا فى هناءة، ثم يموت بغير صخبٍ، مثلما تموت بقية الكائنات. ويختار الرجالُ من النساء، والنساءُ من الرجال، ما يناسب الواحد منهم للعيش حينًا فى محبة مع الآخر، ثم يتركه إذا شاء، ويأنس لغيره إذا أراد، ويصير نسلهم منسوبًا لهم جميعًا..

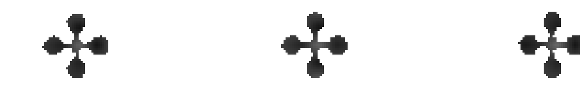
وتكون النساءُ كالحمامات، لايطلبن من الرجال غير الغزل ولحيظات الالتقاء. فالنساء..

- ياهيبا، هذا الذى تكتبه لايليق برهبانيتك!

- دعنى يا عزازيل.. أنت دعوتنى إلى التدوين، فاتركنى أكتب ما أريدُ.

- لكنك تتوغَّل إلى بعيد، ولايزال أمامك الكثير مما كنت تحكيه، ووقتك ضاق.

- معك حقٌّ أيها اللعين!



فى يوم حارٍّ من شهور خريف العام الثلاثين بعد الأربعمائة للميلاد، كنتُ أنظرُ كعادتى للسحاب محاولاً فكَّ رموزه، أو استجلاء المعانى الكامنة بباطنى بحسب ما أراه من هيئته. كان الأوانُ عصرًا، حين سمعتُ أصواتًا آتيةً من جهة بوابة الدير. قمتُ من جلستى المعتادة عند السور المتهدِّم المطلِّ على الأفق الشمالى الفسيح، وعبرتُ الساحة لأرى سبب الجلبة.. عند منتصف المرتقى الصاعد إلى البوابة من السهول الممتدة، حيث الكوخُ الخربُ المهجور منذ سنين، كان هناك رجلان وبغلتان وامرأتان، إحداهما عجوزٌ، والأخرى فى ملابس ملوَّنة لم أتبين ملامحها جيدًا.

بعدما أفرغا أثقالهما، انصرف الرجلان بالبغلتين، وبقيتْ المرأتان تجتهدان فى إدخال الأغراض إلى الكوخ. أتراهما ستسكنان فيه؟ سألتُ نفسى، وانشغلت بالسؤال عن إيجاد الجواب، حتى مَرَّ بى كاهنُ الكنيسة فى طريق خروجه من الدير.. هو يعيش بسفح الدير، فى واحدٍ من تلك المنازل الصغيرة المتناثرة حول التلَّة، فلابد أنه يعرف طرفًا من الخبر. لما استفسرتُ منه، أخبرنى أن المرأتين وفدتا لسُكنى الكوخ. بعدما سمح لهما رئيسُ الدير بذلك، رأفةً بحالهما.. أضاف الكاهنُ: *العجوز مريضةٌ، وأظنها ستأتيك طلبًا للمداواة.*

على مائدة العشاء، كان رئيسُ الدير فى موضعه المعتاد يقرأ لنا المزامير، ثم لايأكل معنا إلا كسرةً من الخبز الجاف يشكر بعدها الرَّبَّ. أشار إلىَّ، ولما أقبلتُ إلى جواره مال ناحيتى، وقال همسًا إن قيثارةً صغيرة سوف تصلنا يوم السبت من حلب، وإنه سوف يجمع لى شمامسةً وفتاةً صوتها عذب، كى أعلِّمهم بعض الترانيم لتلاوتها أمام المصلين فى قُدَّاس أيام الآحاد، مثلما يفعلون فى الكنائس الكبيرة. أضاف: *يمكنك أن تلحِّن لهم شيئًا من المزامير، أو بعضًا من أبياتك الشعرية القصيرة، أو بعض الأبيات من شعر الأسقف رَبولا؛ فالناسُ يحبون سماع الألحان أثناء القُدَّاس..* أومأتُ برأسى موافقًا وقد راقت لى الفكرة، لأننى بطبعى أميل إلى الألحان والتراتيل. كدتُ أقول لرئيس الدير إنه أصاب إذ قررَّ الشروع فى الأمر، ثم استدركتُ فسألته:

- يا أبانا الجليل. بخصوص الآلات الموسيقية، ألم يمنع القديسُ يوحنا ذهبى الفم، استعمالها فى الكنائس؟

- كان ذلك يا ولدى منذ أربعين سنة أو أكثر، وهو لم يقل بتحريمها، وإنما قال إن الرب يحتقرها، ويُحبُّ أن يكون تسبيحه بأفواه البشر. وإخواننا فى الرها ونصيبين، بحثوا الأمر فى عدة مجامع، وانتهوا إلى جواز استعمال الموسيقى فى الكنائس.

- نعم ياسيدى، ولكن ماذا عن غناء الفتاة فى الكنيسة؟

ـ سوف تدخل من بابها الخارجى، وترتِّلُ وهى واقفةٌ خارج الهيكل، خلف الشمامسة..

اعتقدتُ دومًا أن الموسيقى صوتٌ سماويٌّ مقدَّسٌ، مكرَّسٌ لما نستعمله فيه من تزكيةٍ للروح أو إذكاءٍ للشهوة. ولطالما كانت تبهرنى فى صغرى صورُ العازفات بالآلات، المرسومة على جدران المعابد فى بلادى الأولى. كنتُ أقول فى نفسى: لولا أنهم كرَّسوا الموسيقى للعبادة، ما رسموها على جدران المعابد! لكننى لم أحادث أحدًا من أهل الديانة، فى هذا الأمر قط. وها هى الأيام تدور، فتلقى بين أيدينا هدايا الرب من دون جهد، فنهنأ بالألحان.. استأذنتُ رئيسَ الدير فى الانصراف إلى المكتبة، بعدما قلت له:

ـ سأعكف هذه الليلة على تأليف ترتيلٍ، يمزج بين مزامير داود والمعانى الرهبانية الرقيقة.

ـ فى أمان الرب.. انتظر يا ولدى، سوف يكون الترتيل بالسريانية، فهى هنا لغةُ الأكثرية.

ـ بالطبع يا أبتِ المبارك، بالطبع.

عبرتُ الساحة من قاعة الطعام إلى المكتبة بخطى ملؤها الحماسُ والبهجة، كان نورُ القمر الخريفىِّ يفرش الأرض، وينعكس ضوؤه على الحصى الأبيض، فيبدو مثل الجواهر المبثوثة بين رمال الساحة. النسماتُ الليلية كانت منعشةً للروح المتوثب، المحلِّق بى فى سماوات الغبطة. خفق قلبى ذلك الخفقان الذى عرفته فى صغرى، لحظةَ كان أبى يرفع شباكه من ماء النيل، ولحظة كانت امرأة عمى المريض تنادينا لطعام العشاء، ولحظةَ خرجت من نجع حمادى قاصدًا أخميم.. وما حياتنا على الحقيقة، إلا هذه اللحظات الطيبة النادرة.

حين دخلتُ من باب المكتبة، خطرت لى فكرةٌ. سوف أستغنى عن نغمات القيثارة، أو أجعل دورها فى الترنيم محدودًا، بأن أضع ألحانًا يؤديها الصبية والفتاة رخيمة الصوت بأفواههم، فأتحاشى بذلك قدر المستطاع اعتراض المعترضين على الآلات الموسيقية. ولسوف أمزج سطورى الشعرية التى ستؤديها الفتاة، بالمزمور الذى يردِّده الصبية. وأجعل ترانيمى من البحر الخامس فى الشعر السريانى، فهو الذى يضم الأوزان الخماسية والسداسية التى أميل إليها أكثر من غيرها.. ليلتها قلتُ فى نفسى: *سوف أملأ سماء كنيسة الدير الكبيرة، وكل الكنائس المحيطة بالترانيم الروحية المرفرفة فى ملكوت السماء.*

بعدما جلست إلى المنضدة الطويلة، وأسرجتُ القنديل، مررت بناظرى بين رفوف الكتب من حولى وقد لَّفنى الحماسُ. قمتُ إلى الرفوف اليمنى، فتناولتُ الترجمة السريانية للمزامير، ولما فتحتها وقعت عينى بالصدفة على المزمور الخامس عشر، فكتبت على ظهر الرَّقِّ السطر الأول منه، وزدتُ عليه، فصار كالتالى:

اللهم احفظنى، فإنى بك اعتصمت

وارحــمْ ضعفى، فلا نصير لى سواك

وباركْ أهل البيعة، فلا يلجأوا لسواك

واملأ قلوبهم بغبطةٍ، لا يمنحها ســواك

اللهم احفظنى، فإنى بك اعتصمت..

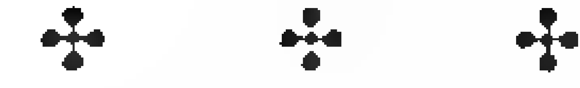
على الطريق القويم الذى رسمته، أسيرُ

وبسير القديسين والشهداء، أستنيرُ

وأعــود للــتراب الــذى منه أتيت

ثم أحيا الحيــاة التى بـلا مـوت

اللهم احفظنى، فإنى بك اعتصمت..



أمضيتُ ليلتى بطولها فى التأليف وتعديل الكلمات، يحدونى حماسٌ لاحدود له. قبيل الفجر أُلهمتُ بأبياتٍ أخرى، كلماتها رشيقة رقيقة دقيقة المعنى، ماكانت تخطر لى ببال من قبل. ونويتُ أن أضع ألحانًا للصلوات السبع، ولأيام الأعياد، ليكون من ذلك كتابٌ للصلوات اليومية (أشحيم) وأضع للرهبان ترنيمةً بديعةً، عميقةَ المعانى، يرتِّلها الرهبان الذين لاتنقطع صلواتهم فى صوامعهم. قلت فى نفسى: سوف أعبِّر فى تلك الترنيمة الخاصة، عن أدق الأسرار، بأرق الكلمات. وسأجعلها على ثلاث قومات، الأولى هادئةٌ قليلةُ الكلمات، والثانية رتيبةٌ مفعمةٌ بالتسابيح، والثالثة مبهجةٌ سريعة ترفرف نغماتها بأجنحة الملائكة الصغيرة.. سوف أوزِّع أوقاتى بين الطب والشعر، أداوى بهذا الأجسام وبذاك الأرواح. والكلمة قد تفعل فى الإنسان مالاتفعله الأدوية القوية، فهى حياةٌ خالدةٌ لاتفنى بموت قائلها.

لم أعد إلى صومعتى تلك الليلة، بتُّ فى المكتبة مفعمًا ببهجةٍ خفيَّةٍ. فى اليوم التالى، فاتتنى صلوات الصباح فى الكنيسة، ولم أشته الإفطار، فبقيت فى المكتبة حتى وقت الظهيرة. جاء الفِرِّيسى ليطمئن علىَّ، فطمأنته وأخبرته بالأمر، فلم يبتهج مثلى! استفسرتُ منه، فقال إنه لايحبُّ الغناء، لاسيما من فتاة.. أشفقتُ عليه وكدتُ أقول له: *بل أنت تحبُّ الغناء، وأحببتَ الحمام، وتحبُّ النساء؛ لكنك تخشى من ذلك كله، ولا تحتمل محبتك له، فترفضه لتستريح!*

لم أشأ أن أزعجَ الفِرِّيسى بحقيقة ما أراه من أحواله، خاصةً أنه اشتكى لى الأرق الدائم الذى يعانيه. جسستُ نبضه فكان مضطربًا، وسألته عن حال الطبيعة عنده، فقال إنه يعانى الإمساك. أعطيته مقدارًا ضئيلاً من مسحوق السقمونيا، المخلوطة بكثيرٍ من الآينسون لإطلاق البطن، شَرْبةً واحدة؛ وأعشابًا مهدِّئةً جالبةً للنوم، يشربها أسبوعًا بعد صلاة نصف الليل.. كان ذلك هو أفضلُ تدبير طبىٍّ، رأيته مناسبًا له.

خرجتُ معه إلى الكنيسة الكبيرة، فأدَّيتُ مع الرهبان صلاة الساعة السادسة. وأخبرنى بعدها رئيسُ الدير، أن الصبية المنشدين والفتاة، سيأتوننى غدًا فى المكتبة.. صار أيضًا يسميها المكتبة.

فى اليوم التالى، أوان العصر، بددت السكونَ من حولى جلبةُ الصغار. جاءوا مع الشَّمَّاس الذى دَقَّ بابى برفق، فلما فتحته، رأيتُ معه ستةً من الصبيان وصبيتين، أعمارهم بين السابعة والتاسعة. جاءوا يومها بصحبة أهلهم، فملأوا المكان، بعضهم يلعبُ حول الجمع، وبعضهم يحدِّقُ فىَّ.. وجوههم مشرقةٌ، ونظراتهم بريئةٌ، لم تنل أفعال الزمان بعدُ من براءة دهشتها. صرفتُ الأهل مع الشَّمَّاس إلى ساحة الكنيسة، واستبقيتُ الأطفال. إحدى الأمهات ظلت واقفة، فأخبرتها بلطفٍ دون أن ألتفت إليها، أن عليها انتظار ابنها أو ابنتها عند البوابة أو أمام الكنيسة. قالت إنها ليست أمًا لأحدٍ منهم، ولا لأحدٍ غيرهم. وأضافت باقتضاب: *أنا المغنية*.

اضطربتُ من قولها، أو لعلنى طربتُ، غير أننى لم أشأ ساعتها أن يظهر طربى ولا اضطرابى، فناديتُ الصِّبية: *تعالوا إلى الداخل، وقفوا صفًا واحدًا، الأطول منكم فالأقصر*. ثم قلتُ لها، من دون أن أنظر ناحيتها: *وأنت يا ابنتى قفى فى الجهة المقابلة لهم*.. اصطف الأطفالُ وانتظموا بعد تعديلٍ يسيرٍ منى، وطلبتُ أن يؤدِّى كل واحدٍ منهم، منفردًا، العبارةَ الأولى من المزمور الخامس عشر. كانت أصواتهم متفاوتة النقاء، لكنها فى مجموعها مقبولة. أصواتُ الأطفال بطبعها، طيبةٌ نقية. بعدما انتهيتُ

منهم، التفتُّ نحو تلك التى وصفت نفسها بالمغنية! هى فى حدود العشرين من عمرها. هذا ما بدا لى منها. لم أتبين ملامحها جيدًا، فأنا لا أحدِّق فى وجوه النساء، ولا أُعنى بملامحهن. كان رداؤها هو الذى يشدُّ عينيَّ إليها، فهو زيٌّ غيرُ معتادٍ فى تلك النواحى، لكنه على كل حال محتشمٌ ووقورٌ.

كلَّمتها وقد غضضتُ عنها ناظريَّ، فطلبتُ منها أن تؤدِّى على نحو معين، السطرين الأول والثانى من الترنيمة التى أَلَّفتُها.. قرأتُ عليها السطرين بلحنٍ تخيَّلته، فسألتنى إن كان بإمكانها أن تغنِّيها بلحنٍ كنسيٍّ آخر تحفظه، فوافقتُ. فى اللحظة التى رفعتُ عينى إلى وجهها، أزاحتْ غطاء رأسها الذى كان منسدلاً على جبهتها، وعادت خطوتين للوراء. أغمضتْ عينيها برقَّةٍ لا مثيل لها، ورفعت وجهها إلى جهة السماء.. وبعد هنيهةٍ من صمتٍ وخشوعٍ، غَنَّت.. يا لصوتها الرقراق الذى أتانى صافيًا من بين طيات السحاب. أتانى مطيَّبًا بعبق شجيرات الورد وروح المروج الخضراء الزكية. غَنَّتْ: *وارحمْ ضعفى*، كأنها سوف تبكى، ثم قالت: *فلا نصير لى سواك!* فارتجف باطنى مع ارتجافة شفتيها وهى تُطيل النطق بالحروف، فتلامس بنطقها أعالى السماء.. كان غناؤها الشجى نادرَ العذوبة.

الأطفالُ الذين كانوا معنا، سكنوا لحظةَ غنائها تمامًا. غابوا مع غنائها، فكأنهم راحوا على أجنحة النغمات، إلى موضع بعيد. وكنتُ، كأننى وحدى بأقصى زاويةٍ من الكون الفسيح.. إذ أتذكر الآن تلك اللحظة، أشعرُ بصوتها الخلاب يأخذنى منى، إلى ما وراء الأشياء كلها. ويرنُّ ترجيعه السماوى بين قمم الجبال البعيدة، فيُسيل قلبى بين الضلوع.. يا إلهى.

لما أنهتْ غناءها، ساد صمتٌ عميق. وددتُ لو أشرتُ لها لتغنِّى ثانيةً، بل وددت لو ظلت تغنى حتى يفنى العالم وتقومُ قيامته، غير أن المقام لم يكن يسمح بذلك.. بينما كانت تُعيد سِتْرَ رأسها إلى انسداله الأول على جبهتها، نظرتْ نحوى وابتسمتْ. كانت تعرف أن صوتها بديع، وتعرفُ أن اللحن الذى غنَّته كان أحلى مما اقترحته، وتعرف أننى أُخذت بغنائها وغبتُ عنى، وتعرف أشياء أخرى كثيرة.. أما أنا، فلم أعد وقتها أعرف أيَّ شئ. عيناى علقتا بوجهها، حتى انتبهتُ إلى أن هذا لايجوز منى، ولا يصحّ. وجهها صغيرٌ، كمثريُّ الاستدارة. تبدو ملامحه الدقيقة من خلف سترها الحريرى الأسود الشفَّاف، المنسدل من غطاء رأسها الذى يشبه التاج، إلا أنه ألطفُ، وفيه تطريزٌ دقيقُ الصنع، وعند مبتدأ ثنياته الكثيرة خرزٌ صغيرٌ ملوَّن. رداؤها المخمليُّ الأسودُ ينسدل بنعومة من عند الكتفين، فيشى امتلاؤه عند الصدر، وضيقه تحت الخصر، بقوامٍ متقن التركيب. ساعتها خادعتُ نفسى بنفسى، وقلتُ فى سريرتى إننى لاشأن لى بقوامها، مُتقنًا كان أو غير متقن. المهم أن صوتها شجىٌّ يناسب الترانيم، وهى مُدَرَّبة على الغناء. لعلها نشأت بقرب كنيسةٍ أو دير، واشتركت فى الغناء المكرَّس منذ طفولتها الباكرة.

عاد الأطفال لصخبهم حين أرسل لهم رئيس الدير بعض الحلوى، فوزَّعتها عليهم بمن فيهم الفتاة المغنية. ولم أشأ أن أطيل عليهم فى يومنا الأول، فصرفتهم جميعًا بعدما دعوتُ لهم بالبركة. أخبرتهم أن غناءهم جميلٌ، وأننا سوف نلتقى عصرَ غدٍ. فقد كان الغدُ يومَ أحد، وسوف يكون الدير فى الصباح مزدحمًا بالزوَّار. تقافزوا فى طريقهم إلى الباب، ومشت الفتاة بعدهم بوقارٍ لافت.. لما مرَّت أمامى، سألتها دون أن ألتفت ناحيتها، تأدُّبًا:

- ألن تخبرينى باسمك، أيتها العذراء الطيبة.

- لستُ عذراء يا أبتِ. واسمى مرتا، وهى كلمةٌ قديمةٌ تعنى السيدة.

الرَّقُّ العشرون

القَلَقُ المجاوِرُ

يوم رأيتُ مرتا أول مرة، استبدَّ بى الأرقُ المقيمُ، فبقيتُ مسهَّدًا حتى الفجر. فى البدء لم أفكر كثيرًا فى كونها الفتاة، غير العذراء! كان صوتها الشجىُّ هو الذى يشغلنى رنينه بداخلى. أمضيتُ ليلتى أُعيدُ صياغة بعض الكلمات حتى تتوافق مع طبقات صوتها، وأجتهدُ فى وضع ترانيم مخصوصة تناسب دفء صوتها وشجوه. تقاذفتنى فى جوف الليل أفكارٌ كثيرةٌ، وتمنياتٌ، وقلقٌ: سوف يأتى الناسُ للقُدَّاسات كى يسمعوا مرتا، فتعمر كنيسةُ الدير بعوام المؤمنين، وقد تصل شهرتنا فى الترتيل إلى أنطاكية والقسطنطينية.. أتُراها متزوجةً من رجل؟ أىُّ رجلٍ ذاك الذى يحتمل البقاء قرب جمالها؟.. مالى أنا بها؟ عندى ما يشغَلنى ويملأ أوقاتى قلقًا.. كيف حال المبجَّل نسطور وكيف تجرى أيامه؟ هل كَفَّ عنه الأسقفُ كِيرُلُّس، أم تراه يرتِّب أمرًا ليوقع به؟ سوف أكتب رسالةً غدًا، وأرسلها مع أول مسافر للقسطنطينية.. سوف أسألُ رئيس الدير إن كان يريد شيئًا من الأسقف نسطور حتى أذكره فى الرسالة.. سوف يفرح برسالتى، هو يعرف أننى لم أعتد كتابة الرسائل.. سوف أؤلِّف ترنيمةً بديعةً وأهديها إليه، سأكتبها على ظهر الرسالة. سيفرح بها، ويومًا ما سيأتى ليزور الدير، فأُسمعها له بصوت مرتا الملائكى.. مرتا، كم عمر هذه الفتاة؟ ولماذا أخبرتنى بهذا الحسم، أنها ليست عذراء!

يوم السبت لم تصل القيثارة التى كان رئيس الدير ينتظرها، فانزعج. طمأنته بأننا قد لا نحتاجها، ولسوف نكتفى بأصوات المنشدين والمغنية، فارتاح. أخبرته بأننى سأخصِّصُ الفترة ما بين صلاتىْ الساعة الثالثة والسادسة، لرؤية المرضى، وما بين الصلاتين السادسة والتاسعة لتدريب مجموعة الإنشاد، والليل للصلاة والقراءة.. دعا لى بالبركة فى أوقاتى كلها، وأردف: *إن كنتَ يا ولدى قد أتممت صوم الأربعين، فاهتم بصحتك قليلاً، فإننى أرى وجهك الليلة بالغ الشحوب والهزال.*

انتهينا من صلاة الغروب التى يسمونها هنا صلاة الرمش، وعدت إلى المكتبة مبتهجًا، ماكنتُ أشعر بما لاحظه رئيسُ الدير من شحوبى. ظننته يقصد أننى شاردُ البال، ومشغول. أخذًا بالحيطة رحتُ أجسُّ نبضى بيدى الأخرى، فوجدته منتظمًا. أغلقتُ الباب خلفى، وخلعت ملابسى، وأخذت أضغط بإصبعى عند مواضع سريان الدم فى ظاهر الجسم، فكان اندفاقه للمواضع جيدًا. نظرتُ إلى وجهى فى باطن الصفيحة الفضية التى تغلِّف الإنجيل، فبدت لى آثار الزمن.. لقد تقدَّم بى العمر فجأة، وانقلب بياضُ عينى اصفرارًا، وصارت لحيتى شعثةً كَلْحَاءَ، مثل لحى المتوحِّدين فى المغارات والكهوف.. لماذا أهملت مظهرى حتى صار مدعاةً للرثاء؟ هل نسيتُ أننى طبيبٌ، وأن علىَّ المحافظة على هيئتى، وإلا فلن يثق بى مرضاى؟ لابد أن يُعنى الطبيبُ بمظهره، فهذا ما كتبه الفاضل أبقراط قبل مئات السنين، والتزم به الأطباءُ من بعده؟.. ولكن لابأس، لكل داءٍ دواء، ولكل مشكلة حل؛ أعنى لمعظم الأدواء أدويةٌ، ولأغلب المشاكل حلول!

خرجتُ بهمَّةٍ من المكتبة، فجزتُ الساحة كأننى أطير إلى صومعتى. أخرجتُ من هذا الصندوق الرداء الذى أهداه لى قبلها بعام قَسّ أنطاكى، كنتُ قد عالجته من القولنج بأيسر المداواة، وشفى فى مدةٍ يسيرة. لماذا طويتُ هذا الزِّىَّ وحفظته، حتى كادت العثَّة تصل إليه؟ سأرتديه غدًا. فى قعر الصندوق مقصٌّ قديم صدئ، لكنه كفيلٌ بتهذيب ما شعث من لحيتى.. ومن تحت الطاولة أخذتُ أدويةً مفردة، أعشابًا جافةً منها ما يبلُّ ساعةً فى الماء، ثم يوضع على العين ضمادًا؛ لإذهاب صفرتها. ومنها ما يُذاب بالزيت ويطلى به الوجه، فيحسن لونه بجذب الدم إليه. ومنها الرياحين التى يُغسل الجسمُ بمنقوعها، فيصير أطيبَ رائحةً وألطفَ ملمسًا.. غدًا صباحًا سأكون إنسانًا آخر، خليقًا بأن يوصف بالراهب الطبيب الشاعر.

أديتُ كل ما يجب فعله، ثم نمت بصومعتى ملء جفونى. كانت قد مَرَّت علىَّ أسابيع لم أبت فيها بالصومعة، ففى شهور الصيف الماضية. كنتُ أقضى الليلات بالمكتبة، مفضلاً جَوَّها الرطب. أو بالأحرى، متكاسلاً عن المجيئ من هناك، إلى صومعتى الخانقة هذه.. قبيل الفجر صحوتُ نشطًا، فملأتُ الدلو ماءً من الماجور الكبير المجاور لغرفة الطعام وأدفأته قليلاً على تَنُّور المطبخ، ثم صعدتُ إلى الصومعة، فأغلقتُ بابى واجتهدتُ فى حَكِّ جلدى بليف النخيل الخشن، لإزالةِ ما بقى علىَّ من ثُفل الأعشاب، ودلَّكت أطرافى بحجرٍ خَفَّاف أثناء استحمامى.. وأخيرًا لبست الرداء الكنسىَّ الأنيق، الذى كانَ منسيًا بصندوقى.

لما رأنى رئيس الدير عند باب الكنيسة صباح يوم الأحد، أشرق وجهه بابتسامةٍ وهو يقول لمن معه: *الراهب هيبا وجد إكسير الحياة، فالليلة الماضية كان على بُعد خطوتين من الموت، فإذا به يعود هذا الصباح صبيًا فى العشرين!* قلت خَجِلاً من دعابته الودود: *هذه ياسيدى هيئة الأطباء والشعراء، وقد نَبَّهنى كلامك بالأمس إلى الحالة المزرية التى كنتُ عليها..*

وهو يدخل من باب الكنيسة وحوله الرهبان لصلاة الصباح، دعا لى رئيس الدير: *بارك الربُّ فيك يا هيبا، ونفع بك إخوانك ومرضاك..*

لما رآنى الشَّمَّاس لحظة خروجنا من الكنيسة الكبيرة، ابتسم بمكر الصبيان ابتسامةً لم أعرف معناها، ولم أهتم بها، فقد كان بالى يومها مشغولاً بما هو أهم من دلالة ابتسامته. وقت الظهيرة ساعدنى ثلاثةٌ من الرهبان فى تنظيم المكتبة. صففنا الكتب التى كانت متناثرةً، بموضعها الأول على الرفوف. وأدخلنا دكَّةً طويلة ليجلس عليها الصبيةُ المنشدون، وضعناها على يمين الداخل من الباب، وأمامها كرسيان خشبيان، أحدهما للمغنية والآخر لى. الطاولة الكبيرة أخذناها إلى الركن المقابل للباب، وفى الركن الآخر، وضعنا طاولةً صغيرة؛ لأكتب عليها متى شئت أو أنام جالسًا.. صار المكان أوسع، وأنظف، وأكثر رحابةً.

قبيل العصر دَقَّ بابى خادمٌ من خُدَّام الدير، وأخبرنى أن امرأتين جاءتا إلىَّ طلبًا للمداواة، فطويت كتاب الموسيقى، ونهضت للقياهما لدى الباب. كانت مفاجأة مفرحة؛ مرتا بثوبها المميز، ومعها عجوزٌ فى حدود الستين من عمرها. أخفيتُ دهشتى وفرحتى، ودعوتهما للدخول. ظل الخادم واقفًا برهةً عند الباب، ثم انصرف. بدأت مرتا الحديث:

- يا أبتِ، هذه خالتى تشكو السعال الليلى منذ شهور، ولم تنفع معها الوصفات المشهورة.

- لابأس عليك يا عمَّة. فى أى وقتٍ تأتيك نوبات السعال؟

- طيلة الليل وأول النهار، أشعر بصدرى يتمزَّق مع النوبات.

جسستُ نبض العجوز فكان مضطربًا، ولاحظتُ أن بدنها هزيلٌ جدًا. استأذنتها فى أن أضع أذنى على ظهرها لأسمع أنفاسها، فجاءت متحاملة على ذراع مرتا، حتى وقفت أمامى، واستدارت. ملتُ بجانب وجهى على

ظهرها، حتى ألصقت أذنى. كانت مرتا تنظر فىَّ باسمةً. سمعت حشرجةً دالة على امتلاء صدر العجوز بالبلغم والرطوبات.. علاجها سهلٌ، البزورُ الطاردة للبلغم يُشرب منقوعها دافئًا، وإحكامُ الغطاء عند النوم، واستنشاقُ البابونج على النحو المعروف.. ونصحتُ العجوز: *لا تجلسى ياعمة أمام الفرن لمدة أسبوعين، حتى لاتهيج بصدرك الرطوبات بسبب الدخان.*

ـ نحن يا أبتِ لم نجدِّد الفرن بعد، فقد جاورناكم منذ يومين فقط، ووجدنا فرن الكوخ خربًا.

ـ إذن، أنتما الجيران الجدد.. إنى أرى كوخكما من شباكى هذا. هل تعيشان فيه وحدكما؟

ـ نعم يا أبتِ.

ردَّت المرأتان فى وقتٍ واحد. صوت مرتا كان أعلى، وأحلى. وحين رفعتُ الستر الحريرى المنسدل على وجهها، نظرتُ نحوها نظرةً حذرةً، فوجدتُ على وجنتيها ابتسامةً مشرقةً، تطلُّ باستحياءٍ مثل الشمس الصافية أيام الشتاء الباردة، أو مثل النسمات اللطيفة فى ليلات الصيف الخانقة.. كانت ابتسامتها..

قمتُ مرتبكًا، فاغترفتُ من تحت الطاولة بعضًا من البزور، وعدتُ بها لأضعها فى كفَّىْ العجوز. مرتا مدت يدها أولاً، فلم يكن لدىَّ الخيار. تحاشيتُ لمس يدها، لكنها حين أطبقت كفيها على البزور. لمستْ من دون قصدٍ، أو بقصدٍ، ظاهرَ يدى اليمنى. لحظتها شعرتُ بقشعريرةٍ تسرى فى ذراعى، وظللت أشعر بها لأيام تالية. سألتهما إن كان عندهما شئ من البابونج، فأجابت مرتا بالإيجاب، ثم قالت لخالتها:

ـ قومى لأوصلك إلى البيت، وأعودَ لدرس الترتيل.

استندت العجوز إلى ذراع مرتا، وخرجتا من عندى وعيناى تتبعهما.

كنتُ جالسًا على الكرسى المواجه لدكَّةِ المنشدين، لم أتحرك من موضعى.. عند الباب، التفتتْ مرتا نحوى وهى تسدل ستر رأسها، فتحجبُ عنى بسمتَها الرائقة وعينيها اللتين بلون الآينسون.

لم تتأخَّر مرتا إلا هنيهةً، عادت بعدها لتجدنى جالسًا على الحجر المربَّع الذى ألقته الزلازل القديمة، أمام باب المكتبة. مشيتها وهى مقبلةٌ، تدلُّ على ابتهاجها الخفىِّ الظاهر.. جلستْ أمامى على حجرٍ قريب، وهى تسألنى بصوتها الصافى:

ـ ألم يأت الصبيةُ بعد؟

ـ أرسلتُ الشَّمَّاس ليحضرهم، رحمةً بأمهاتهم من مشقة صعود التلة.. سيأتون بعد قليل.

حاولت التشاغل عنها بالنظر فى الرقوق التى كانت بيدى، فلم يفلح الأمر. أخرجتُ من جيبى إنجيلاً صغيرًا، وكدتُ أشرع فى القراءة، لولا أنها فاجأتنى بقولها:

ـ يا أبتِ، فيك اليوم شئ مختلف عن أول أمس.

ـ نعم، هذا الرداء جديد.

ـ الرداء فقط!

تجاهلتُ إشارتها، وسعدتُ بها. لم أظهر لها سعادتى، ورحتُ أفكر فيما يمكن أن يكون عليه حالى مع هذه الجارة الجديدة، التى لن تكتفى فيما يبدو بالجوار. فقد اخترقت حُجُب عزلتى وانزوائى بطرف هذا الدير، منذ رأيتها وسمعتها تغنِّى. انتابنى قلقٌ. استمهلتها ريثما أعودُ ببعض الأوراق، وتعَمَّدت أن أغلق خلفى باب المكتبة، حتى لاتفكِّر فى اللحاق بى.. أحسستُ أنها تبتسم من ورائى، لكنى لم أنظر نحوها. بقيتُ واقفًا داخل

المكتبة خلف الباب المغلق، وبقيتْ هى جالسة فى الساحة المكشوفة. لما سمعتُ صخب الأطفال يأتى من بعيد، فتحتُ بابى ودعوتهم جميعًا للدخول، ودعوتُ الشَّمَّاس أيضًا.. وهكذا بدأ دَرْسُ الترتيل الأول الذى تتالت من بعده دروسٌ كثيرة، لا أذكر الآن عددها، ولكننى أتذكَّر جيدًا ما جرى خلالها، ولسوف أقصُّ منه الكثير.

الرَّقُّ الحادى والعشرون

القَافِلَـةُ

وصلت القيثارةُ إلى الدير، بعدما أَمْضينا أسبوعًا كاملاً فى التدريب بدونها. وكانت المجموعةُ قد اعتادت أداء الترانيم من دون نغمات، فاكتفيتُ من القيثارة بأقلِّ موسيقاها.. امتدَّ التدريب بضعة أسابيع، كان ترتيلُ الأطفال خلالها يتحسَّن يومًا من بعد يوم، أما غناء مرتا فقد كان حسنًا منذ اليوم الأول. ولذلك كانت تتغنَّى أحيانًا بأبيات أخرى من أشعارى، لن تؤدِّيها مع الأطفال فى الكنيسة. كانت تأتى قبلهم بقليل، ثم ينضمون إليها لأداء التدريبات المعتادة.. الأيام الأخيرة من التدريب كانت فى الكنيسة الكبيرة، فى الساعة الممتدة بين الصلاتين اللتين فى الظهر والعصر، أعنى صلاة الساعة السادسة وصلاة الساعة التاسعة. حضر رئيسُ الدير معنا أول أيام التدريب بالكنيسة، وحين غَنَّت مَرْتا أسند جبهته على عصاه، ولما هامتْ فى الغناء، دمعت عيناه. ظل مُطرقًا حتى انصرفنا جميعًا، ولما رآنى فى المساء بصالة الطعام، رَبَتَ مُمتنًّا على كتفى مرتين، ولم يقل شيئًا.

فى اليوم الثانى من أيام التدريب الأخيرة بالكنيسة، جاءتنى مَرْتا بالمكتبة كعادتها، مبكرةً، قبل وصول الأطفال. طَرَقتْ بابى، ودخلتْ متهاديةً على

بساطٍ من استحياء متصنَّع. رفعت ستر وجهها، فأشرقتْ ابتسامتها وهى تخبرنى أن خالتها، بدأ سعالها الليلى يقلُّ، وكادت حشرجةُ صدرها تهدأ. أخبرتنى أيضًا أن خالتها تنوى أن تنسج لى صديرية سوداء من الصوف، لأرتديها فى ليالى الشتاء الذى اقترب. هما ماهرتان فى النسج على النول، ويكسبان عيشهما من هذا العمل، هكذا قالت.. يومها سألتها:

ـ لماذا قُلتِ لى بحسمٍ يوم رأيتِك، إنك لست عذراء؟

ـ لأننى لست عذراء!

ـ هل يعرف رئيسُ الدير ذلك؟

ـ وكيف لى أن أعرف، إن كان يعرف أم لا!

شعرتُ أنها تراوغنى، فالتزمتُ الصمت. شعرتْ هى بضيقى، فتلطَّفتْ فى القول وهى تخبرنى بأن كاهن الكنيسة، يعرف أنها كانت يومًا متزوجةً، فهو قريبٌ لأمها من بعيد، لكنه قدَّمها إلى رئيس الدير يوم جاءتا للسكنى هنا، بقوله: *هذه الفتاة وخالتها من أهل المسيح، وهما مسكينتان والعجوزُ مريضةٌ، فلو سمحت لهما بالإقامة فى الكوخ الخرب، سيكون فضلك عليهما عظيمًا، فهما لا أهل لهما ولا نصير..* أضافت: *هكذا قال الكاهنُ يومها، فصرتُ عند رئيس الدير فتاةً! وقد أخبرته بأننى كنت أنشد الترانيم الكنسية وأغنيات القوقيون منذ طفولتى المبكرة، فصرتُ عنده مغنيةً. وعلى هذا النحو قدَّمنى إليك يا أبتِ الطيب، الحنون.*

نطقت مَرْتا كلمة الحنون بتحنانٍ بالغ، ورقَّةٍ لا حدود لها. حتى أننى لم أتمالك نفسى، فرفعتُ وجهى رغمًا عنى، ونظرت فى قلب عينيها.. رأيتُ صفاء امتزاج العسلية باللون الأخضر فى أحداقها. ورأيتُ امتداد رموشها الكثيفة، المؤطِّرة بجمالها جمالَ استدارة العينين. ورأيتُ كثافة حاجبيها اللذين أتقن الله صنعهما؛ فأظهر سوادهما اللامع بياضَ وجهها النقى. شَعْرُها بحسب ما بدا من أطرافه المنفلتة من غطاء رأسها، كان كحاجبيها فاحمَ السواد، ولامعًا برَّاقًا.. مرتا آيةٌ من آيات الجمال الإلهى فى الكون فى وجهها طفوليةٌ ونَزَقٌ، وفيه بهاءُ صورة العذراء؛ غير أن نظرتها جريئةٌ جدًا، ومربكةٌ لمن هو مثلى.

يومها، رفعتُ عينى إلى غطاء رأسها ذى الثنيات الحريرية المطوية بإتقان، وبعدما تأمَّلته طويلاً، سألتها عن الوقت الذى يلزمها لإعداده بهذا الاتقان. قالت: *لا يا أبتِ، لا يلزمه أى وقت، فهو يُخاط مرةً واحدة، لا يحتاج بعدها إلا وضعه على الرأس، ثُمسك السِّتر الحريرى المنسدل منه..* وبحركةٍ مفاجئة لم أتوقعها، رفعت غطاء رأسها، فانهمر شلالُ شعرها الأسود الكثيف الناعم. كان شعرها معتقلاً تحت غطاء الرأس، يتوق للتحرُّر، فلما أحاط بوجهها صارت آيةً للإبداع الإلهى فى خَلْق الإنسان.. أىُّ جمالٍ ذاك الذى كان مختفيًا تحت حجابها، وأية نظرةٍ تلك التى رأيتها بعينيها. لسعتنى نظرتها، وروَّعنى جمالها، حتى كاد يغمى علىَّ من جلال الجمال؛ فقلتُ بسرعة:

ـ استرى شعرك يا ابنتى، حفظك الرَّبُّ.

ببطءٍ متعمَّد، لفَّت مرتا حول رأسها، شعرَها الذى أسدلته على الكون كله. رفعته بيدٍ، وبالأخرى أطبقتْ عليه بالتاج الحريرىِّ ذى الثنيات والخرز الدقيق الملوَّن. لم تحوِّل نظرها عنى، فتشاغلتُ عنها بالنظر إلى رفوف الكتب. تناولتُ كتابًا قريبًا، ورحت أقلِّب صفحاته من دون أن أقرأ فيه شيئًا، ولا أرى سطرًا من السطور.. أخرجتنا هى من صمتنا بقولها:

ـ هذا الزِّىُّ كله دمشقىٌّ، كان لأمى، أخذته بعد وفاتها.

ـ أنت إذن من عائلة عربية؟

ـ قيل لى إن عائلتى كانت فى الزمن القديم من أثرياء تدمر، ثم فروا منها وتركوها، لما خَرَّبها أورليان، عليه لعنة الرب.

- يا ابنتى لاتعوِّدى لسانك إطلاق اللعنات، وقد خربت تدمر منذ زمنٍ طويل.

- نعم يا أبتِ، منذ زمنٍ طويل. ثم بعدها تفرَّق أهلى فى الأرض، واستقرت أسرتى أولاً ببلدة حلب، ثم هجروها إلى دمشق وقد صاروا فقراء. وهناك أنجبوا أمى التى تزوَّجت رجلاً دمشقيًا، فأتت بى إلى هذا العالم.

- إذن فأنت تعرفين العربية والسريانية.

- وأُغنِّى باللغتين.

جاءنا صخبُ الصبية القادمين، فأسدلت مرتا خمارها الدمشقى، واعتدلتْ فى جلستها. انتقلنا للكنيسة ولما بدأ الترتيل، كنتُ هائمًا فى فلوات ذاتى. فى اليوم التالى، جاءت مرتا مبكرة ومعها خالتها التى انكفأت على يدى لتقبّلها، مظهرةً امتنانها لمداواتى.. الرَّبُّ هو الشافى. جلستْ العجوزُ معنا حتى جاء الصبية، فلم نتكلم يومها فى شئ. وانصرفوا جميعًا، فمرَّ اليوم من دون أن أرى من وجه مرتا، إلا ما بدا منه من تحت سترها الحريرى الشفيف.

كان اليوم التالى مشهودًا، فقد خرجنا من الكنيسة بعد صلاة الساعة الثالثة، على جلبةٍ كبيرة وأصواتٍ متداخلة تأتى من ناحية بوابة الدير. أسرعنا إلى البوابة، ولحق بنا رئيسُ الدير والكاهنُ وكُلُّ الرهبان، فرأينا عند سفح التلَّة قافلةً كبيرة قد أناخت مطاياها عند مطلع الدير. كان فيها ما يزيد عن الخمسين جملاً ومثلهم من البغال، وبعض الحمير، وكثير من التجار من مختلف الأعمار. ثلاثةٌ منهم ضخامُ الأجسام، صعدوا إلينا وهم يسندون رجلاً أضخم منهم، لايكاد يقوى على المشى. صعد معهم جنديان من الحامية، كانا يتبسَّمان ببلاهة! الرجلُ المسنَّدُ كان فى حدود الخمسين من عمره، زيه الكردى ملطَّخ ببقعٍ من الدم. لثِقَلِ بدنه وسقوطِ قوته، صعد به مساعدوه التلة بجهدٍ جهيد. اثنان منهم يرفعانه من تحت إبطيه، وواحدٌ قصير عنهم يسنده من خلف ظهره. البقية من تجار القافلة، وقفوا يتطلَّعون باهتمام كبير، من موضعهم بسفح التلة. لما اقترب الصاعدون إلينا، رأيتُ خيطًا من الدم يسيل من فم الرجل المسنَّد، ولمحتُ مَرْتا وعمتها واقفتين عند كوخهما، ينظران بدهشة للصخب الذى أحاط فجأة بنا.

تقدَّم رئيسُ الدير نحوهم خطوتين، فأخبره القادمون أن صاحب القافلة الذى يسندونه، يحتاج لإسعافٍ عاجل من أطباء الدير.. وكأن فى الدير طبيبًا غيرى! قالوا إن الرجل يشرف على الهلاك، وإنه سوف يموت مالم نعالجه عاجلاً بشئ ينقذه. أفسح لهم رئيس الدير الطريق، فدخلوا الساحة بالرجل، وأجلسوه على مصطبةٍ بقرب حظيرة الماعز المواجهة للبوابة. أخذنى رئيسُ الدير من يدى، وتقدَّم نحوهم، فسألتهم عما جرى للرجل، قالوا:

- المسكين، شرب من بئر الشيطان!

صرف رئيسُ الدير الرهبان لأعمالهم، وجلس الجنديان عند بوابة الدير، وانتحيتُ بواحدٍ من تجار القافلة لأستجلى منه حقيقة الأمر، فلحق بنا الآخران.. عرفتُ منهم أن قافلتهم تقصد أنطاكية من بلاد الأكراد الواقعة وراء الصحراء الشرقية، بين حدود الفرس والرومان، وأن رئيس القافلة هذا شرب منذ ثلاث ليالٍ من بئرٍ معطلة فى الصحراء يسميها رجال القوافل بئر الشيطان. فقد أراد إثبات أنَّ البئر ليس فيها شياطين! فأقدم على الشرب منها ليلاً.. وفى اليوم التالى صار يقيئ دمًا، ومضى به على هذا الحال يومان من دون طعام حتى كاد يهلك، فنصحهم أهل القرى أن يأتوا به إلى الدير، لأنه لامحالة سيموت قبل بلوغهم أنطاكية فأتوا به آملين فى نجاته بدواءٍ أو بتعويذةٍ أو بأىِّ أمرٍ من شأنه أن يشفيه. أضاف الرجل القصير:

سيكون مسيحيًا فاضلاً لو شفيتموه، فهو وأهله من الموعوظين الكبار الذين سيدخلون فى ديانتكم قريبًا.

ألهمنى الرَّبُّ بالسبب المؤدِّى إلى معاناة الرجل، وبالعلاج الذى يُنجيه مما هو فيه.. أخذتُ أعوان رئيس القافلة الثلاثة إلى حيث جلس مُنهارًا، وهمستُ إليهم جميعًا بما مفاده أن العلاج صعبٌ، وأن عليه احتمال ما سوف أقوم به مداواة، ولا يتعجَّل. كان الرجل مستسلمًا، متلاحق الأنفاس، زائغ العينين، وكأن الشيطان الذى يتوهمونه يسكنه حقًا. ظل رئيس القافلة يردِّد بصوتٍ متحشرج: *افعل بعون الرب ماتراه.. افعل بعون الرب ما تراه..*

كان رئيس الدير واقفًا بالقرب منا يراقب ما يجرى بقلق، وكانت مرتا واقفة بجوار خالتها العجوز عند البوابة تنظران إلينا بحذر، وكان الجنديان الرومانيان ينظران إلى مرتا من خلفها، ويتهامسان فيما بينهما.. أحضرتُ حبلاً من حظيرة الماعز، وطلبت من الأعوان أن يربطوا رئيسهم من يديه ورجليه إلى المصطبة، وناديتُ مرتا وهمستُ لها بأن تحضر دلوًا من الماء العكر، وتذيب فيه شيئًا كثيرًا من الملح، وتحضر أيضًا إناءً من الماء البارد العذب، المطيَّب بروح النعنع. أسرعت مَرْتا لتأتى بما طلبتُ، وذهبتُ أنا إلى مطبخ الدير، فالتقطتُ من كسر الخبز وبواقى الطعام الردئ شيئًا كثيرًا.

وسط دهشة الجميع، مِلْتُ على أذن الرجل المريض، وهمست له بأن عليه أن يأكل كل ما أضعه فى فمه، ويجتهد فى بلعه، وإلا فلن يبرأ أبدًا. هَزَّ رأسه موافقًا، فأخذتُ أدسُّ الطعام الردئ فى فمه، بعدما خلطته وبللته ببعض الماء، فأخذ المسكين يبلعه بصعوبةٍ كبيرة. لما توقَّف عن البلع زعقتُ فيه، ففتح فَاهُ، ورحتُ أدسُّ فيه المزيد من الطعام، فكان يبلعه مضطرًا وهو يلهث. لما امتلأ جوفه، صحتُ فيه بأن يصبر برهةً على ما سوف أفعله.. أخذت قَشًّا من أرضية الحظيرة مختلطًا ببعر الماعز، ورحتُ أدسُّه فى فمه وهو يهرب بوجهه يمينًا وشمالاً، ويجتهد لفكِّ وثاقه. الجميعُ من حولى كانوا مرتاعين، وكانت مرتا تمسك بالدلو وهى ترتجف. أخذته من يدها، وارتكزت بركبتى اليمنى على فخذ الرجل، ورحت أدس القش بيدٍ وبالأخرى أسقيه الماء المالح. ظَلَّ الرجل يقاومنى، وظللتُ أصرخ فيه: *هذا دواؤك الوحيد، فاصبر.* لما شعرتُ بقوته تخور، وبأن جوفه قد امتلأ، وقفتُ منتصبًا، وفتحتُ شفتيه عنوةً، وصببت فى فمه مزيدًا من الماء المالح. حتى إذا كاد الرجل يهلك تمامًا، وتسقط عافيته بالكلية، طلبتُ من معاونيه أن يفكُّوه. وابتعدت عنه إلى الناحية التى تقف فيها مَرْتا ناظرةً إلى ما يجرى بعينيها الجميلتين، المذهولتين. كان رئيس الدير يجلس على حجر كبير، ويميل بوجهه إلى عصاه وقد علاه الهمُّ.

لما انفكَّ وثاقُ الرجل، هاج واندفع نحوى كالثور وهو يرفع ذراعيه فى الهواء، وكأنه على وشك الإطباق على عنقى. لم أتحرَّك. وقف لحظةً أمامى وهو يلهث، وكفَّاه معلقتان فى الهواء، والعرقُ يسَّاقط من جبهته. كان لحظتها كمثل ماردٍ انفلت من كتب الخرافات القديمة.. فجأةً، حدث ما توقَّعتُه وسعيتُ إليه. استدار الرجل وجرى نحو سور الحظيرة، فجثا على ركبتيه وراح يقيئ قيئًا مريعًا. لحقتُ به، وأخذتُ من خلفه أهزُّ كتفه، وأدعوه لأن يقيئ أكثر، فيفعل. كان الذهولُ يلفُّ الجميع، والاندهاشُ.

حين انتهى الرجل من قيئه، غسلتُ وجهه بما بقى فى الدلو من الماء المالح، وسقيته الماء المطيَّب بالنعنع، فاسترد عافيته سريعًا، وأخذته النشوة فوقف على قدميه وهو يضحك. أقبل علىَّ، فأخذ يدى وراح يقبلِّها وهو يقول: لقد خرج الشيطان من جوفى.. تصايح رفاقه، فتصايح بقية رجال القافلة الذين كانوا قد اصطفوا عند بوابة الدير.

ـ هل تسمح يا أبتِ!

قلتُ ذلك لرئيس الدير، فقام معى. أخذته مع رئيس القافلة وأعوانه الثلاثة إلى الناحية التى قاء فيها الرجل. مرتا لحقت بنا. أشرتُ إلى قئ الرجل لينظروا، وأنا أشرح لهم حقيقة الحال التى كان الرجل يعانيها: هذا الدود الدقيق الذى ترونه، هو دود العَلَقة الذى يعيش فى الماء الآسن. فلما شرب الرجل من البئر المعطلة ليلاً، ابتلعه مع الماء من دون أن يراه. فما نزل من العلقة فى أمعائه البعيدة، قتلته قوى البطن الهاضمة. وماعلق منه فى جوفه القريب ومعدته، راح يمصُّ دمه، فيُسَيِّل الدم إلى المعدة، فتطرده، فيقيئ دمًا.. ثم قلتُ: *هل عرفتم الآن، الشيطان الذى كان بالبئر!*

ضحكوا جميعًا كأطفال عاد أبوهم من سفر. نصحتهم أن يسقوا الرجل لبن الماعز، ولا يطعموه إلا القليل من الأغذية الرطبة، إلى أن تعاوده قوته فى اليوم الثالث.. تقدَّم أحد خُدَّام الدير إليه بإناءٍ مملوءٍ لبنًا، فعبَّه الرجل وهو مبتهج، ثم فاجأنا بقوله: *هل يمكننى أن أنام قليلاً هنا؟*

أخذه رئيسُ الدير إلى إحدى الغرف المجاورة للكنيسة الصغيرة، وتركه ليرقد هناك. وانصرف الجمعُ نحو القافلة الرابضة تحت أقدام الدير، بعدما جاء كثيرٌ منهم، فسلَّم وقَبَّل يدى.. قبيل الغروب، دخل علىَّ المكتبة رئيسُ الدير ومعه الرجلُ الذى كان مريضًا وقد ارتدى ثوبًا فاخرًا. دخل معهما الرجلان اللذان كانا يسندانه وقد غمرتهما البهجة، ومن خلفهما أربعةٌ من الرهبان. قال لى رئيس الدير إن الرجل يريد أن يكافئنى على طبى الشافى، فقلت إننى لا آخذ على الطب أجرًا، وأن الشافى هو الله.

تقدَّم رئيسُ القافلة نحوى، فجلس على الكرسى القريب منى وه يقول: *يا مُبارك، لقد جعلك الله سببَ شفائى، ولسوف أُلبِّى ما تطلبه منى وأنا مسرور. وعندى من المال والمتاع والثياب الشئ الكثير، فلا تتردَّد فى الطلب.*

ـ شكرًا لك أيها الرجل الطيب، ولكننى لا أطلب شيئًا من أحد، ولا آخذ على الطب أجرًا.

قلتُ ذلك، وأطرقتُ لأُنهى الحديث. فقام الرجل وقبَّل رأسى، راجيًا أن أقبل ما سوف يرسله لى على سبيل الهدية. قلت له: *لا ترسل شيئًا، صدِّقنى أنا لا أحتاج لشئ. فاسأل رئيس الدير، إن كان يحتاج لهذا المكان شيئًا*. ويمكنك لو أردت، *أن تعطى الفتاة التى ساعدتنى ثوبًا مناسبًا لأداء الترانيم فى الكنيسة أيام الآحاد.*

الرَّقُّ الثانى والعشرون

كُمُونُ الإعْصَارِ

رحلت القافلة فجرًا، وساعةَ الظهر فتحتْ مَرْتا باب المكتبة من دون أن تطرقه. باغتنى صوتُ صرير الباب، فانتبهتُ من استغراقى فى قراءة كتاب النبض لجالينوس. نظرتُ ناحية الباب، فرأيتها واقفةً على عتبته العالية.. يحيطُ بها الضوءُ الداخل من ورائها، فكأنها حوريةٌ هبطت إلى الأرض ملفوفةً بالنور السماوى لتمنحنا السلام، وتملأ الكون رحمةً بعدما امتلأ جورًا وظلمًا. كان الضوء يؤطِّرها، يحوطها من كل الجهات، ويطغى على أطرافها، فتبدو وكأنها مغلَّفة بالنور. لن أنسى هذه اللحظة ما حييتُ. لم أشعر بيدى إلا وقد أزاحت عنى غطاءَ رأسى الملئ بالصلبان، لأستقبل النور الذى أشرق فجأة من عند الباب. تأكَّدتُ لحظتها من أن مرتا هى أجملُ امرأةٍ خلقها الرَّبُّ.

كان رداؤها يمسك بصدرها وخصرها بإحكام حنونٍ، ثم تنساب ثنياته الكثيرة، فتصير كدائرةٍ مركزها قدماها الصغيرتان اللَّتان انتعلتا حذاءً من لون الرداء. على رأسها منديلٌ حريرىٌّ لامع، لونه ناصعٌ، يمسك بشعرها من دون أن يخفى من وجهها شيئًا. من جانبىْ المنديل تدلَّت ضفيرتان تلامسان بأطرافهما أعلى نقطتين فى صدرها. عند طرفىْ الكتفين ترتفع ثنياتُ ثوبها المخملى الملمس، الأرجوانى اللون، ثم تهبط الثنيات وتنبسط، فتحيط بذراعيها بإحكام. حتى إذا قاربت الأكمامُ الكفين، اتسعتا ليتغطى ظاهرُ اليدين بالتطريز المذهَّب الذى يؤطِّر الأكمام وذيل الفستان وأطراف منديل الرأس.. تركتنى مرتا برهةً أتأملها، وقد أمالتْ رأسها برقَّةٍ جهةَ اليمين، وأسندتْ كفيها المضموتين على طرفىْ خصرها. مختالةَ الخطو والابتسام أقبلتْ نحوى، وقد أمسكتْ ثوبها الفضفاض بأطراف أصابعها من عند الفخدين، ورفعته قليلاً، فكان ذيل الثوب المؤطَّر بالخيوط الذهبية، تتراقص ثنياته المخملية مع خطواتها الرشيقة التى تطير بها نحوى..

ـ أراكَ مستمتعًا بالوصف! لكن هذا القدر فيه كفاية، فأكملْ حكاية ما جرى، فوصفُك لمرتا يثيرنى!

ـ إليك عنى يا عزازيل..

لما اقتربتْ مرتا يومها منى، رفعتُ وجهى إلى صدرية الرداء.. تاه ناظرى فى الأزرار الكثيرة المصطفة فى خطَّين يرتفعان مع طرفىْ الصدرية، من موضع السُّرَّة إلى منبت العنق، ويعتقلان فى طريقهما امتلاء النهدين.. ولما اقتربتْ منى أكثر، دارت رأسى عند ارتقاء عنقها نحو ذقنها الدقيق. ولم أستطع الارتقاء بناظرى، حتى أغوص بقلب عينيها.. وأظنُّها أدركتْ لحظتها عذاباتى، فزادتها بابتسامةٍ صافيةٍ رفعتْ نظرى إلى الغمازتين اللتين بقلب الخدين.. ولما نظرتُ أخيرًا فى عينيها، غصتُ فى بحرٍ عميقٍ من العسل. قالت:

ـ ما رأيك يا أبتِ. هذا واحدٌ من الفساتين الثلاثة التى أهداها لى رئيسُ القافلة ليلة أمس.

ـ جميلٌ يا مرتا، جميلٌ جدا يا ابنتى.

ـ هو ضيقٌ بعض الشئ عند صدرى، لكنه سيأخذ شكل جسمى مع الوقت.

ـ نعم، نعم.. تعالى لنجلس عند الباب.

ـ يا أبتِ، مازال الوقت مبكرًا على مجيئ الصبيان، دعنا نجلس هنا.

ـ لا يا مرتا، لا يصح ذلك.. مكانُنا هناك.

لم يكن من اللائق أن نجلس فى أقصى ركنٍ من المكتبة، حيث لا ينير الضوء الداخل من الشباك القريب، إلا الطاولةَ التى أقرأ عليها. الجلوسُ عند الباب أليقُ، وأبعدُ بنا عن الشبهات. والضوءُ هناك أزيد، وسوف أرى الرداء بصورةٍ أفضل.. جاءت مرتا ورائى، فجلستْ أمامى على كرسيها وقد دسَّت كَفَّيها تحت فخذيها، وراحت تؤرجح ساقيها جيئةً وذهابًا. كان الرداء يرفُّ مع حركتها، فيزيد من شعورى بالدوار. وكانت تنظر مباشرة فى عينى، فتحاشيتُ النظر ناحيتها.. من دون أن أطلب منها، غنَّت أغنيةً لم أكن أعرفها، فنظرت نحوها مسلوب الإرادة.

كانت مرتا إذا غنَّت ازدادتْ بهاءً، وإذا انهمكتْ فى الغناء رفعت ذقنها الدقيق، وأغمضت عينيها، فصارت كأنها تناجى السماء. غناؤها يومها سرى بخدرٍ فى ظاهر بدنى، ثم غاص فى باطنى. وأخذنى صوتها إلى أفقٍ بعيدٍ لانهاية له، ثم راح يؤرجحنى، ويملؤنى شجنًا على شجنٍ، حتى أذهلنى عنى.. حين انتهتْ من غنائها، كنتُ قد انتهيتُ.

ـ ألن تضع غطاء رأسك، يا أبتِ.

أربكتنى عبارتها، ونبَّهتنى إلى أننى لا أشعر بانكشاف رأسى. لم أكن فى حقيقة الحال أشعرُ إلا بحضورها الطاغى الذى يسلبنى، ويسحبنى منى إليها. قمتُ مضطربًا، فأحضرتُ القلنسوة، ولم أجد حرجًا فى النظر ناحيتها أثناء عودتى. هى أيضًا كانت تنظر ناحيتى، وعلى وجهها ابتسامةٌ غامضة، تزيد سحر وجهها سحرًا.. كان يجب علىَّ أن أتكلَّم بأىِّ شئ، لكن الحروف فرَّت من طرف لسانى. كنتُ أقول فى نفسى، إن جمالها ظالمٌ لمن يعرفه، ظالمٌ لأنه أعمقُ من أن يُحتمل وأبعدُ عن أن يُنال.

ـ لماذا تنظر لى هكذا، يا أبتِ، ولا تقول شيئًا؟

ـ لا شئ يا مرتا، لاشئ. أنا أفكِّر.. أخبرينى، كم عمرك؟ ومتى تزوجتِ؟.. وأين زوجك؟ وعائلتك؟.. ولماذا جئتِ للسكنى هنا مع خالتك؟

ـ هذه أسئلةٌ كثيرةٌ يا أبتِ!.. عمرى عشرون سنة، وبقية الأسئلة سأجيبُ عنها الأيام المقبلة، كل يوم سؤال.

لابأس يا مرتا لابأس. احكى وقتما تشائين، وحسبما تودِّين. ولكن، هل ستمتد الأيام بنا وفق ما أهوى؟ لقد اعتدتُ رؤياك الأسابيع الماضية، وبعد حين سينتهى التدريب على الترتيل، فلأى سببٍ سوف أراك بعد ذلك؟ الرهبانُ لايرحِّبون بدخول النساء إلى الأديرة، وأنا مستسلمٌ لدخولك إلى قلبى. هل سأكتفى برؤيتك صبيحة أيام الآحاد، ترتِّلين مع المجموعة فى الكنيسة؟ لا، سوف أجد سببًا آخر.. سأزرع الأرض المحيطة بكوخك بالنباتات الطبية، وأعهد إليك برعايتها، وأمرُّ كل يوم للاطمئنان على المزروعات، فأراك من دون إثارة الريبة. وهكذا سيمضى الحال لسنوات وسنوات!.. وربما يأتى يومٌ يُقال لى فيه إن **مرتا** ستتزوج بواحدٍ من الفلاحين، وأنها سترحل للسكنى فى بيته.. يومها ستتركين وراءك خالتك العجوز، وآلامى العتية.

ـ هل عدت للصمت والتفكير!

ـ نعم يا مرتا.. إننى أفكر فيك.

ـ أعرف، وأشعر بك يا هيبا.

روَّعتنى الطريقة التى نطقت بها حرف الباء من اسمى، فلم أفكر فى جرأتها على مناداتى به مجرَّدًا. كنت أنظر لحظتها إلى شفتيها، وأقولُ فى نفسى: هل تتعمَّد هذه الطفلة إثارتى، أم تراها تعبث بى؟ ولعلها أحبَّتنى بعدما عرفتنى، ورأت منى المهارة فى علاج خالتها، وفى معالجتى المبهرة لرئيس القافلة بالأمس وسط ذهول الجميع! لقد رأيتُ ساعتها الانبهار بعينيها، ولمستُ فيها افتخارها بى. ولكن هل تأكُّدها من مهارتى الطبية، سيدعوها للهيام بى؟ أنا الذى أرفل فى الرداء القدسى، وأسكن الدير! ثم إنها طفلةٌ فى العشرين من عمرها، لا تعرف أصلاً ماهو الحب.. ما هو الحب! أنت أيضًا لم تعرفه أيها الراهب المسكين. وهذا الذى كان قبل عشرين سنة مع أوكتافيا لم يكن حبًا، كان خطيةً.. لا، كان حبًا خالصًا من جهتها هى، وخطيةً منى. كانت أيامى المعدودة معها بديعةً، لكننى لم أعرف قيمتها وقتها، فانتهى الأمر بأن فقدتها، وفقدتُ نفسى على النحو المفجع الذى كان، فقد خفتُ من حُبِّها، ورضيتُ بالفرار منها، ثم ورثتُ بمقتلها أمام عينى، جُرحى الذى لن يندمل أبدًا.. أتُرانى سأفقد مرتا أيضًا، تلك الجالسة الآن أمامى تؤرجح قدميها كطفلةٍ لاهية؟ وهل سأهدر ذاتى من أجل خاطرٍ عارضٍ مُبهم؟ لا، لا يجوز ذلك لك، وما عليك إلا أن تتماسك.. اصبرْ على ما يعصف بك، واعرفْ أن الحب إعصارٌ كامنٌ فى زاوية بعيدةٍ بأعماق القلب، وهو يتوق دومًا لاجتياح كل ما يعترض طريقه.. أنت راهبٌ مبجَّلٌ، وطبيبٌ مرموق، فلا تمنحه الفرصة لاجتياحك، وإلا ألقى بك فى صحراء الازدراء.. لكنك من الناحية الأخرى شاعرٌ، وهذه المشاعر تملؤك شوقًا نحو هذه الطفلة البهية الجالسة أمامك، مستمتعةً بمشاغبتها لك، وشغبها عليك.. ثم إنك اليوم فى الأربعين، وهى منك بمنـزلة الابنة. وغدًا، قد تجدها قد ألقت نفسها فى حضن رجل آخر، وتعود أنت لعبوسك الأزلى وأيامك الجرداء.

أىُّ رجلٍ آخر ذلك الذى يستحق مرتا ويعرف قدرها؟ لا أحد غيرى يدرك عمق السحر الساكن فى عينيها، وروعة السِّر الكامن فى ثناياها. إن رجلاً آخر غيرى، سوف يحوِّلها مثله إلى فلاحةٍ من اللواتى يملأن القرى.. مهلاً، فهى قد تزوجت من قبل، فأىُّ رجلٍ هذا الذى تزوجته؟ أتراها استسلمتْ له فى ليالى الشتاء الطويلة؟ هل عبثَ بثمار جسمها الرقيق؟ وهل امتلأتْ به؟.. أدركنى يا إلهى برحمتك.

ـ أتريدنى أن أذهب، وأعود حين يأتى الصبيان؟

ـ لا، يمكنك البقاء قليلاً، سوف يأتون حالاً.

ـ لكنك صامتٌ، ولم تعد تنظر نحوى.

ـ يامرتا، أنتِ.

كنتُ أنوى الإفاضة بما أعاينه من شعورى بها، وأعانيه. وكانتْ قد تهيَّأت لسماع أمرٍ مهم، وعقدت ذراعيها على صدرها، وكَفَّت عن أرجحة قدميها. هى جميلةٌ أيضًا حين تهتم وتصغى، عيناها تتسعان، فيزداد جمالهما.. غير أنى لم أقل ساعتها أىَّ شئ بلسانى، فما كدتُ أبدأ البوح، بعدما نظرتُ فى قلب عينيها نظرةً طويلة، حتى سمعنا جلبةَ الصبية الصاخبين آتيةً من عند بوابة الدير. قمت من فورى، فأحضرتُ أوراقى. وأعطيتُ لمرتا نسختها لنبدأ الترنيم، ونُنهى هذا الأفق الحالم الذى كان ممتدًا بيننا. ظلَّ الصبيةُ يردِّدون المزمور، ثم تشدو مرتا بالأبيات الشعرية، فتطيح بكل حواسى، وتطوِّحنى خارج الكون، ثم أفيقُ مع ترديد الصبية للمزمور، ثم أعود مع غنائها لتطوافى خارج الكون.

عند خروجهم، تأخَّرت مرتا خطوتين؛ لتسألنى إن كنت هذه الأيام صائمًا، فأخبرتها بأنها ليست أيام صوم. همستْ: *سأحضرُ لك شيئًا*. غابتْ بسرعة، ثم عادت بعد فترةٍ، وهى تحمل طبقًا فيه حلوى من تلك التى تشتهر

بها حلب والقرى المحيطة. كان واحدًا من رهبان الدير يجلس معى حين جاءت. وضعتُ الطبق على الطاولة، وانصرفت من دون أن تقول شيئًا، وأكمل الراهب شكايته من التقلُّصات التى تؤلم أمعاءه كلما تناول شيئًا غير الطعام المسلوق.

فى المساء أخذتُ معى الحلوى إلى صالة الطعام، فامتدحها الرهبانُ الذين أكلوا منها. ولما شكرتُ مرتا صبيحة اليوم التالى، أخبرتنى أن هذه الحلوى الفاخرة، هى هديةٌ إليها من رئيس القافلة. الظاهر أن الرجل كان كريمًا جدًا، فقد أخبرنى رئيس الدير فى الليلة السابقة عند جلوسنا على مائدة العشاء، أنه أعطاه مبلغًا من المال لبناء سورٍ للدير، وبوابةٍ خشبية على هيئة صليب كبير.

لم أخبر مرتا بأننى لم آكل من الحلوى، ولم أقل لها أىَّ شئ آخر، فقد جاءت فى ذاك اليوم متأخرةً، بعدما كان الصبية قد اصطفوا فى مكانهم. اعتذرتْ بأنهما، هى وخالتها، كانتا مشغولتين فى بناء فرن جديد.. وكان غناؤها يومها مضطربًا، وكان رداؤها هو الزِّىُّ الدمشقى الذى رأيتها فيه أول مرة. انصرفتْ مرتا مع الصبية فور انتهاء التدريب، وأكملتُ يومى فى تعاسةٍ لاحدود لها.

نظرتُ يومها كثيرًا إلى ناحية الكوخ، من شباك المكتبة، فكنتُ أرى حركةً كثيرة: مرتا فى ملابسها المنـزلية تروح وتجيئ، خالتها فى ملابسها السوداء الكاحلة تجلس حينًا أمام النول، وتقوم أحيانًا، ثلاثة من الصبية يغنُّون وهم يرمِّمون حوائط الحظيرة التى أمام الكوخ، النَجَّار يدق فى الباب المسامير.. لابد أن لديهم إصلاحات كثيرة يقومون بها، غير الفرن. قبيل الغروب، تصاعد دخانٌ كثير من الفرن الجديد، ثم سكنت الحركةُ.

فكَّرتُ ليلتها فى المبيت بصومعتى، كيلا يضايقنى الدُّخان الصاعد من الفرن الجديد، ثم فضَّلت إغلاق النافذة والبقاء فى المكتبة، لأنها أقرب إليها موضعًا. أغلقتُ بابى، وأشعلتُ فتيل قنديلى، وعدتُ لقراءتى المتأنية لنسختى الوحيدة من كتاب جالينوس فى النبض، آملاً فى إيجاد حلولٍ لاضطراب هذه النسخة المليئة بأغلاط النُّسَّاخ. فاتنى ليلتها موعد العشاء، ولم أحضر صلوات أول الليل مع الرهبان. بعد الصلاة زارنى راهبان من أهل الدير، أحدهما شيخٌ وقور، والآخر أصغر سنًا وأضخم جثةً. كان معهما راهبٌ زائر، عرج إلى الدير فى طريقه من روما إلى أورشليم.

لم يتحدث الراهب الزائر بشئ طيلة جلستنا، فلم أره. بل إننى لا أذكر الآن ملامحه. أتذكر فقط إطراقته الطويلة وصمته، وأنه بحسب ما أخبرنى الراهبان: *يحمل كتابًا من بابا روما إلى أسقف أورشليم، بشأن اجتماع كبير!* استغربتُ ما سمعتُ، ولم أفهم السِّرَّ وراء سفر هذا الراهب منفردًا، وسلوكه طريقًا بريًا لابحريًا كما هو معتادٌ. ولماذا كان يتجنَّب المدن الكبيرة، ولم يمرّ بأنطاكية فى طريقه! غير أننى لم أشأ أن أُثقل عليه بأسئلتى، خاصةً مع ما لمسته فيه ليلتها من ميلٍ للصمت. وقد انجلى الأمر بعد حينٍ، وأدركتُ أنهم كانوا يرتِّبون من وراء ظهورنا، لانعقاد المجمع المسكونى الذى اصطخب فى إفسوس.

الراهبان جلسا عندى فترةً، أعددتُ خلالها للراهب الزائر دواءً لحرقةٍ يشعر بها دومًا بصدره.. تحدَّثنا ليلتها عن كنائس روما الكبيرة، والأديرة الكثيرة المتناثرة على تلالها السبعة، وعن موعد الشروع فى بناء السور الذى سوف يحيط بالدير، وعن أشياء أخرى كثيرة. ثم انصرفوا عنى عند منتصف الليل. أمام الباب ابتسم الراهبُ الأصغرُ سنًا، الأضخمُ، وهو يقول لى إن الحفل الذى أقامه التجار قبل يومين احتفالاً ببرء رئيسهم،

غنَّت فيه الفتاة التى سكنتْ الكوخ مؤخرًا. أضاف بإشارةٍ مترعةٍ بالهمز، لا تليق بالرهبان، أن رئيس القافلة والفتاة كانا منسجمين خلال الحفل، وأنها بعد الوليمة صحبته إلى خيمته.

.. شبَّتْ بباطنى حرائقُ لا إطفاء لها.

الرَقُّ الثَّالثُ والعشرون

هُبوبُ الإعْصَارِ

لم يغمض لى جفن طيلة ليلتى، ومع طلوع شمس النهار، توهَّجت النارُ المتأجِّجة بقلبى، فأحرقت بدنى، فكأننى فى حمى لاتنقطع نوباتها. لم أستطع مفارقة الشباك المطل على الكوخ، حتى رأيتُ مارتا تخرج متكاسلةً لتنشر ملاءةً على الحبل المشدود خلف الفرن الذى أوقدوه بالأمس، ولايزال يتصعَّد الدخان منه. خطفتُ ملابسي، وانخطفت نحوها. كانت خالتها هى التى رأتنى أولاً، فجاءت نحوى متهلِّلة فرحة. سألتها عنها فنادتْ عليها، واستأذنتنى فى العودة لإحماء نار الفرن الجديد، إذ لابد أن تُقاد ناره ثلاثة أيام متوالية! أومأت لها برأسى، وبقيت واقفًا فى موضعى على مقربة من الكَوخ.

جاءت مرتا بملابسها المنـزلية تتهادى فى مشيتها، كأنها تتعمَّد التباطؤ. لا حذاء فى قدميها، وعلى رأسها طَرْحةٌ مهترئة الأطراف كانت فيما مضى زرقاء اللون. ومع أنها جاءت فى ثيابٍ فقيرة، إلا أنها كانت فى ضوء الصباح الباكر جميلةً، وظالمة. لما وقفتْ مرتا أمامى عقدت حيرةُ الغيرةِ لسانى، فلم أستطع النطق. هى نطقت أولاً.

- ماذا يا أبتِ، هل أنت مسافرٌ اليوم إلى مكان؟

- لا، ولكنى أريد أن أعرف منك شيئًا.. هل ذهبت حقًا مع رئيس القافلة إلى خيمته، ليلة باتوا هنا، وغنَّيت لهم؟

- ولماذا تسأل؟

- لأننى..

لم أُكمل، لم يكن عندى ما أُكمل به كلامى.. شعرتُ بالتهابٍ فى حَلْقى، واختناقٍ فى أنفاسى، وحرقةٍ فى روحى.. استدرتُ فجأةً عائدًا إلى الدير، وتركتها ورائى من دون أن ألتفت إليها، ولو لمرةٍ واحدة.

صعدتُ رأسًا إلى صومعتى، فأغلقت خلفى بابها، وتكوَّمت فى ركنها الأقصى. رأسى بين ركبتىَّ، وذراعاى ملتفَّتان حوله، وبداخلى تطنُّ أصواتٌ متداخلةٌ تعذِّبنى، تفصِّدنى، وتسخر منى. بعد فترةٍ من انكماشى حول ذاتى، رحتُ أزومُ وحدى، وكأن بى كلاليب أو مشارط تحزُّ أطراف كبدى. رثيتُ لنفسى، واحتقرتنى: أهذا ما كنت تريده وتسعى إليه، أيها الراهب الطبيب الشاعر؟ أن تصير هزأة بين الناس، بسبب طفلة جاهلة لا تعرف عنها أى شيءٍ؟ كيف ارتضيت لنفسك أن تكون لعبةً بيد امرأةٍ لعوب، لمجرد أنك تظنُّها جميلة؟ ظللتَ تسأل نفسك إن كانت طفلةً عذراء، فأدرك صاحبُ القافلة الذى شفيته، أنها أنثى خليعة تذهب مع العابرين إلى خيامهم ليلاً.. أىُّ شقاءٍ هذا الذى جلبته لنفسى؟ أردتُ أن أهديها ثوبًا عن طريق صاحب القافلة، فعرف هو طريقه إليها، وأجزل لها العطاء: ثلاثة أثواب، وحلوى فاخرة.. وقد تكون هناك هدايا أخرى، لم تذكرها لك. أنت قدَّمتها إليه، فلا تلومنَّ إلا نفسك أيها المتباهى بقدرتك على شفاء المرضى. يا إلهى، أعرف أنك تعاقبنى على خطيئتى، فارحمنى.. إنى معترفٌ بكُلِّ ما اقترف قلبى من اشتياقٍ، وبكُلِّ ما خالفتُ من الوصايا والأحكام الثابتة، وتناسيتُ المكتوب فى إنجيل متى: *كل مَنْ نظر إلى امرأة يشتهيها فقد زنى بها قلبه، فإن قادتك لذلك عينك اليمنى، فاقلعها وألقها عنك، فإنه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يلقى جسدك كله فى جهنم.*

يا إلهى، أعرفُ أننى أخطأتُ، فأدركنى بعفوٍ منك يا رحيم، ولا تلق بى فى جحيمك من الآن. إن النار تشتعل فىَّ، تشتعل بى، فصيرِّنى رمادًا أو هباءً منثورًا على الطرقات. ارحمنى، فإننى ماعدت أحتمل العذاب المقيم. أنا يا إلهى مسكينٌ، منكسرٌ، وديعٌ. إننى محزونٌ وأنت رحيمٌ، وقد قال يسوع المخلص، فى أول عظةٍ ألقاها على الناس: *طوبىَ للمساكين بالروح، فإن لهم ملكوت السماوات. طوبى للودعاء، فإنهم يرثون الأرض. طوبى للحزانى، فإنهم يعزَّون.* وأنا يا إلهى، لا أطمح إلى ملكوت السماء، ولا وراثة الأرض، ولا حتى العزاء. كل ما أرجوه، أن ينطفئَ اللهبُ السارى بين ضلوعى، وأن تذهب عنى الآلامُ التى ألقت بى فى هذا الركن منبوذًا، مُهانًا..

- يا أبتِ، هل أنت بالداخل؟

جاءنى صوتُ الشَّمَّاس ممزوجًا بدقَّاته المتشنِّجة على باب غرفتى، فانتشلنى مما كنت غارقًا فيه.. أتراها كانت إشارةً لى من السماء، كى أخرج عن الحالة المزرية التى أوصلت نفسى إليها؟

- يا أبتِ، هل أنت نائم.

توالى نداءُ الشَّمَّاس وتتالت دقاته، فقمت مترنِّحًا من الركن المظلم، ورحتُ أتسنَّد على الحائط حتى رفعت مزلاج الباب. آلمنى الضوءُ الآتى من خلف الشَّمَّاس، وأزعجنى صوته: *يا أبتِ، أنت هنا! إننى أدقُّ على بابك منذ ساعةَ، ما كنتُ أعرف أن نومك ثقيلٌ هكذا.*

- ماذا تريد يا بنى؟

ـ يريدونك فى المكتبة.

انصرف الشَّمَّاسُ من أمامى، فكدتُ أقع على الأرض. كأننى كنت متماسكًا من أجله، أو كنتُ متكئًا على حضوره المفاجئ، المزعج.. يريدوننى فى المكتبة! مَنْ الذين يريدوننى الآن؟ أنا لا أريد أن أرى أحدًا، ولا أريد أن يريدنى أحدٌ.

متثاقلَ الخطوِ نزلتُ الدرج، كأننى أهبط من قمة جبل قُسقام الموحش، إلى ناحية الصحراء الممتدة وراءه غربًا.. كانت ساحةُ الدير خاليةً، وشمسُ الظهيرة مبهرةً لعينى الثكلى. مشيتُ نحو المكتبة بخطى مسافرٍ يغالب النعاس، وعقلٍ مكدودٍ بالسؤال عمَّن ينتظروننى فى المكتبة؟.. بالكاد وصلت إلى الباب الموارب، ودفعته برفق.

ـ مرتا!

ـ نعم يا أبتِ، انتظرتك طويلاً.

ـ ماذا تريدين الآن؟

ـ اجلسْ يا أبتِ، أرجوك.

جلستُ من دون أن أنظر نحوها. كادت دموعى تسيل، فغالبتها حتى حبستها. ظلت مرتا صامتةً.. ولما طال بنا الصمتُ نظرتُ نحوها، فوجدتُ فى عينيها دمعًا كثيرًا يكاد ينسكب. كانت تنظر ناحية ركبتها اليسرى، وقد انسدل على جانبىْ وجهها خمارها الحريرىُّ الشفَّافُ، الأسودُ كلون ردائها الواسع.. اسوداد ملابسها زاد من إشراق بياض وجهها بملامحه الطفولية البريئة. بعد ثوانٍ من التأمُّل فيها، شعرتُ بأنها من النقاء بحيث لا يمكن أن تأتى الفعل الفاحش الذى أظنه، فإنها لو كانت من أهل الفحش، لكان الرَّبُّ قد سلبها هذه الهيئة الملائكية، وكساها هيئة الفاحشات. ولو كانت امرأةً لاهيةً، لما اهتمَّتْ باللحاق بى والجلوس أمامى بهذا الصمت البرئ الذى يضوع بعطر الطُّهرِ، ولا صَحَّ لها هذا الحضور المريمى الآسر للروح.. رفعتْ مرتا وجهها نحوى، وبعينيها المليئتين بالجمال الشجى، قالت وهى تنظر فى قلب عينى:

ـ أرجوك يا هيبا، لاتظلمنى، فالظلمُ قاسٍ. وقد عانيتُ فى حياتى، الكثير من قسوته.

ـ هل ذهبتِ يا مرتا لخيمة هذا الرجل، ليلةَ غنَّيتِ له؟

ـ سأحكى لك كل شئ.

بعباراتٍ مفعمة بالصدق، قالت لى مرتا قبل أن ينهمر دمعها. إن صاحب القافلة أرسل لها يومها، قبيل الغروب مع تابعٍ من تابعيه، ثلاثة أثواب، وجوالاً من القمح، وآخر من الفواكه المجففة. قال الرجل إنها هديةٌ من سيد القافلة، لأهل هذا البيت المجاور للدير المبارك، هكذا قال. وبعد الغروب جاء التابعُ نفسه، ليخبرها بأنهم عرفوا من الجيران، أنها تجيد أغنيات الخزَّافين وصُنَّاع الفخار، المعروفة هنا باسم القوقيون، وقال إنهم سيقيمون مأدبةً للرهبان وأهل المنطقة ابتهاجًا بشفاء سيدهم.. سكتتْ مرتا برهةً، ثم قالت: *حَدَّثنى الرجل بأننى إذا جئتُ للغناء، فسوف يعطينى رئيس القافلة أجرى، فذهبتُ إليهم مع عمتى وغنَّيت.. القوقيون كما تعرف يا هيبا، أغنياتٌ وقورة، ليس فيها ما يعيبُ. وقد كان كثيرٌ من رهبان الدير والشمامسة حاضرين، وكذلك أكثر أهل البيوت المحيطة بالدير. وقد انتظرتُ أن أراك هناك، وظللتُ أفتِّش عنك بناظرىَّ طيلة الليلة، ولكنك لم تأتِ. ولما انتهينا، أَخَذَنا رئيس القافلة ناحية خيمته، أنا وخالتى، فدخلها وخرج بثوبٍ لها وبعض المال لى. فَأَخَذنا ما أعطاه لنا وعُدْنا إلى كوخنا، فلم نخرج منه إلا اليوم التالى..*

قالت مرتا ذلك كله، والصدق يحفُّ بها، يجلِّلها.. أَطرقتْ بعدما

انتهتْ، وتقطَّر الدمعُ من عينيها. كان لابد أن أتكلَّم، لأخفِّفُ عنها:

ـ لقد قالوا لى إنكِ ذهبتِ معه، فظننتُ..

ـ لاتظنَّ بى السوء يا هيبا.

ـ هاه.. لقد صرتِ تنادينى باسمى!

ـ عفوًا، لكننى مرتبكةٌ.. وسعيدةٌ، لأنك ظلمتنى بظنونك الثائرة

ـ سعيدةٌ يا مرتا!

ـ نعم، لأن ظنونك الثائرة أكَّدت لى أنك تحبُّنى، مثلما أحبُّك.

قامت من فورها، فارَّةً إلى كوخها.. وتركتنى فى حالٍ لايعلمها إلا الإله الرحيم، المحتجب خلف سماواته البعيدة.

الرَّقُّ الرَّابعُ والعشرون

أفُـقُ العِشْـقِ

للمحبة فى النفس أحوالٌ شدادٌ، وأهوالٌ لا قِبلَ لى بها، ولا صبر لى عليها ولا احتمال! وكيف لإنسانٍ أن يحتمل تقلُّب القلب مابين أودية الجحيم اللاهبة وروض الجنَّات العطرة.. أىُّ قلبٍ ذاك الذى لن يذوب، إذا توالت عليه نسماتُ الوله الفوَّاحة، ثم رياح الشوق اللافحة، ثم أريج الأزهار، ثم فيح النار، ثم أرق الليل وقلق النهار. ماذا أفعل مع محبتى بعدما هَبَّ إعصارُها، فعصف بى من حيث لم أتوقَّع؟ هل أنا فَرِحٌ بحبِّ مرتا أم أننى أخشاه؟.. سيقولون إننى غررتُ بها، وسيقولون بل هى غررت به! لن أنجو من هذا الحب الذى قَدَحَتْ مرتا زناده بكلمةٍ واحدة، فصار عشقًا.. وأنا لاخبرة لى بارتياد بلاد العشق .

فى ذاك اليوم كان الربُّ رحيمًا بى، فلم يقتحم علىَّ خلوتى أحدٌ، إلا الشَّمَّاس الذى مَرَّ بى بعد الظهر، ليخبرنى بأنه فى طريقه لجمع الصبية، فأخبرته بأن اليوم راحة لهم من التدريب على الترتيل. لابد أنه أخبر مرتا بذلك؛ لأنها لم تأت يومها فى الموعد المعتاد.. ساعةَ العصر اعتصرنى اشتياق، فأخبرتُ رئيس الدير بعد صلاة الساعة التاسعة، بضرورة الشروع

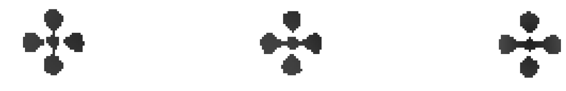
فى زراعة المنحدر بالأعشاب الطبية، إذ الآن أوان غرسها! فبارك الفكرة ونادى على اثنين من خدام الدير، ليساعدانى فى تمهيد الأرض، ولحق بنا الشَّمَّاس وصبىٌّ آخر.. لما رأتنى مرتا مُقبلاً نحو كوخها، أشرق وجهها بنور الحب، وتدحرج قلبى نحوها. من بعيدٍ قالتْ: *مرحبًا يا أبتِ*، ولما انفردنا همستْ: *كنتُ ملهوفة لرؤياك يا هيبا*.

وقف الشَّمَّاس عند بقعةٍ بأعلى الكوخ مستويةٍ كالمصطبة، وصاح بما معناه أنها ممهَّدة تصلح للزرع. أفهمته أننا نحتاج خمسة مواضع بمثل مساحتها، متدرِّجة على طريقة حدائق بابل، فضحك ببلاهة وهو يقول: *وما حدائق البابل هذه؟ لا بد أنها بعيدةٌ جدًا عن هنا!*

صباح اليوم التالى، أرسل صاحب المزرعة الكبيرة الذى كان أول مريضٍ عالجته هنا، اثنين من الزُّراع المحترفين القارِّين فى الأرض، وثلاثةً من العمال. فأصلحوا خلال ثلاثة أيام، الأرض المحيطة بالكوخ، بأن جعلوها على خمس مصاطب كبيرة، مثلما تمنيتُ. شَقُّوا فى وسط كل مصطبة منها مجرى للماء، بآخره مسقطٌ ينـزل منه الماء إلى المجرى الذى تحته.. سوف نأتى بالماء من الخزانات الحجرية التى بطرف الدير الغربى، حيث يتجمع ماء المطر هناك كل شتاء، ويبقى آسنًا إلى الشتاء التالى. وكان ما أنوى زراعته من أعشاب، لن يحتاج على كل حالٍ مياهًا كثيرة.

عصر اليوم الثالث، غرسوا عند حواف المصاطب الخمس شتلات أشجارٍ، من شأن جذورها الكثيفة، أن تحمى الحوافَّ من الانهيار عند سقوط أمطار الشتاء. بعدما انتهوا من عملهم وقت الغروب، صار المنظر بديعًا، وكانت مرتا فرحةً. جاءت نحوى بعدما انصرف العمال والزراع، وقالت وهى تكاد تلمسنى بكتفها: *سوف يبدو كوخنا بين هذه الزروع قصرًا من قصور الجنة*.. لم يكن عندى ما أردُّ به عليها، أما هى فكان لديها ما تقوله لى! نظرتْ إلى عينى بعينيها العسليتين الخضراوين، وقالت كلمةً واحدةً أطاحتْ بعقلى، ثم أسرعت نحو خالتها: *أُحِبُّكَ جدًا يا هيبا*.

ارتقيتُ نحو بوابة الدير محلِّقًا بمحبتى، بل محمولاً على أطراف أجنحة الملائكة. جزتُ الساحة مسرعًا، متحاشيًا لقاء أحدٍ حتى لا أسمع أىَّ كلمة من أىِّ إنسانٍ، بعد ما سمعته منها.. صعدتُ إلى صومعتى ورنَّات قولها أحبك جدًا تجول فى أرجائى. أغمضت عينى على صدى الكلمتين، حتى أحبسهما بداخلى.. أخذنى للنوم خدرٌ جميلٌ، وامتلأت ليلتى بالأحلام الموطَّرة بالأفراح. لم تغب مرتا عن حلم واحدٍ منها. فى الصباح كنتُ شخصًا آخر، غير الذى عرفته فى نفسى طَيلة السنين التى فاتت من عمرى.



كان قد مَرَّ يومان من دون تدريبٍ على الترتيل، وصباح الأربعاء سألنى رئيس الدير عن الموعد المرتقب لبدء الترانيم فى الكنيسة، فلم أتردَّد فى الإجابة: *سنكون جاهزين يا أبتِ، يوم الأحد القادم*.. فأشرق وجهه بابتسامة الرضا.

مَرَّ الشَّمَّاس يومها على مرتا عند نزوله لجمع الصبية، فجاءتْ قبلهم بفترةٍ لم أجد خلالها حرجًا فى أن تنتظرهم معى فى الزاوية البعيدة من المكتبة، فقد كنت أجلس هناك من قبل مجيئها. جاءتْ فى ثوبٍ مخملىٍّ أسود، محلًّى عند الأكمام بشريطٍ من الحرير الأحمر اللامع، يمتد من عند منبت العنق إلى ظاهر كَفَّيها. الشريطُ ذاته يدور مع أطراف الثوب، فيغطى أعلى صدرها، ويوشِّى بلمعانه منبت عنقها. بدتْ كالأميرات اللواتى رأيتهن بأحلامى زمانَ طفولتى، أو كالملائكة التى تحلِّق فى خيالاتى ساعة الصفو.

قبل أن تجلس أمامى، أخبرتنى أنها رأت فى طريقها رئيس الدير وسألته

إن كان رداؤها يصلح للترتيل، فباركها.. أضافت: *والآن، لا يمكن لك أن تعترض على ثوبى، مع أنه يبرز صدرى، ويجعلنى امرأةً جميلةً!*

ـ بهذا الثوب أو بدونه، أنت أجمل امرأة تمشى على الأرض.

ـ كلامك حلوٌ، من أين تأتى بهذا الكلام الذى يُذهب العقل.. ولكن مهلاً، لماذا لم تخبرنى بأنك أمرت رئيس القافلة بأن يهدينى هذه الأثواب. رئيسُ الدير حكى لى بالأمس ما جرى بينكما؟

ـ أنا لم آمره بشئ. قلت له يعطيك ثوبًا، فأعطاك ثلاثة!

ـ زاد الأثواب، لأنه أراد أن يشكرك يا حبيبى بزيادة.

ـ ماذا قلتِ يامرتا؟

ـ يشكرك بزيادة.

ـ لا أقصد هذا.

ـ آه، تقصد: ياحبيبى.. يا حبيبى، يا حبيبى.

التقت عينانا فى عناقٍ حارٍّ، غبتُ خلاله عن كل ما حولى، وأظنها أيضًا كانت غائبة. لم نشعر بمرور الوقت مع التحام النظرات الولهى. فبقينا ساكنين، غارقَيْن فيما نحن فيه، حتى انتزعنا من أفق العشق، صخبُ الصبية القادمين والشماس.. قمنا من فورنا إلى التدريب، كان يومها بالمكتبة لا الكنيسة.

امتد وقت الترتيل على أفضل ما يكون، كانت نظراتنا تلتقى من حيث لا يشعر بنا الصبية، ولا الشَّمَّاس الجالس على الطاولة يهزُّ رأسه مع النغمات، غير أننى لاحظت يومها اضطرابًا فى ترنُّم مرتا بالكلمات الممدودة بالنغمات الطويلة. بعدما انصرف الصبيةُ سألتها عن سِرِّ اضطراب قلبها وصوتها، بقصد مداعبتها، فقالت جادةً إنها تشكو من صدرها، وإنها كانت تسعل الليالى الماضية سعالاً حادًّا. أقلقنى كلامها. قمتُ من فورى، فأحضرتُ من البزور، ما من شأنه أن يهدئ السعال ويُريح الأنفاس، وقد أدركتُ أن دخان الفرن هو السبب فى تهيُّج صدرها. لما عدتُ بالبزور ومددتها لها، مدَّت يديها لتأخذها، وأطبقت بكَّفيها على كفىّ. كانت المرة الأولى التى نتلامس فيها، وقد كادت روحى تنسحب منى لحظتها، مع لمستها. كنت واقفًا قبالتها، وهى جالسة فى الموضع التى جلست فيه خالتها، يوم جاءتا إلىَّ أول مرة.

ـ ألن تسمع صدرى يا هيبا؟

فهمتُ إشارتها.. كانت تريد أن أضع أذنى على ظهرها، مثلما فعلت مع خالتها من قبل! تردَّدت قليلاً، ثم جلستُ بجوارها، ووقفتْ هى أمامى، واستدارت عائدةً للوراء خطوتين، حتى كادت ركبتاى تلامسان باطن ركبتيها. لم أفكِّر ساعتها فى أن أحد الرهبان أو المرضى قد يدخل علينا من الباب المفتوح، أو أن رئيس الدير قد يأتى لزيارتى كعادته. لم أفكر فى أى شئ، سواها. وشجَّعنى أننى لم أسمع لحظتها وقع خطوات على الحصى المتناثر بساحة الدير. كان السكونُ تامًا، وكان اشتياقى جارفًا. ملتُ بأذنى على ظهرها، لأسمع نبضها، فأعرف سبب ما بصدرها من حشرجة.. لم يكن بصدرها شئ، سمعتُ فقط دقات قلبها متتابعةً، عالية. شعرتُ أنها تنادينى. أطلتُ استماعى مستمتعًا بملمس الثوب المخملى الملتصق بجسمها، وبجانب وجهى.. ومن دون تدبير، وضعتُ يدىَّ على طرفى خصرها. جذبتها برفق نحوى، فمالت حتى لمست مؤخرتها صدرى. وَضَعَتْ هى باطن كفَّيها على ظاهر كَّفىَّ، وأخذتهما ليلتقيا عند سُرَّتها. ضغطتْ على يدى، فضغطتُ على بطنها.. ارتفعتُ بيدَىَّ وقد غطَّتهما يداها، حتى لمستُ صدرها بباطن كـفَّىَّ. عصرتْ بيديها يدىَّ، فعصرتُ ما تحتهما.. لحظتها، اندفقتْ أنهارى الكامنة كمثل شلالٍ آتٍ

من أزمنةٍ سحيقة، ليروى أرضًا تشقَّقتْ جفافًا عشرين عامًا. ارتجفت مرتا تلك الرجفة التى عاينتها قبل عشرين عامًا، فى قبو النبيذ. لكن ارتجافة مرتا كانت أحلى، وأدلَّ على الارتواء.

استدارت نحوى بوجهها وهى لم تزل، بَعْدُ، بين ذراعىَّ المحيطين بها. وهبتنى قبلةً ناعمة على خَدِّى، وانفلتتْ مسرعةً نحو الباب.. وبقيتُ جالسًا وسط ذهولى، حتى مضى وقتٌ طويلٌ تمدَّدتُ بعده على الدكة الكبيرة، ورحتُ فى نومٍ عميقٍ، أحلى من النوم المعتاد.

الرَّقُّ الخامسُ والعشرون

الحنيــنُ

صحوتُ فجر اليوم التالى، فوجدتنى أحتضنُ واحدةً من الوسائد الخشنة التى فوق الدِّكة. قمتُ من موضعى، كمن يُبعث بعد دهور.. أغمضتُ عينى على صورة احتضانى لمرتا، فعاودتنى النشوة التى كانت فى اليوم السابق! مع انتشار ضوء الشمس الكسلى، جاء المزارعُ المختص بغرس البذور. كان معه ثلاثةٌ من العمال العارفين بالزراعة. صحبتهم إلى الحدائق المعلقة المحيطة بكوخ مرتا، ولمحتها مرتين أثناء الغرس وتهيئة التربة. لما انتهينا، ساعة العصر، أرسلتُ الشَّمَّاس ليأتى بالأطفال، ومررتُ على مرتا لأدعوها للتدريب الأخير، فقد كان أمامنا يومان على بدء الترتيل فى القُدَّاس، يومان فقط..

لحقت بى مرتا من دون توانٍ، وجلست فى مكانها المعتاد بالمكتبة، وجهى إليها ووجهها نحو الباب. شعرتُ بها قريبة الموضع مِنِّى، فلم يكن يفصلنا إلا مقدار ما أمدُّ ذراعى نحوها وتمد ذراعها، فتتماسُّ أناملنا، وقد نلتحم، فيندفق فينا نورٌ واحد، يلفُّنا حتى نغيب عن كل العوالم. ساعتها تماوج قلبى وغاب عقلى، ولولا بقيةٌ من وجلٍ لتعجَّلت الأجل، وأطلقت

روحى من سجن البدن لتحلِّق فى العوالم السرمدية، ولاتعود أبدًا لهذا الجسد الفانى وتوقه المعذِّب.

التفتتْ مرتا نحوى، فأطلَّت شمسُ وجهها كاملةً.. أزاحتْ عن رأسها طرحتها السوداء الشفَّافة، فانساب شعرُها على جانبى وجهها، وازدادت بهاءً. كنت أرقبها فى صمتٍ، هائمًا، حتى فاجأنى قولها:

ـ هيبا، ألا تشتاق إلى بلادك.. التى كان فيها مولدك؟

ـ لماذا تسألين؟

لم تستدر نحوى إلا بمقدار حركةٍ واحدة من كتفها اليُمنى، فكان ذلك كافيًا لأن تقع عيناى البائستان على عنقها السامق نحو خدودها الملكية. لابد أنها انحدرت من سلالةٍ ملكيةٍ غابرةٍ، فقدت سلطانها مع تقلُّبات الزمان، وبقيت ملامحها متوارثة فى الأحفاد. خايل شفتيها التبسُّمُ الملائكىُّ، وهى تقول:

ـ هل تجيب عن سؤالى، بسؤال؟

ـ ليس سؤالاً واحدًا يامرتا، عندى لك أسئلةٌ كثيرة.

ـ اسألنى عن أى شئ، وسوف أجيبك، يا مولاى.

لم أستطع منع ابتسامتى، فاتسعتْ ابتسامتها، واشتدَّتْ توهُّجاتُ الروح فى عينيها. التفتتْ ناحيتى بكُلِّها، فالتصق نظرى بصدرها. لم أستطع تحويل عينى عن الموضع الذى أودُّ أن أميل برأسى عليه، ولم تنزعج هى من ثبات نظرتى على الموضع المحرَّم. لعلها أرادتْ أن تبيح لى هذا الحرَم، لتُهدِّئ الأحزان التى تستبد بروحى منذ سنين، وتُنهى زمن الحرمان.. آه لو مِلْت برأسى يومها على صدرها. كان يجب أن أجثو أمامها، أضع رأسى بين نهديها، وتضمُّنى إليها، فأخبو فيها وأموت.

ـ ألن تسألنى؟

أيقظنى سؤالها، فرفعتُ عينى عن صدرها المخبوء، فعرجتُ إلى عنقها، إلى خديها، إلى أنفها الدقيق كزهرةٍ مضمومة، إلى بحر العسل الجبلى الذائب فى عينيها.. كنتُ هائمًا، فاستمسكتُ بالكلمات:

ـ مارتا، حدِّثينى عن عائلتك.

ـ هذا حديثٌ طويل!

قالت ذلك، وقد كادت ابتسامتها تصير ضحكًا. عادت بكتفيها قليلاً للوراء، فصارت أشهى، ثم راحت تقصُّ علىَّ القصص. حَكَتْ وقائع كثيرة لا رابط بينها، عن جدتها التى كانت لا تمل الحكى عن مدينة تدمر التى دُمِّرت، والجدَّة بَعْدُ طفلةٌ! وعن أبيها الذى كان حدَّادًا ببلدة دمشق مشهورًا هناك بإتقانه صُنْع السيوف الفاخرة، التى يصنعها من الحديد الدمشقىِّ المعروف بجودته.. ولسببٍ ما لم تصرِّح هى به، أو لعلها لم تكن تعرفه، ارتحل أبوها إلى حلب، فلم يتقَّبله الحلبيون، وظَلَّ هناك أعوامًا يسعى لدخول الديانة، ويجتهد فى الالتحاق بالأبرشية لخدمتها. لكنهم كانوا يرفضون؛ لأن زوجته، أمها، كانت امرأةً وثنيةً متدينة، وقد شوهدت مرةً توقد الشموع، خلسةً، فى أطلال المعبد المهجور الذى على جانب الطريق المؤدِّى إلى حلب. كان يتعيَّن على أبيها أن يبقى تحت عين الشمامسة والقسوس خمس سنوات، ليوافق المطران على دخوله حظيرة الرب. فلم يصبر الأب، ورحل بأسرته إلى.. تلك القرية الصغيرة النائمة على خدِّ الطريق الممتد من حلب إلى أنطاكية: سرمدة. وهناك كان مولدها ل تسع عشرة سنة أو عشرين، من سنين هذا الزمان.

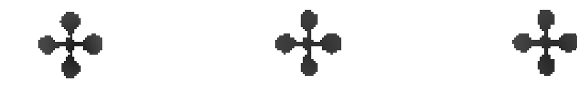
ـ إذن، عاش أبوك وثنيًا؟

ـ لم نعرف له دينًا، حتى وفاته. مات مبكرًا، فى بداية الأربعين من عمره، لكنه على كل حال، كان يريد أن يكون مسيحيًا.

ـ وهل مات مسيحيًا؟

ـ مات مقتولاً.

انحدرت منها دمعتان، فانحدر قلبى نحوها. كدتُ أقوم لأضمَّها لصدرى مثلما جرى فى خيالى، أو أحيط وجهها بكفَّىَّ مثلما كنتُ أفعل مع حمام عَمِّى الأبيض.. وهل كانت مارتا إلا حمامة بيضاء هبطت إلى هذا العالم، من فوق السحاب؟ لماذا لم أضمها يومها؟ لقد كانت معذبةً تبكى أباها، تبكى نفسها، تبكى خراب العالم.



سألتها فى اليوم التالى عن زوجها، فانهمرت من عينيها دموعٌ كثيرة وهى تحكى أنها كانت فى التاسعة من عمرها، يوم لقى أبوها مصرعه بعد خلافه مع جماعة من قُطَّاع الطريق، كان يصنع لهم السيوف. بعد وفاة أبيها بشهرين، أخبرتها أمها أنها ستزوِّجها، فلم تفهم من كلمة الزواج، أكثر من أن رجلاً سوف يعيش معهم. كان الزوج قد عبر الخمسين من عمره، وكان أفَّاقًا يتاجر فى السيوف وعُدَّة الحرب، يجمعها من الصُنَّاع فى المدن الكبيرة، ويسافر بها إلى بلادٍ بعيدةٍ فى الشرق، فيبيعها إلى جماعة من المحاربين اسمهم الشنكارة.. هكذا قالت!

ـ تقصدين الشوانكاراه؟

ـ لا أعرف بالضبط، فقد كنتُ صغيرة جدًا.

ـ إنهم جماعةٌ من الأكراد، يسكنون، على حدود دولة الفرس. واسمهم مشتقٌ من كلمة الرعاة، التى تُنطق باللغة الكردية: شوانكاراه.

ـ كيف تعرف هذه الأشياء كلها؟

ـ لأننى عالجتُ رجلاً منهم، ولأننى رجلٌ هَرِمٌ يكبرك بعشرين عامًا!

ـ لا ياحبيبى. بل أنت طفلى الصغير، المحبوب.

قامت من فورها، فقبَّلتنى، وانفلتت. كدتُ أحيطها بذراعىَّ لولا أنها عادت بسرعة إلى مكانها، وهى تنظر حذرةً ناحية الباب.. اعتدلتُ فى جلستى، وطلبت منها أن تخبرنى بما جرى مع هذا الزوج الذى كان يكبرها بأربعين سنة! قالت إنه لم يكن زوجًا بالمعنى المعروف، وإنها ظلت عامين معه، لا تعرف معنى الزوجية. حتى كانت ظهيرة ذاك اليوم اللاهب من أيام الصيف. يومها كانت تلعب مع أطفال الجيران خلف البيت، فنادتها إحدى الجارات، وأخذتها من يدها إلى زوجها. لم تكن أمها بالبيت، كان وحده يجلس على الأرض وظهره للحائط، ولم يكن على جسمه الضخم، إلا جلبابٌ قصيرٌ منحسرٌ عن ساقيه اللتين يغطيهما، كما قالت متقزِّزةً، الشَّعْرُ الخشنُ.

امتزج صوتها بألم دفين وهى تُكمل: *وقفتْ بى الجارةُ العجوز على باب الحجرة، مُبتهجةً لأمرٍ لا أدركه! ثم اغترفتْ بقدحٍ نحاسىٍّ قديمٍ من إناء الماء المجاور للباب، فصَّبت بعضًا منه فى كفها، ومسحت وجهى، ثم فكَّت ضفائرى، وبللت بالماء شعرى.. وكان هو يبتسم للجارة التى أخذت تشدُّنى نحوه حتى ألقتنى فى حِجْره، فكنتُ مثل عصفور وقع على فخذ ماردٍ. لما خرجت العجوزُ ضَمَّنى إليه حتى شعرت بأضلعى تتكسَّر بين ذراعيه، ثم أخذ يتحسَّس ثناياى بيده الخشنة. لم يكن بجسمى آنذاك ثنياتٌ كثيرة، فأخذ يعتصر إبطى بأصابعه، ثم مَرَّ بها على صدرى الذى كان بالكاد قد نَهَدَ. كنتُ مستسلمةً، وخائفةً، وملتاعةً لغياب أمى عن البيت.. عَرَّانى*

تمامًا، ومدَّدنى على فخذيه العاريين من دون أن يخلع جلبابه، وراح يمر بباطن كَفِّه اليمنى على بطنى، وساقَىَّ. انتابنى إحساسٌ غريب لم أعرفه، فأغمضتُ عينى واستسلمت له. فجأة، دَبَّ إصبعه فىَّ، فانفجر منى دَمٌ. صرختُ، وقمتُ هاربة إلى الباب، فقام ورائى وأمسكنى من شعرى بيده الملطخة بدمى. ظللتُ أصرخُ بين يديه، حتى ألقانى بقوة فى ركن الغرفة، فانكمشتُ هناك ورأسى بين ركبتَىَّ. وعلى هذه الحالة نمت، أو أخذتنى غيبوبة لم أفق منها، إلا حين جاءت أمى، وأخذتنى فى حضنها.

- يكفى هذا يا مارتا، يكفى هذا.

- بل سأحكى لك كل شئ، كى تعرف كم ظلمتنى الأيامُ.

حكايةُ مرتا هَدَّت أركانى، خاصةً بعدما عرفتُ منها أن زوجها لم يكن، على الرغم من ضخامة بدنه، يعاشر النساء! وأنه كان يتلهَّى بها حين يرجع من أسفاره، كلما سنحت له الفرصة.. عندما بلغت الخامسة عشرة ماتت أمها، ومنعها زوجها من الخروج من البيت. كان يغيب فى تجارته أسابيع، ويعود ليجد ألعوبته فى انتظاره.

سالت منها دموعٌ بللَّت صدرية ثوبها، لكنها أصرَّت يومها على حكاية المزيد. ربما لتتخلَّص مما يجثم على صدرها، أو لأنها أرادت تعريفى بمعاناتها، أو لعلها أحبَّت أن تشرك غيرها فيما تخفيه هيئتها الملائكية. قالت بعدما مسحت خَدَّيها: *كانت شفتاه الغليظتان تنفرجان بارتياح وبلاهة، حين أُسرع إليه بإناء الماء، لأغسل قدميه المؤطَّرتين من أسفلهما بقَشَفٍ قاسٍ. كانت تلك نصيحة أمى، وكانت تلك عادتى معه كلما دخل البيت وارتمى، متصنِّعًا الإرهاق، على الدكة المبنية من الطين فى مدخل بيتنا الصغير المكوَّن من غرفتين. بعد أسابيع من اعتياده على فركى لقدميه بالماء، صار يأمرنى أن أطيل الفرك حتى ينام! كان ينامُ جالسًا، ويعلو شخيره.. بعد أسابيع من اعتياده النوم على هذا النحو، صار يأمرنى أن أغلق الباب الخارجى وأعود لجلستى، ويظل يعبث بأصابع قدمه اليمنى فى نهداى، حتى يأخذه النوم.. وبعد أسابيع من عبثه المقيت بصدرى، جاء يومٌ أمرنى فيه بأن أتجرَّد من ملابسى وأعود للجلوس تحت قدميه. كان يعبث بإحدى قدميه فى ثنايا جسمى العارى، بينما أفركُ بيدى قدمه الأخرى.. ظهيرةَ يوم شديد الحرارة كنتُ أنشِّفُ قدميه، حين دَسَّ إصبع قدمه اليمنى فى فمى، وأمرنى أن أمصَّه! رفضتُ، فدفعنى غاضبًا بباطن قدمه اليسرى. ألقتنى دفعته العتيَّة على ظهرى، فتمدَّدتُ على الأرض. قَهْقه منتشيًا بصرختى الخافتة، وبعريى الصارخ الممدَّد تحته.. قام فوقف فبدا لى لحظتها، كصخرةٍ توشك أن تسقط علىَّ من فوق جبلٍ عال. وددت يومها لو يلقى عنه ملابسه ويقع علىَّ، فيضاجعنى بقوةٍ حتى أموت تحته وأستريح منه. لم يفعل ما تمنيته، وإنما وضع باطن قدمه اليسرى أسفل بطنى العارى، وراح يفرك.. ويضحك.*

- إننى أشعر الآن بكعبه يسحقنى.

- هوِّنى عليك يا مرتا، واشكرى الرب أن خلَّصك من ذاك الرجل غير الصالح.

سكتت برهةً وهى تنظر فى اتجاه ركبتها اليسرى. راحت بخيالها نحو ذكرياتٍ بعيدةٍ، مؤلمة، ورحتُ أنظر بحنوٍ إلى خدَّيها وأهداب رموشها الطويلة. لما انسال من عينيها خطَّان جديدان من الدمع، واكتسى خَدَّاها بحمرة خفيفة، صار لوجهها سمتٌ بتولىٌّ يُذهب بصفائه العقل، ويعصر القلب. وددت لو أضمُّها، لكنى تردَّدتُ، ثم استسلمتُ لتردُّدى. آه لو أننى يومها قمتُ، فمسحتُ خديها الناعمين بباطن كفى، ثم ضممتُ صدرها لصدرى، ومسحت بيدى على شعرها وأغمضتُ عينى، ورحتُ أتنفسُ الهواءَ المُطَيَّبَ بنسيم باطنها.. كانت ستميلُ إلى صدرى برأسها،

فأُحيطها بذراعيَّ حتى أدخلها فيَّ، ونسكنُ.. نثبتُ.. نصير تمثالاً من الرخام الأبيض، تكون فيه آياتٌ للناس.

لماذا لَمْ أحتضنها يومها؟ وبقيتُ ساكنًا لا أفعل شيئًا، حتى أكملت هى، وقد صار كلامها همسًا، أو كان مثل الهمس.. قالت: *كنتُ أتقلَّى على الأرض من تحته، وأصرخُ، ولما رفع قدمه عنى هربتُ من تحته نحو الباب، ففتحته وجريتُ فزعةً فى شوارع القرية، فزعةً وعاريةً. كانت صرخاتى تملأ الطرقات، وكانت الناسُ تنظر. أخذتنى امرأةٌ إلى داخل بيتها، فسترتُ عريى بجلباب قديم. فى المساء اجتمع الناسُ، وجاء هو سكرانَ يترنَّح ببدنه الضخم. طَلَّقنى لأننى لا أُنجب! وطردنى من منـزلنا. لم يعد لى مكانٌ أعيش فيه، فذهبتُ إلى خالتى هذه فى بيتها القديم ببلدة حلب، فأمضيتُ هناك الأعوام الثلاثة الماضية، وهناك تعلَّمتُ الغناء. ولما ضاقت بنا المعيشة، وكثرت بى التحرُّشَات، تركنا بيت خالتى المتهالك، وجئتُ معها لنعيش هنا.. بجوارك.*

- جفِّفى دموعك يا مرتا، وقومى إلى بيتك قبل مجيئ الصِّبية، فإنهم على وشك الوصول.

- هل ستأتى إلىَّ، بعد أن تفرغ منهم.

- نعم، سآتى قبل الغروب لأراكِ عند الكوخ، وسآتى ثانيةً غدًا بعد الشروق. لن يمر بعد اليوم يومٌ، من دون أن أراك.

لا أعرف كيف واتتنى الجرأة على لفظ العبارة الأخيرة. غير أنها سعدتْ بكلامى، فسعدتُ بابتسامتها ونظرتها الحالمة. قامت لتهندم غطاء رأسها على عجل، وترحل على عجل. عند الباب التفتتْ نحوى، وبقيت مشدوهًا.

- سأكون فى انتظارك، لا تتأخر يا هيبا.

نطقت باسمى، كأنها الملاك الذى سيوقظنى يوم الدينونة من موتى، كى أفيق من نومى وأذوب فى النور الإلهى. عند الباب، أحكمت غطاء رأسها، وأسدلت على خَدَّيها الحجاب الحريريَّ الشفَّاف، ثم ألقتْ بطَرَفه الأيسر على كتفها اليُمنى. عادت ناحيتى خطوتين، لتقول بعتابٍ هامس: *سألتُك، فلم تُجبنى عن أىِّ شيء؛ وسألتنى، فأخبرتك بكل الأشياء.*

- سوف أخبرك اليوم، بكل ما تودِّين معرفته..

لما توارت عنى، قمتُ من فورى لأرقبها من الشقِّ المتعرج الذى فى الجدار، ثم من الكوة التى بين الخزائن الخشبية، ثم من نافذتى الوحيدة. رأيتها تصل إلى بوابة الدير، وتنحرف يمينًا لتهبط التلة، غابت عن ناظرى شيئًا فشيئًا: قدماها.. وسطها.. رأسها.. لما غابت عنى تمامًا، غبتُ عنى تمامًا. أخذتنى أُمنياتٌ مستحيلةٌ. وحين انتبهتُ، ورأسى مستندٌ للجدار، حدَّثت نفسى طويلاً لأُثنيها عما تشتاق إليه، وأقلع جذور التوق من قلبى. تمنيتُ أن أموت على حالى هذه، فجأة، فأخلُص من حيرتى.

مالت الشمسُ، وسمعتُ صوت الصبية القادمين، فتهيَّأتُ لاستقبالهم، ولم أُطل فى تدريبهم. لما انتهيتُ منهم أخبرتهم أنه يوم التدريب الأخير، ولسوف نلتقى فى الكنيسة صبيحة أيام الآحاد، ابتداءً من بعد غَدٍ.. خرجتُ معهم إلى سفح التلة، وطلبتُ من الشَّمَّاس أن يعود لى، بعدما يوصلهم، عند الحقل الذى حول الكوخ.

كانت مرتا تنتظرنى عند الباب فى ملابس منـزلية فاتنة، لم تكن ملابسها غير واحدة من تلك الجلابيب التى تلبسها النساء فى هذه النواحى، لكنها كانت فاتنة. استقبلتنى عند مدخل الكوخ، ودعتنى للدخول، وأكَّدت خالتها دعوتها، فدخلتُ. قدَّمت لنا الخالة مشروبًا باردًا، لا أتذكر الآن ماذا كان. لكننى أذكر أنه كان طيب المذاق، وأننى كنتُ أرتشف منه، بينما

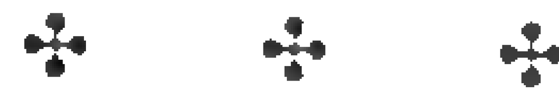
تنهل عيناى من بحر العسل المنسكب منذ الأزل، فى أحداق مرتا الفاتنة، الجالسة أمامى على الأرض وقد كشفتْ فتحةُ صدر جلبابها، عن انضمامة نهديها.. التصقتْ عيناى، فلم أستطع لهما حِوَلاً حتى انتبهتْ مرتا إلى ذهولى، فضَمَّتْ فتحة صدرها بكلتا يديها، باسمةً، وناظرةً بدلالٍ نحوى، وهى تعضُّ بأسنانها العليا شفتها السفلى.

دارت عينى فى الكوخ. هو غرفةٌ واحدةٌ جوانبها الخشبية غير محكمة البنيان، ملحقٌ بها غرفةٌ أصغر من دون باب، أظنها لقضاء الحاجات. أمام الباب مساحةٌ صغيرة من الأرض المستوية، على جانبها الفرنُ الذى أعمروه مؤخرًا، كان مايزال يتصاعد منه دخانٌ قليل. بجوار الفرن غرفةٌ صغيرة، حوائطها من الطوبِ القديم، ومن غير باب. كانت مرتا تنظر نحوى باسمةً هانئة، وكانت خالتها تُخرج قِدْرًا صغيرًا من الفرن الذى أوشكت ناره على الخمود، وفاحت منه رائحة طبخٍ شهى.

ـ سأذهبُ إلى الجنود بالطعام!

لما قالت الخالة العجوز ذلك، قامت مرتا من فورها، فأخذتْ من زاوية الكوخ سلةً من جريد النخل، ووضعت فيها آنية الطبيخ الفوَّاح مستعينةً بخرقةٍ بالية، ومضت خالتها بالآنية بعدما استأذنتْ منى.. دون أن أسألها، أجابت مرتا على ماكان يدور برأسى: أفرادُ الحامية الرومانية، الحرَّاسُ الذين تسميهم خالتها الجنود، اتفقوا معها بالأمس على أن تطبخ لهم كل يومين وجبةً ساخنةً، يأتون لأخذها أو تأخذها إليهم الخالة قبيل الغروب! هُم يبعثون باللحم والخضروات وأجر الطبخ فى الصباح، ليهنأوا بالوجبة فى المساء.. إذ أنهم حسبما قالت مرتا لايعجبهم الطعام الذى يأتيهم من مطبخ الدير كل يوم!

حين نزلت الخالة بالسلَّة، كنت جالسًا على السرير القصير المترنِّح، أستمع لمرتا وهى تخبرنى بخبر الطبيخ الذى كنتُ غير مهتمٍّ به. سألتنى إن كنتُ جائعًا، فهززتُ رأسى نفيًا وعيناى معلقتان بها. أدركتْ مرتا اشتياقى لها، فأتت نحوى باسمة.. اقتربتْ من دون أن تقول شيئًا، حتى كاد صدرها يلامس وجهى. لما أحاطت بكفيها رأسى لتميلها إلى صدرها، انتشيتُ. ضممتها بقوة وأنا بعدُ جالسٌ، فتأوَّهتْ فى أذنى. رفعتُ عن ساقيها ثوبها، بكلتا يدىَّ، فأسدلت هى الثوبَ من عند كتفيها، بكلتا يديها. وقفتْ مرتا أمامى عاريةً تمامًا، ونثرت بأناملها شعرها، فانخطف قلبى من سطوة الجمال.. ألقيتُ عنى ثوبى، وكان بيننا ما يكون بين الرجل والمرأة، حين يطرحان رداء الحياء.



جلسنا متجاورين من دون أن نتكلم. وبعد حينٍ، جاءت خالتها مناديةً عليها من خارج الكوخ، وكأنها تثير انتباهنا لمجيئها. لم تجفل مرتا مثلما جَفَلْتُ! ارتديتُ ثيابى بسرعة، واقتربتُ من الباب ولهاثى متتابعٌ. لحقت بى مرتا بعدما ألقت فوقها رداءها، واحتضنتنى من خلفى بتحنانٍ جارف.. خرجنا معًا من باب الكوخ، وكانت خالتها تضع مقعدًا صغيرًا بلا قوائم، أمام النول. سألتها مرتا:

ـ هل كانوا كلهم هناك؟

ـ نعم، وسألونى عنك.

لما جلستْ الخالةُ أمام النول، خرجنا من أمام الكوخ؛ لنجلس عند طرف الأرض المزروعة، حيث نطلُّ على الأفق الغربى الممتد أمامنا، ولا يطلُّ أحدٌ علينا.. كان المساءُ قد ابتدأ هبوطه، وكانت مرتا تترنم بأغنية هامسة فيها استعطافٌ للحبيب. نسمات المغيب، كانت ساعتها لطيفةً. لما جلسنا على الأحجار المتناثرة عند حافة المنحدر، اقتربت مرتا منى،

وسألتنى عن بلادى الأولى، فأخبرتها بطرف مما جرى معى هناك.. بعد لحظة صمتٍ، تنهّدت، وسألتنى عن البيت الذى كنتُ أسكنه؟ فقلتُ إنه لابد قائمٌ فى موضعه القديم فوق الربوة المشرفة على النيل، ولابد أنه الآن مغلقٌ وخربٌ، فالمنازل تزوى بعد هجران الآهلين.. غمرتنى مرتا بنظرةٍ تفيض حُنوًا ومحبةً، وسألتنى بعدما وضعت يدها على كتفى:

- هل الطريق إلى مصر طويل؟.. كم يستغرق الوصول إلى هناك؟
- لو ركبنا البحر، ثم أبحرنا فى النيل، قد نصل بعد شهر.
- هيا.. تعال لنعمر البيت، ونعيش هناك بقية عمرنا معًا، ونأخذ خالتى معنا فتُعنى بأطفالنا، وأفرغُ أنا للعناية بك.
- كيف يمكنُ ذلك؟
- نتزّوج.. وتكون إن شئتَ كاهنًا لكنيسةٍ هناك، وأنت على كل حال طبيبٌ ماهر، وتستطيع أن تكسب الكثير من عملك. سنعيش معًا أحلى الأيام، ويكون لنا أطفالٌ وبيتٌ جميل.

كانت مرتا معذورةً، فهى لاتعرف أىَّ شئ.. لاتعرف أننى لن أستطيع العيش بين أهل بلدتى الأولى! الأطفال الذين عيَّرونى قديماً بما فعلت أمى، قد صاروا اليوم رجالاً. سيعيِّروننى بنظراتهم! وهى لا تعرف أننى لن أستطيع العودة إلى نجع حمادى فلابد أن عمى المريض قد مات الآن، وربما ماتت أيضًا زوجته النوبية. ولا مكان لى هناك، ولا حاجة لهم بطبى!

- هذا الأمر يحتاج إلى تفكيرٍ عميقٍ يا مرتا.
- لاتفكِّر وحدك، دعنا نفكِّر معًا فى حياتنا الآتية. سأكون مخلصةً لك طول العمر، وأُمًا لأطفالك، ولسوف..

سمعنا صوت الشَّمَّاس يحادث الخالة العجوز وهو مقبلٌ نحونا يحثُّ الخطى، فانقطع بيننا خيط الكلام. قامت مرتا من جانبى، وجلست على الأرض، ولما وصل إلينا الشَّمَّاس قُمنا.. مررنا بين شتلات الأعشاب صاعدين إلى بوابة الدير، وهناك فارقتنا مرتا، ونزلت إلى كوخها، دون أن تسنح لى الفرصة للنظر نحوها. كان الشَّمَّاس جائعًا، فمضيتُ معه إلى صالة الطعام، وساعدنا خُدَّام المطبخ فى إعداد المائدة، وسط تمتمات شكرٍ منهم. كنتُ أيضًا جائعًا. أكل الشَّمَّاس بسرعة، ثم قام من ركن القاعة قاصدًا غرفته لينام. هذا ما قاله لى! وكان علىَّ بالطبع، أن أنتظر وصول الجميع.. تقاطر الرهبانُ كسلاحف تعرف بالكاد طريقها، وبعد حينٍ دخل رئيس الدير وحوله ثلاثة رهبان، وعند دخوله صاح بأسى، على غير عادته:

- مساؤكم مباركٌ يا أبناء يسوع.. اقتربوا لنبدأ الصلاة.

قرأ رئيسُ الدير صلوات المساء، فلم أنتبه من استغراقى فيما جرى مع مرتا، إلا حين قال الجمعُ وراءه بصوت واحد: آمين.. سألتُ نفسى ساعتها: أترانا نردِّد فى كل صلواتنا، اسم الإله المصرى القديم، آمون، مازجين فى اسمه بين الواو والياء؟.. وسألتُ نفسى: لماذا تعود إلى مصر دومًا أصولُ الأشياء كلها، لا أصول الديانة فحسب؟.. وسألتُ: لماذا لا أعود إلى بلادى الأولى للعيش هناك، ما دمتُ لم أعد صالحًا لحياة الرهبنة!

اعترانى حنينٌ مفاجئٌ إلى النيل الممتد كذراع الإله فى الأرض، وكأن دلتاه كَفُّه وأصابعه. تذكرتُ المركب الشراعى التى حملتنى على صفحته، وهجوع النجوع والقرى على ضفتيه، وميل فروع الشجر إلى حافته، والخضرة الممتدة بالحقول إلى نهاية البصر، وهياج العصافير بالأهازيج

ساعة الفجر وعند الغروب.. آه يا مصر البعيدة. كادت دمعةٌ تفرُّ من عينى، وكاد الحنينُ يأخذنى ممن حولى.. بعد العشاء المفعم بهمهمات الرهبان، استعد الجميع للعودة إلى صوامعهم. عند خروجنا، أشار إلىَّ رئيس الدير كى أقترب منه، ففهم الآخرون أنه يريد الانفراد بى. حَثُّوا خطاهم نحو الكنيسة، فسبقونا بمسافةٍ تسمح بانفرادنا:

ـ أراك الليلة شاردًا يا هيبا؟

ـ إننى مشغولُ البال يا أبتِ، أشعُر بالحنين يجرفنى.

ـ هذا يا ولدى قلق الروح، يثورُ ثم يهدأ.

ـ لم أعد يا أبتِ أطيق هذا القلق الدائم، فحياتى لاتهدأ بمكانٍ، ولاتستقرُّ على حال.

ـ أنت قَلِقٌ مما يحدث فى القسطنطينية؟

ـ وما الذى يحدث فى القسطنطينية يا أبتِ؟.. هل وقع مكروهٌ للأسقف نسطور؟

ـ لا يا ولدى، ليس بعد. وبمشيئة الرب ستهدأ الأمورُ، ولن يصيبه أىُّ مكروه، بمشيئة الربِّ؟

ـ يا أبتِ، لقد زدتَ من قلقى.. فما الذى يجرى؟

ـ لقد وافق الإمبراطور على طلب كِيرُلُّس عقد اجتماع لرؤساء الكنائس فى العالم، للنظر فى عقيدة الأسقف نسطور. وسوف يُعقد الاجتماع قريبًا فى مدينة إفسوس.

أطرق رئيسُ الدير وراحَ يتمتم بدعاءٍ، وقد أسند جانب وجهه إلى أعلى عصاه. رأيتُ الهَمَّ يجلِّله، ولا رغبة له فى المزيد من الكلام.. تائهًا، سرتُ خطوتين مبتعدًا عنه. ثم انتبهتُ لأمرٍ، فعدت إليه لأقول بلسانٍ مضطرب، وذهنٍ شارد:

ـ يا أبتِ، هل نبدأ الترتيل فى قُدَّاس الأحد، بعد غدٍ.. أم يجب..

ـ لا يا هيبا، علينا تأجيل هذا الأمر، فالوقتُ لم يعد مناسبًا لذلك.

قال رئيسُ الدير ذلك، من دون أن يرفع رأسه، أو ينظر نحوى.. فمضيتُ عنه إلى تيهٍ سحيق.

الرَّقُّ السادس والعشرون

وُقوعُ المحَظُورِ

لم أرَ مرتا يوم السبت بطوله، كنتُ مشغولاً بخادم المطبخ الذى أجريتُ له فى الصباح الباكر جراحةً تحت إبطه، لبطِّ خُرَّاجٍ كبيرٍ كنت أداويه فى الأيام السابقة بالمرهم الأسود المشهور، وكان أوان فتحه قد حان. ظننتُ أولاً أنها جراحةٌ بسيطة، لن تطول؛ لكنى وجدتُ الرجل ضعيفَ البنيان والصديدَ توغَّلَ إلى صدره. نزف كثيرًا، حتى كاد يهلك بين يدىَّ؛ لولا رحمة الرَّبِّ. بقيتُ طيلة النهار أسوسُ جرحه، حتى أخرجتُ منه كُلَّ القيح، وضمَّدته بمضادات القروح.. لما نزلت من صومعتى، بعد اغتسالى، كانت الشمس قد غابت. وكان من غير اللائق، أن أمرَّ على مرتا فى كوخها، بعد الغروب.

فى صلاة التسبحة، كنتُ مستغرقًا بين الوجد والترقُّب وحالات التماوج الباطنى.. لما خرجنا من الكنيسة، كان الراهبُ الفرِّيسى يسير بجانبى، بخطى متثاقلة. فى وسط الساحة الصغيرة، سألته إن كان يودَّ المجيئ معى إلى المكتبة، فوافق من دون حماس. بينما كنتُ أفتح أمامه الباب، سألته إن كان يعرف مزيدًا من أخبار المجمع المقدس المنتظر انعقادُه، فقال باقتضاب إن الأسقف كِيرُلُّس وصل إلى بلدة إفسوس، ومعه الراهبُ الأخميمى الشهير، شنودة رئيس المتوحِّدين؛ على رأس وفدٍ مصرىٍّ كبير، فيه قسوسٌ ورهبانٌ سكندريون، ومؤمنون كثيرون. وهم ينتظرون الآن وصول أسقف روما، والإمبراطور، ليبدأوا المجمع.. أضاف، متردِّدًا، أن أساقفةً كثيرين وصلوا من أرجاء المسكونة، ولكن الأسقف يوحنا الأنطاكى نزل إلى مدينة حلب منذ يومين، وهو ينتظر حاميةً رومانيةً لتصحبه إلى هناك، فالطرق إلى إفسوس غير آمنة هذه الأيام.

ـ الطرق، أم أن إفسوس ذاتها غير آمنة؟

قلتُ ذلك، وأنا أمدُّ نحوه كوبًا من مشروب الخرُّوب المحلَّى بسُكَّر الفانيد، فأخذه من يدى، دون أن يرفع وجهه ناحيتى. بعد هنيهةٍ قال:

ـ لا أعرف يا هيبا، لا أعرف. لاتجرَّنى إلى كلامٍ لا أحبُّ أن أقوله!

على غير العادة فى مثل هذا الوقت من السنة، كان هواء الليل باردًا. سألتُ الفرِّيسى إن كان يود أن أوقد بعضًا من الخشب والأغصان الجافة فى المدفأة، أعنى ذلك الطست النحاسى، الذى نجتمع حوله فى أيام الشتاء مستمتعين بما يشعُّ من دفئه. وافق بإيماءةٍ من رأسه. لما تصاعد اللهبُ من الطست وطقطقت حوافُّ الأخشاب، كنتُ مستغرقًا تمامًا فيما قاله لى رئيس الدير بالأمس بعد العشاء، وما قالته لى مرتا عند حافة المنحدر، قبيل الغروب.. قطع الفرِّيسى صمتنا العميق، بأن قال بعدما تنهَّد: سيكون *المجمعُ عاصفًا، وسوف يطيح بالأسقف نسطور.*

أزعجتنى عباراته، وبدَّدت صورة مرتا التى كنتُ أراها بين ألسنة اللهب المتراقصة. آثرت الصمت حتى أتيح له ما يحبه من الإفاضة فى الكلام، كلما وجد مستمعًا جيدًا، وقد رجوتُ أن يخرجنى كلامه، مما كنتُ هائمًا فيه. صَحَّ الصمتُ معه، فأفاض كما توقعتُ.. راح يرسم فى الهواء كلماته،

على عادته كلما انهمك فى الحكاية. بدا وكأنه يحدِّث أناسًا آخرين، غيرى. لم يكن، حتى، ينظر نحوى وهو يقول بمرارةٍ: إنكم لم تصدِّقونى حين قلت لكم إن خلافنا حول طبيعة المسيح، هو جوهرُ ديانتنا. وأن الجوهرَ ذاته دقيقٌ ومُشكلٌ، وينذر بالانشقاق والفرقة. الرهبانُ هنا كانوا يستخفُّون بالأمر، ورئيس الدير حظر الكلام فيه، والقسوس فى أنطاكية عنَّفونى، وأنذرونى بالحرم والطرد، إن كتبت الرسالة التى كنتُ أنوى تأليفها. ولم يسمحوا بعودتى إلى هنا، إلا بعدما أعطيتهم موثقًا غليظًا، بعدم الخوض ثانيةً فى أمر الأقنوم. مع أن الكُلَّ مختلفون فى هذا الأمر. المصريون مصرُّون على أن الله تجسَّد بكامله فى المسيح، من يوم صار ببطن أمه. فلا انفصال فى المسيح بين الألوهية والإنسانية، فهو إلهٌ وربٌّ كاملٌ تامٌّ، ولا ناسوت له مستقلاً عن اللاهوت. عبارات الأسقف كيرُلُّس فى رسالته الأخيرة، حاسمةٌ: جسدُ المسيح لم يتحوَّل إلى طبيعةٍ إلهية، ولم يتحوَّل اللهُ إلى طبيعة الجسد، حتى حين كان المسيح طفلاً مقمَّطًا.

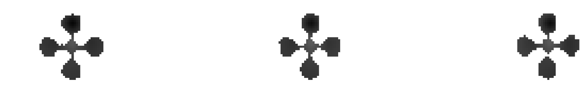
التفت الفرِّيسى نحوى، وكأنه اكتشف وجودى. نظر ناحيتى، كأنه يرى شخصًا آخر يحتجب بداخلى. للفرِّيسى هذه النظرة الغريبة، التى تُربك مَنْ لا يعرفونه. رفع حاجبيه فاتسعت عيناه الواسعتان، وأزاح غطاء رأسه، فبدت صلعته اللامعة.. مسح جبهته بباطن كفه، وقال: أُنظر يا هيبا إلى قوة تعبير الأسقف كيرُلُّس حين يقول: كلمة الله اتحَّد أقنوميًا بالجسد، فهو إلهُ الكلِّ وربُّ الجميع، وليس عبدًا لنفسه ولا سيدًا لنفسه، هو مثلنا مولود تحت الناموس، مع أنه أعطى الناموس، كإله.. هو أقنومٌ واحد، شخصٌ واحد، طبيعةٌ واحدة، إنسانٌ وإلهٌ، ابنٌ وربٌّ.. وحيث إن العذراء القديسة وَلَدَتْ جسديًا، الله متحدًا بالجسد حسب الأقنوم، فهى والدة الإله.. الأسقفُ كيرُلُّس بليغٌ جدًا ياهيبا، ويعرفُ ما يقول، وهو لن يرجع أبدا عما قاله. ولن يرجع الأسقفُ نسطور أيضًا، عما يعتقده من أن الله اتخذ يسوع مجلى له، ومن أجل الله غير المنظور نسجد نحنُ للمسيح المنظور، مدركين أنه شخصان. هما بحسب قول نسطور: المسيح الآخذ الذى هو كلمة الله، والمسيحُ الإنسانُ المأخوذُ الذى يُدعى باسم الذى اتخذه.

بحركة غير إرادية، مَدَّ الفرِّيسى يديه ناحية اللهب مستدفئًا، وفرك بأصبعه باطن كَفِّه وهو يضيف: الأسقف نسطور يعتقد فيما سمعه من الأسقف تيودور المفسِّر، ومن غيره، فيؤكِّد تجلِّى الله فى المسيح الإنسان! فكيف يمكن أن يتفق الفريقان، وقد سار كُلٌّ منهما فى الناحية المقابلة للآخر. وكلما ساروا وراء ما يعتقدون، تعمقوا فى اختلافهم أكثر واتسع البون بينهما.. وحتى لو اتفقوا حول طبيعة المسيح، فإنهم سوف يختلفون حول أقنوم روح القدس، الغامض المحيِّر. ولن يعتقد أحدهم، بغير ما اعتقده سلفًا. فلا يبقى هناك إلا المواجهة، ومن ثَمَّ الاحتدام، ثُمَّ الحرب.. الحرب يا هيبا روحٌ يسرى فى الناس، يغمرهم، يحتقن فيهم ويمور، فلا يهدأ حتى يفجِّرهم، ويُنشب بينهم النـزاع فيفشلون، وتذهب ريحهُم وتتمزَّق روحهم.. الحرب.. هل كان يسوع المسيح يقصدها، حين قال إنه جاء ليُلقى فى الأرض سيفًا؟

حَدَّق الفريسى فى النار التى تأجَّج لهيبها، وبدا كعرَّافٍ مجوسىٍّ يستطلع الغيب من هيئة اللهب.. بعدما صَمَتَ لوهلةٍ، اكتستْ عيناه بغلافٍ من الدمع الرقيق الذى تجمَّع فوق جفنيه، ثم انسرب منه خيطان سريعان مَرًّا بخدِّه المنتفخ وتوغلا فى شعر لحيته.. حسبته انتهى من كلامه، غير أنه مسح وجهه بطرف كُمِّه، وراح يقول وقد صار صوته متهدِّجًا، على غير العادة: الديانة دَيْنٌ فادحٌ، لا يمكن لأحدٍ أن يوفى به. ديانتنا تديننا. تدينُ من دان بها، بأكثر مما تدين غير المؤمنين. وتدين أيضًا غير المؤمنين! الكلُّ مدانٌ، الكلُّ ضالٌّ، والآب السماوىُّ أقنومٌ مفارقٌ محتجبٌ خلف هذه الاعتقادات كلها. وهو لا يظهر لنا بتمامه، لأننا لا نقدر على الإحاطة بظهوره التام. هو

فوق لفظ الأقنوم، وفوق كلمة الطبيعة، وفوق إدراكنا. هو بعيدٌ عنا، ونحن بعيدون عن بعضنا، لأننا جميعًا مرهونون بأوهامنا. الأقنومُ ذاته وهمٌ غامضٌ، اخترعناه وصدَّقناه واختلفنا فيه، ولسوف نحارب بعضنا دومًا من أجله. وقد يأتى يومٌ، يكون فيه لكل إنسان اعتقاده الخاص المختلف عن اعتقاد غيره، فتنمحى الديانةُ من أساسها وتزولُ الشريعة.. ويومها.. هل سيكون.. سأقومُ إلى صومعتى!(١).

تركنى الفِرِّيسى فجأة، وكأننى لم أكن معه أصلاً، ولم يهتم بإغلاق باب المكتبة وراءه.. كان أنينُ الحصى تحت أقدامه، يخفُّ مع ابتعاده وتوغُّله فى قلب الليل. عَمَّ السكون حولى، وصرتُ وحيدًا جدًا، ومستوحشًا.. أغلقتُ بابى، وأزحتُ عنى غطاء رأسى. وبالقرب من الجمر الدافئ، تمددتُ وقد ألصقت ظهرى بالأرض ومددتُ ذراعىَّ بطولهما.. وأخذنى نومٌ يشبه الإغماء.



أيقظنى صخبُ العصافير فجرًا، غير أننى بقيت ممددًا على الأرض. كنتُ كالذى آب من سفرٍ طويل، ويوشك على الخروج لسفر أطول.

---

(١) فـى طـرف الرق، تعليقٌ طويلٌ من تلك التعليقات المكتوبة بالقلم الدقيق، باللغة العربية، منه الفقرة التالية:
يظهر لى أن هذا الراهب المسمى بالفِرِّيسى، كان مباركًا حقًا؛ فقد مرت علينا الآن، ألف سنة من الحرب بين الكنائس.. وما خروجى من بلادى الشرقية، إلا بسببها. ومعروفٌ، أن أنهار الدم تدفقت فى الإسكندرية، بعدما تنَيَّح أسقفها كِيرُلس، وأمعن أهل الصليب فى تخريب المدينة، وقَتْلِ غير المسيحين من اليهود والوثنيين. بل ثار الإسكندرانيون على أسقف مدينتهم بروتيريوس، ومزقوه إربًا وأحرقوا جثته.. وقاتلوا أيضًا أسقف الإسكندرية طيموثاوس؛ وكان قَتْلٌ كثيرٌ بهذه المدينة العظمى.. ثم انزوت اليوم أخبارها، بعد وقوعها فى قبضة المسلمين.

استجمعت قوتى لأنهض، فلم أقدر. أخذتنى وسناتٌ متقطعةٌ بلا أحلام، حتى دَقَّ بابى طارقٌ، ظننته أول الأمر خادمًا من خُدَّام الدير، ثم عرفت بعدما فتحت الباب، أنه حارسٌ من أفراد الحامية الرومانية:

ـ العجوزُ تريدك عند البوابة!

أية عجوزٍ تلك التى تريدنى، فى هذا الوقت الباكر؟ خرجتُ قلقًا، فرأيتُ خالة مرتا فى غبش الفجر، جالسة على الحجر المربع المجاور للبوابة. كانت تضع حول كتفيها قطعةً من صوفٍ قديم.. لما اقتربتُ منها، قامت متأدبةً وهمَّت إلى تقبيل يدى. تركنا الحارس وهبط التلة، كأنه سوف ينـزل إلى مقر الحامية.. جلستُ على الحجر المربع المنقوش، وجلستْ العجوز على الأرض. كان الهواء باردًا، حتى أن كتفىَّ أخذتا ترتجفان:

ـ ما الذى جاء بك مبكرًا يا عَمَّة ؟

ـ أريدك فى أمرٍ مهم.

كان أمرها المهم، عجيبًا. فالعجوز تريدنى أن أقنع مرتا، بالعودة إلى حلب للغناء هناك؛ إذ المعيشة هنا صارت صعبةً، حسبما قالت، ولابد من الاستعانة عليها بما سوف تكسبه من الغناء.. أدهشتنى العجوز حين أضافت:

ـ ما دامت مرتا لن تُرتِّل فى الكنيسة، فلتذهب للغناء فى حلب.

كيف عرفتْ العجوزُ أننا أرجأنا الترتيل؟ رئيسُ الدير أخبرنى بذلك مؤخَّرًا، فكيف بلغها الأمر بهذه السرعة. لابد أن أحدًا من سكان الدير يزورهم، أو لعل رئيس الدير أخبر الكاهن قريبهم، فأخبرهم.. لم أشغل بالى بمن أخبرهم، فقد كان الأهم ساعتها عندى، هو أن مرتا قد تذهب إلى حلب، كى تغنى فى الأمسيات لأراذل التجار العرب

والأكراد.. والمطلوب منى، أن أدفع بعصفورى الوحيد، إلى قفص القطط المتوحشة! قلتُ:

ـ لكن مرتا أخبرتنى أنكما تعملان على النول، وتطبخان لعسكر الحامية.

ـ هذا كله غير مربحٍ يا سيدى، فلا أحد يشترى غَزْلنا، والجنودُ بخلاءٌ.

استوقفنى قولها يا سيدى! فهى لم تقل يا أبتِ، ولم تعد تحدِّثنى من خلف حجاب الحياء، مثلما كانت تفعل من قبل. فهل حدثتها مرتا بما وقع بيننا؟ ولماذا تشكو العجوز الآن، شظف العيش وقلة الحيلة؟ وكيف جرؤتْ أن تأتينى قبل طلوع الشمس، لتسألنى فى أمر كهذا..

ـ قومى إلى بيتك يا عمَّة، وسوف أكلِّم مرتا فى الأمر، بعد الظهر.

أردتُ فسحةً من الوقت للتفكير، ولم أشأ أن تشعر العجوز باضطرابى. قمتُ من فورى إلى الكنيسة الكبيرة، لمشاركة الرهبان فى الإعداد لصلوات يوم الأحد. قبل دخولى الكنيسة، التفتُّ إلى ناحية البوابة المهدَّمة، فرأيتُ العجوز جالسةً فى موضعها، والحارسَ الذى دَقَّ بابى، يصعد التلة ثانيةً.. وقفتُ برهةً أنظرُ من بعيد، فرأيت الحارسَ يصل عند العجوز ويجلس على الحجر، حيث كنتُ جالسًا قبلها بقليل.

من بين أحجار سور الدير، رأيتهما يتحدثان، ولم أستطع لبُعد المسافة أن أسمع ما يقولانه لبعضهما. غير أن جلسة الحارس كانت لافتةً للنظر، فهو منهمكٌ فى الحديث وكأنه يوصل كلامًا كان بينهما ثم انقطع. كان يميل بصدره للأمام، وقد أسند كوعيه على ركبتيه، وراح يحرِّك يديه بما يدل على اهتمامه بما يحكيه. وكانت العجوز تومئ برأسها، وكأنها توافقه

على ما يقول. كدتُ أعود إليهما لأستجلى الأمر، لولا أن سمعتُ أقدامًا تطأ الحصى، قادمةً نحوى.

ـ صباحك مبارك يا هيبا.

كان الفِرِّيسى بوجهه المتفخ وقد ازداد انتفاخًا، واكتست عيناه حمرةً دالة على أنه لم ينم ليلته. عاتبته بألفاظٍ رقيقة على رحيله المفاجئ الليلة الفائتة، فاعتذر لى باضطراب حاله. سألته إن كان يعانى من مرضٍ فى جسمه، فقال متذمِّرًا: *بل أعانى كل أعراض أمراض الروح!* مضينا بخطىً متثاقلةٍ حتى دخلنا الكنيسة الكبيرة من بابها الداخلى.. كان الوجوم يخيم على المكان، ويكسو وجوه الرهبان كلهم.

بعد انتهاء الصلوات وانصراف الزوَّار، نزلتُ إلى كوخ مرتا وناديت عليها، فلحقت بى عند طرف الأرض المغروسة. المكانُ هناك أهدأ، وأليق بجلوسنا حيث لا أحد يرانا. نظرتُ طويلاً إلى وجهها، مستطلعًا ما تخفيه ملامحه البريئة، فلم لم أر شيئًا. سألتها عن الحارس الذى كان يحادثُ خالتها فى الصباح، ورجوتها أن تصدقنى القول وتخبرنى بحقيقة الحال..

ـ هو يريد أن يتزوَّجنى.

ـ كيف؟

ـ مثلما يتزوَّج الناس يا هيبا. يقول إنه جاء منذ شهرين فقط، وسوف يظل هنا أعوامًا، ولا بأس لو اتخذ زوجة.. وهو يريدُ أن يقيم معنا فى الكوخ، أو نستأجر لنا منـزلاً فى القرية.

ولكن..

ـ أنا لا أريده يا هيبا، أريدك أنت.. فإن أبعدتنى عنك، فسوف أعود إلى حلب. فالحياةُ هناكَ على صعوبتها، أسهلُ من هنا.

ـ ومَنْ أخبر خالتك بتأجيل الترتيل فى كنيسة الدير؟

ـ الحارسُ الرومانى الذى طلبنى للزواج. إنه يونانى الأصل، فى الثلاثين من عمره، واسمه..

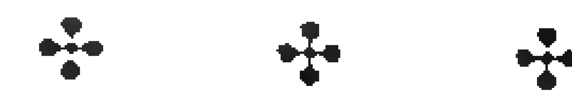
ـ لا أريد أن أعرف.

كنتُ أشعر بضيقٍ شديد يجثم فوق صدرى، وكانت مرتا تنظر إلى السهول البعيدة، شاردةَ البال. بعد لحظة صمتٍ مديدة، قامت مرتا فجأة لتجلس بجوارى. وحين وضعت كفَّها على كتفى، تلفتُّ حولى خشية أن يكون هناكَ مَنْ يرانا. لم يكن حولنا أحدٌ، إلا حمامةٌ جبليةٌ تنبشُ الأرض بمنقارها.. من داخلى انبعث صوتٌ هامسٌ، يدعونى لوضع يدى على فخذها والغيابُ معها فى سكرةٍ من سكرات العشق، ثم الإبقاء عليها بجانبى بقيةَ العمرِ. كان الصوتُ الهامس ذاته، الذى عرفتُ بعدها بأسابيع، أنه صوت عزازيل. كان يستعطفنى بنداءٍ باطنى عميق: *لا تفقد مرتا، مثلما فقدت أوكتافيا قبل عشرين عامًا.*

ـ لم يكن صوتى يا هيبا، كان ذاكَ نداءَ روحك.

ـ عزازيل، لا تشوِّش علىَّ، دعنى أكمل الكتابة. فقد صار وقتى ضيقًا، وصدرى، فسوفَ أرحل عن هنا بعد أيام.

ـ طيب، سأسكتُ وأسكنُ تمامًا.. لكنه لم يكن صوتى.



مضى الآن قرابةُ شهرين على جلستى الأخيرة مع مرتا، عند طرف الأرض المغروسة بالبذور. كان الأوان عصرًا. لم أستجب ساعتها للنداء الذى انبعث من داخلى، داعيًا أن أضع يدى عليها وأنهلَ من عسل العشق. غير أننى كنتُ أفكرّ، فيما سيؤدى ذلك إليه.. سوف أتعلَّقُ بها أكثر، وتتعلَّقَ بى، والمفترض فىَّ أننى قطعتُ علاقتى مع المظاهر الدنيوية، فما بالك بالعلاقة مع امرأة.. لكن مرتا لم تكن مثل كل النساء، كانت أقرب إلى الطفولة والملائكية. فكيف سأتركها لأحضان هذا الحارس الرومانىِّ، يونانىِّ الأصل، الذى لم أعرف اسمه. كيف سيفهمها مثلما فهمتها، وكيف ستحبه مثلما تحبنى؟ وهل سترتخى له يومًا، وتشدو على سريره بأغنياتها الهامسة؟ مرتا ليست مثل كل النساء. لكنها لو ذهبت للغناء فى حانات حلب، وسط السكارى من أراذل التجار العرب والأكراد، فلن تكون إلا امرأةً هابطة، تتقاذفها أحضانُ الرجال العابرين. لقد أمضتْ مرتا سنوات وهى تغنى هناك، ولم تذكر لى شيئًا مما جرى معها تلك الأيام، وأنا لم أسألها.. أم تُرى خالتها تحتال علىَّ بالأمر كله، لتدفعنى إلى الهرب بها والزواج منها؟ وكيف لى أن أتزوَّجَ، بعدما أمضيتُ حياتى كلها راهبًا؟ عشرون عامًا قضيتها فى الرهبنة، سأقدِّمها مهرًا لفتاةٍ فى العشرين من عمرها، وبعد عشر سنوات أصير هَرِمًا فى الخمسين من العمر، وتصير هى امرأةً جميلةً فى سن الثلاثين، تصبو إلى الرجال، وترنو إليها العيونُ الطامعةُ، وقد تمتد نحوها الأيدى. هل سأقضى معها السنوات الأخيرة من عمرى حارسًا لها، منها؟.. هل سينتهى بى الحال حارسًا لامرأة، بعد حياة تقلَّبتْ فيها أحوالى، حتى أننى ما عدتُ أعرف لى وصفًا محددًا: هل أنا طبيبٌ، أم راهبٌ، أم مكرَّسٌ، أم ضائعٌ، أم مسيحىٌّ، أم وثنىٌّ..

كانت مرتا جالسة يومها بجوارى، وقد أخذتنى تلك الأفكار من جوارها. حتى إذا استطالتْ سكوتى، لمستْ بأناملها ظاهركَفِّى، وأخرجتنى من ترداد أفكارى بقولها، بغُنَّة فائقة العذوبة:

ـ هيا، خذنى معك إلى بلادك الأولى.. نتزوَّج ونبقى طيلة عُمرنا هناك.

ـ هل صحيحٌ ما قالته خالتك، من نيَّتك الغناء فى حلب؟

ـ هى تريدُ ذلك، وأنا لا أريد إلا أنت.. فهيَّا نرحل عن هنا.

ـ كيف يا مرتا، كيف؟ الناسُ فى بلادى أغلبهم مسيحيون.

ـ وما شأنهم بنا، نحن أيضًا مسيحيون.

ـ زواجنا محظورٌ فى ديانة المسيح.

ـ محظور!!

ـ نعم يا مارتا محظورٌ، ففى إنجيل متى الرسول، مكتوبٌ: مَنْ يتزوَّج مطلَّقةً، فهو يزنى.

ـ يزنى.. وما الذى كان بيننا بالأمس فى الكوخ؟ ألم نكن هناك نزنى.

انسلَّت مرتا من جانبى، مثلما تنسحب الروح من بدنٍ نحيل، أنهكته العللُ المزمنة. لم أنظر ناحيتها وهى تفارقنى إلى كوخها، ولم أتحرَّك من موضعى، إلا حين أتانى الشَّمَّاسُ ليدعونى إلى صومعة رئيس الدير.. قال إنه يريدنى فى أمرٍ عاجلٍ. كانت ساقاى فى خَدَرٍ، فكدتُ أقع على الأرض حين وقفتُ، لولا أننى استندتُ إلى ذراع الشَّمَّاس.. صعدنا إلى الدير من الممر الذى يعلو الكوخ، كى لا ألتقى بخالة مرتا العجوز. كنتُ منهكًا.. لحظة دخلت على رئيس الدير، كانت حباتُ العرق تنحدرُ من جبهتى، وتنسربُ تحت طيات ملابسى مثل خيوط المطر.

الرَّقُّ الثامن والعشرون

المـرْزَبَّـةُ

دخلتُ على رئيس الدير من باب صومعته الموارَب، فوجدته مستغرقًا فى صلاةٍ عميقةٍ أخبرنى بعدما انتهى منها، أنها كانت من أجل نسطور.. أضاف أنه سيدعو أهلَ الدير وكل المؤمنين المقيمين حولنا، إلى صوم أسبوعٍ تتوالى فيه القُدَّاسات والصلوات، ابتداءً من الليلة، لاستنزال الرحمة الربانية من أجل أهلِ الديانة، وكشف الغُمة عن الكنائس الكبرى. استغربتُ ما قال، فذكَرَ لى ما بلغه من أن الأسقف كِيرُلُّس وأسقف أورشليم وجماعة من الأساقفة والقسوس، قرروا عقد المجمع المسكونى غدًا، برئاسة كِيرُلُّس.. ونسطور لا ينوى الحضور!

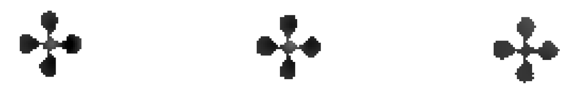
بعد لحظة صمتٍ دارت فيها رأسى، وتهدَّجت أنفاسى. قال رئيسُ الدير إن يوحنا أسقف أنطاكية، نصير نسطور فى محنته، أرسل إلى الأساقفة والقسوس المجتمعين بإفسوس، يُعلمهم أنه سيتأخر أيامًا بسبب خطورة الرحلة.. أضاف: *الرحلةُ خطرةٌ فعلاً هذه الأيام، فالبحرُ هائجٌ والطريقُ البريُّ غير آمن.. قُطَّاع الطرق نشطون، والاضطراب يعمُّ النواحى.*

تزايد العَرَقُ المتصبِّب من جبهتى، واعترتنى رجفاتٌ خفية ودوارٌ. لم استوضح من رئيس الدير عن المزيد، لكنه أَكَّدَ أن الكُلَّ متوجسٌ مما سيحدث فى إفسوس، أما هو فمرتاعٌ.. ذهلتنى كلمات رئيس الدير عن الرد، وصرتُ موقنًا تمامًا بأن هول الإعصار قادمٌ. فقد عشتُ فى الإسكندرية سنين، وعرفتُ، فى ذاك الزمان السكندرى البعيد، كيف تهبُّ أهوال الأعاصير.. لم أسأل رئيس الدير عن الطريقة التى تصله بها الأخبار، وإنما سألته إن كانت أخباره هذه مؤكدةً؟ فأومأ برأسه آسفًا. ثم قال إنه يريد أن يبعث معى برسالةٍ إلى مطران الأبرشية بحلب، تتعلَّق بما يجرى فى إفسوس.

لما نطق رئيسُ الدير بكلمة حلب، انتزعتنى من أمامه الأفكارُ، ودارت رأسى تحت دَقَّات التساؤلات: لماذا تحوطنى حلبُ فجأة، وتحاصرنى من كل الجهات.. تترصَّد روحى.. تسلبنى.. تطيح بى، وبكل ما حولى.. حلب الحوانيت التى تنادى على مرتا، وتخايلها فتخايلنى.. وحلب الأبرشية التى يزداد غليانها، مع النيران الهائجة فى إفسوس.. لماذا يختارنى رئيس الدير ليبعث معى برسالته؟ ولماذا يُراسل حلب الآن؟ أم هى رسالة للأسقف يوحنا الأنطاكى؟ ما هذا الذى يجرى من حولى..

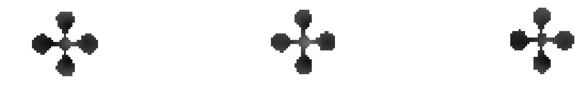
أعادنى رئيس الدير إلى حضرته، بأن قام من جلسته وهو يقول إنه سيكتب الليلة رسالته، ويمكننى الخروج بها فجر غدٍ، بعد القُدَّاس.. استأذنته فى الذهاب لصومعتى، على أن ألحق به بعد ساعةٍ فى الكنيسة.. لما خرجتُ إلى الساحة، كان الرهبانُ منهمكين فى الإعداد لشئٍ لم أتبيَّنه. لم أكلِّم أحدًا فى طريقى، ولم تكد ساقاى تحملانى حين ارتقيتُ الدرج.. أغلقتُ باب صومعتى، ولم أُسرج الفتيلة. جلست فى الظلام حينًا، ثم تمددتُ على ظهرى، دون أن أبسط على الأرض ذراعىَّ.. أغمضتُ عينى، فرأيت مرتا غير باسمة. غطيتُ وجهى بذراعىَّ، فرأيتُ أوكتافيا وهى تموت.. ثم رأيتُ نسطور يسير مطرقًا، وحوله جنودٌ عابسون.. ثم رأيتنى وحيدًا، فوق جبل قسقام.

نهضتُ من رقدتى، وقد ملأنى خوفٌ لم أعرف له مصدرًا. سألتُ نفسى: *أيجبُ الذهاب الآن للكنيسة، كى أشعرُ ببعض الأمان؟ لا بد أن الصلوات الليلية ابتدأت.. البقاءُ مع الجماعة يبدِّد الفزع، ولا شئ يثير الخوف مثل الانفراد. أم أذهبُ لكوخ مرتا القريب، وأُصلح ما انكسر بيننا، ثم أتوسَّد الأرض تحت سريرها؟.. هل تنام مرتا على السرير الذى ترنَّح بنا قبل يومين، أم هى تفترش الأرض مثلى؟.. أنا لا أعرف الكثير عنها.. لم أرها من الداخل، ولم أرَ أىَّ شئ من داخله، أنا أطوِّفُ دومًا بظاهر الأشياء ولا أغوص فيها. بل أرانى أخشى الغوص فى باطنى، لكى أعرف حقيقة ذاتى الملتبسة.. كل ما فىَّ ملتبسٌ.. عمادى، رهبنتى، إيمانى، أشعارى، معارفى الطبية، محبتى لمرتا.. أنا التباسٌ فى التباسٍ! والالتباسُ نقيضُ الإيمان، مثلما إبليسُ نقيضُ الله.*



كانت ليلتى ليلاء. وفى قلب الليل البهيم، كنتُ أتقلَّى فوق لهب الأفكار الغريبة، النـزقة.. وددتُ لو ذهبتُ إلى كوخ مرتا، ودسستُ نفسى فى حضنها. أو أعتلى العمود الذى يلقى رئيسُ الدير عظاته للشعب من فوقه، ثم أُشرع ذراعىَّ فى الهواء، وأستجمع ذاتى وأطير إلى نسطور. لابد أنه يصلِّى الآن منفردًا، ولابد أنه سيفرح لرؤياى.. وددتُ لو عدتُ طفلاً فى زمنٍ قديم، وكانت لى أُمٌّ غير التى كانت، وأبٌ آخر يشبه أبى الذى كان، عائلةٌ كبيرةٌ تفتخر بى، كلما قلتُ شعرًا جديدًا.. وزوجتان تُحبانى، إحداهما مثل أوكتافيا، والأخرى تشبه مرتا.. أو أكون مثل ذكور الحمام الجبلىِّ، بسيطًا وطاهرًا، أحظى لحظةً بمن اقتربتْ منى، ثم نطير..

راحت الأفكارُ النـزقة تسحبنى نحو السرب المظلم الذى بجوف النفوس، وتُبقينى فى قعر هاويةٍ سحيقة، لا رجوع من عندها. شعرتُ ببردٍ يغوص فى عظامى، فسحبتُ المفرش الخشن الذى كان مطويًا فوق الطاولة، ووضعته فوق كتفيَّ.. خرجتُ من الصومعة قاصدًا الكنيسة، فمررتُ عليها، ولم أدخلها. مضيتُ ثقيلَ الخطوِ إلى ناحية بوابة الدير. كانت هيئة النجوم فى السماء تدلُّ على اقتراب الفجر، وكان الظلام يلفُّ الكون كله، ويلفُّنى. لم يكن عند البوابة أحدٌ من أفراد الحامية الرومانية، ولا كلبهم كان هناك.. نظرت ناحية كوخ مرتا، وعاودتنى الأمانى المستحيلة والمخاوف المفرطة.



طالت جلستى عند بوابة الدير، وتطاولت علىَّ الأفكار. غالبتها حتى ضعفتُ عن دفعها، فتركتها تجتاحنى. أبحرتُ إلى عوالم بعيدة، وراء هذا العالم. غُصتُ فى أزمنةٍ سحيقة لم تعرف الشقاء البشرى، أزمنةٍ أسبق مما يحكيه سفر التكوين عن بدء الخليقة.. مَنْ الذى كان موجودًا قبل وجود الإنسان على الأرض. الله، الملائكة، الشيطان؟ ماذا كانوا جميعًا يفعلون، قبل وجودنا وانشغالهم بنا؟

بدا الخيطُ الأول من نور الفجر.. لحظتها شعرتُ، لأول مرة، أننى لستُ وحدى. أحسستُ بأن هناك مَنْ يرانى، مِنْ حيث لا أراه. لا أعنى الله. وإنما هو شخصٌ آخر قريبٌ من مكانى، مختبئٌ فى موضع لصيق.. تلفتُّ حولى، وأصختُ السمع، علَّنى أجد ما يؤكِّد شعورى، أو ينفيه. قلتُ فى نفسى، إنما هى توهُّماتُ المؤرَّقين بعد ليلة السُّهد الطويلة. وقد يكون بالقرب منى ثعلبٌ أو أرنبٌ بريٌّ، أو لصٌّ عرف أن حامية الدير أغلب أوقاتهم نائمون.

أخذتُ حجرًا من الأرض، وألقيته جهة اليمين. أحجارًا أخرى صغيرة، رميتها فى كل الجهات. لم يتحرَّك شئٌ، ولم أسمع غير صوت الأحجار الملقاة على الحصى. إذن، هى ملاعبُ الظنون وقلقُ الأرق، والرهبةُ من المجهول المختبئ. قمتُ من جلستى، فشعرتُ بالشئ ذاته يتبعنى. وقفتُ فى وسط الساحة الخالية، فوقف. تابعتُ سيرى المضطرب، فسار سيرًا مضطربًا.. وسَرَتْ بباطنى رعدةٌ.

كان بابُ الكنيسة الداخلى مغلقًا، فتابعتُ سيرى حتى صار المبنى الغامض قبالتى، وصوامع الرهبان جهة اليمين. أسرعتُ يمينًا، وارتقيتُ الدرج إلى صومعتى هذه، وأحكمت إغلاق بابى ورائى، وبقيت فى الظلام. قلتُ فى نفسى: سوف تشرق الشمس بعد قليل؛ فلا داعٍ لأن أُسرج قنديلى. والأفضل أن أهجع قليلاً، فيومى يومٌ طويل.. بين أَخْذات النوم وانتباهات الأرق، شعرتُ بأن الذى كان معى، لايزال معى. غير أننى لم أعد خائفًا من إحساسى به، مثلما كنتُ.. كنتُ متأكدًا من إغلاق الباب، ومن أننى بالغرفة وحدى.. ومتأكدًا أيضًا من أن شيئًا ما، موجودٌ بالقرب منى.

ـ هيبا..

انتبهتُ إلى النداء العميق، وتولانى خوفٌ مفاجئ، اقشعرَّ معه جلدُ ذراعيَّ، ثم غمرتنى القشعريرةُ، واستقر مركزها برأسى. الصوتُ الذى نادانى كان مسموعًا، فمن أين جاء؟.. هو لم يأتِ من ناحيةٍ بعينها، وإنما أتانى من كل الجهات.

ـ هيبا.. ألا ترانى؟

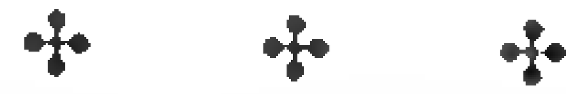
نظرتُ حولى، فلم أَرَ شيئًا. ونظرتُ فى باطنى، فرأيتُ من بين حُجُب الخوف والقلق، وجهًا باهتًا. أهو الفتى الذى لقينى عند حواف سرمدة؟ أم هو الرجل المتأنق الماكر، الذى رأيته على طريق العودة إلى أسيوط

من جبل قسقام؟ العين عينُ الفتى، والبسمةُ الساخرة التى على الشفاة، بسمةُ الرجل. كنتُ محقًّا إذن، حين جفلتُ منهما. لم يصدِّقنى رئيسُ الدير لمّا قلتُ له إننى قابلتُ الشيطان فى وَضَحِ النهار.. الشيطان.. ليكن، ماذا عساه أن يفعل معى؟

سؤالى الأخير لذاتى دفع عنى بعضًا من مخاوفى، وجَرَّ وراءه كثيرًا من التساؤلات: *ماذا عساك يا إبليس، يا أيها اللعين، أن توصلنى إليه؟ هل تريد أن تُضلَّنى عن إيمانى بالمسيح؟ أولم تدرك أننى ما عدتُ مؤمنًا مثلما كنتُ.. هل تغوينى بالمفسدات؟ أولم تعرف ما جرى قديمًا مع أوكتافيا، وما يجرى اليوم مع مرتا.. أم أنك تريد أن تأخذنى إلى سُبل الهرطقة؟ وماهو أصلاً الإيمان القويم، الذى تكون الهرطقاتُ بخلافه؟ لا يصحُّ وجود هرطقات، مالم تصح الأرثوذكسية القويمة.. وما الأرثوذكسية؟ أهى ما يقرِّرونه فى الإسكندرية، أم ما يعتقدونه فى أنطاكية؟ هل هى إيمان الآباء الأولين، الأتقياء المقدَّسين.. أم هى الاعتقاداتُ الوثنية التى فتك أهلها بآباءٍ أولين، صاروا مع الأيام أتقياء ومقدَّسين؟*

تماوجتْ فى باطنى الأسئلةُ التى لا إجابة عنها: *هل القويمُ هو إيمانُ كيرُلُس، أم هو إيمان نسطور المسكين الذى سيلحق عما قريب بمن سبقوه من المحرومين: بولس السيمساطى، آريوس المطرود، تيودور المبجَّل.. كل المهرطقين هنا، كانوا مبجلين هناك! وكل الآباء مطعونٌ عليهم، عند غير أتباعهم. الشيطانُ يلعب بالجميع، فهل تراه يسعى الآن كى يلعب بى؟ ألا يكفيه لعبه مع هؤلاء الذين يستعدون للحرب فى إفسوس؟ وتلك النار التى يشعلها فى كل الكنائس.. هو لا يعرف الاكتفاء، ولا الانكفاء على مطلوبٍ واحد.. وإلا، فما نداؤه الآن لى؟ وما مشاغبته الدائمة لى، وشغبه علىَّ جهرةً، عندَ أطراف سرمدة؟*

تحدَّدت صورته أكثر فى الظلام. حَدَّقتُ فى ملامحه التى بدت لى أولاً، فوجدتها قد تغيرَّت. لم يعد الرجل المتأنق المبقَّع وجهُه بالبهاقِ، ولا الفتى الذى التقيته.. صار أرقَّ وجهًا وأقل حجمًا، وبدا وجهه أشبه ما يكون بوجه مرتا. حدَّقتُ، فإذا هو مرتا بتمامها. بضحكتها العذبة ورأسها الجميل الذى يميل ناحية اليمين، إذا تكلمت. ناديتها نداءً خفيًا، فغام الوجهُ وتبدَّد، مثلما تنفكُّ خيوط الدُّخان. شاهت ملامحه، وتاهت صورة مرتا التى كانت.. احترتُ، وبعد تيهٍ طويلٍ فى العماء، أخذنى نومٌ عميقٌ، فلم أعد منتبهًا لما حولى.



وقت الضحى، أرسل رئيسُ الدير راهبًا إلى صومعتى ليستوضح سبب غيابى، فقلتُ له إننى متوعِّكٌ بسبب التعرُّض لبرودة الفجر. وقت العصر، جاءنى الشَّمَّاس ليطمئن. كان حَلْقى جافًا، ورأسى تطنُّ. سألته عن أخبار الاجتماع المسكونى المقدس، فزادتنى إجابته المختصرة توعكًا: بدأوا، اليوم، والإمبراطور لم يصل بعد.. الحمَامُ الزاجلُ جاء بالأخبار.

أغلقتُ بابى خلفه، وبقيتُ فى الظلام مستلقيًا على ظهرى، ثم تكوَّمت على الأرض، وملتُ ناحية الحائط وذراعاى تحيطان برأسى. راودنى نومٌ، وعاودنى الإحساسُ بأن معى، فى الصومعة، الكيانَ ذاته، غير المنظور. غبتُ قليلاً، فرأيت مرتا ثانيةً، بدت لى ساعتها كخيوط دخانٍ تتشكَّل داخل رأسى. حادثتها، فلم تجاوبنى. اقتربتُ فابتعدتْ. حدَّقتُ فى ملامحها، فتغيَّرتْ إلى وجهٍ شبيهٍ بوجه أمى.. اقتربتْ منى، حتى شعرتُ بأنفاسها. لم تكن لها رائحة أمى، ولا رائحة الزيت العطرى الذى تدَّهنُ به مرتا. لكل شئ رائحة، حتى الأحجار، غير أن الذى رأيته كان لا رائحة له. هو وجهٌ تتبدَّل ببطءٍ ملامحه، فيتخذ فى كل حين شكلاً جديدًا.

وقت الغروب قمتُ من رقدتي، وقد خامرني شعورٌ كأنه الانبعاث من الرقدة يوم الدينونة. خرجتُ من الصومعة مرتجفًا، فألفيتُ الدير ملفوفًا بالسكون التام. كانت الشمسُ قد مالت إلى جهة المغيب، واكتسى المبنى الغامض بحمرة خفيفة.. بينما أهبط الدرج، بدت لى الكنيسةُ الكبيرةُ القريبةُ، بعيدةً. فاستثقلتُ النـزول وعدتُ إلى صومعتي، وعاودتُ النوم.

فى جوف الليل، عادت الأفكارُ الجامحة لتجتاحني.. لماذا لا أقوم الآن فآخذ مرتا بعيدًا عن هنا؟ أو أترك كل شئ ورائى، وأرحل إلى إفسوس؟ لن يعرفنى هناك الرهبانُ والأساقفةُ السكندريون.. سأبقى بالقرب من نسطور فى محنته، وقد ينقلبُ الحال لصالحه، حين يصل الإمبراطور والأساقفة المؤيدون له. ولسوف ينصره الإمبراطور، فهو أسقفُ عاصمته، وسأعود معه إلى القسطنطينية بعد انقضاء هذه المحنة..

ـ هيبا.. لن تنقضى هذه المحنة، حتى تقضى على نسطور.

ـ مَنْ أنت؟

ـ ألا تعرفنى، حقًا!

الطيفُ المخايلُ صار يتكلم.. كلامه أبهت صورته، وغيَّب عنها الملامح التى كانت تتبدَّل بين وجوهٍ شتى. لم أعرف بأىِّ كلامٍ، يجب أن أجاوبه. غير أننى لم أعد خائفًا، من حضوره حولى.

ـ أنا لست حولك يا هيبا، أنا فيك.

قَدَّرتُ أن الجنونَ انتزعنى من عالمى المضطرب، فصرتُ أهذى. قلتُ لعلنى الآن نائم، وما هذا إلا حلم عابر. نعم، هو حلمٌ عابرٌ سوف أفيق منه، ثم يصير ذكرى سرعان ما أنساها. لقد صرتُ قلقًا من كل ما حولى، والقلقُ يثير المخاوف.. لابد أن أُهدِّئ قليلاً من قَلَقى.

ـ أنت قلقٌ يا هيبا مما فيك. لأنك تعرف ما سوف يحدث فى إفسوس، وتعرف أنك ستفقد مرتا، مثلما فقدت من قبل ما كان لك: حلمُ النبوغ فى الطب، الأملُ فى إدراك سرِّ الديانة، الغرامُ بأوكتافيا، الولعُ بهيباتيا، الاطمئنان بالغفلة، الإيمانُ بالخرافات.

كان الصوت يأتينى هذه المرة هامسًا، واضح النبرات، ثم صارت ملامح الوجه، أبينَ وأظهر. كان يشبهنى، وكان الصوتُ صوتى. هذا أنا آخر، غيرى، محبوسٌ بداخلى.. لا بأس لو حادثتُ نفسى قليلاً، وصارحتها بما يجب السكوت عنه. اشتياقى لمرتا، وخشيتى عليها، وخشيتى منها. وأنا تائهٌ فى صحراوات الذات، وغير مستبشرٍ بضربة الأسقف كِيرُلُّس المتوقَّعة فى إفسوس، فسوف تكون مروِّعةً.. كِيرُلُّس هو رأس كنيسة الإسكندرية، المرقسية. وكلمة مرقس تعنى ضمن ما تعنى آه.. المطرقة الثقيلة التى نسميها فى بلادنا.. المرْزَبَّة.

آه.. سوف تنهال المرزبة السكندرية على رأس نسطور لامحالة، وستهتزُّ جدران هذا الدير، وكل الأديرة والكنائس التابعة لأسقفية أنطاكية. سيكون المجد، من نصيب الإسكندرية وحدها. حتى روما العريقة، ستنـزوى وتموت مثل كل المدن القديمة.. لابد لى أن أفرَّ من هذا العالم الملئ بالأموات.

ـ دعِ الأموات يهنأون بموتهم، وخُذْ مرتا وعُدْ إلى بلادك الأولى.

ـ اسكتْ، وعُدْ أنتَ من حيث جئت.. أيها الوجودُ الغامضُ المخايل.

ـ أَعِذْنى أنت، فأنت الذى أوجدتنى.

ـ أنا لم أُوجِدْ أحدًا.. أنا الآن أحلُم.

ـ إذن، سوف يطول حلمك يا هيبا!

أنت تنادينى باسمى المشهور.. فما اسمك أنت؟

ـ عزازيل.

الرَّقُ التَّاسعُ والعشرون

الحضُـورُ

غبتُ. فرأيتُ أشجارًا تملأ الكون، ورأيتنى أسيرُ بين أدغال متشابكة الأغصان والشجر. أفقتُ، فوجدت الشَّمَّاس يجلس بجوار سريرى، وكان صدرُ جلبابى حين تحسَّسْته، مبللاً بماءٍ دافئ. غبتُ ثانيةً، فجاء عزازيل بوجهٍ ناصع، بدا وسط الظلام مضيئًا. ثم أفقتُ، فكان باب صومعتى مفتوحًا، وكانت أنوارُ النهار تأتينى من بين أردية رهبان واقفين عند الباب. كانوا يتكلَّمون بكلام لم أفهمه. بدا سقفُ الصومعة عاليًا، وبعيدًا عنى.

سمعتُ صلصلةُ أجراسٍ تدقُّ بلا انقطاع، فتكاد تفتِّتُ عظامى. سكتت الأجراسُ، فجأةً، وجاء عزازيل مبتسمًا. جلس ساكنًا قبالتى، ثم تزحَّف حتى اقترب منى. تحسَّستُ وجهه بأناملى، فكان رطبًا، زلقًا. ارتعتُ من ملمسه.. بعد حينٍ، مَدَّ يده الباردة إلى جبهتى، فأتانى بردُ غاصَ فى رأسى وهَدَّأ من روعى. نمت فى منامى، ورأيتُ فى حلمى أننى أحلم.

ـ هيبا..

ـ ماذا تريد ياعزازيل؟

ـ أريدك أن تقوى، وتفيق مما أنت فيه؟

الإفاقةُ فقرٌ وفاقةٌ! الغيبةُ أحلى، وأجلى لهذه الشموس والأقمار الوفيرة التى تملأ سمائى الغسقية الحمراء.. رأيتُنى أجوبُ أرجاء الدير، وحدى. دخلتُ المبنى الغامض، من الفتحة التى بأعلاه. دُرتُ فى ردهاته، حتى وصلتُ إلى قاعه. لم تكن هناك مسامير صدئة تتوهَّجُ فى الظُّلمة، ولم أجد هناك أىّ شئ غير الظَّلام المكدَّس فوق الظلام. جلستُ على الدرج الدائرى، وناديتُ عزازيل ليؤنس وحشتى، فجاء وجلس إلى جوارى.. خرجنا معًا من المبنى الغامض الذى لم يعد غامضًا، فوجدنا تلَّة الدير خالية تمامًا. لا أحد فيها ولا حجر، ولا تلك المبانى التى كانت قائمة. فقط، حصىً صغيرٌ وأشجارُ سروٍ وأعشابٌ زرقاءُ تملأ المكان. وهمس لى عزازيل بأن تلك كانت تلةَ الدير فى الزمن السحيق، من قبل أن يوجد البشر، ومن قبل أن يخلق الله الإنسان.. ثم سألنى:

ـ هل خلق الله الإنسان، أم العكس؟

ـ ماذا تقصد؟

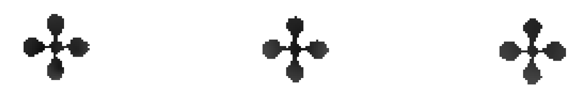
ـ ياهيبا، الإنسانُ فى كل عصر يخلق إلهًا له على هواه، فإلهه دومًا رؤاه وأحلامه المستحيلة، ومُناه.

ـ كُفَّ عن هذا الكلام، فأنت تعرف مكانك من الله، فلا تذكره.

ـ أنا مذكورٌ يا هيبا، مادام هو مذكورٌ!

غلبنى الغيابُ، فتركتُ عزازيل يقول ما يريد، وانصرفتُ عنه.. بعد حينٍ عدتُ إليه، فكان يتكلم منفردًا. أنصتُّ، فوجدته يقول بلغةٍ غريبةٍ ما معناه أن الله محتجبٌ فى ذواتنا، والإنسان عاجزٌ عن الغوص لإدراكه! ولما ظنَّ البعض فى الزمن القديم، أنهم رسموا صورة للإله الكامل، ثم أدركوا أن الشر أصيلٌ فى العالم وموجودٌ دومًا؛ أوجدونى لتبريره. هكذا قال..

لم أعد أجادل عزازيل فيما يقول، كنتُ غير قادرٍ أصلاً على جداله. شعرتُ مراتٍ بأننى أنتفض، وبأننى جائعٌ. كان يضع فى فمى ملعقةً فيها حساءٌ لا رائحة له، ولا نكهة طعام. كنتُ أبتلع الحساء، فيشقُّ حلقى، وأتألَّمُ وأنام. كنت أحيانًا أرى الشَّمَّاس، لا عزازيل، هو الذى يسقينى الحساء، والماء.. كان مذاق الماء أحلى.



فى أصل عزازيل، آراءٌ وأقاويل. بعضها مذكورٌ فى الكتب القديمة، وبعضها منقولٌ عن ديانات الشرق. لاتؤمن كل الديانات بوجوده، ولم يعرفه المصريون القدماء، العرفاء.. ويُقال إن مولده فى وَهْمِ الناس، كان فى زمن سومر القديمة، أو كان أيام الفرس الذين يعبدون النور والظلام، معًا، ومنهم عرفه البابليون. ثم كان ذكره الأشهر، فى التوراة التى كتبها الأحبار بعد عودة اليهود من السبى البابلى. أما فى ديانة المسيح، فالمذاهب كلها تؤكِّده، ولاتقبل الشك فيه. فهو دومًا فى مقام عدو الله، وعدو المسيح، ولا يُعرف مقامه من الروح القدس!.. روى عنه القدماءُ، أنه خلق الطاووس، فقد ورد فى نقشٍ قديم، إنهم عَيرَّوا عزازيل بأنه لايفعل إلا القبائح، ولا يدعو إلا إليها، فأراد أن يثبت لهم قدرته على فعل الجمال، فخلق هذا الطائر. قلتُ ذلك يومًا لعزازيل، فابتسم وهَزَّ كتفه اليمنى متعجِّبًا.

سمعتُ صوت عصافير تملأ الأفق، وكان باب الصومعة مفتوحًا، وعزازيل يجلس صامتًا عند الباب. أحببتُ أن أسمع منه صوتى، فسألته أىُّ أسمائه أحبُّ إليه؟ فقال: *كلها عندى سواء، إبليس، الشيطان، أهريمان، عزازيل، بعلزبوب، بعلزبول*.. قلتُ له إن بعلزبول تعنى فى العبرية: سيد الزبالة، وبعلزبوب تعنى: سيد الذباب؛ فكيف لايكترث بالفروق التى بين

أسمائه، ويراها كلها سواء؟ قال: *كلها سواسية، فالفروق فى الألفاظ، لا فى المعنى الواحد.*

انتبهتُ، فوجدتُ الشَّمَّاس يعصرُ بين شفتىَّ، قطعةً من قماش أبيض مبلولةً بماء بارد، ثم يفردها على جبهتى. تحسَّستُ وجهى، فكانت حَبَّات العرق تغمرنى، وتغمر وسادتى الخشنة.. سألتُ عزازيل عن المعنى الواحد لأسمائه الكثيرة، فقال: *النقيض.*

عزازيلُ نقيضُ الله المألوه.. هذا ما قاله لى همسًا، بلغةٍ أخرى، غير اللغة السابقة التى لم أعرفها. غير أننى فهمت عبارته، وهِمتُ فى معانيها.. هو إذن نقيضُ الإله الذى عرفناه، وعَرَّفناه بالخير المحض. ولأن لكُلِّ شئ نقيضًا، أفردنا للشر المحض كِيانًا مناقضًا لما افترضناه أولاً، وسميناه عزازيل وأسماءً كثيرةً أخرى.. قلتُ هامسًا:

ـ لكنك يا عزازيل، سببُ الشَّرِّ فى العالم.

ـ ياهيبا كن عاقلاً، أنا مبررُ الشرور.. هى التى تسببُنى.

ـ ألم تزرع الفُرقة بين الأساقفة؟ اعترفْ!

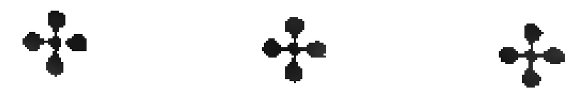
ـ أنا أقترفُ ولا أعترفُ، فهذا ما يريدونه منى.

ـ وأنت، ألا تريد شيئًا؟

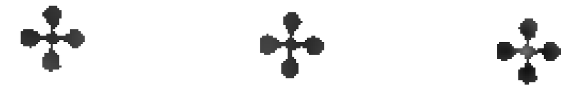
ـ أنا يا هيبا أنت، وأنا هُم.. ترانى حاضرًا حيثما أردتَ، أو أرادوا. فأنا حاضرٌ دومًا لرفع الوِزْر، ودفع الإصْر، وتبرئة كل مُدان. أنا الإرادةُ والمريدُ والمرادُ، وأنا خادمُ العِبَاد، ومُثير العُبَّاد إلى مطاردة خيوط أوهامهم.

أخذنى دوارٌ، وحار نظرى فيما حولى. كان المكانُ مثل صومعتى، وهذا الوجه الذى يحدق فىَّ، مثل وجه رئيس الدير. وهذه المزامير التى أسمعها، بصوت مثل صوته.. الجوُّ خانقٌ، والرطوبةُ تحبس الأنفاس.

استجلبتُ الإغماء نحوى، لأستريح لحظةً، فأخذتنى رجفةٌ نفضتْ باطنى.. رأيتُ بحر الإسكندرية، ورأيتنى أدورُ فى أعماقه.. ثم أخذتنى دَوَّامةٌ لا آخر لعُمقها.



بقيتُ زمنًا، ملفوفًا بقلب الدوَّامة التى أخذتنى. وأتحسَّسُ قوام الماء الواقف حولى.



لقد أفاق.. وهو يطلب الطعام.

أتانى صوتُ الشَّمَّاس من وراء باب الصومعة المفتوح. لم أنتبه إلى معنى عبارته، إلا حين دخل علىَّ متهللاً، قائلاً: *سيأتى الطعام حالاً ياأبتِ، نشكر الرب على شفائك. إنها معجزةٌ من السماء.. كلهم قالوا إنك ستموت، لكننى كنتُ أعرف إنك ستبرأ من الحمى.*

ـ أية حُمى يا شماس، أنا لا أفهم شيئًا.

ـ لا تجهد نفسك يا أبتِ. استرحْ، وسوف يأتيك الطعام.

كنتُ جائعًا جدًا، وأتوق للخروج إلى النهار، لكننى لم أقوَ على النهوض من رقدتى. كانت قواى خائرةً تمامًا. بالكاد نطقتُ بما أريد، فطلبت من الشَّمَّاس أن يُعيننى لأستوى جالسًا، فرفعنى من تحت إبطىَّ، وأسندت ظهرى للحائط.. كدتُ أذهب فى إغفاءةٍ، لولا أن انتبهتُ إلى وَقْعِ أقدامٍ آتية.

كان الفِرِّيسى أولَ من دخل الصومعة، وكانت عيناه تلمعان بالفرحة.

بعده دخل راهب بقدحٍ فيه حساء. ارتشفتُ رشفات آلمت معدتى برهةً، ثم غلب الجوعُ الألمَ، فاحتسيت القدح كله.. خرج الراهبُ وخلفه الشَّمَّاسُ، وظل الفِرِّيسى عند الباب. ابتسمتُ له بكل ما أوتيت من عافية، فاقترب، فرأيتُ عينيه تدمعان.

ـ خذنى إلى المكتبة.

ـ ليس الآن يا هيبا، فالشمسُ حامية. نذهبُ بعد العصر.

هل صارت شمسُ الظهيرة، أقوى من احتمالى؟ أنا الذى طالما انقدحت سهامها الحامية، فوق رأسى العارى..! أردتُ أن أحادث الفِرِّيسى، غير أن وسنات النوم كانت تؤرجحنى، ثم تطوِّحنى فى غيابة الفقد. بالكاد شعرتُ به يضع علىَّ دثارًا، ثم يخرج ويغلق علىَّ باب صومعتى. صحوتُ من غفوتى بعد حينٍ غير معلوم، وقد عاودنى جوعى وعطشى. لا أحدَ فى الصومعة، لأطلبَ منه الماء.. تحاملت على الجدران حتى وقفتُ، ثم سِرتُ مترنِّحًا نحو الجَرَّة المغطاة بلوحٍ خشبى مستدير، عند الباب. رفعتُ غطاءها، وملأتُ القدح النحاسى، ورحتُ أعبُّ الماء بنهم لم أعرفه من قبل.. الماءُ بدءُ الحياة. كان بدنى يابسًا، مثل أرضٍ شقَّقَها جدبٌ طويل وحرمان.

أسندتُ رأسى للجدار، واستجمعتُ قوتى فلم تجتمع. جلستُ فى موضعى، برهةً، حتى استطعتُ النهوض ثانيةً، وحين فتحتُ الباب، آلم عينى ضوءُ الشمس، فحجبتها عنى بكُمِّى لأحتمل ضوءها.. مشيت مستندًا إلى سور الممر الواصل بين غرف الرهبان، وتنفستُ ملء صدرى.. تذكرتُ مرتا، فجأة، فأخذتنى رجفةٌ.

رأيتُ الرهبان يخرجون من الكنيسة بعد صلاة الساعة التاسعة، كانوا يرتدون زِىَّ الأعياد. رأونى فتهللوا، وأقبل معظمهم نحوى. لقيتهم عند أولى درجات السلم، بعدما نزلته بحرصٍ بالغ وبساقين ترتجفان. فى طريقنا إلى المكتبة، عرفتُ منهم أن الحمَّى أخذتنى عشرين يومًا كاملة. سألتُ نفسى، أيةُ حمى تلك التى تطول هذه المدة، وتتابعِ نوباتها حتى تكاد تلتحم ببعضها؟ أكانت حُمى اليوم التى تأتى نوبتها ليلاً؟ أم هى حُمَّى الغِبِّ، التى تدع نوباتها يومًا، وتأتى فى اليوم التالى؟ هى على كل حال، واحدة من الحميات الحادة لا المزمنة، وإلا ما كانت تعصف بى، على هذا النحو الشديد.. عشرون يومًا، من شأن الحميات الحادة أن تقتل المريض فى فترة أقل.. كيف نجوتُ؟.. أىُّ تدبير طبىٍّ كانوا يتبعونه معى؟.. أين الشَّمَّاس لأسأله عن مرتا؟.. ماذ حدث فى إفسوس؟.. ما هذه الرؤى التى كانت تأتينى فى نوبات الحمى؟.. هل كنتُ أحاور عزازيل حقًا، أم هى خيالات المحموم؟

وصلنا إلى المكتبة بعد جهدٍ. تقدَّم أحدُ الرهبان وفتح الباب أمامنا، فوجدتُ الأتربةُ تغطى كل شئ. المواضع تهرم، إذا غاب عنها الأهلُ. أسرع أحدهم بقطعة قماش، ومسح التراب عن موضع جلوسنا، وتحلَّق حولى من الرهبان قرابة العشرة. سألتهم عن أخبار المجمع المقدس، فتداخلت إجاباتهم: بادر الأسقفُ كِيرُلُّس وعَقَدَ المجمع قبل وصول الإمبراطور، وسط هتافات الرهبان المصريين وعامة الناس.. ترأس كِيرُلُّس الجمع، وجمع توقيعات جماعة من الأساقفة والقسوس، على قرارٍ كنسىٍّ بعزل الأسقف نسطور، وحَرْمه!.. الأسقفان يوحنا الأنطاكى ونسطور، عقدا مجمعًا آخر بعد أيام، فى البلدة ذاتها، وجمعا توقيعات جماعة من الأساقفة والقسوس، على قرارٍ بعزلِ الأسقف كِيرُلُّس وحَرْمه.. لما وصل الإمبراطور من القسطنطينية ومعه بابا روما، غضبا مما جرى، وقررا مع جمع من الأساقفة والقسوس عزل الأسقفين الكبيرين، وحَرْمهما!..

صار نسطور وكِيرُلُس محرومين، مطرودين من رتبة الأسقفية، معزولين عن الكنيسة.

ما هذا الجنون المطبق؟ نظرتُ ناحية الفِرِّيسى الذى ظلَّ طيلة جلستنا، صامتًا. ولما أطلتُ النظر إليه، هزَّ رأسه ومطَّ شفتيه، من دون أن يقول شيئًا.. دخل رئيسُ الدير علينا، فنهض الرهبان توقيرًا له. أشار إليهم بما معناه أنه يريد الخلْوة بى، فانصرفوا متتابعين وفى عيونهم فرحةُ نجاتى من الحمى، وحيرةُ ما قصُّوه علىَّ من أخبار إفسوس.

كاد رئيس الدير يتكلم، لولا أن خادمًا دخل من الباب بلوح خشبى مربَّع، عليه قدحٌ نحاسىٌّ قديم، فيه حساءٌ وقطعٌ صغارٌ من لحم الدجاج، معه طبقٌ فيه بعض الفواكه الرطبة. تمهَّل رئيس الدير حتى انصرف الخادم، ثم مَدَّ لى الحساء، فأخذته بكلتا يدى. دعانى لتناوله، ففعلتُ. ناولنى طبق الفاكهة، وألح علىَّ لآكلها، فأخذت واحدةً ونحيتُ الطبق.. صمتنا برهة، كان رئيس الدير خلالها مستغرقًا فى تلاوةٍ خافتة، وتسبيحاتٍ لم أتبين ألفاظها. لما انتهت تمتمته الهادئة، سألته:

ـ ما ذاك يا أبت، الذى جرى فى إفسوس؟

ـ هو صخبُ الدنيا، وأطماعها التى أمالت القلوب.

ـ وكيف سينتهى الأمر؟

ـ هم اليوم يعقدون المجمع رسميًا، برئاسة الإمبراطور وبابا روما.. مع أنه عيدُ القيامة.

ـ عيدٌ مباركٌ يا أبتِ. ولكن، هل تعتقد، أن هذه الغمة ستنـزاح؟

لا أظن يا هيبا.. فالشيطانُ يصطخبُ فى إفسوس.

اضطربتُ لما ذَكَرَ رئيسُ الدير الشيطان، عزازيل. وأشفقتُ من الأسى التى اكتسى به وجهه؛ حتى أن رجفةً خفيفةً أخذتنى. انتبه رئيسُ الدير الرقاد فقام وهو ينصحنى بالخلود إلى الراحة، حتى تمرَّ أيامُ نقاهتى من الحمى، بسلام.. دعانى للرجوع إلى صومعتى للراحة، فاستأذنته فى أن الرقاد بالمكتبة، فقد ضقتُ بالصومعة، وأظننى سأرتاح أكثر بين رفوف الكتب.. هَزَّ رأسه موافقًا، وتهيَّأ للخروج، وتهيّأت للنوم على الدكة التى عند الباب. قبل أن يفارقنى، فاجأنى بقوله:

ـ عليك ياولدى بعد صلاة الرَّمش، بصلاة سوتورو، فهى تطردُ عزازيل اللعين، وتهدمُ قوى أعوانه من الأبالسة[1].

(١) الصلـوات السريانيـة (والقبطيـة أيضًـا) عددها فى اليـوم والليلة، سـبع صلوات. وصـلاة الرَّمـش تؤدى عنـد الغروب، وكلمة سـوتورو تعنـى فى اللغـة السريانية: السِّتْر والستَّار. (المترجم).

الرَّقُّ الثلاثون

الفَقْــدُ

بعدما تهيَّأتُ للنوم، سمعت صوتَ الشَّمَّاس يأتى خفيضًا من وراء الباب: *هل أنت نائم ياسيدى؟* .. دعوته للدخول، فجاء وفى يده قطعةٌ من قماش أسود. مدَّها إلىَّ، فمدَّدتها بين يدىَّ. كانت صديريةً سوداء اللون، محلاة من عند أطرافها بصُلبان من الغزل ذاته، لونها رمادى. عرفتُ بالأمر من فورى، وزادنى الشَّمَّاس إيضاحًا وتأكيدًا: لقد رحلت مرتا وخالتها قبل أسبوع، وتركت العجوزُ لى هديتها مع الشَّمَّاس، وتركت مرتا معه رسالةً من كلمةٍ واحدةٍ: مضطرةٌ!

اضطرتْ مرتا للذهاب إلى حلب! أىُّ اضطرارٍ حدا بها للرحيل، والحمى تفتك بى؟ ألم يكن بوسعها أن تنتظرنى بضعة أيام أُخر؟ لابد أنها يئستْ من شفائى، وتيقَّنتْ من أننى هالكٌ لامحالة.. تركتنى لموتى، وذهبت لتبحث لها عن حياة. هذا شأنُ النساء. كلهنَّ كما أكدَّ الفِرِّيسى خائناتٌ، ولا خلاق لهن. هو أعرف منى بأحوالهن. الآن تيقَّنتُ من أننى ضلَّلتُ نفسى بأوهام صنعتُها، وأتيتُ مع مرتا خطايا لاغفران لها. هى أخرجتنى من كونى، ثم هجرتنى حين ظنَّتْ أننى أموت. ياليتنى متُّ واسترحت.

ـ أخذوا معهم كل متاعهم، لا أظنُّ ياأبتِ أنهم سيرجعون للعيش هنا.

ـ نعم ياشماس، هذا واضح.

ـ هل ترى يا أبت، أن استسمح رئيس الدير فى مُسكنى فى الكوخ؟

ـ ياشماس، أنت صغيرٌ على العيش منفردًا، بقاؤك فى بيت الكاهن أصلح لك.. اتركنى الآن لأنام.

ـ نادنى إن احتجت لى يا أبتِ، سأكون قريبًا.

تركنى الشَّمَّاس بعدما دعوتُ له بالبركة، ودعوتُ الله فى نفسى أن يأخذنى منها لأستريح. كان رأسى يطنُّ، فلم أستطع النوم إلا وسنات خاطفة، وكانت غفواتى توجعنى. وجعُ النوم علامةٌ رديئة، كما هو معروفٌ عند الأطباء من كلام أبقراط: *إذا كان النوم فى الأمراض المزمنة، يُحدث وجعًا، فذلك من علامات الموت*.. ليكن، فموتى وحياتى صارا عندى سواء، وربما الموتُ أفضل! غير أننى برئتُ من حمَّاى، مزمنةً كانت أم حادة. وآلام النوم عندى، هى من أوجاع الروح لا آثار الحمى.

قمت من فوق الدكَّة واستغرقتُ فى الصلاة. أديتُ صلاة سوتورو قبل موعدها، وأخذتُ أُعيدها حتى سكن الليل. وحتى تأكدتُ، أنها لاتفعل شيئًا.. كنتُ أشعر بعزازيل قريبًا منى، أكثر من أى وقت مضى. هو إذن، لم يكن حلمًا ولا طيفًا مَرَّ بى عند اختلاط ذهنى، مع نوبات المرض. هو الآن قريبٌ، أشعر به ينظر نحوى، ولا يتكلم. أتُرانى ألقيتُ نفسى فى غيابة جُبِّ الجنون؟

انتبهتُ فجرًا على صوت أقدام تفرك الحصى بسرعة، وهى آتية نحو المكتبة. هذه مشيةُ الفِرِّيسى، فلابد أنه جاء ليطمئن علىَّ. أنهيتُ صلاتى، وفتحتُ الباب له، فدخل وفى يده منديل فيه فواكه. دخلتُ أمامه، وجلسنا متقابلَين على الطاولة الكبيرة:

ـ كيف حالك الآن يا هيبا؟

ـ أحسنُ، وأظننى سأتحسَّن. مالك يا أخى تبدو مهمومًا.

ـ وصلت الأخبارُ الآن. المجمعُ المقدَّسُ، برئاسة الإمبراطور، أعاد كِيرُلُّس إلى رتبته الأسقفية، وأقرَّ عزل نسطور.. ونفيه!

ـ ما الذى تقوله، وكيف حدث؟

ـ الأساقفةُ تخلَّوا عن نسطور، عدا يوحنا أسقف أنطاكية. ولم يشأ الإمبراطور وبابا روما أن يُغضبا الإسكندرية، للأسباب المعروفة. ولما رأى الأسقف رَبُولا والذين معه، أن كَفَّة الميزان تميل لصالح كِيرُلُّس، انقلب على نسطور وأدانه. وقد صاغ المجمع قانونًا جديدًا للإيمان، فيه إضافاتٌ على القانون الذى أُقرَّ قبل مائة عام فى نيقية.

غامت عيناى، فأغمضتهما وأحطتُ رأسى بذراعىَّ المستندين إلى الطاولة. فى غمرة الغيوم، انتبهتُ لأمرٍ دقيق. لم يكن مجمع نيقية قبل مائة عام، وإنما كان قبل مائةٍ وستٍ من السنين! الذى كان قبل مائة عام بالضبط، هو اللجنةُ الرهيبة التى شكَّلها الإمبراطور قسطنطين، من القسوس المتشددين، سعيًا منه لإرضاء الأساقفة. كان ذلك سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة للميلاد. اللجنةُ راحت تفتش دور الكتب وتدهم بيوت الناس، لتجمع كتب الفلاسفة والمهرطقين، والأناجيل غير الأربعة المعترف بها، والكتب الدينية المخالفة لما استقر من رأى الأساقفة، والرسائل الغنوصية. كانوا يجمعون كل ذلك فى ساحات المدن والقرى، ويحرقونه علنًا، مهدِّدين من يخفى هذه الكتابات الممنوعة، بالويل.. الويل. رفعتُ رأسى وسألتُ الفِرِّيسى:

ـ ماذا سيفعلون مع المبجَّل نسطور؟

ـ لم يعد مبجَّلاً، وسوف ينفونه من هنا إلى مكان قصىٍّ تابعٍ للإسكندرية المدن الخمس الليبية أو أخميم، لا أعرف بالضبط. وقد أدان المجمعُ، الأسقف تيودور المصيصى، وأنكر آراءه.

انقبض قلبى مما قاله الفِرِّيسى، وضاق بالأخبار صدرى. قمتُ لأفتح الشباك المطل على ساحة الدير، فدارتْ رأسى، وترنَّحتُ حتى كدتُ أقع على الأرض. أدركنى الفِرِّيسى وأعاننى لأجلس ثانيةً، وفتح هو شباكى.. جلسنا صامتين برهةً، حتى تململ وبدا فى عينيه أنه يريد أن يخبرنى بأمرٍ آخر. لم أكن قادرًا على سماع المزيد.. سالت منى رغما عنى، دمعاتٌ حارة لم أستطع إمساكها، فمسحتها عن وجهى بسرعة.

فتح الفِرِّيسى منديله، وقرَّب الفاكهة منى وهو يقول إنها فواكه طازجة أتت من حلب، وأنه أحضرها لى لأتقوَّى بها.. اضطربتُ لذكر حلب، ونظرتُ فى عينيه، فوجدتُ فيهما طيفَ شفقةٍ. دعانى للأكل فامتنعتُ، ونحيَّتُ المنديل بظهر يدى. سألته هل وفد أحدٌ من حلب؟ نفى، وأخبرنى أن هذه الفاكهة الصيفية، أرسلها تاجرٌ من الموعوظين، هديةً للدير.. رجانى ثانيةً أن آكل منها، فأخذتُ من يده حبة المشمش الكبيرة التى مَدَّها، ووضعتها جانبًا. دار برأسه فى المكتبة ثم قال إن الجو خانقٌ، وسألنى إن كنت أريد الخروج للجلوس عند البوابة، فوافقته استندتُ إلى ذراعه، وخرجنا نجرّ أقدامنا كالنساء الثكالى.

عند خروجنا، وجدتُ الشَّمَّاس نائمًا على الأرض بقرب بابى، فدعوته للذهاب إلى بيته، وأكْدتُ أننى لن أحتاجه الآن فى شئ. مضى ظلام ما قبل الشروق، ومضينا إلى البوابة. لم يكن قمر السماء منيرًا، فقد كان أوان المحاق. جلسنا فى ظلام ما قبل الشروق، على الحجر الذى كنتُ جالسًا عليه يوم جاءتنى خالة مرتا فجرًا، لتخبرنى بأمر ذهابهما إلى حلب. الحجر الذى جلس عليه بعدى، الحارسُ الرومانى الذى طلبها للزواج!.. هل ودَّعته عند رحيلها؟ وما الذى شجَّعه أصلاً، لأن يقترح عليها الزواج؟ أتراه نال منها نيلاً فى العشرين يومًا، التى أخذتنى فيها الحمى؟

كنتُ انظر إلى ناحية الكوخ الغارق فى الظلام، وكان الفِرِّيسى صامتًا يرسمُ على الأرض التى تربَّع عليها، بعودٍ يابسٍ، أشكالاً متقاطعةً.. جاءتْ نسماتٌ باردة، فأغمضتُ عينى وملأت صدرى منها، ثم زفرتُ زفرةَ مكلوم. أشار بالعود اليابس إلى جهة الكوخ، وقال إن المرأتين رحلتا عن هنا. لم أردّ. أضاف أنه لم يكن يستبشر بما شرعنا فيه، من أمر الغناء فى الكنيسة. لم أردّ. قال إنه لم يكن يرتاح لهذه المرأة التى اسمها مرتا، فخفق قلبى بشدة.. تلوَّنت السماء بحمرة الشروق، وشعرتُ ببرد الهواء فطلبتُ منه أن نعود إلى المكتبة لأنام قليلاً، فقام معى. لم أستند إلى ذراعه فى طريق عودتنا، وقبل أن يفارقنى عند الباب، سألته إن كان يخفى شيئًا عنى؟ قال:

ـ أنت الذى تحاول إخفاء ما فيك، مع أننا جميعًا نعرفه!

ـ ماذا تقصد؟

ـ لاشئ يا هيبا. ولكنك كنتَ تنادى كثيرًا باسم هذا المرأة، مرتا، فى نوبات الحمى.. رحيلها عن هنا، رحمةٌ من الرَّبِّ بك وبنا، فنحن كما تعلم، لن نرضى لك ما هو غير صالح.. وقد كانت هذه المرأة، أمرًا غير صالحٍ بالمرة.

أغلقتُ خلفى باب المكتبة، وارتميتُ فوق الدكة القريبة.. لا أعرفُ كيف نمت؟ ولكننى انتبهتُ فزعًا ساعة الفجر، وقمت من فورى إلى الطاولة، والتهمتُ كل ما كان بالمنديل من فاكهة، كنتُ آكل مثل مريضٍ بجوع كلبى، وكانت دموعى تسيل.. ملتُ برأسى على راحتىَّ الموضوعتين فوق الطاولة، ثم أجهشتُ بالبكاء والنشيجُ. أفقتُ بعد حينٍ، وقد أزاحت كل الأفكار عن رأسى، فكرةٌ واحدةٌ. لقد انتهى كل شئ. انهزم نسطور، واختفت مرتا، وغاب عزازيل، وعرف أهل الدير حقيقة حالى. لقد انتهتْ حياتى كلها، فليس أمامى إلا الموت.

ـ أمامك حياةٌ طويلةٌ يا هيبا، فلا تفكر الآن فى الموت.

ـ عزازيل.. أين كنت؟

أفهمنى أنه كان، وسيظل دومًا، حولى، وأن العالم الحقيقى إنما هو فى داخلى، وليس فى الوقائع التى تثور وتهدأ، وتنتهى لتبدأ أو يبدأ غيرها.. استغربتُ من أنه لم يكن مختبئًا، وحين ظهر لى لم يكن مكتئبًا. كنتُ مازلتُ منكفئًا برأسى على الطاولة، مغمضًا عيناى، ومحدِّقًا فى الفراغ. سألته:

ـ هل أسقى نفسى سُمًّا لأخْلُصَ مما بى، ويتخلَّصَ الهواءُ إلى الهواء؟

ـ هل جُننت! الموتُ لامعنى له. المعانى كلها فى الحياة، أنا حىٌّ دومًا، ولن أموت إلا بموتك، وموت المؤمنين بى، والمكتشفين وجودى فيهم.. وليس من حقك أن تُميتنى، بموتك، قبل الأوان؟

كيف أحيا، وقد جرى كُلُّ ما تعرفه؟

ـ تحيا يا هيبا لتكتب، فتظل حيًا حتى حين تموت فى الموعد، وأظلُّ حيًا فى كتاباتك.. اكتبْ يا هيبا، فمن يكتب لن يموت أبدًا.

عزازيل يعشق الحياة فهى مرتعه، ولذلك هو يكره الداعين إلى نبذ المباهج والأفراح، ولايطيق الزُّهَّاد والمنقطعين عن الحياة. يسميهم الحمقى! قمتُ من جلستى، فأغلقت الشباك الذى كان مفتوحًا على ساحة الدير، وكان نور الصباح قد بدأ إشراقه. أردتُ مواصلة الكلام مع عزازيل، فأسندت جبهتى إلى الجدار، وسألته:

ـ أأنت الذى قابلتنى عند حدود بلدة سرمدة، وعند نزولى من جبل قُسقام بمصر؟

ـ ما هذا الذى تقول؟ أنا لا وجود لى، مستقلاً عنك. أنا ياهيبا أنت، ولا أكون إلا فيك.

ـ ألا تتجسَّد يا عزازيل فى أشخاص بعينهم؟

ـ التجسُّدُ خرافةٌ.

سمعتُ صوت أقدام، ففتحت الشباك ثانية. كان جماعةٌ من رهبان الدير آتين لزيارتى، وكانَ معهم خادمان يحملان طاولة كبيرة، عليها طعام الفطور.. أخبرونى أن رئيس الدير سيلحق بهم، وسوف نفطر جميعًا هنا. كان ذلك عطفًا كبيرًا منهم.

تكلم رئيس الدير بعدما تلا بعض المزامير، فقال لنا وكأنه يحدِّثنى أنا، تحديدًا: *يا أبناء الرَّبّ، دعونا فى هذا الصباح المبارك ندعو الله ونبتهل إليه شاكرين نعمته، ومستجلبين رحمته.. واعلموا أن الله حاضرٌ دومًا فى قلوبكم، وإن كان عرشه فى السماء. وقد رأيتُ أن الكثيرين منكم، قد فُجعوا بما جرى فى إفسوس، واهتزَّ إيمانُهم، واضطربتْ قلوبُهم. والذى جرى محزنٌ لنا، فليشملنا الرَّبُّ جميعًا بعفوه. ولكن طريقنا نحن الرهبان، لا شأن له بمشكلات اللاهوت والمجادلات الدائرة بين رؤوس الكنائس. هؤلاء يثورون حينًا، ويهدأون أحيانًا، فليكن بينهم ما يكون، وليكن بيننا الطريقُ الذى بعون الرب اخترناه، وليجمع بيننا أمرٌ وحيدٌ هو محبة الرب وبشارةُ يسوع وتوقيرُ العذراء المقدسة، سواءٌ هى أُمّ الإله، أَمْ أُمّ المسيح. فنحن وقد ودعنا صَخَب الدنيا، نعرف العذراء بقلوبنا، لا بأقوال اللاهوتيين ولا بمذاهبهم. سوف نلتزم هنا بقانون الإيمان الذى صاغوه فى إفسوس، ونجمع الناس إليه فى حظيرة الرب، حتى لانترك العوام للشيطان، فيعبث بهم إذا تفرَّقوا. ولنا من بعد ذلك، طريقٌ إلى الله، لا يحدّه قانونٌ مكتوب، ولا كلماتٌ مخصوصة. للرهبنة سِرٌّ يعلو فوق الألفاظ، ويسمو عن اللغات، ويدقُّ عن التعبيرات. ولسوف تظلُّ الرهبنةُ والشركةُ والديريةُ، منارةً تهدى المؤمنين، وسبيلاً لمن وهبوا أنفسهم، مخلصين فى محبتهم للرب، وتعمقوا فى إيمانهم بيسوع المسيح، وفى تقديسهم للسيدة العذراء.*

طابتْ نفسى من كلام رئيس الدير، فأكلتُ مع الرهبان لقيمات. غير أننى كنت أشعر ساعتها بعزازيل، يجلس فى الركن القَصِّى من المكتبة، ويبتسم بمكرٍ وسخرية.. ودَّعنى الرهبانُ، وذكَّرنى رئيس الدير بضرورة الخلود إلى الراحة. وسألنى إن كنتُ أريدُ شيئًا من مطبخ الدير، فشكرته.

أوان العصر عاودنى الحنينُ، وتكدَّرت روحى. كنتُ وحدى فى المكتبة، فدعوتُ عزازيل لأنشغل بآرائه العجيبة عما أعانيه، سألته عن رأيه فيما قاله رئيس الدير فى الصباح، فأجاب وهو يبتسمُ ويُمعن فى إغاظتى: *ماذا يمكن لرئيس الدير أن يقول غير ما قاله، وإلا صار عليه أن يجد مكانًا غير هذا الدير، ليرأسه!* رأيتُ أنه يتجنَّى على الأب الجليل، فزعقتُ فيه بأن يلتزم الأدب.. فاختفى.

فى أول المساء جلستُ إلى الطاولة، ونويتُ أن أكتب ترنيمةً جديدة.

كان الشِّعْرُ يلحُّ علىَّ بشدةٍ، فأديتُ صلاة الليل وحدى، وأحضرتُ الرقوق. كتبتُ هذه القصيدة:

ياإلهى، أَشْرِقْ بخيطٍ من نورك الأزلىِّ،

يُنير قلبى المظلم، ويبدِّد وحشتى.

يا أبانا الذى فى السماء، أفِضْ على الأرض ببشارات العزاء،

فكلنا محزونون، وأحزاننا موجعة.

يايسوع المخلِّص، أنت مبدؤنا ومنتهانا،

وأنت بقاؤنا بعد فناء دنيانا.

كتبتُ الأبيات بعد محاولات عسرة، كأننى أقتلع الكلمات من جوف قلبى، فتدمينى. كان بدنى لم يزل هزيلاً، وكنتُ على وشك الذهاب فى سكرة نعاسٍ، تأخذنى إلى الأفق البعيد، غير أَننى فوجئت بصوت عزازيل يتصعَّد من أقصى مواطن فراغى، وأحلكها، فيُسيل قلبى بين الضلوع، ويشعرنى بأن السماء انطبقت على الأرض وأنا محشورٌ بينهما. كان يقول: متى ياهيبا ستكتب الكتابة الحقة، وتكف عن المراوغة وتتغنَّى بالألم الذى فيك؟ لاتكن مثل ميتٍ ينطق عن ميتين، ليرضى الميتين! قُلِ الحقَّ الذى بقلبك، مثلاً: يا مرتا، أَشْرقى بلحظةٍ من وصالك، لتنيرى قلبى المظلم، وتبدِّدى وحشتى..

ـ اسكتْ ياملعون، لن أتغنَّى إلا بالمسيح الحىِّ.. فالشعرُ دُرٌّ منظوم، وقد قال المسيحُ يسوع: لا تلق بالدر للخنازير.

ـ هل صارت مرتا عندك كالخنازير. أفقْ ياهيبا وانتبه، فإن شوقك إليها يعتصرُك ويهصرُ قلبك.. اذهبْ إليها، خذها وارتحل عن هذه البلاد:

اسعدْ بها ودعها تمرح، ثم صُبْ علىَّ اللعنات لأننى أغويتك؛ فنكون نحن الثلاثة قد تحقَّقنا، وحقَّقنا ذواتنا.

قلتُ فى نفسى، لن أصغى لتشكيكات عزازيل، فهو بطبعه متشككٌ ومثيرٌ للقلق. سوف أغسل قلبى بماء اليقين، وأستعصم بإيمانى من غواياته وهرطقته وميله للمتع الزائلة. مهما كان تعلُّقى بمرتا، فإنه مؤقَّت، مثل كل ما فى الدنيا. ولن أبيع الباقى من أجل الفانى، والغالى من أجل الرخيص. سوف أعيشُ حياتى فى المسيح الحى.

ـ أهو حىٌّ، كيف وقد قتله الرومان؟

ـ مات أيامًا، ثم قام قيامته المجيدة من الموت!

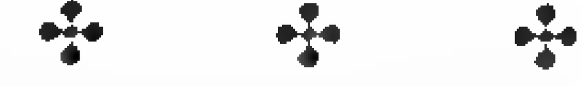
ـ وكيف مات أصلاً.. كيف لك أن تصدِّق يا هيبا، أن الحاكم الرومانى بيلاطس وهو الإنسان، قادرٌ على قتل المسيح الذى هو الإله.

ـ كان ذلك هو السبيل الوحيد لخلاص الإنسان.

ـ بل كان السبيل الوحيد لتخليص المسيحية من اليهودية!

لم أشأ أن أسمع من عزازيل المزيد لكنه ظل يهمس فى أذنى، أثناء نومى، برأىٍّ عجيب. كان يقول أشياء كثيرة، منها أن اليهود أهانوا فكرة الألوهية التى اجتهدت الإنسانية طويلاً كى تصوغها. حضارات الإنسان القديمة علت بالإله، واليهود جعلوه فى توراتهم منهمكًا مع البشر، فكان لابد من إعادته إلى السماء ثانيةً.. وهكذا جاءت المسيحيةُ لتؤكِّد وجود الله مع الإنسان فى الأرض، فى شخص المسيح، ثم ترفعه مستعينة بالأساطير المصرية القديمة، إلى موضعه السماوىِّ الأول. بعدما ضحَّى (الإله) بنفسه، على ما يزعمون، من أجل خلاص البشر من خطية أبيهم

آدم!.. فهل انمحت الخطايا بعد المسيح، وهل صعب على الله أن يعفو عن البشر بأمرٍ منه. من غير معاناةٍ موهومة، وصلبٍ مهينٍ، وموتٍ غير مجيدٍ، وقيامةٍ مجيدة..



غاب عزازيل بداخلى وسَكَتَ، فغمرتنى راحةٌ مفاجئةٌ، شعرتُ بعدها بالفراغ يلفُّنى.. بعد حينٍ توسَّدتُ فراغى، ونمتُ فى نومى.

الرَّقُ الحادى والثلاثون

قَـانُونُ الإيمَـانِ

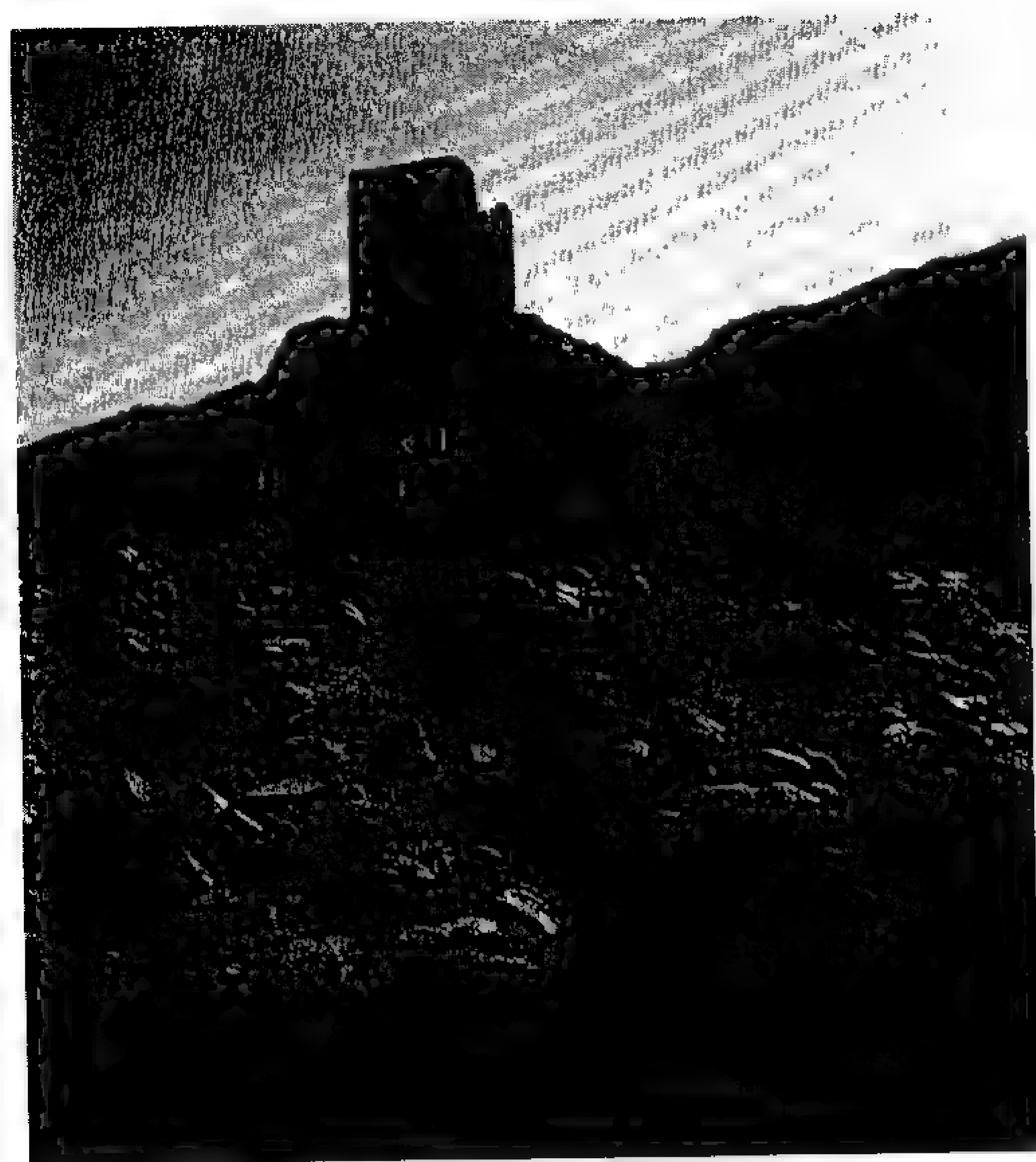
نُعَظِّمُكِ يَا أُمَّ النُّورِ الحقِيقِىّ، ونُمَجِدُكِ أَيَّتُهَا العَذْرَاءُ القِدِّيسَةُ، يَا وَالِدَةَ الإلَهِ، يَا ثيوتوكوس، لأَنَّكِ وَلَدْتِ مُخَلِّصَ العَالَمِ، فأَتى وخَلَّص نُفُوسَنَا. المَجْدُ لَكَ، يَا سَيِّدنَا ومَلِكَنَا المسيحُ، فَخْرَ الرُّسُلِ، إِكْليلَ الشُّهَدَاءِ، تَهْلِيلَ الصِّديقينَ، ثَبَاتَ الكَنَائِسَ، غافِرَ الخطَايا. نَدْعُو ونُبَشِّرُ بالثَّالُوثِ المقَدَّس، لاَهُوتٍ وَاحِدٍ نَسْجُدُ لَهُ ونُمَجِّدُه. يَارَبُّ ارْحَمْ. يَارَبُّ بَارِكْ. آمين.

تلك هى مقدمة قانون الإيمان التى وصلتنا من إفسوس، مع توصيات مشدَّدة بتعميم هذا القانون على الشعب كله، وتلاوته بجميع الكنائس، بما يليق به من إجلال.. أعنى إجلال الصيغة، أعنى صيغة القانون، أعنى قانون الإيمان، أعنى الإيمان بالإله. الإله الذى أعادته ديانتنا ثانيةً إلى السماء.

أمضيتُ يومين بالمكتبة أحاور عزازيل حتى أقنعته بأمور، وأقنعنى بأمورٍ كنتُ متردِّدًا فيها.. كان مما أقنعنى به وصادف هوىً فى نفسى، أن أختلى بصومعتى هذه أربعين يومًا، أدوِّن خلالها ما رأيته فى حياتى منذ هروبى من قرية أبى، حتى رحيلى عن هنا، غدًا، للقيام بما اتفقنا عليه.

وها هى الأيامُ الأربعون قد مَرَّت، وتَمَّ اليوم تدوينى. وما ذكرتُ فيه إلا ما تذكَّرتُ أو رأيتُ فى أعماق ذاتى.. وها هو الرَّقُّ الأخير، مايزال معظمه خاليًا من الكتابة ولسوف أترك هذه المساحة بيضاء، فربما يأتى بعدى مَنْ يملؤها. والآن سأغفو قليلاً، ثم أصحو قبل الفجر، فأضعُ الرقوق فى هذا الصندوق، وأواريه التراب تحت الحجارة الكبيرة التى عند بوابة الدير. ولسوف أدفنُ معه خوفى الموروث، وأوهامى القديمة كلها. ثم أرحلُ، مع شروق الشمس، حُرًّا..

ملحق الصور



بقايا منـزل هيبا، في بلاده الأولى (أو هكذا كان!)



الصخور البيضاوية، التى اعتقدوا قديمًا أنها نزلت مع النيل من السماء



قد تكون صورة السيد الصقلى، المرسومة على تابوته (من مجموعة: وجوه الفيوم)



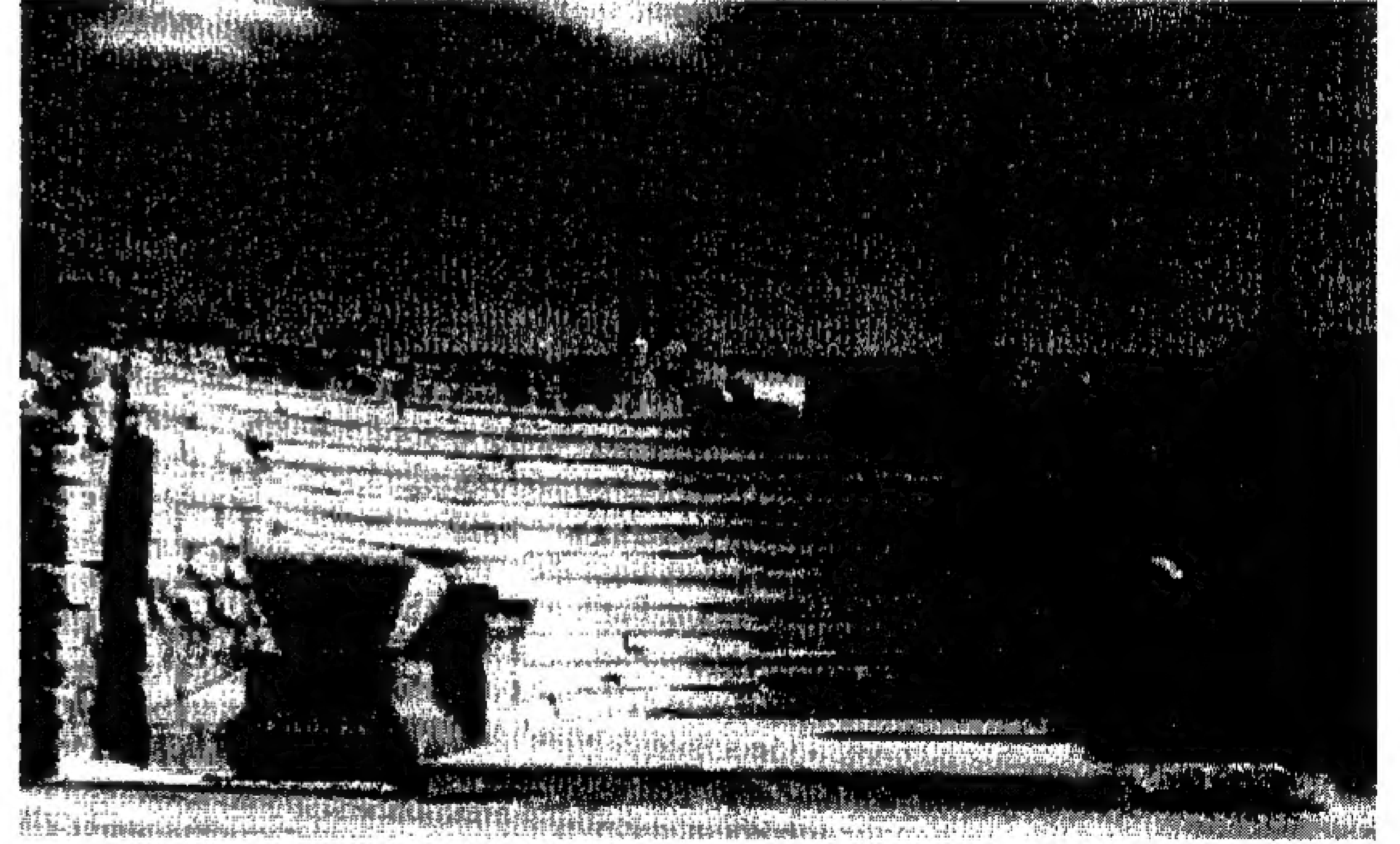
ما بقى من أرضية منزل التاجر الصِّقلى (من مقتنيات مكتبة الإسكندرية)



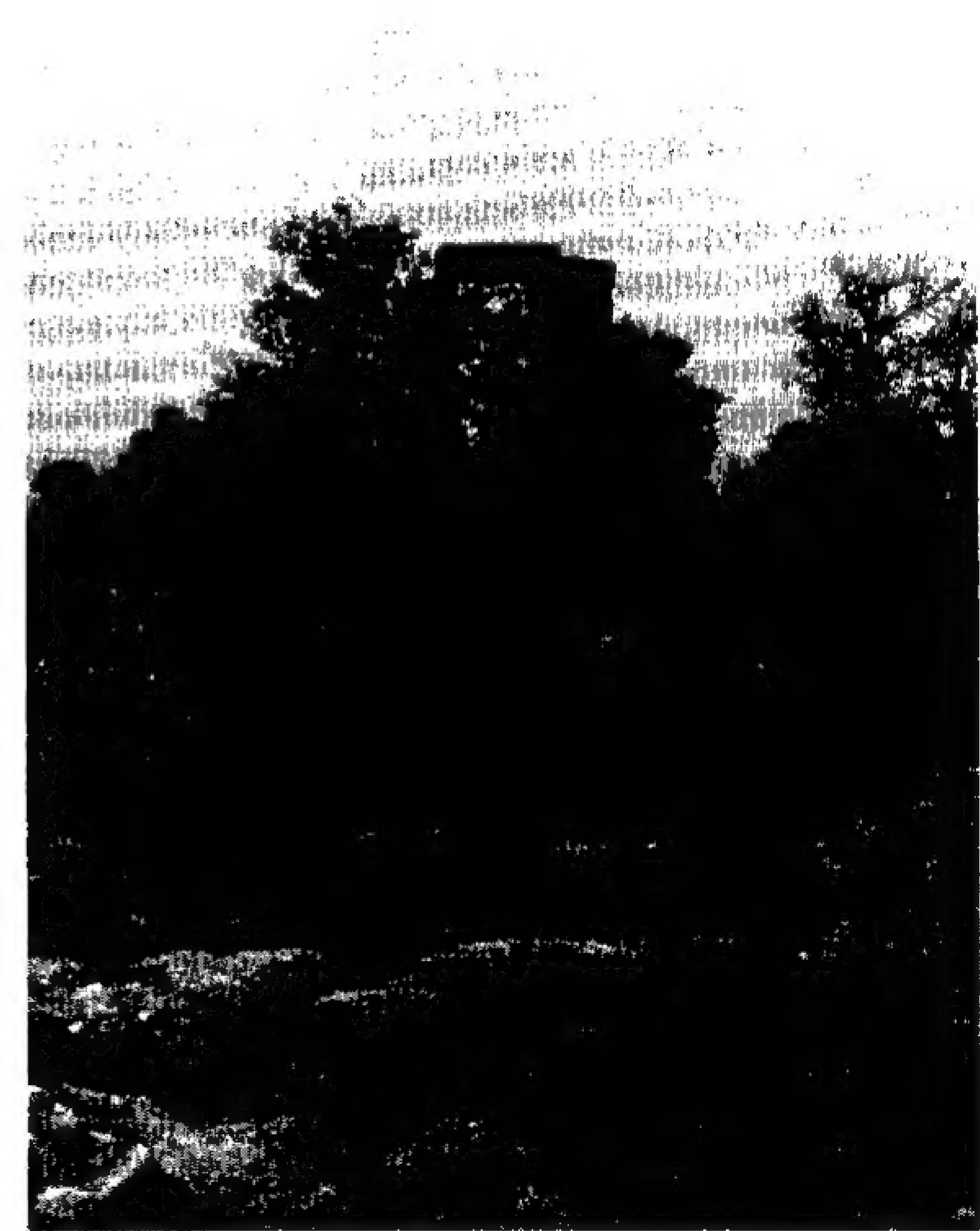
هيباتيا، العالمة الجميلة القتيلة (من خيال الرسامين)



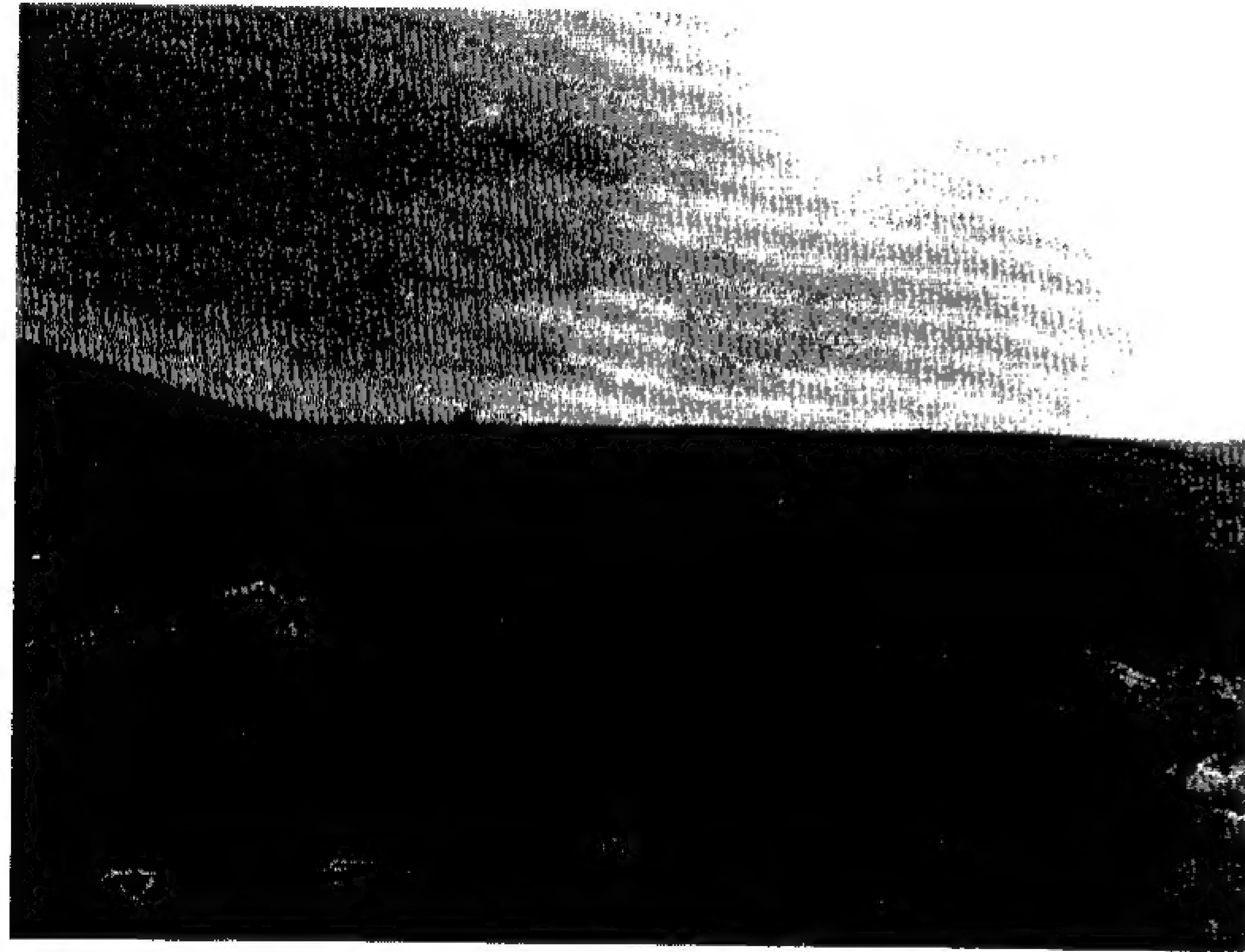
الأسقف ثيوفيلوس يدعو لهدم السرابيون (بردية محفوظة بمتحف فيينا)



بقايا المسرح، حيث استمع فيه هيبا لهيباتيا



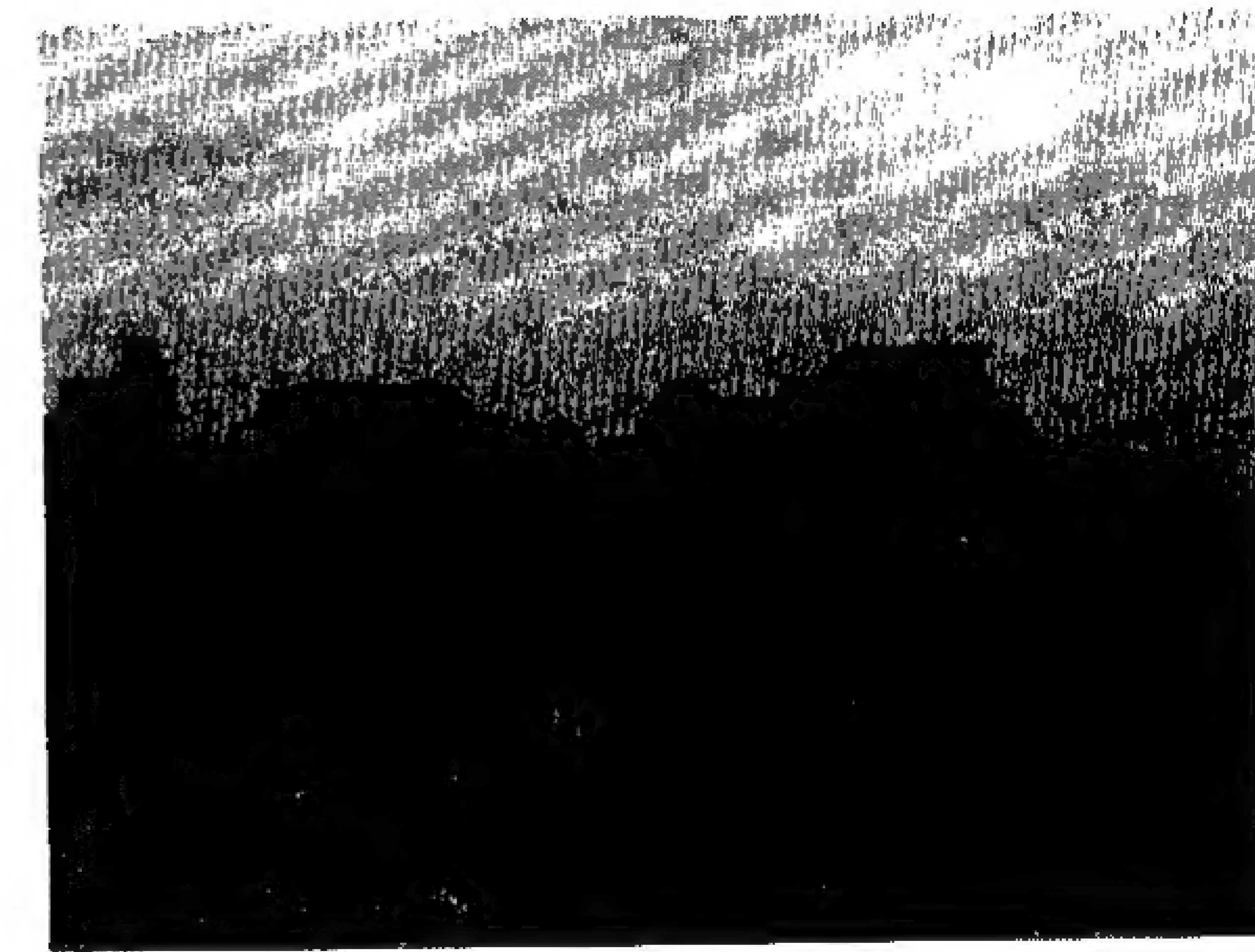
الخرائب الأثرية الواقعة شمال غرب حلب (حيث وُجدت الرقوق)



المطلُّ الغربيُّ للدير (السماوى)

B.HAMDAN

5-8-2008



أطلالُ الدير، كما تبدو اليوم